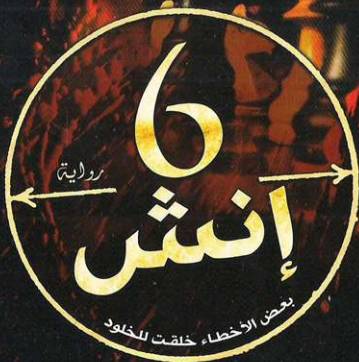


الطبعة

3



أحمد حسين

الدار المصرية اللبنانية

ليست الزهاب لفيلبك (المفضل منفرداً  
ولك المجلس وحيداً في وضع النهار..  
الوحدة هي اللغة التي لا يتقنها أحد مثلك.

## (1)

جلست كطفلة تملّكها اليأس بعد أن فقدتها الحافلة، تضم ساقها المتجمدتين لصدرها في رعب، تحرك يديها المكبلتين باحثة عن شيء..  
أي شيء..

كان شعورٌ بالغثيان يقذفها في دوائر لا تنتهي، حرب ضارية بينها وبين مخدر احتل قلاعاً شاهقة بين جنبات عقلها، وخوف يملأها كما ملأ الهواء المكتوم ذلك القبر المعتم.. لا شيء هنا سوى الصمت، والحائط، ولسعة برد ظالمة تطعن ظهرها وقدميها مراراً.

اتسعت حدقتا عينيها، كانت محاولة غريزية يائسة لرؤية أي شيء ممكن، محاولة أجهضها ظلام لون محيطها، تقاطعت شهبقات الرعب مع نبضاتها المتسارعة عندما اكتملت الصدمة..

في تلك اللحظة راودها إحساس قوي بأن ما يمنعها عن الرؤية ليس الظلام فحسب، بل شيء أكثر سادية وقنامة، مرّرت أصابعها المرتعشة فوق جفنيها بترقب لتطلق صرخة دعر نصف مكتملة.. كانت تعلم.. ولذلك استندت برأسها إلى الحائط البارد، صديقها الوحيد الذي يشاطرها الصمت.. وقتها أيقنت أنها لن ترى مهما حاولت، وشقت دمعة

يأس مختلطة بدماء متخثرة طريقتها فوق وجهها.. سقطت ككرة جليد باردة الإحساس.. مسحتها بكفها الصغيرة لترسم لوحة سريالية سوداء.. كونها الدم والكحل والألم، صرخت صرخة غضب، ولكمت الحائط بهيستيريا ويد مرتعشة، هذأت ثورتها بعدما علمت أن مصيرها محتوم.. أنه دورها..

وصوت ما.. يضيف بُعدًا جديدًا من أبعاد الخوف، صوت أفاقها من ذلك الكابوس الحقيقي، أشبه بصوت راديو يتنقل صاحبه بين محطات المشوشة، موسيقى ثم حوار ثم نشرة، كلمات متلعثمة تشابكت كبيت عنكبوت مكتمل لتنتهي بأغنية عتيقة مبهمه، لحنها الناعم يحمل كثيرًا من الرعب..

ثم ضجيج.. بدا كعراك، جذبها زحفًا للباب، ألصقت أذنها به لتتصت، تعالى صوت نبضاتها حينما سمعت صوته، فهي تعرفه جيدًا..

صوته لها كصوت الخلاص.

### قبلها بسبعة أشهر.. مستشفى القصر العيني

- العقل الباطن، أو الـ (Subconscious)، كلها أسامٍ مختلفة لأكبر لغز عرفه الإنسان عن نفسه.

قالها الدكتور عبد الرؤوف بصوته الأجش ذي الطابع «الأمريكي» لطلابه في غرفة «السيمينار» المزرية في مستشفى القصر العيني، رفق مقعدًا شاغرًا في الصف الأول ثم تجاهله، تحرك متكئًا على عكازه الخشبي الداكن تجاه الباب واستقر مواجهًا شاشة العرض، بدا في نهاية العقد الخامس من عمره، متوسط الطول، يمتلك جسدًا نحيفًا وشعرًا أجمعًا قصيرًا اشتعل شيئًا منذ أمد، يرتدي بدلة رمادية حديثة النوع، كان أنفه ذا نهاية مدببة واضحة.

تكونت الغرفة من كراسي خشبية قديمة وتكييف معطل وباب مفتوح لا يغلق أبدًا، استرسل دكتور رؤوف - كما يلقبه أصدقائه - في تمنع ونقطة مخاطبة أطباء المستقبل:

- علماء الطب النفسي شبهوا العقل الباطن بكاميرا بتسجيل أي حاجة بتحصيل، مهما كانت غير مهمة أو حتى معقدة، مش بس كده.. بتتفاعل معاها بالتأييد أو الرفض.. أرشيف فيه كمية لا نهائية من المعلومات المفصلة، السؤال اللي دايماً بسأله لنفسه: مين يقدر يفتح الأرشيف؟



قالها وأغلق زر جاكيت البدلة الخاص به باحثًا عن بعض الدفء في يوم بارد، فحص المقعد مجددًا بترقب، انتظر ثانية وضغط على زر في ريموت كنترول أخرجه من جيبه ليغطي الـ (Projector) الحائط بأصواته المتداخلة، مرت ثانية وبدأ فيديو صامت ذو ألوان باهتة في العمل، بدا أنه صُوِّرَ بكاميرا بدائية في ثمانينيات القرن الماضي، طفل أشقر يركب دراجته الأولى بمساعدة أبيه المبتسم، تنساب موسيقى هادئة في خلفية المشهد لتضيف مذاقًا غامضًا للأحداث التي تسارعت، الطفل يلهو بحشرة كبيرة الحجم في حديقة المنزل، ونفس الطفل بعد عدة سنوات يلهو بكرة القدم مع أقرانه بالمدرسة، ومراهق أشقر يخفي شيئًا خلف ظهره يبدو كمسدس ويقترّب من سيارة في ظلام الليل بشوارع كاليفورنيا المميزة.. ويطلق النار.

أضاف عبد الرؤوف:

- العقل الباطن.. أو اللا وعي زي ما سماء فرويد، هو محرك غير مباشر لرغباتنا السلوكية أو حتى الجنسية، تراكبات من مواقف وذكريات بتحدد رد فعل أي حد فينا وسط اختيارات الحياة اللي مابتنتهش.. أنا عارف انكم لسه طلبة جداد بس عايز أسأل، حد يعرف تحديدًا الإدراك أو الوعي يمثّل قد إيه من المخ البشري؟

- 50٪!

قالتها طالبة.

- 80٪..

قالها آخر بثقة.

- متهيألي 70٪!

أضاف ثالث بتردد.

ابتسم عبد الرؤوف وأجاب بهدوء المعتاد:

- الإدراك في العقل البشري يمثّل 12٪ من المخ.

تعالت الهمسات بينهم ليضيف عبد الرؤوف:

- ماحدش عارف الذكريات الخاصة بالعقل الباطن بتتخزن فين، لكن الأكيد إنها مابتتخزنش في الذاكرة الطبيعية.. الـ (Mermer Memory)، الأبحاث الحديثة بتحاول تجاوب عن سؤال واحد، إيه هي وظيفة تمانية وتماثية في المية من المخ؟ النهارده مناقشة مفتوحة عن العقل الباطن بكل تفسيراته.. في نهاية المناقشة هنتكلم عن كتابي الأخير في علم النفس اللي موضوعه هو نفس موضوعنا النهارده...

قالها ورمق ساعته بقلق.

محيط القصر العيني في نفس اللحظة

تابعت قدماها سباقهما الهادئ، حذاءان جلديان نحيفان كبير الحجم، كان لونهما بنيًا قاتمًا وقد وصلتا لمنتصف المسافة بين عقبيه وركبتيه كأحذية الجيش، يمر فوق الأسفلت المُحَنَّى بندى الشتاء والعفرة، كان

شابًا متوسط الطول والبنيان يميل للنحافة، يمتلك من العمر ثلاثة عقود كاملة.. وعينين رماديتين لامعتين هما آخر ما يُذكره بوالدته التي فقدتها في سن الخامسة، دفن كفيه داخل جُثَيِّ معطفه الطويل ونفخ قليلًا من البرودة بقمه الدقيق، لكنه ترك الزر الأعلى في قميصه الأبيض مفتوحًا، زين كتفه شنتة «كروس» شطر جسده نصفين توارى معظمها داخل معطفه الرمادي ذي الجيبين الكبيرين، كانت تحوي بضعة أوراق وأقلام وكاميرا تصوير خاصة بعمله الذي يتلخص في قسمين، الأول: يقضيه في جريدة «اليوم المصري» اليومية المملة، حيث يعرفه القراء بعموده الأسبوعي «خيوط ودلائل» القابع في صفحة الحوادث، الباب الذي صب فيه عصارة سنوات من ملايسات الكشف عن أغرب الجرائم التي عكف على حلها الطب الشرعي، أو تلك التي شارك في حلها شخصيًا بطريقة غير مباشرة، تلك التفاصيل الدموية التي تحقن الأدرينالين في الدماغ تاركة خلفها قشعريرة باردة، لذة تدغدغ مشاعر جمهوره من أنصاف السداة، وتكفل له مرتبًا لا يتعدى إحدى عشرة مائة، شعور يعرفه عشاق الأفلام الدموية من نوعية الـ (Gut Movies)، أو يقصر جلس بين الهاتف والصريخ متكئًا، يشاهد تجسيدًا حيًّا لمعركة بين رجل وأسد جائع في مدرجات مسرح بومبيوس.

أما القسم الثاني من عمله فيمكن تلخيصه في كلمتين فقط (مطعم لا تشانس).

رمق ساعته الفضية مرتين وتابع طريقه إلى هدف ما، يعلمه هو، على يساره تراصت السيارات الساكنة في صف لا ينتهي كتوابيت الموتى، إلا أحدهم كان به شيء من الحياة، سيارة جيب حمراء اللون قديمة الطراز يدور محركها ولا تحمل أرقامًا من الخلف، رمقها بنظرة سريعة في طريقه وتجاهلها لكن عقله رسم دائرة سوداء بقلم تخيلي على مكان اللوحة المفقودة، تابع طريقه وحاول منع عقله عن التفكير لكنه فشل في مفاوضة عينيه كيلا لا تدون كل شيء، رسمت أمامه ملاحظاته التخيلية عن كل ما شاهده من أرقام السيارات المترصة.. وبائع مناديل أعسر طاعن من السن يفافض رب سيارة عن جنيه رسمت دائرة أخرى على ساعة باهظة الثمن لم يخفها كم قميصه الهَرَي، وفتاة تسرق قطعة شوكولا من كشك ساجتر غافلت صاحبه بإبتسامة وحديث لين، لكنها لم تغافل عينيه الرماديتين الهادئتين، ورسمت دائرة على يدها أيضًا في وضع تلبس.

مر في طريقه على بنك يمكث في نفس صف التوابيت الساكنة، خرجت منه سيدة قصيرة بلغت أرذل العمر تتعكرز على سلم البنك في طريقها للشارع، بدت من طبقة أدنى من تلك المسماة بالشريحة الوسطى، تتحدث في هاتف محمول رخيص الثمن بصعوبة وتتفلس بمعجزة، توقف الشاب فجأة أمام المرأة اليمنى لسيارة مستقرة وتابع النظر في المرأة، ثم مال ليعيد ربط رباط حذائه بعدما حرره عن عمد، وقف مجددًا ونظر في المرأة ثم تابع طريقه.. تسارعت خطاه شيئًا فشيئًا تجاه إشارة المرور الكبيرة في نهاية الطريق، لم يلتفت وراه بعد أن تجاوز

الكروسي المجاور والذي نفخ سيلاً رمادياً من سيجارته في سقف السيارة  
برعونة ليحييه:

- تمام..

كان رفيقه في نهاية الثلاثينيات، يمتلك جسداً نحيفاً وشارباً كثيفاً  
داكناً وشعراً يماثله نعومة وقامة قسمه نصفين فوق جبهته العريضة،  
انتظر السائق عندما اكتست الإشارة بلونها الأخضر ليكبس على مقود  
السيارة.. وانطلقت.

بالعودة للإشارة

ترجل صاحب الميسويشي بعدما شاهد فعلة الشاب الغامض  
تتعكس على الجميع بسرعة كبيرة، كان جسده متوسطاً، قمحي البشرة،  
شعره متوسط الطول ولا مع بطريفة مثيرة للانتباه، فبعدما ابتسمت  
الإشارة بلونها الأخضر وكسرت السيارات أسرها وانطلقت، تحول لون  
الإشارة إلى الأحمر فجأة لتنتقل سيارات الاتجاه المعاكس، وتحدث  
حادثتان التهمت إحداهما إكصدام سيارة قديمة، أزمة مروية معقدة  
ومئات من السباب المتطاير بأنواعه كجبات الطماطم في عيدها السنوي  
في فالينسيا، وأوركسترا حزينة شاركت فيها السيارات بأبواقها المختلفة  
كآلات نفخ، ركض صاحب الميسويشي القاتمة خلف الشاب الذي  
ظن أنه أفلت بفعلة صائخاً:

- إستنى! شوفتك.

السيدة، لكن عينيه تابعتا أمراً ما في كل مرآة سيارة مر بها، فصل بينه وبين  
الإشارة عشرة أمتار كاملة، لاحظ أن شرطي المرور قد ترك مكانه فوق  
المنصة المخصصة له ليهاتف شخصاً ما بعيداً عن الزحام، كان منهمكاً  
واضباعاً إصبعه السبابة داخل أذنه باحثاً عن مزيد من الخصوصية، حينئذ  
حانت الفرصة.

تقدم الشاب الهادئ تجاه المنصة القابعة في جزيرة صنعها رصيف  
يتوسط الميدان بسرعة قاربت الركض ثم هدأ من هروله حينما اقترب  
كيلا يلفت النظر، اشتعلت الإشارة بلونها الأصفر في اللحظة التي اقترب  
فيها الشاب منها، تأهبت السيارات للانطلاق وضغط سائق إحداها على  
دواسة البنزين لتطلق الميسويشي الخاصة به نفيراً مكتوماً، لقد مرت  
دقيقة مملة قضاها الجميع في انتظار ثمرة خضراء من تلك الشجرة  
الإلكترونية الشاحبة.

ولسب ما تابعت عينا صاحب الميسويشي ذلك الشاب ذا الملامح  
الهادئة، وبالفعل لم يخيب حدسه ظنه، فقد مر من أمام منصة (الإشارجي)  
الغائب في اللحظة التي أعلنت الإشارة عن اخضارها لتتحرر السيارات  
وتنتقل، لكنه لم يمر مرور الكرام، فقد ضغط بخفة لم يلحظها أحد على  
زر ما في مقر الإشارة الفارغ، زر عثير كل شيء.

في نفس اللحظة، وفي الشارع الذي مر منه الشاب المبهم راقب  
سائق الجيب الحمراء خطوات السيدة المسنة أمام البنك، بدت كسلحفاة  
فقدت ذاكرتها وتركت صدفتها ومشت تائهة في العراء، نكز رفيقه في

العارة وحاول اثنان من حراس البنك الركض خلف السيارة لكنها كانت أسرع من الجميع، وانطلقت الجيب الغادرة.. تجاه الإشارة.

في الجيب صرخ صاحب الشارب في صديقه:

- أنا مش قولتلك استنى لما الخرا تبقى خضرة!

ليجييه صديقه يتردد واضح:

- كانت خضرة.. كانت خضرة، واتغيرت.. في حاجة غلط.

قالها بعدما صدمه منظر التكلس المروري أمام المخرج الوحيد من الشارع.

على الجانب الآخر، تفحص صاحب الميتسوبيشي الغاضب عيني ذلك الغامض بنظرة ثابتة، كأنه يمسحها بأشعة (إكس راي) بحثًا عن شيء ما غير طبيعي، يرمقه بحاجبين كثيفين متقابلين كجناحي طير، انتظر ثانيتين وأفلت قميصه وقوم ياقته التي هرسها بقبضتيه بعدما تأكد من نواياه، سمع صوت الجيب المسرعة بعدما ضغط سائقها على المكابح لما باغته ذلك الاختناق المروري المستحدث، أخرج مسدسه من حافظته ووجه فوته للأسفل متجهًا لقلب الحدث قائلاً للشباب بلهجة أمرة:

- خليك هنا! ماتحركش.

حاولت الجيب الهروب بشتى الطرق الممكنة لكن المخرج الوحيد من ذلك الطريق قد أغلق بالفعل، دارت الجيب ثلثمائة وستين درجة لتصدم عمودًا حديدًا فوق الرصيف الأيسر من الطريق، حاول سائق

لم يتوقف ذو العينين الرماديتين، لكنه تابع طريقه كأنه لم يسمعها، ركض سائق الميتسوبيشي الغاضب وقبض على قميصه ودفعه بعنف لسيارة اصطدم ظهره بها، رمق الشاب ذو الملامح الهادئة برعب سلاحًا ميريًا معلقًا في جانب الشاب الغاضب أخفاه معطف بدلته، ثم حلق بفرع في وجهه الحاد ليضيف سائق الميتسوبيشي ساخرًا:

- فاكرك نفسك هتسلى وتهرب يا حمادة؟!

قالها وجذبه من قميصه ثم صدمه مجددًا في السيارة لتهتز خصال شعره البنية الناعمة وتنتع عيناها فرعًا مجددًا، رفع يديه مستسلمًا وقالها بتردد:

- ماكانش عشان تسلية.. كان عشانها.

وأشار تجاه البنك.

عقد صاحب السلاح الميري حاجبيه بعدما فاجأه الرد ليعيدها مندهشًا:

- عشان مين؟!

دوى صرخ أنثوي من أقصى اليسار، كان لسيدة مسنة قد طارت شنتنها أمامها كالفراشة، حدث ذلك بعدما مال ذو الشارب بجسده خارج الجيب الحمراء وقبض على شنتنها لتنتلق بعدها الجيب مسرعة، سقطت السيدة شبه مغشي عليها تردد كلمات تاهت في بكاء حاد، كان الواضح منها (دي فلوس يتامى حرام عليكوا!)، في ثوانٍ تجمع حولها

أمين الشرطة سيدة ذات ملامح وملابس ليست بقاهرة، تحمل أكياساً بلاستيكية هشة لا تختلف كثيراً عن عبائها السوداء، تفضحها رائحة طعام نصف ساخن قضت ليلة كاملة في إعداده، جاءت لزيارة أخيها المريض بعدما أتت به من صعيد مصر في رحلة علاجية فاشلة، انفجر «الأمين» صارخاً بوجهها بعد أن استعطفته أن يتيح لها الدخول، تجاهلها وتركها تمشح دموعها في طرحتها السوداء القاتمة، غمز لها أحد المارة بأن «تصَبِّح» على الباشا، لكنها علمت أن آخر عشرين جنيها امتلكتها قد تحولت بالفعل لوجبة متواضعة تحملها الآن.

خلفها - وعلى النقيض - وقف شاب هادئ الملامح والعينين، تجاهل الموقف حتى حان دوره، تفحصه الأمين بنظرة هجومية من شعر رأسه النبي لحذائه الجلدي:

- زيارة ولا مريض؟

تساءل الأمين.

- لا مش زيارة... أنا.....

رد الشاب ليقاطعه الأمين:

- يبقى طالب.. كارنيهك!

أضافها أمين الشرطة الغاضب.

- أنا مش طالب هنا، أنا.....

قاطعه أمين الشرطة بلهجة مستفزة:

- يبقى اتفضل بره!

ألغاه وانشغل عن عمد مع شخص آخر أعطاه كارنيه الكلية ليقبله قبل أن يشير له بالدخول.

- دكتور عبد الرؤف مستيني!

رد عليه الأمين مستهتراً:

- يبجي ياخذك..

دقائق مروت من المفاوضات الفاشلة، كان نهايتها قرصين «ترامادول» دفنهم الشاب في يد الأمين ذي المزاج الناري، كان سلاحه الأخير والفعال للمرور، في مجتمع يمكنك أن تحتله بشاحنة أقراص مخدرة.

في طريقه للسلم ملأ أنفه رائحة بخار مقززة ممتزجة برائحة البنج، كان المكان متسخاً كالجحيم، ومكتظاً كالسوق، على يمينه مشى رجل يتحسس الحائط بخطى ثقيلة، ممسكاً بكيس بلاستيكي أسود كأكياس القمامة به كيس طبي يملأه سائل أحمر شفاف يخرج منه قسطرة تزحف على ساقه، والتي غطاها جلاب أمسك هو بطرفه، وعن يساره افترش بضعة أشخاص الأرض بعدما صنعوا لأنفسهم أسرة من ملائتهم المهانة، يطوف عليهم مراهق أسمر البشرة يحمل في شنتطته معمل كافيين متحرك، وأكواب بلاستيكية سيئة الصنع يملأها لهم بالشاي تارة والقهوة تارة أخرى، ومن خلفه سمع صوت سرير جرار يركض وحوله يركض حوالي خمسة أشخاص وطفلة تبكي لدرجة الانهيار، وفوق السرير كان

شابٌ نحيفٌ ينازع مسكرات الموت بعينين زائفتين يسقط لعابه الأبيض من جانبيه فمه.

توقف ذو العينين الرماديتين فجأة بعد عدة مترات، تجمد كرجل فقد الذاكرة عندما طلبت منه «بيونسيه» رقصة في ليلة هادئة، بيد أنه لم يكن في حفل راقص يضم نجومات هوليوود، ولم تكن معضلته «بيونسيه»، بل كان شيئاً أكثر تعقيداً، أعمال ترميم في السلم الوحيد المؤدي للدور الثالث «دور السيمينار» في القصر العيني، لعن بداخله تلك الترميمات السخيفة التي أجبرت الجميع على الانتظار أمام المصعد كتمائيل الشمع، تمنع في الأمر ثم قام بحساباته، أيقن أن مروره بين أعمدة الـ«سقالة» ومواد البناء سيكون متاحاً فقط لو تحول للذبابة، كان يوماً شاقاً من البداية وتتابعت فصوله الساخنة لتستقر هنا، فُتح باب المصعد المعدني بعدما أطلق نغمته القصيرة، دخل ثلاثة أشخاص دعاه أحدهم للدخول.

- لا أنا هستني ....

قالها الشاب محاولاً إيجاد مبرر لعدم الدخول.

- بيشيل 6 يا باشا، تعالى انتفضل! تعالى!

تردد قليلاً ثم حسم أمره بالدخول بعد إصرار الرجل.

«يوسف أصلان» هو صاحب المعضلة.

في المصعد أمسك بأنامله المرتعشة خصال شعره البني الناعم ليعيدها لحالة السكينة السابقة، لم يلاحظ أحد تلك الرعشة الخفيفة في يده.. تفحص الضوء الذي بدأ ينتقل من حرف (G) إلى رقم (1) في

لوحة المفاتيح الخاصة بالأدوار، تعالى صوت شهيق المضطرب وزفيره الأكثر اضطراباً، اقتحم صوت ضربات قلبه الموقف ليزيده رعباً، حاول التنفس بهدوء كيلا يلفت النظر، تابعت عيناه الضوء في طريقه للزر الذي يحمل رقم (2).

- مبروك لمنى!

- عقبال ما نفرح بعيالها..

كان ذلك ملخص الحديث الدائر خلفه، سمعه بصوت عال كأن قائله يستخدم ميكروفون بائع روبايبكيا (200 وات)، عاد بنظرة مرة أخرى للوحة الأرقام الخاصة بالأدوار، توسل للضوء في نفسه كي ينتقل للرقم (3) بسرعة لكنه تجاهل توسلاته الصامتة، شعر بيد تمتد على كتفه اليسرى:

- انت كويس بابني؟.. فيه حاجة تاعباك؟

قالها رجل كبير في السن يجاوره، حرك يوسف رأسه نافيّاً، ثم أزاح عن هامته بضع قطرات من العرق في شهر - يفترض - أنه شتوي بارد.

.. وأخيراً فتح الباب تلقائياً، لتعود الحياة لدمائه، والألوان لعينه.. وحة مهدئ مقاومة للدوار قذفها في فمه.

في غرفة السيمينار أجاب د. عبد الرؤوف عن سؤال أخير من سيل الأسئلة التي بدأ طلابه إطلاقها:

- بروفيسور! إزاي هتقدر تتعامل مع فكرة خروجك معاش؟ هتقدر تتعود على حياتك الجديدة؟

وقف يوسف بنظرته الواثقة، رآه عبد الرؤوف من خلف نظارته الصغيرة ثم انهمك في التوقيع مجددًا.

- يوسف بيتأخر عن آخر محاضرة؟ إيه تاني ممكن يحصل في الدنيا؟! قالها عبد الرؤوف مازحًا ليوسف الشارد خارج القاعة، ليرد الأخير:

- كان فيه حادثة في الطريق.. آسف!

مشيا معًا لغرفة استراحة الأطباء، تفهم الدكتور رؤوف عذره وصمت لثانيتين، فتح باب الغرفة ليوسف وباغته بعدها بعبارة تحمل الكثير من التعجب:

- ماقولتليش إنك عامل دايت.

كانت غرفة متوسطة الحجم، بها طاولة ظهر فوقها غلاية ماء فضية اللون وبضعة أكواب، كراسي جلدية هالكة فوقها بضعة شنت تخص بعض الأطباء، وشطرنج عاجي وضعه شخص ما بجانب الأكواب.

- دايت إجباري اتعودت عليه، أوعدك هينتهي أول ماترفد من الجرنال.. أو المطمعم.

قالها يوسف في طريقه للدخول، ليرد عليه عبد الرؤوف:

- واضح إنك بتتعود على حاجات كثير غصب عنك.

جلس عبد الرؤوف مسترخيًا لبضعة ثوانٍ يحدق في سقف الغرفة في صمت، قاطع يوسف الصمت بجملته مديح قصيرة:

ألقاها أحد الطلاب ليصمت فجأة صوت الحضور استماعًا للسؤال الصعب والمؤلم في نفس الوقت، مسح الدكتور رؤوف عدستي نظارته بقطعة قماش بيد مرتعشة قليلًا، ثم تمالك أعصابه مجتنبًا بابتسامة مجاملة:

- الكورتكس\* بتصنع المعجزات!

قالها قاصدًا قشرة المخ ملحقًا إياها بابتسامة مجاملة دفنت كثيرًا من الحزن بداخله، ثم انهمك بقراءة ورقة كتب بها ملخص محاضراته التي مر معظمها بالفعل، ضغط مرة أخرى على الريموت كنترول ثم زاغت عينه مجددًا ناحية الحضور ليجده وقد احتل الكرسي الشاغر لتوه.. صديقه القريب وتلميذه المفضل، الابن الذي لم ينجبه قط.. يوسف.

تشابكت كلمات المديح والثناء مع المناقشات الجانبية من قبل الطلبة، لقد كان يومًا حافلًا بالإثارة والغموض، لملم الجميع أوراقهم وانشغل بعضهم بجمع التوقيعات من دكتور رؤوف على كتابه الأخير، تجمعوا حوله كقطيع (بيرانا) جائع حول حوت محتضر، من خلفهم

(\*) تعتبر قشرة المخ «الكورتكس» من أهم العوامل التي تساعد على التأقلم مع التغيرات الجسدية والنفسية الدائمة\* التغيرات النفسية المعقدة\* مثل فقدان عضو أو إعاقة جزئية كالتأقلم مع فقدان حاسة البصر في إحدى العينين على سبيل المثال، هناك تجربة تم تطبيقها على 29 راقصة باليه في لندن لمعرفة سبب قدرتهن على الدوران أثناء الرقص دون التعرض للغثيان، اكتشف العلماء وجود تغيرات «نشاط كهربى» حدث لهن في قشرة المخ والأذن الوسطى.



- محاضرة ممتعة كالعادة..

هز عبد الرؤوف رأسه موافقاً وأضاف بهدوء:

- وفقيرة.. كالعادة، بس أنا خلاص، بدأت أتعود على فقر محاضراتي.

- واضح إنك بدأت تتعود على حاجات كثير غصب عنك.

أضافها يوسف متهكمًا، ليشير له عبد الرؤوف بسبابته:

- أنا هقتلك!

ابتسم يوسف قليلًا ثم استسلم ضاحكًا، وأضاف عبد الرؤوف:

- شوفت أنا عملت إيه؟

قالها رامقًا الشطرنج العاجي فوق الطاولة.

- انت اللي صُغّته؟

حرك عبد الرؤوف رأسه إيجابًا ليرد يوسف بعينين لامعتين:

- (Master piece).

هم عبد الرؤوف بالقيام، لكن يوسف سبقه وأحضر الشطرنج، نصب

عبد الرؤوف الشطرنج اللامع وحرص القطع بالتساوي أمامهما، علق يوسف:

- شكله حلو!. واضح إن الهواية تطورت لحرفة..

- الشطرنج بالذات لازم يبقى شكله حلو يا يوسف؛ نموذج مصغر من

الدنيا، الدنيا لازم يبقى شكلها حلو، وإلا.. ماحدش هيحارب عشانها.

- فلسفة!، الشطرنج بالنسبة لي فلسفة.. أكثر منه لعبة.

- أكيد.. فلسفة حياة، أرض.. وجيشين.

قالها عبد الرؤوف مشيرًا بإصبعيه السبابة والوسطى لرقعة الشطرنج

ثم للجيش الأبيض المقابل له والأسود المقابل ليوسف.

- أرض.. وجيشين!

أعادها يوسف شاركا مع الشطرنج، ثم رفع حاجبه الأيمن معجبًا

بـطريقة التشبيه وتابع التأمل.

- إيه؟ عمرك ما اتخيلته كده؟.. زمان قريت كتب شطرنج بتكلم عن

فلسفة أغرب، فلسفة مخيفة، صراع بين الإنسان والجن.. بين الشر

والخير.. بين كل حاجة والمقابل ليها.. همم!

عقد يوسف يديه وأردف:

- أفكر إنني قريت مرة عن حاجة زي كده، لازم اعترفلك، أنا دايما

بيعجبني الشطرنج بس انت عارف.....

- إن عمرك مالعبتها..

قاطعه عبد الرؤوف وأضاف:

- القوانين سهلة، قانون التبييت إن الطابية تيجي مكان الملك عشان

تحمية، وترقية العساكر لو وصلوا لآخر مربع عند الخصم، أعتقد دول

معروفين.

- والقطع؟



- لو رتبناهم حسب الأهمية من الأقل رتبة للأهم، يبقى ثمن عساكر،  
فيلين، طابيتين، حصانين وبعدين ملكة وأخيرًا ملك.

- ملكة!؟

- في مصر بتقول عليه وزير، ولو إن كلمة وزير في البلد دي حاجة مش  
ولا بد أوي يعني، زي خيال المآة كده بالبط.

قالتها عبد الرؤوف شاردًا في قطع الشطرنج كأنه يناجي نفسه.

- البلد بقى حالها في النازل.. وماحدش عارف لمصلحة مين.

- مش عارف؟! بص كويس هتعرف لمصلحة مين!

علق عبد الرؤوف مشيرًا للجيش المنتصب في الصف الأول خلف  
العساكر.. ثم أردف:

- تفكر لو التمن عساكر وصلوا هنا، واترقوا، الصف الأول هيكون  
ليه لازمة؟

أضافها مشيرًا للصف الأول مجددًا ثم أردف:

- فكر فيها كويس!.. هي اتصممت كده، عساكر تحمي، وملوك تنفرج،  
ولو العساكر خدت حقها مش هتبقى عساكر، ولا الملوك ساعتها  
هتبقى ملوك.

- بصلها من الجنب الثاني، جيش فيه أربع وزرا - أو ملكات زي ما  
بتقول - ممكن ينتهي، الجيش اللي بريسين يغرق.

- أو يحتل العالم.

قالتها ومرت لحظة من الصمت عليهما نظر فيها يوسف بتمعن  
لصديقه الذي بدا غامضًا بعض الشيء ليتابع رؤوف مجددًا:

- عمرك لاحظت ان العسكري هو القطعة الوحيدة اللي بتتحرك لقدام  
بس؟

صمت يوسف متمعًا ليضيف عبد الرؤوف:

- القطعة الوحيدة اللي ماينفعش تنفادى هجمة، ماينفعش تتراجع أو  
تتحرك يمين أو شمال، العساكر اتصممت عشان تنتهي.. عشان  
يضحي بيها الملك في بداية اللعبة ويكسب أرض.. لسه مافهمتش؟

- همم! لو رجعنا للترقية، سمعت مرة إن عسكري واحد بس هو اللي  
ممكن يترقى لوزير.

- بردو الكلام ده في مصر بس.. بره أي عدد.. البلد دي كل حاجة فيها  
مختزلة.. حتى الطموح في اللعب الناس بتخاف منه.. صدقني!.. فيه  
عساكر لو اترقت، بتفضل من جواها عساكر.

- مبره!.. وبقية القطع!؟

قالتها بتحفز، ليتابع عبد الرؤوف مسكًا بقطعة شطرنج من جيشه:

- الفيل بيتحرك بالورب، بس ماينفعش يمشي في خط مستقيم مهما  
حصل.

حرك الفيل بخفة للأمام، ثم وضعه في منتصف اللوح الشطرنجي  
وأمسك بقطعة أخرى وأكمل:

- الطابية.. عكس الفيل.. الطابية هي الدبابة البدائية، حركتها في خط مستقيم في أي اتجاه.. رمز مهم لقوة الجيش.
- قالها واضعاً الطابية بجانب الفيل وأضاف:
- الحصان، ثالث أهم قطعة في اللعبة، حركته محدودة، بس القطعة الوحيدة التي ممكن تعدي أي حصن، وتدخل في أي مكان، مهما كان المانع، مايفش قطعة غيره ممكن تنط من فوق حاجز، بيتحرك في شكل حرف (L).
- وتاني أهم قطعة؟
- تساءل يوسف.. ليرد عبد الرؤوف محرّكاً الملكة.
- الملكة، بتتحكم في رتم الحياة هنا، أو بمعنى أصح، الحرب.
- لو ذاكرتي ما خانتنيش.. يبقى الملكة بتتحرك زي كل القطع.
- بالطبع! تقدر تتحرك زي كل القطع مع بعض، إلا الحصان.
- مافاضلش غير الملك.
- قالها يوسف باهتمام.
- الصدمة بقي إن الملك أقل قطعة في الصف ده كله، بتتحرك خطوة واحدة بس في أي اتجاه.
- علق يوسف مندهشاً:
- عسكري معدل!
- ماشي.. بس ملك، اسمه ملك.. تخسره تخسر كل حاجة.

أنا شايفه مش مهم.

دي وجهة نظرك يا سيادة الصحفي، بس كل واحد لازم يدافع عن حاجته، في ناس بتموت عشان فكرة، حتى لو مش حقيقية، حتى لو مش مهمة.

ممكن صورة؟

قالها يوسف ليحرك معلمه رأسه موافقاً، لملم عبد الرؤوف القطع ورتبها بينما أخرج يوسف من شنتطه كاميرا قديمة متوسطة الحجم سوداء اللون، اشتراها من «خواجه» ياباني منذ عقد، تعمل بنظام الفيلم الفوتوغرافي، الذي يعتبره يوسف «معنى التصوير الحقيقي»، تراجع للوراء لخطوة وطبع صورتين على شريط الفيلم، ثم حرك الملك الأسود من مكانه مستبدلاً إياه بالأبيض، اقترب بالـ «zoom» من الصف الأسود الذي وقف فيه ملك أبيض ناصع مختلف عن بقية عناصر الجيش، كسائحة أكرانية في وسط مومباسا، طبع صورة أخرى، ثم ابتسم، جلس مجدداً أمام عبد الرؤوف الذي بدا سعيداً باهتمامه، أعاد الكاميرا لمكمنها ثم قال ببعض الحرج:

- هو أنا أبقي مجنون لو لعبت شطرنج مع نفسي؟

ابتسم رؤوف وصمت لثانية ثم استطرذ:

- يبقى نص العالم مجانين يا يوسف!

قالها وحرك قطعة من الجيش الأبيض للأمام.

بالعودة لمدخل المستشفى

افتششت الصعيدية الأرض باكية بجانب كبس الطعام المهتك عرضه، حاول الشاب ذو الشعر اللامع - «صاحب الميتسويشي» - مفاداتها، كان في طريقه للدخل بعدما ألقى بسيجارتة بعيدًا، توقف وتفحصها من خلف نظارتة السوداء القاتمة وتابع طريقه للدخل، يرتدي جاكيت بدلة داكن اللون، اختفى تحته مسدسه الذي لم تبرد فوهته بعد.

صرخ أمين الشرطة في السيدة:

- لو ما قومتيش من هنا هاجي أشوطك، يلا يا ماما عشان ماحدش يتكلم.

قالها مشيرًا للشاب بالتوقف ثم أردف:

- زيارة ولا دكتور؟

ابتسم الشاب قليلًا وأضاف:

- لا ده.. ولا ده.

- امال إيه اخلص! انت هتقطني؟!

قالها أمين الشرطة بلهجة استفزازية مشيرًا بيده.

رفع الشاب حاجبه الأيسر محاولًا إيداء انبهاره بقوة شخصية الحارس، ثم تابع طريقه للدخل قائلًا:

- هخش لصاحبي.

هرع خلفه الأمين بغضب عارم، وصدمه في كتفه منفجرًا:

- أف ف ياله انت فاكرك نفسك داخل فين؟! ماتخلوناش تنغابي على أهاليكوا عالصبح بقى!

استكان الشاب ولم ينظر خلفه، ثم جرد عينيه من عدساتها السوداء، انظر عينان أقل ما يقال عنهما أنهما أكثر حدة من أعين صقر إفريقي، لم ابتسم، وتلاقت عينه مع عيني الأمين ولم ينطقا بكلمة واحدة، لكن الأخير تملكه شعور غير مريح.

- مين كسان؟!

قاطعهما ذو الشعر اللامع عاقداً ساعديه وتابع:

- فانتك شوية شغل حلوين.. ضرب وشتايم.. ومكافأة من المباحث.

قالها ليوسف المنهمك في دور شطرنج حديث مقاطعًا ربع ساعة ساكنة قضاها يوسف وعبد الرؤوف في تفكير عميق.

ابتسم يوسف وقام من مجلسه ليصافح الشاب الساخر ذا العينين الثاقبتين مجيبًا:

- لو مكافأة يبقى للي اتخبطت عربيته.. والشتيمة للي جوه الجيب.

صافحه الشاب بنظرة إعجاب مردفًا:

- مؤمن البحري معاون مباحث.

- يوسف أصلان.. صحفي.

- عرفت ازاي انهم شمال؟

تابع:

- أقصد العيال اللي في الجيب..

قالها بضم فاغر يسكنه الاستهتار والدهشة التي لم يستطع إخفاءها أكثر من ذلك.

- إزاي عرفت إن أنا هنا؟

- شوفتك!

- وأنا شوفتهم.

ثم أضاف:

- تمر العربية اللي قدام بس، أول درس بيعلمه الحرامية الكبار لأطفالهم في الحضانة.

قالها ليرفع مؤمن حاجبه إعجابًا مبتسمًا محرّكًا لسانه داخل فمه بتلذذ ينم عن إعجاب.

- أعرفك بالدكتور رؤوف، رئيس قسم الطب النفسي سابقًا.. وأفضل مؤلف حاليًا.

علق، ليضيف عبد الرؤوف مازحًا:

- ماتصدقش! بيحاول يواسيني عشان كسبني في الشطرنج.

- واضح إنك متعدد المواهب!

علق مؤمن وتفحص الشطرنج بيده.

- ما عندكش فكرة..

رد يوسف مازحًا ثم رسم ابتسامة أمريكية.

« حلو الشطرنج ده! Handmade؟

قالها مؤمن ملتفتًا الحصان بيده.

« شوفت!

وجهها يوسف لعبد الرؤوف بوجه واثق، ليرر عبد الرؤوف للدخيل

«بسمًا:

عندي هواية نحت صغيرة على قدي.

مط مؤمن شفتيه متعجبًا وتوجه ببصره ليوسف مفسرًا اقتحامه:

« بص! عشان أكون صريح.. أنا حاسس بالذنب عشان كنت شديد معاك شويتين، ويعدين انت برده عملت حاجة كويسة، إيه رأيكوا أعزمكوا على لقمة كده في السريع، واهو نعتبرها قعدة تعارف.

قالها مؤمن مشيرًا بقطعة الشطرنج لوجه يوسف.

« ممم.. حظي وحش، للأسف عندي محاضرة ثانية.. لكن شكرًا يا كابتن مؤمن.

كان رد عبد الرؤوف.

« انت ليه مصمم تغير صورة راجل المباحث اللي في خيالي؟

قالها يوسف متفحصًا ساعته.

« ما تقلقش! مش انا اللي هدف.. الحجة هي اللي هتطبخ.

- الدنيا لسه بخير.

علق بها يوسف مشيراً له بسبابته مازحاً، ليرد مؤمن وهو يفتح علبة سجاثره:

- سيجارة؟

(2)

بعدها بخمسة أشهر

في صباح يوم شمس انطلقت سيارة ميتسوبيشي ذات (فاميه) غامق حتى ابتلعها الزحام، ثم توقفت لعشر دقائق كاملة بدون حركة في ساعة ذروة لا ترحم، فحص مؤمن تأبلوه السيارة ثم توجه بحديثه ليوسف الذي أخرج يده من السيارة مداعباً نسمة هواء متجمدة:

- في خبرين.. فيهم واحد وحش.

- إيه رني! إبدأ بالوحش.

- العربية مافيهاش بتزين.

- مممم... وانت اكتشفت المعجزة دي جوهر الزحمة!

- للأسف.. نسيت أمون.

- والثاني؟

- الثاني وحش..

رقمه بعدها يوسف بنظرة حادة لكنه مالبث أن تهلل ضاحكاً ليضيف

مؤمن:

- ماعيش كاش.

ابتسم الصديقان، ربت يوسف على كتف مُعلِّمه، ثم همَّ خارجاً مع صديقه الجديد.

في الطريق خارج المستشفى، قال يوسف واضعاً ذراع شنته فوق كتفه:

- مؤمن! أنا سمعت ضرب نار.. قولي إنك ماضربتش نار في مكان عام في وسط النهار.

- أهو! هو ده، يا باشا! حرام عليك يا باشا.

صاح بها شخص مقاطعاً، كان صديق أمين الشرطة المعلقة ذراعه بماسورة حديدية عن طريق «كلاشات» وضعها معاون مباحث غاضب في يده، حوله تجمع العديد من الأشخاص الهائمين كأطفال يشاهدون عرض الأراجوز.

تجمع أصحاب الأمين المهان أمام مؤمن يستعطفونه في حين رفقه يوسف بنظرة هادئة لا تخفي قلقاً، ليرد مؤمن مفسراً بحرج واضح:

- غلط فيا... مارضيتش أضربه.

نظر يوسف لأرضية المستشفى محركاً رأسه في أسى، ثم أعادها:

- يبقى ضربت نار.. أنا متأكد.

\*\*\*

قالها مقاوماً ضحكة انتصرت عليه أيضاً.

- كان لازم ماسييش الجرنال بدري.

- ممكن أرجعك ثاني، بس أنا متأكد إن الفضول بيقنتلك.. بالمناسبة،

عبد الجليل قال عليك كلام كويس.. هو عارفك على فكرة.

- اتقابلنا مرة.. قضية الصيدلانية.

- سمعت إن الداخلية كرمك!

نظر له يوسف لفترة طويلة بالما لعابه ثم أضاف:

- ماتفكرنيش!

- أولك.. أولك!

قالها مؤمن ضاحكاً كأنه يعلم شيئاً ما محرّجاً عن واقعة تكريمه وتابع القيادة.

- إحنا رايحين فين؟

تساءل يوسف ليرد عليه مؤمن بثقة:

- آه صحيح.. أنا لسه ماقولتش، ده المشوار اللي حكيتلك عليه إمبارح،

مش هأخرلك.. هي ساعة زمن هنهز واد غلبان هزتين وهنخرج بعد كده نشم هوا.

- إيه حكايته؟!

قالها يوسف سارحاً في تلك الرعشة المصاحبة لكف يده، صعقه مؤمن برد جعله يتوقف عن فحص يده:

جريمة قتل..

قول كل حاجة!

رجع من الشغل لقي أبوه وأمه واخواته مدبوحين.

صدمة!

وأي صدمة.. الكلام ده من أكثر من شهرين، أول مرة شوفته كان عنده

انهيار عصبي، عياط وسخ..

رُحت بيته؟

رُحت بعد الحادثة، حاجة كده زي بيوت الرعب يا يوسف، دم في كل

حته، ناس مدبوحة زي الفراخ..

والصور؟

- كنت عارف إنك هتسأل، جنبك في الطرف الأبيض.. خلي بالك!

أمسك يوسف بظرف أبيض صغير دفنه مؤمن بين الكرسي الأيمن

وذراع الفرامل، حرك إيهامه فوقه بهدوء وفتحته، قلب عينيه في الصورة

الأولى مبديا بعض الامتعاض ثم قلب الصور واحدة تلو الأخرى ليزداد

التأثر في عينيه، ثم أشاح بوجهه متألماً من هول ما رأى.

- أنا حذرترك!..!

قالها مؤمن ليسأله يوسف بعدما لفت نظره شيء ما في إحدى

الصور:

- إيه اللي مكسور في الأرض؟

- الأرض كانت مقلوبة، دي أوضة أسامة! لقينا منبه متكسر، وكبابة متكسرة، متهيألي مش من وقت الحادثة لأن ماحدش سمع صوت تكسير.. طبعًا الفلوس والذهب بالسلامة.

أشعل سيجارة وأكمل:

- كلام وكيل النيابة إن أسامة - اسمه أسامة هو - المهم انه قال انه بيروح الشغل الساعة 6 ونص الصبح.

- هو بيشتغل فين؟

- مصنع كيماويات وأسمدة.

- أنا مش شايف أي مشكلة.. غير السيجارة.

- آة معلش!.. نسيت.

قالها وألقى بسيجارته خارج السيارة بعدما تجرع منها نفسًا عميقًا وأردف:

- المشكلة.. إن التقرير الجديد بتاع الطب الشرعي بيقول إن الجريمة حصلت 6 الصبح.

- نزل بدري؟

- أنا قولت كده، أصله واد نضيف زي الفل، ملفه أبيض، وأنا شخصيًا شوفته، مافيهوش أي حاجة وكمان علاقته بأهله تمام.. والمنظر بيتكلم

برده يا يوسف، أنا مش تلميذ، ده مخبر المباحث عندنا بيتفك بظابط شرطة من كتر اللي بيشفه.

- لرجسية مفرطة وإحساس مبالغ بالذات..

قالها مقلبًا عينيه في بضعة بنايات طلاها عادم السيارات باللون الرمادي القاتم.

- أيوه.. اديني.. اديني شوية نفسي.

- أبوه وإخواته؟

- أبوه معاش، وأخته بتشتغل في محل لبس، كانت بتنزل من بيتها بعد الظهر، تحس ان العيلة كلها طبيعية.. أو كانت طبيعية. قالها مؤمن مصححًا.

- أي أعداء للعيلة؟

- ولا الدموغ، ناس في حالهم.

- ورايحه ليه لو متأكد؟

- أوامر يا عم.. روتين..

صمت الصديقان لربع ساعة كاملة تابع فيها يوسف مباني القاهرة الملونة، قاطع مؤمن شروده قائلًا:

- في حاجة مش مريحاك.

- مش مقتنع بموضوع انك تعرف المجرم من شكله، نظرية (شيزيري لومبروزو) أثبتت فشلها.

- اسمها (سيزار لومروزو).

- (شيزيري لومبروزو).

- زي ماتنطقها بقى.. المهم اني مقتنع بيها وبتجيب معايا.. كل حانوتي أدري بنعشه.

حرك يوسف رأسه إيجابًا مطلقًا رصاصة الرحمة على الحديث فيما تابع مؤمن القيادة.

مرت ثوان صامتة طويلة أخرج خلالها يوسف يده من نافذته مداعبًا الهواء مجدداً ثم أضاف بقليل من التردد:

- «شيزيري لومبروزو!»

رقمه مؤمن بنظرة حادة بطرف عينه اليمنى ووجه متجههم، ثم استسلم للضحك وراوغ الزحام هاربًا.

استقرت الميتسويشي الغاضبة أمام مصنع «شركة بدر للصناعات الكيماوية»، كان ذلك في بداية طريق القاهرة - بني سويف الصحراوي، ترجل الاثنان حتى وصلا لبوابة المصنع، حذاء أسود يمشي بجانب حذاء بني طويل كأحذية الجنود، حاول عامل البوابة إيقافهما ليرفع مؤمن محفظته أمام وجهه، لمع كارنيه المباحث في مقلتيه.

- مباحث.

- اتفضل يا باشا!

قالها الحارس الذي تحول إلى حَمَلٍ وَدِيعٍ في غفلة من الزمن.

دلف مؤمن مسرعًا مرتدًا نظارته القاتمة يتبعه يوسف، الذي تفحص المصنع نصف المتهالك بعينيه الهادئتين، بداية من الكتل المعدنية المصممة التي تشبه سفن الفضاء المتراسة جنبًا إلى جنب، مرورًا بمصدر مياه يستخدم في التبريد تتسرب من أنبوه الأفقي قطرات متلاحقة، انتهاءً بالعمال غير المعترفين بالملايس الوقائية أو نظارات الحماية أو حتى الغلازات المقاومة للاحتراق الكيميائي، إلا أن بعضهم وضعوا فوق رؤوسهم (خوذة) صفراء.

انشغل معظم العمال في تعبئة الأكياس البيضاء الكبيرة بالأسمدة التي هي في الحقيقة أجوال - من ماسورة عملاقة تخرج من إحدى الممكن المتصل بأشباه سفن الفضاء، كانت رائحة المواد الكيميائية الفاذة تخترق أنوفهم عندما هرول رجل في نهاية الثلاثينيات من عمره، «صير القامة لا يتعدى المتر وخمسين سنتيمترًا، يرتدي بظلالًا قماشيًا «ريضا للغاية وقميصًا بدا عليه الاستهلاك، تقدم مبتسمًا ومصافحًا مؤمن بحرارة:

- أهلاً وسهلاً يا باشا.. داحنا زارنا النبي، أهلاً وسهلاً..

- عايز اتكلم مع أسامة البنا.

- خير يا باشا.. هو في حاجة؟

- هعتبرك ما سألتنيش!

قالها مؤمن بوجه صَبرٍ للرجل الذي تدارك خطيئته قائلاً بارتباك:



- آ.. أوي أوي سيادتك.. ثواني ويكون عند حضرتك..

- لا أنا اللي هروحله، هو في أنهي دور؟

- في المعمل سيادتك في الدور الأرضي، تحت ده علطول، اتفضل يا باشا السلم من هنا، هو الباشا تبعك؟

قالها قاصداً يوسف والذي بدا غارقاً في ملاحظة تفاصيل المكان، فصوت صرير القلم التخليبي الذي بدأ في كتابة بضعة كلمات حول ما يراه بسرعة الصوت، قد طغى على حوار مؤمن مع ذلك الممثل.

- اتفضل يا دوك!

قالها مؤمن ليوسف متجاهلاً السؤال راقماً الرجل بنظرة نارية، ليصافح الرجل يوسف بحرارة:

- أهلاً وسهلاً يا فندم.. أهلاً أهلاً.. أهلاً وسهلاً.

- كفاية!.. إيه؟! 500 أهلاً وسهلاً! ما تورينا بقى أم المكان عشان نخلص!

قالها مؤمن ببعض العصبية؛ لينفجر الرجل ضاحكاً ويشير لهما لاتجاه السلم، نظر مؤمن إلى يوسف في تعجب وتبع الرجل المبالغ فيه، ثم تبعهما يوسف الذي أثر الصمت.

- السيستم بايظ..

علق يوسف معدلاً وضع حزام شطنته المعلق فوق كتفه اليمنى حتى أسفل يسار خصره، ثم تابعوا هبوطهم جميعاً للدور السفلي ليرد الرجل في صدمة:

- أفندم؟!!

السيستم المضاد للحرائق، المحبس مقفول، لو كان مفتوح كان هيبقى فيه مسافة بينه وبين الكباس، واللمبة مظفية.. خطر جداً، الحريقة الكيميائية أخطر أنواع الحرائق.

ألقاها يوسف مشيراً إلى مجموعة ملونة من المواسير الرفيعة المعلقة في سقف الدور الأرضي، رد الرجل بسعادة مبالغ فيها:

- ماشاء الله عليك يا فندم لمامح! كلامك صح، النظام بايظ من شهرين فعلاً، هنقول إيه بقى، ولاد الكلب بتوع الصيانة ربنا ينتقم منهم، بندعي عليهم ليل نهار والله.

- صح كده، إدعي!

قالها مؤمن مستهزئاً ليضيف يوسف وهو يتابع نظام الإطفاء بعينيه: شتيمتك في رجالة الصيانة مش كفاية عشان تبرر خطورة مصنع قوة انفجاره تعادل ربع قبيلة ذرية، افكر دايمًا إبريل 49! انفجار تكساس، مخزن نترات الأمونيوم، ضرر عدى 80٪ من مباني المدينة، أكثر من 500 قتيل.. و8000 جريح.

- استر يا رب! والله يا باشا مش عارف أقولك إيه.. يا ريت تقول للمدير الكلام ده، إحنا اتكلمنا معاه 100 مرة، مافيش فائدة.

توقف الرجل أمام معمل تفوح منه رائحة نفاذة وأردف:

- هنا يا باشا وصلنا، أسامة جوه على اليمين، أول واحد.

- عارفه.. تقدر تشوف شغلك انت!

قالها مؤمن ليتبخر الرجل بعدها مبتسمًا.

تابع يوسف دراسته للمعمل المتهالك في صمت، والذي بدا أقرب لمغسلة دراي كلين قديمة، تراصت أمام عينيه ملاحظاته التخيلية بقلمه الرصاص الذي لا يبرد طرفه، رجلان، إحداهما في بداية الثلاثينيات والآخر نهاية الأربعينيات، ارتدى الأول حذاء ذا ماركة عالمية لكن بها خطأ مقصودًا كتب قلم يوسف بجانبها «نسخة قليلة الجودة»، وبضعة قوارير كبيرة الحجم بها العديد من الكيماويات مختلفة الألوان لفت نظره أكثرها اصفرارًا ليخرج منها سهم تخيلي كتب بجانبه «حمض كبريتيك مركز»، وسهم آخر خرج من بين أصبعي الرجل الأكبر سنًا، تحديدًا من صبغة بنية قائمة صغيرة في حجم زر القميص كتب في نهايته «مدخن شر»، وكتب، نعم.. كلب متوسط الحجم، يحوم حول صاحبه، ذلك المدخن الشره الصامت ذو الذقن المشتعلة شيتا، والذي بدا منهمكًا بإضافة شيء ما في إناء كبير.

- إيه الريحه دي، اتنوا بتصنعوا زبالة هنا؟!

قالها مؤمن بغضب في طريقه لدخل المعمل، رمقه الشاب ذو الحذاء المقلد بنظرة غير مريحة، ضغط على زر في لوحة أزرار معلقة على الحائط وقال:

ممنوع الدخول هنا على فكرة.

إيه! مش فاكركي يا أسامة؟

قالها واضعًا يده فوق منخاره مقاومًا رائحة عفنة أشبه برائحة البول.

الشكل مش غريب عليا.

مؤمن البحيري يا أسامة، مباحث..

لا مؤاخذه يا سعادة الباشا.. اللي ما يعرفك يجهلك!

قالها مصافحًا مؤمن الذي صافحه بفتور.

حصل خير.. روح اشرب سيجارة يا بشمهندس عشان محتاج أسامة دقيقتين.

قالها مخاطبًا الرجل ذا اللحية نصف البيضاء، ثم أخرج من جيبه منديلًا ورقيًا خبأ به أنفه بتأفف؛ لترك الرجل ما في يده ويتجه خارجًا في صمت، تاركًا كلبه مشغولًا ببناء زجاجي فارغ.

بص! أنا عارف ظروفك كويس عشان كده مش هطول عليك، هما سؤالين هسألهملك وهسيبك تصنع «البني» اللي بتصنعه ده.

قالها مؤمن لأسامة، ليقاطعه يوسف متابعا المعمل ببصره كأنه يحدث نفسه:

نترات أمونيوم.. مرتفعة الكثافة.

ودي عرفتها بالإحساس؟!

قالها ليوسف مشيحًا وجهه عن أسامة.

- الأمونيا هي السبب في الريحه اللي مدايقاك، ده غير إن المعمل درجة حرارته عالية، يعني تفاعل طارد للحرارة.. وبما إن المصنع بيصنع أسمدة، يبقى أكيد الأمونيا بيتم خلطها مع حمض....

- الأزوت.. سمد أزوتي.

- بالظبط، وده ياخذنا لأكبر لغز شوفته من فترة، إزاي معمل بيتج مركب شديد الانفجار زي نترات أمونيوم، ومافيش فيه سيستم مضاد للحرايق.

علق يوسف متعجبًا؛ ليرد أسامة مجففا يده بقماشه:

- ده الطبيعي يا باشا.

- ما علينا، خلتنا ندردش شوية ونخلص.

- لا مؤاخذه يا مؤمن بيه، هو فيه إيه حضرتك؟.. أنا عملت إيه؟

- لا ماتخافش أنا مأمك ده شوية روتين، يلا.. كفاية هلك وجاويني

عشان نمشي، كنت فين الساعة 6 الصبح يوم الحادثة؟

- الحادثة!

أعادها أسامة بانزعاج ليتنهذ مؤمن طويلًا ويضيف بعدما هدأت نبرة صوته:

- أسامة.. أنا مقدر إنك مش عاوز تفتكر.. بس زي ما قولتلك ده مجرد روتين.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها يوسف مؤمن يتحدث بتلك الرقة.

لمحت أمرك يا باشا!

يلا.. فكر كويس وجاوب!

قالها مؤمن مستعيدًا نبرته الأمرة متفحصًا شيئًا ما في هاتفه.

تهنئ أسامة وأضاف بعدما أرغم عقله على العودة قليلًا للوراء:

أنا نزلت قبل الساعة 6 تقريبًا.

لا لا لا.. مافيش تقريبًا!.. دي ماينتصرفش عندنا في المباحث.

رد مؤمن متابعًا قراءة شيء ما باهتمام في هاتفه من دون أن ينظر لأسامة.

أسف يا بيه.. نزلت 6 إلا عشرة.

عشان؟!

كنت عايز أشتري فطار سعادتك.

ليه؟ ماكانش فيه فطار في البيت؟

لا يا باشا ماكانش فيه.

آه.. مين شافك؟

قالها متابعًا تفحص هاتفه الجوال باستهتار.

واحدة فلاحه باعتلي جبنه قريش في السوق، وواحد باعلي شوية فاكهة

واشترت من محل ثاني فول وطعمية.

فاكهة إيه؟

قالها يوسف متدخلًا لأول مرة، بيد أنه لم يظهر منه وقتها سوى ظهره، حيث انشغل بمداعبة الكلب بترقب خشية أن يثور عليه.

نظر له أسامة متعجبًا ثم رمق مؤمن الذي هز رأسه موافقًا على السؤال ليجيب أسامة:

- يوسفندي.

- وبعدين؟

قالها مؤمن.

- هو في حاجة يا باشا؟!

- نتحقق معايا يله ولا إيه؟! أسألك تجاوب!

صاح مؤمن بوجه حاد ثم أعاد هاتفه مرة أخرى في جيب بنطاله.

- آسف يا بيه!

- وبعدين؟

- وبعدين لقيت نفسي اتأخرت على الشغل، خدت الأكل ونزلت على المصنع.

- مين فطر معاك؟

- فطرت لوحدي يا باشا.

- آه.. ماقولش الكلام ده ليه في التحقيق؟

- حضرتك تفكر لو أي حد في مكاني، كان هيركز في الوقت أو في الفطار بتاعه؟ يا باشا دا انا ماكتش قادر أنطق حضرتك.

- طيب.. الحَمَام فين؟ ولا ماعندكوش حَمَام هنا؟

قالها مؤمن ملتفتًا حوله.

فوق في الدور الأولاني سعادتك.

ماشى.. كلم الدكتور عن الشغل شوية عقبال ما آجي!

- تمام سعادتك.

- حلو الكلب..

قال يوسف مراقبًا حركة الكلب المضطربة.

- آه.. ده بتاع راغب، تاني يوم ليه هنا، مش عايز يولف على حد، كان

هيعض عبد الله بتاع الأمن أول أمبارح.

- فاهم قصدك.. أنا عندي كلب.

- هو الباشا زعلان مني يا دكتور ولا إيه؟

- لا.. بس لازم يسألك عشان في التحقيق الأولاني ماقولش كل حاجة..

- إحنا عارفين إن الصدمة كان ليها تأثير، البقية في حياتك!

- حياتك الباقية.. آهو.. قدرني بقى.

قالها بائسًا.

- ندايق لو كملنا كلام؟

- لا عادي.. نكمل.. عايز تعرف إيه؟

- مافيش موضوع معين.. أنا حسيت من كلامك إنك بتحب الفاكهة.

قالها متفحصًا إناء زجاجيًا مستقرًا فوق حامل خشبي، كتب عليه رمز

كيميائي باللون الأسود.

- أهو زي ما حضرتك بتحب الكيمياء كده.

- العلم شيء شيق.

علق يوسف متابعا تفحص الأواني الزجاجية.

كان المعمل خائلاً تماماً من الحياة عدا يوسف وأسامه.. والكلب.

- أنا عارف إن اللي حقوله ده مش هيعزيك، بس انت ذاكرتك كويسة، أنا مستغرب إنك فاكركل حاجة بالتفاصيل.

- أي حد مكاني مش هينسى أي حاجة، تعرف! ساعات بتمنى اني ماكش نزلت بدري اليوم ده، أهو.. يمكن كنت أنقذتهم، أو على الأقل أموت معاهم.

- أنا عارف إحساسك.

- إحساس صعب يا دكتور، ماحدش يقدر يحسه غير اللي زيي.

- انت كنت لابس يومها القميص ده؟

- ليه؟ إשמعني يعني؟

تساءل متفحصاً قميصه بدهشة.

- عندي إحساس إنك كنت لابس القميص ده.

- لأ.. إحساسك خانك يا دكتور، يومها كنت لابس تيشرت نص كم أبيض، وبعدين هيفرق معاك في إيه أصلاً؟

- مش عارف، اتخيلتك وانت جاي من السوق بالقميص ده.

- لأ ده انت - لا مؤاخذه بقي - جاي تريباً عليا..

- ماحدش، بس عندك حق، كان سؤال سخيف.. متأسف!

«هل خير.

رد ممتعصاً:

انشغل أسامة في عمله مجدداً متجاهلاً يوسف، مرت دقيقة من الصمت تابع فيها يوسف دراسته للمعمل ومحتوياته، ليلقب دفعة الحديث مستجداً:

- الشغل هنا فيه نسبة خطر عالية... بيدفعوا مرتبات كويسة في المصنع؟

- يا باشا إحنا بنشم نترات أمونيوم ويتحرك وسط مية النار والبافر.

قالها ممسكاً بزجاجة كبيرة تحتوي على سائل مركز للغاية كتب عليها  $(H_2SO_4)$  ثم استطرذ:

- ويرموا لكل واحد في الآخر 800 جنيه.

- كام ساعة شغل في اليوم؟

- من 10 لـ 12.

قالها ليحرك يوسف رأسه في أسف ماطاً شفتيه، ثم مرت بضع ثوانٍ من الصمت، صعقه بعدها يوسف بسؤاله عندما اقترب من المحاط الأيسر للمعمل:

- فتلتهم ليه يا أسامة؟

ترك أسامة كأشًا كان في يديه لينكسر على الأرض، ونظر ليوسف عاقداً حاجبيه صائحا:

- أنت اتجننت بقول إيه؟! أنا ماقتلتش حد.

انحنى يوسف وأخرج من جيبه منديلاً ورقياً وفرده ملتقظاً فأرآ صغير الحجم من ذيله قائلاً:

- في الهند بيعتبروا قتلهم فال وحش.

تفحصه أسامة بنفس النظرة الحائقة مضيقاً:

- وفي مصر بتعتبر قتلهم نضافة.

صمت لثانيتين ثم انفجر:

- أنا ماقتلتش حد... فاهم!

قالها ورمق يوسف بتلك النظرة المخيفة، والتي لم يتخيل الأخير أن يعرفها ذلك الوجه الهادئ.

نبح الكلب بطريقة هجومية تجاه أسامة والذي رمقه بنفس النظرة مجدداً ليتراجع.

- تقصد الفران؟ ولا عيلتك؟ اللي اقتتلوا بدم بارد.

- كلمة كمان وهتندم فاهم ولا لا!

- مش هتلتحق تخليني أندم، لأن الموضوع انتهى، أنا عرفت كل حاجة، ده مايمنعش إني لازم اعترفلك انك كويس في التفاصيل..

وقف مواجهاً أسامة منطلقاً يده من آثار الفأر الميت وأردف:

ماخدتش وقت كبير عشان تتخيل سيناريو متماسك تشرح فيه السبب اللي خلاك تغيب عن مسرح الجريمة أربعين دقيقة قبل معاد خروجك الطبيعي، لكن عنيك بصت يمين.. ناحية الكلب، حاولت تفهمنا - أنا ومؤمن - انك بتبص على الكلب، مع ان الحقيقة انك كان لازم تبص يمين، كاستجابة للجزء المسؤول عن الإبداع في المخ..

قالها وسط صمت أسامة ليكمل:

سرعتك في سرد التفاصيل دليل على ذكائك وحدة عقلك اللي أعلى من المتوسط؛ لأن الإنسان لما بيكذب بيحتاج وقت عشان يصنع قصة كاملة، انت كسرت القاعدة دي، ولو ان القصة ماكانتش كاملة..

صمت ثانيتين تحرك فيهما للأمام معطيًا أسامة ظهره شارحاً كأنه يحدث نفسه:

لما سألتك عن لبسك كنت بأكد وجهه نظري عن درجة الحرارة في الفترة اللي حصلت فيها الحادثة (.. الكلام ده من أكثر من شهرين..). الحادثة حصلت تقريباً في يوليو، عز الصيف، كنت لابس تي شيرت نص كم أبيض، كل ده كويس، منطقي، لكن اللي ماكانش كويس هو الغلطة في التفاصيل.

ثم توقف وأردف:

فاكهة مستحيل تكون موجودة في سوق وقت الصيف، اليوسفي هو الغلطة..

«ههاز كشف كذب بيولوجي.. قضيتك انفتحت من ثاني!  
قالها ولاذ إلى الصمت.. راقبت عيناه الهادئتان رد فعل أسامة الذي  
غلبه الغضب والتوتر، ابتسم الأخير قائلاً:  
«أنا فعلاً مصدوم.

علق متظاهراً بعدم اهتمامه بيوسف، وتحرك للناحية المقابلة لباب  
المعمل ممسكاً بذلك الوعاء الزجاجي بمحتواه الأصفر الداكن مضيقاً:  
«على قد ما نظريتك كانت صح، إلا إنك مافكرتش في السؤال الأهم..  
أغلق باب المعمل بالمفتاح، ثم قذفه بجانبه، بدت عيناه زائغتين  
بغريفة غريبة، ووجهه مختللاً تماماً عن الوجه الذي قابله منذ دقائق،  
أضاف:

«نتمعل إيه لو اتحبست جوه المعمل مع قاتل.. بدم بارد؟  
«مؤمن هيرجع في أي لحظة.  
علق يوسف مترجعاً.

«مش هيلاقينا.

«قتلتهم ليه؟

قالها محاولاً عدم إيذائه بتأثره بهول الموقف، مترجعاً خطوتين للوراء  
لناحية الباب الداخلي للمعمل.

«أسرار بيوت يا صاحبي.

«كانوا بيكرهوك؟

«السواد اللي تحت عينك، دليل مادي على عشقك للسهر على الرغم  
من معاد شغللك اللي بيدأ بدري، العشق اللي خلاك تكسر المنبه من  
غضبك، المنبه اللي صحاك من أحلى.. وأقصر نومة..  
(الأوضه كانت مقلوبة، وشوية حاجات منكسرة، منه منكسر)

انت مانزلتش من البيت قبل الساعة 6.. مش انت الشخص اللي عنده  
نشاط يصحبه الفجر عشان يفطر.  
ألقاها ثم توقف لثانيتين واستدار قائلاً:

«تفضل آخر تفصيلة، المفضلة عندني، الكيمياء الحيوية.. بغض النظر  
عن حدة عينك اللي ضاقت لما جاوبت عن سؤالني بالنفي، وده في  
حد ذاته دليل على فكرة انك تحت ضغط نفسي، لكن الأهم- الأهم-  
كان الكذب نفسه، أعراضه الحيوية اللي بتظهر واضحة زي الشمس..  
للي يشوفها.. التوتر المسيطر على المخ بيدي أمر لضخ كمية أكبر  
من الأدرينالين، القلب بيشغل بسرعة أكبر عشان يوصل الأدرينالين  
لكل خلايا الجسم، نفس رد فعل إحساس الخطر، الفرق الوحيد انك  
مابتجريحش، لكن الدم هو اللي بيجري، وكتييجة العرق بيزيد، درجة  
حرارة الجسم بتعلو، المسام تنفجر بريحة العرق المخلوط بريحة  
الأدرينالين، وللأسف.. الإنسان مايقدرش يميزها.. بس الكلاب  
بتقدر.. عشان بالنسباليها دي ريحة الخوف..

رمق الكلب بنظرة عميقة، ثم أضاف بثبات مشيراً تجاهه:

«الكلب نبح!

قالها متابعا تراجع الهادي، ليرد أسامة متسائلا:

- عايز تموت ازاي يا دكتور؟

ثم تفحص إناء به كحول مركز أسمسك به، أخرج من جيبه قداحة حكهها لتشعل وتركها مشتعلة حتى بعد أن حرر إصبغه منها، تابع يوسف تساؤلاته:

- مين كان يضريك وانت صغير؟

- ماحدش يقدر يضربني.

قالها أسامة متفحصا إناء كحول أكبر حجما على الرف الخشبي متجاهلا يوسف الذي ظل يتراجع في رعب.

- دبحتهم ليه يا أسامة؟

اختفى يوسف خلف بضعة أكياس من الأسمدة بدا أن أحدهم مقطوع، ظهر له وعاء زجاجي صغير مستقر عن يمينه يحتوي على بقايا حمض الكبريتيك المركز، تذكر ساعتها يوسف درسا بدائيا في الكيمياء التحليلية ليدفع الإناء الزجاجي، ويسقط فوق السداد مكونا كثيرا من الأبخرة، انتهى أسامة من بحثه في الرف الخشبي حتى وجد قارورة بها كمية أكبر من الكحول، ليفاجئه دخان كثيف.

لكنه رد على سؤال يوسف:

- عشان كان لازم يموتوا.. زيك بالظبط.

البلد، قراره وتقدم نحوه ليتأهب الكلب محركا ذيله ومطلقا نباحا أريا، أعماه الدخان وخنقته الرائحة النفاذة، حرق البخار مقلتيه لكنه قال غاضبا:

قال ده مش هيحميك.. هتتحرق هتتحرق، وهتتحايل، هتتحايل عليه زي ما كلهم اتحايلوا..

تأهب أسامة للهجوم مجددا لتوقفه كلمة يوسف المختفي خلف الدخان والأرفف:

أوانني... مؤمن المفروض يخش دلوقتي.

توقف أسامة لبرهة محدقا بالباب الذي لم يطرُق عليه أحد، ثم نظر مرة أخرى تجاه صوت يوسف الذي أضاف:

أوكي غير رأيي.

ابتسم أسامة بتشف، ورمى القارورة لتتكسر بجانبه على الأرض، أحمد نيران قداحته وأخرج مطواة من جيبه وفتحها بفمه متصبيا عرقا بظلمة، ثم أسمسك بإناء زجاجي فارغ وقذفه على الدخان في عنف منتظرا رد الفعل. كان الدخان قد ملأ نصف الغرفة بالفعل، خبا نصف وجهه بقبعه واقتمح الدخان، وجد الباب الداخلي للمعمل مفتوحا على مصراعيه، و.. تبج الكلب.. مجددا.

تحدث الصمت بلغته التي يتقنها جيدا، كان ذلك في ممر جانبي يصل بين المعمل ومخزن للمواد الكيميائية، تملأ روائح نفاذة خانقة،



وتكسوه الظلمة إلا من لمبة بيضاء نصف عاطية، تطلق ضوءاً أبيض متقطعاً كالفلش كل بضعة ثوان، مصحوباً بصوت خافت أشبه بـ«شرد» كهربي، كان صوت لهات يوسف الحذر أعلى وأكثر وضوحاً من أي شيء آخر، ركض غير مسرع لقلعة الإضاءة، ينظر خلفه في دعر ثم أمامه مجدداً، ثم خلفه مجدداً...

رفع عينيه وضغط زر الفلاش بعنف ملوحاً بالكاميرا أمامه في اتجاه الباب غير مصدق لحظة السيء، هداً من روعه ونظر أمامه بمقلتين فاغرتين عن آخرهما لا تريان سوى الظلام، أنارت لمبة السقف مصحوبة بشرذها المغيث ليجده أمامه، ممسكاً بمطواة لمعت بيده.

الماسورة دي ياما اتخبطنا فيها أنا وراغب.. كان لازم تشتغل هنا عشان تعرفها.

أظلمت اللمبة مجدداً ليتراجع يوسف بخطوتين للوراء بحذر بينما تابع أسامة حديثه:

«ما تقلقش! الباشا مش هيعرف إن فيه باب داخلي، هيفتكرونا مشينا.

«واضح إنك اتخليت عن مبدأ الحرق.

قالها ليضيء المكان مجدداً ثم ينطفئ، تراجع مترين للوراء بعدما طأوعته ساقه المتألّمة، رد أسامة في الظلام كالشبح:

«بصراحة.. عايز أشوف رد فعل عنيك وانت بتشقق.

«لازم أعترفلك.. أنا عندي مشكلة حقيقية مع السكاكين.

قالها يوسف لاهتاء، متابعاً جر ساقه بياس.. تأكد من أنها النهاية.

سقط أرضاً بدون مقدمات، يتنفس الرطوبة والغبار، التفتت وجنته برد البلاط القاسي، تأوّه بشدة وتعرق ممسكاً ساقه المعذبة، ثم أغمض عينيه متألّماً محاولاً عدم الصراخ، أظلم المكان حوله مجدداً وساد الصمت، لمحت عيناه - رغم الظلمة - تلك الماسورة البارزة من الأرض أمامه كالفض، لا بد أن من صممها شخص سادي، أو مستهتر، أو مواطن قاهري أصيل.

زحف سريعاً للوراء محاولاً عدم إصدار أي صوت ملفت، تحسس شنته برعب ونظر للمخزن البعيد ذي الباب المفتوح، كانت الرؤية ضحلة للغاية.. لم يستطع التعرف على المسافة جيداً، أنارت اللمبة العظيمة أمامه كالبرق الباهت، ثم أظلم عالمه بعدها مجدداً كالقبر، نظر خلفه مجدداً وكنم أنفاسه متطوعاً كيلا يلفت النظر، علم أنه قد وقع في شرك لا مفر منه، أخرج الكاميرا العتيقة وأطلق العنان لزفير ضاق به صدره، تحسس الأرضية الباردة وبلغ ريقه بتسرع، حرك جزءاً من الكاميرا وضغط على زر الفلاش لينطلق أمامه وينير نفقاً طويلاً ثم انطفأ، بعدها أضاءت اللمبة البيضاء المتألّمة المكان مجدداً لثانيتين وتركته أسوداً قاتمًا، قام من مرقده

-أوعذك إنها هتبقى سريعة.

- كان نفسي أصدقك.

قالها وانتهى الطريق وراءه بحائط قدر، سلمه لسفاح مريض بيروء قاس، رد أسامة ضاحكًا:

-هههه، وأنا كمان.

أنار ضوء الممر مجددًا، وظهر أسامة بوجهه الساخر وعينييه الزائغتين على بعد مترين ونصف فقط، و...

بدأ بالهجوم.

تحرك يوسف جانبًا محاولًا مفاداة الضربة الأولى غريزيًا لكنه شعر بأن جسده أثقل من شاحنة نقل سيارات عالقة، شعر أن الضربة قادمة لا محالة لتخترق أنسجته الرخوة في سكون.. لكنه تحرك في الظلمة الموحشة، تحرك من أجل البقاء، سمع صوت احتكاك المطواة القاسي بالحائط بعدما حدثت عنه ورأى شراراتها الكهربائية الناتجة عن الاحتكاك، شعر بأنفاسه التنتة، حاول الهرب، لكن شيئًا عرقل قدمه مجددًا، لم تكن ماسورة تلك المرة، بل كانت قدمه، قدم أسامة.. سقط يوسف أرضًا.

ثنى الأخير ساقه واستقر بها فوق صدر يوسف بعنف، نزل كحجار يتأكد من استسلام حَمَلِهِ في عيد الأضحى، أمسك بيسراه رقبه يوسف الذي قاوم الخنق بيمينه محركًا يسراه في الجو عشوائيًا في يأس، محاولًا منع طعنة قاتلة.

- لما تروح هناك، إسألهم ماتوا ليه..

قالها وتساقطت بضع قطرات العرق ولعاب فوق عيني يوسف، شعر بأن الطعنة آتية لا جدال، أنارت اللمبة المريضة مجددًا مطلقة ذلك الصوت، ومعها ثلاث طلقات..

ثلاث طلقات حائقة خلعت مفصل كوعه الأيمن تمامًا، ليسقط نصف ذراعه أرضًا مع مطواته كتلة واحدة، ويصرخ في ألم بالغ كالطفل، انفجرت الدماء منه كالبركان.

«حركة كمان وهتشوف مخك ع الأرض!»

قالها مؤمن بهدوء ووجه به كثير من الغثيان، وراءه وقف الرجل المصير منجوعًا كطفل بلل سرواله.

مد مؤمن يسراه ليوسف مساعدًا إياه على النهوض، بينما لا تزال يداه متحفزة بمسدس 9 مللي، تجاه المسخ الجريح، رمقه مجددًا بنفس النظرة التي يملأها القرف، ثم تفحص يوسف بقلق:

«تمام يا دوك؟»

أمسك يوسف بيده وقام مجددًا، صمت بعينين مصدوتين، ثم حرك رأسه إيجابًا.

\*\*\*

«يا عاجبي...! وشك مكرمش من ساعة الحوار بتاع المصنع.

«يا عارف!

يوسف! لو كنت أعرف إن الموضوع هيوصل للسواد ده ماكتتش...

فاطعه يوسف مبررًا:

«الحياة نظرية احتمالات، أي شيء ممكن يحصل لأي حد.. في أي مكان.

«سمت مؤمن للحظة ثم قالها بصدق عميق:

«الحمد لله إنك كويس!

«الحمد لله إنك بتعرف تنشن.

«علق مؤمن بثقة: النشان مش لغز..

ثم نظر أمامه مجدّدًا وتابع التلفاز، فعلق يوسف:

«الغز الحقيقي هو إزاي صحفي يصاحب ظابط مباحث بالسرعة دي!!

انت ساعدتني في شغلي فقولت أصحابك مصلحة.. ده غير اني

«هيجب بلون شعرك.

قالها مشيرًا بزجاجته ساخرا.

«أوكيه.. صراحتك زيادة.. عندك قهوة؟!

«حظك وحش، خلصت امبارح.. ثواني هطلع أجيبك من فوق.

«بيهم نايمين ماتلقهمش! أنا هشرب الموجود.

### (3)

بعدها بيوم

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل في فيلا مؤمن بالمعادي عندما رفرت جفون يوسف الثقيلة بعدما سمع صوت نداء قوي، حرره من شعور بين الوعي والنوم:

- يوسف!

- همم!

همهم يوسف بعدما أفاق عيناه من غفوتها بصعوبة، ليجد نفسه جالسًا فوق كرسي خشبي أنيق قديم التراث وطاولة عتيقة، أيقن يوسف أنه جلس هنا لأنه لم يرسل عموده الأسبوعي بعدما ترك مكانه بجانب مؤمن أمام التلفاز وتوجه للسفرة، كان من الواضح أنه قد نصب مكتبه النقال من لابتوب ومذكرة وقلم، تجرع مؤمن قليلًا من الشخير وصاح بعد أن وضع التلفاز على الاختيار الصامت:

- إصحي يا كولومبو!

- واضح إني نمت قدام اللاب توب.

- كفايه شغل وتعالى اتفرج على الماتش.

- في حاجات لازم أخلصها.

مرت ثانيتان من الصمت أضاف بعدهما يوسف:

- البشهندس حالته أحسن دلوقتي؟

- بلاش الحوار ده، تعالى نتكلم في حاجة ثانية أحسن.

قالها بعد زفير عميق وقليل من التفكير.

- آسف!

كان رد يوسف، ثم مرت لحظة لم يتكلم فيها الاثنان، حاول فيها يوسف الانشغال بكتابه إلى أن أضاف مؤمن:

- مابقاش حتى بيتكلم معايا.

قام من أمام التلفاز ليجلس مواجهًا يوسف على السفرة ثم أردف:

- عارف! أول مرة أشوف في عنيه انه كره الحياة.. نظرة عمرك ما تتخيلها.

أشعل سيجارة ثم همّ بالقيام مبتعدًا عن يوسف بعدما تذكر كرهه الجرم للدخان.

- خليك!.. كمل!

تابع مؤمن:

- الجلطة ماخلصتش على جسمه بس.. دي خلصت على روحه كمان.. مابقاش عايز يعيش وهو عاجز.

صمت بعدها يوسف بعدما تجمدت أنامله فجأة على لوحة مفاتيح حاسبه، وتوترت عيناه حينما أراد التفكير في جملة جيدة يمكن قولها:

(إن شاء الله هيفخف.

غير.

تهدد مطلقًا زفيرًا طويلًا للغاية وأضاف:

تعالى نغير الموضوع.

قولي!.. مش ناوي نخش القفص من ثاني؟

لو لقيت واحدة بتحب الدوري الإنجليزي.. أو عدك هتجوزها.

ابتسم يوسف مجاملًا ثم أضاف:

انت كمان شكلك تبعان، خش نام شوية!

أنا فعلاً مانتمش من ساعتها.

استريح انت! أنا هخلص شغل وهريح على الكنية.

داعب مؤمن كتفه بأنامله التي تحمل بينها سيجارته المشتعلة، ثم

حرك رأسه موافقًا.

مرت ساعة كاملة.. كتب فيها يوسف كل ما خطر في باله عن تلك

الجريمة التي حيرت الطب الشرعي لثلاثة أشهر كاملة، الرجل المفقود

الذي أكد كل جيرانه أن زوجته «الطبيبة الصيدلانية» قد رافقته للشقة ولم

ينزل منها.

- إذن كيف اختفى وأين؟

## خيوط ودلائل:

«كان سؤالاً يساوي مليون جنيه»، أو هكذا وصفه الجميع وقتها، أتذكر كيف عاين الطب الشرعي المنزل مرتين أو ثلاثة ولا جديد.

عدة مرات عاين فيها الطب الشرعي الحمام الذي أقسموا جميعاً أن شيئاً ما «دموياً» قد حدث فيه، لكن ماذا حدث هنا؟

أتذكر كيف تقدمت بطلب بفحص الماسورة الخارجة من البانيو وبالفعل تم تكسير البانيو وفحص الماسورة، ثم المفاجأة، بقايا كمية كبيرة من البوتاسا الكاوية وبقايا أشلاء عالقة.. لتكتمل الصورة وتتضح، لقد ساعدها كثيراً دهاؤها الشديد ليجعلها تدفن جثة زوجها «الخائن» في «البوتاسا الكاوية» وماء النار لثلاثة أسابيع متتالية بعدما عزلت البوتاسا الكاوية عن جسد البانيو بطبقة تشبه الطمي.. ثم أخفت الرائحة بعشرات من معطر السيارات علقتة في سقف الحمام.

لا أعلم بماذا يجب أن أصف تلك المرأة؟ قاتلة لا تعرف الرحمة، أم أنني قررت الانتقام ممن لم يرحمها؟ كيف يمكن أن يوصف ألم الخيانة؟ تلك الطعنة النافذة من الخلف، إن أقوى جرائم الانتقام وأكثرها بشاعة هي التي تأتي من أكثر الأشخاص إحساساً بل وإخلاصاً عقاباً للمجنني عليهم على فعلتهم الرخيصة، وانتقاماً منهم على الجرح الفاتر بجرح أكثر عمقاً.. لقد سمعت عن فتاة إيطالية أكلت حبيبها مع المعكرونة بعدما أظفرت به بعشرين طعنة متتالية.. أعلم أنه شيء مفزع.. أعترف أنه كذلك، لكن الحقيقة الصادمة التي اتفق عليها جميع علماء النفس

من أكل الضحية لحبيبها تشير بوصلتها تجاه الحب.. نعم.. الحب المدمر.. لا تتعجب! - فصدق أو لا تصدق لكنها رغبة بالاحتفاظ بالذي لديه بداخله.. أو حتى جزء منه بعد أن تمرقه.. لحظة ندم وشغف يعبر عنها القاتل في لحظة هستيرية بتلك الطريقة الغريبة.. وللعلم.. تكررت كثيراً.

إن جرائم الشرف والخيانة بالفعل محيرة. هذا ليس دفاعاً عن القاتل، لكن قبل أن تُرجمَ له يضيرك أن تقف في مكانه للحظة، وأن تتخيل الاختيارات التي أمامك بعد أن تُصعب بالصدمة التي عصفت بكيناك.. ماذا ستختار؟.. كيف ستسيطر على أعصابك؟ من ستكون حينئذ؟

في النهاية يبقى أن نعرف أن الخير والشر في جرائم القتل المروعة هو - أحياناً - شيء نسبي، أنت لن تجد المذنب والبريء دائماً.. بل هو أحياناً شيء آخر بين هذا وذاك.. شيء يميل للثنتين معاً.. يجعل من الغائل ضحية ومن المقتول سادياً لا يرحم..

اسألني عن الجاني؟!

لا أرى أي جاني.

كلاهما مجني عليه..

يوسف أصلان

اختلط خرير الماء الساقط من جهاز تبريد نصف معطل بصوت ماكينة تصوير لا تهدأ، ورنه موبايل بها دعاء صاحب مبهم الكلمات، تماماً كما يختلط أصوات الحياة في قلب القاهرة تاركاً بصمة شبه مطموسة في

أذن المارة.. بدا أن شخصاً ما قد غلبه النعاس على لوحة مفاتيح حاسبه  
النقال، بجانبه يستلقي هاتف وكوب كبير من القهوة الداكنة تخرج منه  
شبورة هادئة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة إلا ثلث في ذلك المكتب  
الضيق ذي الباب الزجاجي البارد عندما باغته ذلك الصوت غير المريح  
- يوسف!

قالها رجل في العقد الخامس يرتدي جاكيت «كاروهات» صوفاً كبيراً  
يكفي لصناعة غطاء سيارة، تخفي عنياه الصغيرتان خلف نظارته الطبية  
المقعرة، يمتلك وزناً زائداً قارب المائة وثلثين برغم قامته القصيرة،  
يتدلى أسفل عينيه الضيقتين كيسان غامقا اللون بالرغم من بشرته  
الفاتحة، اعتبرها ممناً مستحقاً للسهر حتى الفجر في البحث عن الجديد  
في المواقع الإباحية، التي يعشقها بنفس مقدار شراسته للأكل، اسمه  
كمال رخا، إله النكد عند الصحفيين القدماء - أو كما يتخيله يوسف -  
الرجل البطريق.

تابع الرجل الذي جذب يوسف من عمق أحلامه لواقع كابوسي:

- تحب أجيبك مخدة يا بيه؟

قالها بتلك اللهجة الـ«فلاحي» والتي تظهر تفاصيلها أكثر من غضبه..  
ثم مشى بطريقته المميزة التي تشبه الحركة البندولية، ولعلها السبب في  
صورة الرجل البطريق التي لا تفارق أعين يوسف كلما رآه، رمقه الأخير  
بنظرة تقطر صدمة بعدما أفاق من غيبوبته التي استمرت دقيقة واحدة، ثم  
أجاب بعد أن أيقن أنه كان نائماً:

أساذ كمال.. أنا!

لم أكمل ماسحاً خيطاً بسيطاً من لعبه من جانب فمه، ليضيف  
قالها:

أكل يا بيه كمل! ما هي تيكية، كله يبجي ينام ويشخر عندنا وفي الآخر  
يبجي لظفي بيه (يش..رلي) واتهدل أنا بسبب الهوات اللي زيك..

أنا مجهد اليومين دول بسبب الشغل وال...

ولا مجهد بسبب العزف بالليل يا بيتوفن؟

ثم عدل من وضع بنطاله برفعه قليلاً، كان واسعاً للغاية ذا ثنيات  
«أسر» مبالغ فيها، أردف رخا بنبرة هجومية:

أنا عرفت كل حاجة خلاص، ومن الآخر كده.. يا المطعم بتاعك ده  
يا الجنرال.. ماينفحش الاتنين.

نزلت الصدمة على يوسف كقصيرة زرع منتهية الصلاحية.. حاول  
الظاهر بعدم الصدمة، علم أن شخصاً ما قد وشى بجزء من حياته  
الشخصية التي يفرض عليها سوراً من السرية، رد هادئاً:

«دي حاجة شخصية مابتأثرش على الشغل»؟

قلب رخا في هاتفه المحمول بشغف ثم أضاف:

أنا اللي أقرر إيه يأثر وإيه ما يأثرش.

«دي جريدة يا بيه مش كباريه الليل.

تدخل شاب في بداية الثلاثينيات من خارج الغرفة مبتسماً قائلاً:

- ممكن أدخل؟

رمقه الاثنان ببرود، كانت أكثر النظرتين بعداً عن الصفر السيليزيوسي من جانب يوسف، والذي شعر باقتراب فقرة التنورة الشرقية، الفقرة التي اعتادها كثيراً، يبدأها حسام أبو العنين - مرؤسه المباشر في الجريدة - ببعض التقبيل لمؤخرة رخا وتنتهي بـ «تسخينه» ضد يوسف، بدا طويلاً بشكل مبالغ فيه، تائهاً بداخل ملباسه الكلاسيكية الفضفاضة على جسده النحيف، يمتلك عينيّين بارزتين كاللؤلؤ لا يعلم - إلا الله - إن كانا سبب تسمية اسم العائلة أم أنها مصادفة، وستين أرنبيتين يظهران كثيراً كلما ابتسم إبتسامته المستفزة، حسام أبو العنين سليل عائلة أبو العنين الشهيرة، لكنه أفلسهم، يعتمد على واسطته القوية، مدام فوقية، صاحبة المركز والنفوذ الكبيرين، التي دغدغت مشاعر رخا بوظيفة محترمة بالمؤسسة بشرط أن يرأس قريبها قسم الحوادث، منصور الذي سيتحكم في ملك الملك أليك، يسمونه الإنجليز «ألم في الرقبة»، والأمريكان «ألم في المؤخرة»، يسميه يوسف «حسام أبو العنين».

أكمل حسام بهدوء يحسد عليه مبتسماً كعادته:

- إيه يا جماعة صوتكوا جابب آخر الدنيا؟

ثم نظر بتشفّ تجاه يوسف، الذي تمنى أن تخطئ طائره تدريب حربية وتطلق صاروخاً على مكتبه، سمح لنفسه بالجلوس على طرف المكتب ونظر لكمال رخا يحثو أم مرضعة:

- مالك يا مدير؟ يوسف مزعلك في إيه؟

«ماحدش يقدر يزعلني يا حسام، بس أنا خلاص... جيبته نهايتي مع الدلع والفشل.

لو جيبته نهايتك معاهم أنصحك تسببهم.

كانت رد يوسف.

انت هتهرج معايا!! ماتردش عليا! فاهم!

قالها محدقاً بطريقة جعلت يوسف يظن أن عينيه الصغيرتين قد سقطتان في أي لحظة.

أصاف حسام:

«حصل خير يا مدير، هو يوسف ساعات عليه حاجات كده.. ولو اني ماعرفش الموضوع إيه بالضبط، بس برضك لازم تعتذر للأستاذ رخا يا يوسف. ده اخونا الكبير قبل مايكون مديرنا ومثلنا الأعلى.

رد يوسف:

انت ارجلته الجملة دي ولا كنت كاتبها؟

«شايف يا أستاذ كمال؟! شايف بيتريق عليا ازاى.. وأنا اللي قلبي عليه.

«سببه يا حسام! سببه.. أهو كله هيخلص منه في الآخر.

نفحص يوسف الاثنين بتعجب كأنه يشاهد كلبا بحر من خلال متحف «إي»، ثم توجه بحديثه لكمال رخا مضيقاً:



- هو أنا ليه حاسس اني عارف الجملة اللي هتقولها بعد كدة.. أيامك في الجرنال...

- أيامك في الجرنال بقت معدودة يا بيه.

قاطعہ رخا.

- De Javu!

قالها يوسف ماطًا شفتيه.

- هتريق كمان!

رد حاسم.

- سيبه يا بيه سيبه، معاد الاجتماع قرب، والحق هيرجع لاصحابه.

قالها رخا متحسبًا فكه ليرد يوسف بوجه جامد:

- لازم أمشي.. عندي شغل.

- إتفضل يا بيه، آه.. عندك خصم يومين.

تجاهله يوسف وبلع قهوته جرعة واحدة، ثم ضغط بضعة أوراق في جانب شنته حاسبه النقال، تأكد من وجود الكاميرا في مكانها ثم التحف معطفه الرمادي واضعًا ذراع شنته على كتفه.. واختفى.

اتجه يوسف بهدوء لسيارته الشاهين نصف الحية، التي كافح للحصول عليها بعد سنين من الادخار مع تحويرة العمر... وضع شنته التي حملها على كتفه العريضة على المقعد الخلفي ثم هم بالقيادة، رَمَقَ عتبة سجاثر على الكرسي المجاور له، لا بد أن مؤمن قد نسيها كعادته،

انطلق بسرعة نص كيلو بالساعة نتيجة للزحام الذي لا ينتهي فترة ذروته ولا يتنفس، كل أوقات اليوم فالقاهرة هي أوقات ذروة. وصل بيته بعد ساعة من الزفير المحمل بالكلل، وحرقة الدم وكمية لا بأس بها من عوادم السيارات.

وأخيرًا البيت.. كانت تمام التاسعة مساءً عندما وصل للعقار الذي يملكه في مدينة نصر، ذلك العقار شبه الراقي الذي يملكه تاجر ألبان يسور الحال يدعى «الحاج عبد النعيم» أو «الحاج» كما يلقبه سكان العمارة.. متزوج من حفنة لا بأس بها من النساء ويحتل الدور الأول والثاني، إلا أنه يؤجر الطوابق الثمانية المتبقية.. في الدور الأخير يسكن يوسف.

دلف يوسف بنايته الباردة، لم ينس أن يمر في طريقه للبيت ليحضر بعض الطعام لصديقه القريب من قلبه، والبعيد جدًا عن عينه معظم الوقت. «سيزار»، كلبه الوفي ذي العام والنصف، وصديقه الذي يفهمه بدون كلمة واحدة، ينتمي لفصيلة «الهاسكي» القطعية، أبيض اللون وبه بقعة رمادية تصل لوجهه وتغطي عينه الزرقاوتين.

ذلك الصديق الذي كاد يكون سببا من أسباب طرده من العمارة، حيث يراه الحاج عبد النعيم «نجاسة» للبيت، وسببًا لطرد الملائكة منه، بعد قسم «الحاج» بخروج سيزار من بيته، تدخل بعض العقلاء من بينهم الحاج فؤاد الذي يثق عبد النعيم في ورعه، واقترح حلا يرضي جميع الأطراف، ينص على بقاء سيزار في الحديقة الصغيرة الخاصة بالعمارة «أو منه حراسه ومنه ماينجسش البيت»، تلك كانت كلماته.



- الليلة دي بس.. لو عملت صوت!.. أي صوت!!..

قالها يوسف بنبرة تحذيرية ملوحًا بسببائه بعد فترة قضائها في حديقته المنزل مع سيزار، والذي دار برأسه خمسًا وأربعين درجة لليمين مطلقًا أنينًا ضعيفًا لاستعطافه، سلاحه الأخير بعد محاولات قياسية لإقناعه بتضمية الليلة معه في فردوسه الأعلى.. شقة يوسف.

تسللًا في هدوء شديد وخفة يحسدان عليها، إلا أن صوت صراخ قد خرج من الشقة المجاور له بعدما وصلا، بدا كصوت طفل صغير.. اقترب يوسف وسط الصرخات التي يواربها الباب المغلق محاولاً أن يطرُق الباب، تحفز سيزار في تقرب محرّكًا ذيله يمينًا ويسارًا، تجمد يوسف للحظة ليتراجع بعدها محرّكًا أنامله بعدما قبضها استعدادًا لطرق الباب، ترجل خطوة واحدة للوراء مبتعدًا عن الباب، ثم توجه بالحديث لصديقه الذي بدا يلهث مبررًا: «مشاكل عائلية»..

و دلفا مخبأهما في سكون.

تسربت لشرايينه لذة الانتصار بعدما نجح في الوصول للشقة بسلام.. انتصار كبير شعر به على ذلك الرجل، «الحاج نعيم» الذي يخيفه أكثر من روايات ستيفن كينج، وتولمه حقيقة أنه جاره الدائم، كما تولمه وتحز في نفسه حقيقة دخوله سلسلة أفلام نادية الجندي في فترة المراهقة.

أغلق الباب لبيدًا سيزار رحلته الاستكشافية في نهم، يعبث بكل شيء في جوانب البيت حتى الأرضية، قفز بعدها على كرسي مقابل لباب الشقة ونزل منه على مقبض الباب ليفتحه بغمه في حركة اعتاد عليها كثيرًا من

الذي فعلها من دون إذن مسبق.

شكلك هتقضي أسبوع مع خضر!

قالها مغلقًا الباب مرة أخرى ليرد عليه سيزار بصغير مكتوم به كثير من الاستعطاف، تصاعد فجأة صوت الصراخ من الشقة المجاورة، سكت للحظة محاولاً الاستماع لما يحدث لكن الصوت كان واضحًا، أنه جاره الصغير «حازم»، طفل لم يتخطَّ عامه التاسع بعد، لكنه يرى كل أنواع العذاب ويتجرعه يوميًا للثمالة، يعيش مع أمه وزوجها الذي يمتلك ورشة لكهرباء السيارات، «أسطه عبده» كذلك يلقبونه، يمتلك سعة في الرزق وفرة في الكرش لدرجة تجعلك عاجزًا عن رؤية حزام بنطاله، تفوح منه رائحة العرق صيفًا وشتاءً بدون سبب واضح، كان بالنسبة ليوسف مجرد «ترتبت يرتدي بنطالا ويمتلك كثيرًا من المال، وبالنسبة لحازم هو بمثابة رمز من رموز العذاب، فذلك الطفل - أي حازم - يعتبر الراعي الرسمي لأي طقوس يقوم بها الأسطى عبده للتعبير عن غضبه أو للتفليس عن كبته بعد يوم عمل شاق، ولا لمشكل من ضربه أمام أعين أمه التي تحاول أن تحميهِ قليلًا من البطش - بما لا يزعج مزاج- «الأسطى»، تأكد من أن كل أبواب وشبابيك الشقة ذات الغرف الثلاث مفتوحة، حتى ستائر الصالة والتي تحتضن بيانو قديمًا للغاية غير مغطى، تأكد جيدًا أن كل شيء على ما يرام ثم دخل الحمام مسرعًا ليتخلص من بعض التوتر الذي ملأ مثانته، عاد من دون أن يغلق حزامه مستمتعًا بزجاجة أخرى من نوعه

المفضل من الشعر، تفحص زجاجة كبيرة الحجم موضوعة فوق التلفاز فوق طبق خشبي صغير، بدت بداخلها مركبة خشبية قديمة الطراز، تشبه سفن الأسطول الإنجليزي قبل الحرب العالمية الأولى، فردت أسرعها البيضاء لا يحركها شيء، بجانبها كانت صورة له في الرابعة وبجانبه طفل بدا في العاشرة، يحمل في يده الزجاجة، نفسها، وبداخلها المركب القديم ذو الأشعة البيضاء.

تركها وألقى نفسه على ذلك المقعد الجلدي المريح المقابل للتلفاز، ممدداً ساقيه واضعاً اليمنى فوق اليسرى، تنهد في هدوء بعد أن استند رأسه على ظهر المقعد الوثير، قفز بجانبه صديقه في لهفة كأنه اعتاد على هذه اللحظة من قبل، يحرك ذيله في انتظار اللحظة الحاسمة، لم يخلذه صاحبه ومد يده ليجد الريموت كنترول بجانبه ثم ضغط على زر التشغيل.

- تعالني نشوف المنيو..

ظهرت أمامه فتاة تتلوى مثل الحية التي بها مرض عضال، ترتدي من الملابس ما وجد ليكشف أكثر مما يستر، وصوت نشاز يخرج من رجل ظهر بجانبها من العدم، رجل ضل طريقه للفن، فقرّر أن ينفذ في مستمعيه حكم الإعدام طرباً، ضغط على زر تغيير القناة ليجد سيناريو مشابهاً في قناة أغاني منافسة.

تأفف وضغط على الريموت مرة أخرى ليشاهد لاعب كرة في فريق شهير يسقط قبل «خط التمتناشر» ليركض الحكم ناحيته معلناً احتساب

الكرة جزءاً، ثم ضغط مرة أخرى لتغيير القناة ليتحفه محلل سياسي على قناة خاصة مصرية:

الحزب الوطني ده كله أعلام وكلهم ناس قلبهم ع البلد... مين بقدر ينسى الأستاذ صفوت الشريف والأستاذ أحمد عز.. وغيرهم وغيرهم.. ما ينفعش الكلام اللي حضرتك بتقوله ده.

قالها رجل في مداخلة تليفونية ليلفت يوسف لسيزار قائلاً:

لو شوفته في الشارع عضه ومالكش دعوة!

رد عليه سيزار بصوت ينم عن جهله بما يقول ثم ضغط يوسف مرة أخرى على زر تغيير القناة ليجدها، هي ما كان يبحث عنه.. تلك الفتاة التي حصلت على عقد احتكار لكل أحلام اليقظة والسكون التي تنتابه.. المديعة الرقيقة والحادة في آن واحد.. صاحبة العيون السوداء الواسعة التي من الممكن أن تجهز عليك بغمضة واحدة.. شعرها الناعم القصير، «و اللون الأسود الداكن والذي يميزها عن غيرها من أقرانها.

«الأميرة..»

حدث بها نفسه، ثم شرع في شرب المزيد من الشعر من زجاجته التي راقبها سيزار منتظراً أي اهتمام من شخص فقد اتصاله مع العالم الخارجي، سرح في تفصيلها بتلك النظرة التي لا تخلو من الإعجاب مبسماً عندما تضحك، مناصراً لها في نقاشها الحاد مع ضيفها البارد مع أنه لا يعرف لماذا يتصارعان.

حقن فمه ببعض من الشعير مرة أخرى لينظر سيزار لأعلى منتظرا دوره محركا لسانه في حركة غريزية، ينظر للزجاجة تارة وتارة لصاحبه، ثم أطلق نصف نبحة لم يسمعها صاحبه الغارق في بحر من التأمل.. بحر يسمى «يارا قاسم».. مقدمة برنامج التوك شو الشهير «فجر المحروسة».. وأخيرا لم يتمالك سيزار نفسه مع رشقة أخرى من يوسف المتيتم وأصدر نباحا قصيرا لكن قوته جعلت يوسف ينتفض.

.. shit سيزار!

صاح بها واضحا أصبعه السبابة على فمه متوعدا صديقه الخائن للاتفاق بنظرة نارية.

ثم نظر إلى يده اليمنى التي تشغلها زجاجة ربع ممتلئة من الشعير. - إشرب!

وضع عنق الزجاجة في فم سيزار الذي بدأ يشرب بشراهة وكأنه يلتهمها.

- Good boy.

قالها وعاد بعينه لشاشة التلفاز.. ليتأملها.. يارا قاسم ليست من النوع العادي من الفتيات.. بل هي مارجريت تاتشر «المرأة الحديدية» مع ميجان فوكس وقليل من الأميرة ديانا لمجرد اكتساب نكهة ملكية، ثم تغلق الخلاط وتضغط على الزر الأحمر، وتقدم ساخنة.

طرقات كعبها العالي تدمر قلب أي كائن حي في محيط دائرة لهاها خمسون مترا.. دقيقة الملامح إلا من شفاء ليست بدقيقة.. بيد أن القدر قرر الحصول على شيء بسيط في مقابل كل هذا.. إصابة قديمة إلى سقوط مفاجئ من فوق حصان في حصة فروسية قديمة، جعلتها تفقد أكثر من 30٪ من قدرة مفصل القدم اليمنى مما أثر على مشيتها، تحاول جاهدة أن تداري تأثير الحادثة عليها والتي يلحظها معظم من يعرفها لوقت طويل، يارا قاسم، المذيعة ذات المزاج الحاد ورد الفعل المستقر، تهاجم الحكومة ليل نهار، وترفض «تمشية الحال» تحت أي عنوان مهما كلفها ذلك الكثير من الفرص التي حصدها زميلاتها اللاتي لم يجدن «الدلع» مع رؤساء القنوات الفضائية، لكن قدرها قد عوضها بأب ذي نفوذ ومال سهل لها بعضا من الطريق، ذلك بالإضافة إلى العامل الأساسي لنجاحها.. كفاءتها.

«كاريزما»

نطق بها يوسف محركا رأسه بإيجاب وسارحا في أميرته المحاربة وهي تطلق صرختها المدوي الذي يشبه زغردة نساء البادية، تركل هذا وتطرح برأس ذاك بسيفها اللامع من فوق حصانها الأسود الغاضب في تلك الحلقة العاصفة، كان ضيفها لواء شرطة متقاعد مشهور بدمويته وسادته مع أعداء الوطن - كما يقول - من الإسلاميين، ويندرج أيضا في

قائمة ضحاياه آخرون من المجرمين الذين تجرأوا على الذات المباركة وتناشوا أنهم عبيد، لكن ابتسم!.. فانت في مصر 2010.

على الجانب الآخر جلس ضيف أكثر أناقة، محلل سياسي معروف بميله للنظام رغم علمه الغزير.. ولوضع بعض الملح في أعين متقدي البرنامج، تواجد رجل قضى نصف عمره بين معتقلات الحكومة بأنواعها عقابا له على انتمائه لجماعة تنتمي للتيار الإسلامي معروفة بنشاطها السياسي.

قضى ساعة كاملة سارحا مع أميرته المحاربة لم يعكر صفوه سوى بعض الصوت الناجم عن نبش سيزار لبعض متعلقاته الشخصية، من كتب وتذكارات أسرته التي ذهبت مع الريح، أشياء وضعها في أقصى الصالة بالإضافة لمشغل كاسيت شبه معطل وكرتونة مليئة بمتعلقات كلية الطب التي كان يستخدمها مسبقاً، وعلبة متوسطة الحجم تشبه علب مقتنيات الذهب، لكن ما يتأكد منه يوسف هو أنه ليس بها ذهب.

كان سيزار قد بدأ بالنش حتى اهتدى للعبة عندها صاح فيه يوسف بعدوانية لم يسبقها سيزار جعلته ينطوي في ركن من أركان الحجرة الضيقة. جرى سيزار بعيدا عن الغرفة فيما بدأ يوسف في ترتيب أغراضه مجدداً، ثم عاد مرة أخرى للتلفاز متجاهلاً صديقه عن عمد.. سارحاً في أميرته مجدداً حتى غلبه العاس من دون أن يشعر.

في مطعم لا تشانس «La Chance» تاهب الجميع لليلة الأربعاء المميزة، هدوء غمس في إضاءة خافتة وطلبت به كل الأركان، شغل

المكان ما يقرب من عشرين طاولة فقط، فوق كل منها شمعة موضوعة داخل غطاء زجاجي أنيق، وشوكة وسكين متعانقان وملفوفان في منديل ورقي يزينه حرف «L» يقطعه حرف «C»، فصل بين كل طاولة وما يليها مساحة جيدة من الخصوصية، في أقصى اليسار جثم بيانو كبير فوق سجادة حمراء دائرية الشكل محتضناً كرسيًا أنيقاً، بجانبه بار صغير انشغل الشاب الواقف وراءه بتجفيف بعض الكئوس بمنديل قماشي أبيض، الزين الحوائط الرمادية اللون بعض الصور الهادئة ذات اللونين الأبيض والأسود لمشاهير هوليوود منذ تشارلي شابلن حتى ليوناردو دي كابريو، تاهلت الكئوس ربع الممتلئة وسط ضحكات مفتعلة من سيدات وفتيات المجتمع، كانت ملاهين مباراة مشتعلة في التعري، وهن لاعبات لسن هواء، مرت نصف ساعة امتلا بعدها المكان برائحة العطور الباريسية الفخمة والأطباق العالمية الشهية، تعالت صوت الضحكات واحتكاك الساكنين بالأطباق حينما انشغلت خمس عشرة طاولة بأولاد الذوات وغرهم ممن يقدرون على ثمن وجبات «لا تشانس»، وذلك النيد المستورد ذي الصيت الذائع في القاهرة كلها.

ابتسم رئيس جارسونات المطعم للجميع، بدا في بداية الخمسينيات مع احتفاظه بجسد نحيف ورأس خالية من الشعر تماماً، مرتدياً قميصاً أبيضاً يزينه بيبون صغير، تأكد أن كل شيء على ما يرام وتمم على زياته وطلماً بعض تصريحات الترحاب للرواد الدائمين، ثم ألقى - بنفس الإتهامة الواثقة - بضع التوجيهات للجارسونات ذوي الزي الموحد الأنيق، بنظرون أسود حوله فوطة سوداء تمتد قبيل الركبة وقميص أبيض.

وصباح بائع الفاكهة عند ناصية البناية، ذكريات طفولته الخاطفة.. تدوب  
فيها الألحان.. لا يعزفها هو.. بل تعزفه هي.

سبع دقائق كاملة مرت سرح فيها في ذلك العالم، إلى أن هدأ الإيقاع  
الأحادي، وبدأت أصابعه معلنة نهاية المقطوعة الأولى، ضغط آخر  
المغطة في هدوء وسلاسة.. ابتسم معلناً انتهاء رحلة موسيقية قصيرة،  
رحلة غمرت وجدانه بلذة كالسحر، و.. انطلق التصفيق الحاد.

فتح عينيه الرماذيتين ولا تزال الابتسامة على وجهه، ثم حرك رأسه  
إلى الوراء واحدة تحية للحضور.. شرب مجدداً من الكأس الباردة، تعالت بعد  
الانبثاق الهمسات وزاد احتكاك السكاكين بالأطباق اللامعة مجدداً.

ما أن انتهى من عزف المقطوعة الثانية حتى شاهدها.. تبسم وتحدث  
لأفرادها وسط طاولتها المميزة، لم تصدق عيناه أن اسم المطعم قد ألقى  
بهوية على ليلته، فالصدفة الآن قد فافت حدود الخيال، تلاقت أعينهما  
للحظات مرت كالدهر، أميرته المحاربة.. جاءت لتحصل على بعض  
الخصوصية مع زميلتها.. جاءت لتقتله مجدداً في بث مباشر من مطعمه  
المفضل..

بجانها جلست زميلتها، بدت أكثر تحراً، بيضاء اللون تتمتع بعينين  
«سراوتين ضيقتين»، أخرجت سيجارة رقيقة أشعلها لها شابٌ جلس  
معهم، رmqته بنظرة ليست بريئة ثم تفحصت يوسف، تظاهر الأخير بانشغاله  
بالكأس المقابلة له لبرهة، خاتته عيناه وتفحصت يارا مجدداً، شاهدها  
لبتسم عندما ألقى ذلك «الشخص» بمزحة تظهر أسنانها المنحوتة بدقة،

دخل شاب طويل ذو وزن مثالي يرتدي بدلة رمادية اللون تحته  
بلوفر بنفس اللون يداري قميصاً أبيض ناصعاً ذا ياقة كبيرة مكويًا بعناية،  
انحنى شعره البني الناعم على جانبيه الأيسر متأثراً بالـ «جيل» الذي  
استخدمه للحصول على تسريحة كلاسيكية هادئة، اقترب من البيانو في  
هدوء وثقة، جلس على الكرسي المميز وحيار رئيس الجارسونات بإيماءة  
رأسه فبادله بإيماءة مماثلة، نظر لساعة ذات اللون الفضي التي أشارت  
للسادسة والنصف ودقيقة واحدة، حرك الغطاء الخشبي الأسود الذي  
أخفى أصابع البيانو، ظهرت لامعة كآسنان موديل في إعلان معجون  
آسنان، وضع بجانبه أحد الجارسونات كأساً بها مشروب غازي شفاف،  
خلع ساعته اللامعة في هدوء شديد كطقس يريحه نفسياً وقت العزف،  
ابتسم للنادل وشكره بهدوء ليقابله النادل بابتسامة بدت كعلامة مميزة  
لكل من يعمل في المكان.

شرب قليلاً من الكأس قبل أن تعانق أصابعه أصابع البيانو اللامعة..  
وبدأ العزف..

شدا صندوق البيان «كما سماء العرب أول مرة»، أو «البيانو» بجزء  
من مقطوعته المفضلة «Traumerei» والتي يحفظها عن ظهر قلب،  
خفتت الأصوات فجأة من حوله، أغمض عينيه وبدأ يشعر بالموسيقى  
تخلل كل خلية في جسده وكل فكرة في وجدانه.. يسمعا تندفق بين  
مقالاته المنهكة وإطراءات «أبو العينين» اللزجة، بين ضحكات زملاء  
العمل المصطنعة واعتراضات «الرجل البطريق»، بين فترات سيزار

تلمس خصلة من شعرها الأسود القصير بإظفرها الرقيق اللامع، تلمعها قريناتها في حسد.. يارا قاسم.. الموت كما يجب أن يكون.

«مجرد بيتيألك!» همس بها لنفسه، ثم هم يعزف مقطوعة جديدة لكنه شعر بشخص يقترب منه، زميلتها صاحبة النظرة غير المريحة، استقرت أمامه، تخلص وجهها المستدير وأنفها الدقيق وشعرها البني المتدلي على كتفيها اليمنى كفرو ثعلب بري، فستانها الأسود المميز، لم يدار قَصَر قامتها لكنها عالجت هذا بكعب عال يمكن استخدامه كسلاح طاعن، يسبقها عطرها المميز بأمتار، تحمل في يدها اليسرى كأساً نصف ممتلئ بالنبيذ الأحمر الفاقع، دلت فاه الواسع بأنملها حينما استندت على البيانو، تماماً على يمين يوسف، قابلها بابتسامة رقيقة منتظراً منها التعليق:

- ينفع تجيبي من هناك.. لحد هنا.. عشان أقولك برافو؟

ابتسم محاولاً تجاهل ثمالتها شبه الواضحة، ثم أضاف مشيرة بسبابتها:

- شكلك بتحب البيانو..

- جزء من حياتي..

- وإيه الجزء الثاني؟

- أنا صحفي.. بشتغل في جرنال اليوم المصري.

والوا

عالت رافعة حاجبها الأيسر في دهشة، ليصدمها يوسف مبتسماً:

اسم الحوادث..

لغيرت معالم وجهها فجأة واتسعت عيناها بصدمة، وضعت يدها الصغيرة على صدرها برعب وتنهت:

يا الله!

حافظ يوسف على هدوئه وابتسامته، مرت لحظة حاولت فيها إحياء الحديث فأضاعت:

صحفي وعازف بيانو؟! بتعرف تعمل إيه تاني بقى يا أستاذ؟! بتسوق لحواسات مثلاً.

قالتها بإعجاب وتبعثها برشفة رقيقة من كأسها.

كده هبقى جيمس بوند.

علق مازحاً.

بكرة تبقى!

حرك حاجبه الأيسر مأطاً شفثيه وأوماً برأسه بثقة ثم ابتسم، في حين رفقه الجذابة السكرية بنظرة مقلقة متممة على شعرها الكثيف.

- أنا راندا أبو زامل.. معدة في قناة cmc وإعلامية.

قالتها مادة كفتها اليمنى لتصافحه.

يوسف أصلاً.. صحفي وخبير جنائي.. و ساعات بيانست.



قالها واثقًا فيما ضحكت الفتاة كثيرًا ثم أكملت:

- كثير مهضوم، بالمناسبة، إنا ممكن نستفيد منك..

- بمعنى!

- هتعرف كل حاجة.. هتصل بيبك في الجريدة أشرحك..

- باي.. يا مايسرو!

ودعته بابتسامة كبيرة وغمزة، ثم استدارت مرة أخرى باذلة مجهولًا مضاعفًا لتداري عدم اتزانها، شرع في العزف مجددًا، هذه المرة مقطوعة من «البلوز»، ثم بدأت الليلة في الذوبان بين نغمات البيانو المتسارعة ورائحة الأطباق الشهية و.. بضعة أسئلة في رأس يوسف.

تسللت أشعة الفجر بهدوء من بين جفنيه لقرنيتيه الرماديتين المتعبتين، كان ذلك في صباح اليوم التالي، أفاق مصدومًا ثم رمق ساعته اليدوية بعينين نصف مغفلتين، تنهد بأمان بعدما علم أنها لا تزال السادسة صباحًا، ربت على صديقه الأمين الذي استيقظ بجانبه يستمتع برائحته التي يحفظها عن ظهر قلب.

شرب قهوته بهدوء بعد أن أيقن أن الوقت لم يهاجمه بعد، مسترجعًا في ذاكرته ما حدث ليلة البارحة في المطعم ذي الاسم «على مسمى»، ابتسم عندما تأكد أنه لم يكن يحلم، أكل قطعة من الكيك التي وجدها صدفة في ثلاجته القديمة وتبعها بقليل من الماء، أحكم رابطة عنقه في زجاج الشباك، تفحص وجهه المجهد لبضعة ثوانٍ ثم شق طريقه خارجًا

من البيت معلقًا ذراع شنتلته السوداء الأنيقة على كتفه اليميني، شزر شذرها متظاهرا باللامبالاة ثم..

سيزر!

هس بها ثم أطلق صغيرًا بالكاد سمعه صغيره، أتى على أثره سريعًا ورائس سيزار بخفة يحسد عليها، صامتًا ضابطًا نفسه على «الوضع الهزلي» إلا من صوت لهاته، هبطا بنفس خفة وسرعة صعودهما.

وجد خضر بهم بمسح سيارة الحاج عبد النعيم أمام مدخل العمارة، انظره ويراقبه وهو يفتح باب الحديقة بهدوء ويسر.

إيه يا دكتور!.. تجلجنا عليه كده ينفع؟

قالها بابتسامة تجمع بين غباء موظف حكومة ينتظر رشوة مواطن يكمل عمله الروتيني، وتناحة أمين شرطة ينتظر حسنته ليعاين حادثة سيارة في شارع رمسيس. أجاب يوسف مفسرًا:

شبهت فيا إمبراح.

تأكد من إغلاق باب الحديقة. وناول خضر ورقة فئة العشرة جنيهات «علبة ثلاث مرات في طريقه لسيارته.

«صباحك زي العسل يا دكتور!

رد خضر واضعًا كفه في وضع يشبه التحية العسكرية مبتسمًا ليزيح الستار عن غابة موحشة من الأسنان وما يشبهها، مزروعة وسط لثة

أشبه بقطعة أرض بترولية في خليج السويس تم اختراقها بجميع أنواع الحفارات الممكنة.

- خلي بالك منه يا عوده!

- في عنيا يا دكتور.. دانا بعامله أكنة عيل من عيالي والله.

- كده قلقت أكثر..

قالها يوسف بوجه يخلو من المزاح، لكن خضر قهقه كثيرًا معتبرًا إيها مزحة طريفة.

أوصد يوسف باب سيارته الأزلية.. يتتابه قلق اعتاد عليه من خضر، رفق ساعته الكلاسيكية باهتمام، ويوم جديد من العمل الشاق.

لم يغلق باب سيارته المتهالكة حتى رآه، جاره البائس، تغطي وسامته ملامح الشقاء واليأس كما يقضي المطر الحمضي على سنابل الخير النضرة، «حازم»، ضحية «علقة» البارحة كان بدا نحيل الجسد، قمحي البشرة، هادئ الطباع يمتلك تلك النظرة النارية التي لا تنتهي، لم يكن يتحدث كثيرًا.. أو حتى يسمح لأي إنسان بتخطي حاجزه الشخصي بسهولة، حازم كان الطالب الذي لا يتذكر أحد في الفصل اسمه عندما يغيب.

لسبب ما كان «حازم» يشعر ببعض القبول تجاه يوسف بالرغم من معرفتهم السطحية ببعضهم البعض، أنزل يوسف زجاج سيارته يدويا قبل أن يضغط بقدمه على دواسة البنزين، ألقى السلام على جاره نصف المشوه، مقاومًا إحساسًا بالمسؤولية طغى على كل أوصاله.

رده عليه الأخير السلام من دون أن يحرك ساكنًا، مكتنفًا بنظرته الحادة إلى جانبه الضيقتين، ثم وضع يده الصغيرة في جيب بنطاله القماش، أسرع وذهب بالحيل، كأنه يخشى أن يلومه حازم على كل شيء...  
 ...

بدا كيوم روتيني جديد من العمل الشاق، مع ذكر البطريق وفقرة النورة.. كرنفال لن ينتهي أبدًا.

ارتعش عقرب الدقائق برذا قبل أن ينقض فوق عقرب الساعات المستقر فوق الثامنة في الصباح القارس، ضغط مؤمن البحيري على زر فوق مكتبه القديم في قسم مباحث الجنايات، زر دفنه الورق والدوسيهات وولاة وعلبة سجاجر بيضاء اللون، كان كل شيء غير مرتب بطريقة مريحة بالنسبة له، يطلي الظلام المكان تمامًا ماعدا أهاجرة ذات ضوء قوي يركز على ملف احتضنته يده، بجانب يده رقد سلاحه الميري يحتويه جراب أسود يبدو على مقدمة أنبوه بعض الصدا، طرق باب المكتب طرفتين خفيفتين ليدخل شاب في نهاية العشرينيات، أحمر الجسد أسمر البشرة رُسم تحت أنفه المعقوف شنب غير كثيف، نظر بعينيه البارزتين في ترقب حذر، تجاهله مؤمن الذي بدا منهمكا في قراءة ملف ما، تشتمل من بين أصابعه التي تلمس هامته سيجارة حديثة الاشتعال، ما لبث أن انتشرت رائحة القهوة النفاذة التي يحملها النحيف لتغطي على سطوة السجائر المنتشرة.

- تمام كده سعادتك؟



تساءل سليمان واضعا فنجان القهوة «النفاذة»، و بجانبها كوب زجاجي به ماء بارد تقطرت عليه نقاط صغيرة.

- تمام.. روح انت.. وابعتلي عبد العزيز.

قالها هائماً في الملف الذي حاز على كامل تركيزه واهتمامه، لكنه لم يشعر بأي نوع من أنواع الحركة تحدث وكأن سليمان قد تحول فجأة لتمثال ثلجي، عندها - ولأول مرة - اتجه مؤمن ببصره لسليمان راقباً إياه بنظرة بها مزيج من الترقب والانعاج.

- في حاجة يابني؟

- معاذ به وصل من ساعتين وسأل على حضرتك بس سعادتك ماكتش موجود والموبايل...

- كان مقفول.. هتصل أنا بيه.. روح انت!

قاطعته وهو يعث بهاتفه المحمول بحثاً عن رقم صديقه القديم «معاذ أبو النجا» صديق الطفولة، والمنافس الأساسي في الأناقة والعلاقات النسائية في فترة المراهقة، ذلك على الرغم من عدم امتلاكه لقدر كبير من الوسامة، معاذ شاب قصير القامة لكنه غير نحيف، يمتلك جسداً رياضياً أهله كثيراً للكلية الحربية، التي دخلها بواسطة كلفت أهله الكثير من المصاريف والمجاملات المستميتة، أسمر البشرة وحليق الرأس دائماً حتى من قبل أن يلتحق بالكلية، فهو يمتلك كليته الخاصة، يمتلك عينين دائمتي الاحمرار كأنه لا ينام أبداً، يمكن أن تقسم أنه ينتمي لنسل عائلة أحمد زكي لو لم تكن تعرفه جيداً، انتظر مؤمن على الهاتف لكن جاءه

الملك الرد المحيط «الهاتف الذي طلبته قد يكون مغلقاً أو خارج...»، مؤمن الهاتف بعنف على كنية جلدية على يسار مكتبه، اعتدل عازماً على كرسية محاولاً التركيز في الملف الذي يقرأه، قُبِلَ سيجارته القليلة الأخيرة قبل أن يطفئها ويتجه إلى القهوة ليحصل منها على جرعة سريعة كان يحتاجها، قاطع صمت عالمه صوت صادر من جهازه اللاسلكي الخاص به:

«مهم.. سيادة اللوا عبد الجليل بيه أو مؤمن باشا البحيري!

ثم أطلق اللاسلكي صافرة قصيرة.

أخرج مؤمن جهازه من مقبرة ملفات العمل بسرعة ورد بثقة:

«مؤمن البحيري معاك.. إتفضل يا باشا!

رد عليه الصوت:

«برجاء التوجه لدايرة المرج الجديدة سعادتك للتحقيق في جريمة قتل من عنده، مصنع أوسكار للملابس الجاهزة خلف السينما القديمة، وبرجاء إبلاغ سيادة اللوا مدير الإدارة العامة لمباحث العاصمة.

رد مؤمن بدوره:

«علم يا باشا وجاري الوصول والإبلاغ.. مع الشكر سعادتك.

قفز مسرعاً من على مكتبه قبل أن يرتشف مرة أخرى من القهوة، الحنف الجاكت الجلدي الخاص به بعد أن علق سلاحه في يمين حزامه اعطاله الأسود، ثم اختفى في أقل من دقيقة، متسائلاً عن يوم بدا ساخناً ولحم برودته.

\*\*\*

بعدها بثوانٍ دق باب يبدو أنه قد طُلبَ حديثًا كتب في أعلاه «كمال  
رحا - نائب رئيس التحرير»، انتظر حتى أذن له بالدخول ثم أدار مقبض  
الباب ببطء.

#### (4)

لاح البخار معلنًا نهاية فترة الانتظار المملة من فوهة الغلاية الكهربائية  
البلاستيكية الرخيصة، تطوع حسام لصب كوب جديد من النسكافيه  
داخل مكتب كمال رخا القابع أمامه بوجه عابس، كانت الساعة قد  
قاربت التاسعة والثلث في ساعة يده السمينة، ساعة جاهدت حتى  
لا تنفجر لأشلاء كملابس الرجل الأخضر حينما يغضب.

- اتأخرت ليه يا نجم؟

- حسام.. قولي حاجة تفرحني!

قالها يوسف معدلاً من وضع شنتته فوق كتفه اليمنى، زف حسام  
الخبر ليوسف قائلاً:

- البطريق قالب الدنيا عليك.. خاتق أهلي كل شوية يسألني فين  
يوسف.

تساءل يوسف:

- قولي يا حسام، هو أنا لو مت هقابلك في الحياة الثانية؟

- موت انت وبقى يحلها ألف حلال.

رد حسام بوجه مازح ثم انفجر ضاحكاً.

- مبهر!

جلس يا يوسف.. استريح! إيه نورت القسم إمتى؟

لسه جاي حالا.. الطريق كان..

جلس يوسف ليقاطعه رخا:

كان يتدلّع.. الطريق كان يتدلّع.. صح؟

أطلق زفيراً عميقاً وأشاح بنظره بعيداً ثم أكمل ساخراً:

مايفعش أجري العشر دقائق دول من شريط حياتي؟

لو كان ينفع كنت هطلب منك تجري فترة شغلك كله معايا.. إيه

اللي بيأخرك؟.. هه؟.. إيه؟! مقضيها سكس عالت بالليل ولا إيه

«كابتك؟

موهيتك في قرابة الأفكار بتخليني عاجز عن الكلام.

قالها يوسف بوجه به كثير من الصدمة، ضرب رخا بيديه على سطح

المكتب حتى اهتزت المياه في الكوب الزجاجي رعباً، ثم صاح:

«مكلمش خالص!

أنا كنت بقول الحقيقة..

واضح إنك مستغني عن تقرير السندي كمان.

وقالها ورمى قطعة صلبة حمراء اللون من الفوار بداخل الكوب لنور  
كالبركان، تجرعها على مرة واحدة ليزداد تجهم وجهه السمين في  
فعل على مرارة طعم الدواء، مسح فاه بمنديل قماشي أبيض به خط  
بنيان وأشار إليه بسبابته محذراً:

أبو!

لغيرت نبرة صوته وابتهج وجهه العابس بدون أي تغيير جسدي يذكر  
بإشمامة كشفت عن صفين من الأسنان الصفراء صغيرة للغاية.  
عبد الجليل بيه!.. ده إيه النور ده!.. تمام والله يا باشا.. وانت طمني  
على صحة معاليك يا فندم!.. آه.. تمام.

نظر ليوسف مبتسماً وأكمل حديثه الهاتفي:

أه موجود، آه عندنا حسام كمان ممكن يفيد.. خلاص يوسف بس..  
حالاً، العنوان فين؟.. ثواني أجيب قلم.. تمام.. تمام.. في المرح؟..  
فين الشارع ده؟.. آه صح كده ورا السيمة القديمة عارفه.. هيكون عندك  
خلال تلت ساعة بعون الله،.. لا مش هيتأخر.. بس هو إيه الموضوع  
بالظبط يا باشا..

ثم اتسعت عيناه وأضاف:

يا نهار أبيض.. تمام.. شكراً معالي الباشا.. حالاً.. في رعاية الله يا  
باشا.. سلام.. مع السلام.. سلام.. سلام.. سلام

بدا ليوسف وكأنه سيظل يردد كلمة «سلام» حتى ينتهي اليوم بل  
لخيله يغلق سماعة التليفون ويقرب رأسه السمين من السماعة ويكررها

قالها ورمى قطعة صلبة حمراء اللون من الفوار بداخل الكوب لنور  
كالبركان، تجرعها على مرة واحدة ليزداد تجهم وجهه السمين في  
فعل على مرارة طعم الدواء، مسح فاه بمنديل قماشي أبيض به خط  
بنيان وأشار إليه بسبابته محذراً:

- أنا ماعنديش مشكلة أقعدك في البيت عشان تسهر تلعب أتاري وتنفر  
على الت براحتك لو مصمم.

- مافيش أتاري دلوقتي.. بقى في حاجة اسمها بلادي استيشن.

- ماتعدّلش عليا!

توجه يوسف بصمت تجاه زجاج المكتب، سرح لثانيتين بعدما دخل  
يديه في جيبه معطفه، وأردف بصوت هادئ:

- أستاذ كمال! أنا مقدر زعلك، أوعذك إنني هطلع بدري ساعة عن  
ميعادي اليومين اللي جاينين.

- ولا ماتطلعش.. مش فارقة.. كده كده انت في آخر الطريق.

- سؤال.. ليه ما ردتنيش؟!

- لو عليا من دلوقتي.. بس انت...

- عارف.. المشكلة من فوق، عموماً أوعذك هجلبها أنا.. ولحدا ما أحلها  
ممكن تكلم الأستاذ لطفي ينقلني من هنا.

- هتوحشي.. بس فين القسم اللي هياخد واحد بتقدير ضعيف يا بيه؟

خشية أن تمر ثانية من المسافة بين السماعاة وزر الغلق من غير أن يستلها  
في تكرارها.

اعتدل رخا وأردف بعدما عاد وجهه للتجهم:

- جهز نفسك وخذ حاجتك معاك واطلع حالاً على المرح! هتلاي  
هناك صاحبك اسمه إيه ده؟!

- مؤمن..

- آه.. وغالبًا هتلاقي الداخلية كلها هناك. حظك حلو، مصلحة.. سكوب  
كبير ماحدش من الصحافة شم ريحته غيرنا.. ماتساش تاخذ الظرف  
بتاع عبد الجليل معاك من السكرتارية، الراجل قايم معانا بالواجب.

- وإيه اللي يخليك تبعت أضعف واحد عندك لسكوب زي ده؟

- لأن ده شغلك يا بيه، وبعدين ماتحققش معايا انت فاهم! نفذ شغلك  
ولينّا كلام بعدين.

هم يوسف بالرحيل، لكنه توقف بعد أن ضغط على المقبض للحظة،  
ثم سأل بهدوء من دون أن يلتفت:

- في إيه في المرح؟

ليرد عليه رخا:

- جريمة قتل..

قالها متجرعًا باقني التسكافيه على مرتين.

بنا مايقبض بطلع...

فاطمة رخا:

الغيلة.. جريمة ثقيلة.. حتى لو بطلت تعالين حوادث لازم انت اللي  
تغطها، ده أمر!

اللي بقطعة شيكولاتة في فمه ثم أردف وهو يلوكها:

ده لغير إن مؤمن عايزك بالإسم.. واضح إنها سمكة كبيرة.

ضغط يوسف على مقبض الباب خارجًا من برودة البطريق لجحيم  
الطريق في نهار القاهرة والعفر، في الطريق تظاهر بالثقة لكنه لم يستطع  
أن يتجاهل ذلك الشعور الذي بدأ يتسلل لأمعائه.. بل لكل أعضائه  
الداخلية.. بدأ كقشعريرة وانتهى بيقين.. يقين أنها لن تكون جريمة سهلة  
من التي اعتاد عليها وقتما كان يباشر التحقيق من موقع الجريمة.. ملأه  
الشعور في الطريق بأن شيئًا ما ينتظره.. شيئًا غير جيد.

لم يترك الشتاء أي فرصة للتفاوض وأقسم على نية الشتوية الخالصة،  
انطلقت في السماء حفنة أسهم برقية لامعة يسابقها صراخ الرعد المكتوم،  
انهمرت الأمطار من غير تدريج لتبلل أشعة الفجر الفضية، ترجل مؤمن  
من الميسوبيشي القاتمة مسرعًا محاولًا مفاداة السيل البارد، مر بحذائه  
الجليدي فوق برك المياه المتكونة حديثًا تجاه مصنع ملابس ذي طابقين  
محاط بسور حديدي تزينة بوابة خضراء صلبة، بدا وأن المبنى مهجور  
منذ أمد، استقرت أمامه سيارتا شرطة؛ إحداهما: بوكس، والأخرى بيجو

المصنع ومعرض شركة أوسكار للملابس الجاهزة: Oscar company  
for ready clothes.

مشكلة في الإنجليزى..

رد يوسف متفحصاً اللفتة.

طريقتك انت عارف إن مافيش تصوير.

عالم مؤمن مؤكداً.

ما جيتش شنتطى معايا.

هو الكاميرا لازم تتحط في شنتطة؟

في عالم موازى.. أيوة.. بتتحط في شنتطة.

وفي العالم ده.. فيه ناس مابتحتاجش كاميرا وزنها نص كيلو عشان  
الصور.

قالها فاتحاً بوابة خضراء معدنية كبيرة، ثم مشى قاصداً مدخل  
المعرض ليلحق به يوسف، الذي لم تغب عيانه عن لافتة المعرض حتى  
في طريقه للدخل.

عهد الجليل متفق معايا إنك تخرج بعد دقيقة، بس أنا عايزك تركز..

فعلت؟!

تساءل مؤمن في الطريق لدخل المعرض.

شربت قهوة.

تعمل إضاءة السارينة بصمت، وسيارة إسعاف في الجانب الأيسر من  
بوابة المعرض يجلس بها رجل في الأربعينيات يلتهم بضعة ساندويتشات  
في نهم، لم يحط المصنع - أي بيوت تذكر، عن يمينه كانت بضعة بيوت  
مهدامة وأرض فضاء افترشتها القمامة، تفوح منها رائحة عفنة لم يمسها  
سيل المطر، ترعى فيها أنثى كلب قد عصف بها الوهن وامتنعها الجرب  
تحوم حول رقبته الدامية سبل من الحشرات العنيدة، كان واضحاً أنها  
قد هربت - للثو - من أسرها بنجاح، ولكن حبلاً قاسياً قد ذبح جلد رقبته  
حتى وصل للحم.. ولن تتخلص منه حتى تنتهي.

عن يسار المبنى استقرت مدرسة فنية تجارية تزين حوائطها عبارات  
مستهلكة من نوعية «العلم والعمل مستقبل الوطن»، تفحصها مؤمن  
جازماً أن نصف طلاب المدرسة لا يستطيعون قراءتها.

عندما اقترب من المصنع لمح به بعيداً عن الشاهين المرتعشة،  
متعللاً حذائيه المميزين، إضافة لبنتال أسود رفيع وفوقهما معطلة  
الرمادي المفضل، دفن في جيبه راحتيه، بدا غارقاً في بحر من التفكير  
والمياه، يواجه المصنع القديم كتمثال أثري، تلاصقت خصال شعره  
البنية فوق جبهته بعدما خضبها المطر.

- مشكلة في اليافتة؟

قالها مؤمن وهو يلوك قطعة علكة كبيرة الحجم بعنف ثم توقف بجانبه  
متفحصاً اللفتة مثله، لافتة هزئة كتب عليها بالعربية والإنجليزية:

استقبلهما عند باب المعرض شخص ما احتفى بدوسيه بلاستيكي من المياه المنهمرة.

- 4 عمال جم من المصنع الجديد ينقلوا شوية أجهزة، هم اللي بلغوا.  
- مين النجم؟

قالها في طريقه لداخل المصنع مرتجلاً بجانب الصديقين ومستفسراً عن يوسف.

- معايا..

رد مؤمن في طريقه من دون أن ينظر جانبه وتابع:

- في زباين؟

- واحد منهم عليه قضية تبديد عش من طليقته.. الباقي تضيف، الطب الشرعي جه من ساعة.. والنيابة كمان جت، نوح جوه.

اخترقا مدخل الدور الأرضي المظلم كهف حجري، تجرعا كمية لا بأس بها من الهواء المكتوم المختلط برائحة ننته مصدرها الفئران والفضلات، في الطريق وقف ضابط طويل القامة عريض الكتفين والقالب يمازح وكيل نيابة منهكاً في كتابة تقرير عن الحادثة، يحكي له عن عراك قدر قابله أثناء مروره بالصدفة في المعادي، كان بطلته ساقطة وتاجر مخدرات شاب، أعطى تحية ميري لمؤمن كاشفاً النقاب عن صفى أسنان ناصعي البياض يحتضنهما وجه غليظ، يمتلك جسداً مترهلاً غير متناسق، كأنه مصارعاً من العصر الحجري ضل طريقه للألفية الثانية بعدما كان زهان السكارى الرابع، وبدلاً من أن يغرز سيفه في قلب أسد

أصبح مساعداً في المباحث، أحمد نوح، مساعد مؤمن الذي قد يصيبه سكة دماغية يوماً ما.

حيا الأخير مؤمن والشاب، تابعا طريقهما ليتحول الصباح غير المكتمل لعتمة تشبه عتمة ما قبل الفجر، مشيا في هدوء في ناحية الضوء الفابل المنبعث من غرفة داخلية، في حين أخرج مؤمن كشافاً صغير الحجم من جيبه ضغط عليه لينير، عبث بضعة فئران تحت إطار سيارة هالك مطلقاً قليلاً من الصفير أشار لها مؤمن بضوئه حتى صممت، أخرج يوسف من جيب بنطاله منديلاً ورقياً ليضعه على فمه وأنه محاولاً عدم استنشاق الهواء المثير للغثيان، ثم أخرج ظرفاً أبيض لم يكتب عليه شيء وحاول تناوله لمؤمن، رمقه مؤمن متابعاً سيرة معلقاً:

كل يومين ظرف؟! الجرنال بتاعك ده يبطع فلوس؟

الشيء لزوم الشيء.

علق قاصداً عبد الجليل من دون أن يزيح المنديل من فوق وجهه.

سلمه انت بقى للشيء!

رد مؤمن متجاهلاً الظرف واضعاً ذراعه اليسرى فوق منخاره متأقفاً من الرائحة.

أعاد يوسف الظرف لجيبه وتبع مؤمن إلى غرفة كبيرة على اليسار بها بعض الحياة، لكلمات من الفلاش الأبيض تكال لكل جنبات الغرفة البيضاء شبه الفارغة، ومروحة «شفاف» تعمل بهدوء في أعلى اليمين من

الحائط المقابل لبابها، في اليمين ظهر مندوب من الطب الشرعي يمسح كل جنبات المكان بفرشاة تشبه فرشاة التبرج، وآخر منهمك بتصوير شيء ممكن في المكان، وملاءة بيضاء تغطي شيئاً ملقى في منتصف الغرفة.

- عندنا إيه؟

تجمدت العلكة بضم مؤمن عندما قالها بثقة وعينين فاحصتين للطبيب ذي الكاميرا الكبيرة السوداء، أزاح الأخير عن وجهه قناعه الطبي، كان هو.. صديقه الخجول.. «رامي فارس سامي» أو «رامي فارث ثامي» كما يسخر زملاؤه من «لدغته» في حرف السين، مندوب الطب الشرعي كما يجب أن يكون، يميزه وزن زائد ونهдан برزا مع قصر قامته، وصلعة لامعة يمكنك حلاقة ذقنك عليها، يمتلك نظارة ذهبية مميزة يلمسها كل خمس ثوان على الأرجح، اقترب رامي من الملاءة، جلس على ركبتيه ثم كشف الملاءة، ليظهر رجل - أقل ما يمكن قوله عنه - أن ملامحه متجمدة كسمكة سلامون في ثلاجة سوپر ماركت، رُسم حوله خط طباشيري أبيض، عاري الصدر يطل من بين أضلاعه مقبض حجري اللون لخنجر غريب الشكل ظهر جزء من نصله، أردف رامي:

- في الثلاثينات، ضربة طاعنة في الصدر، تشوه في العينين والوجه، جرح قطعي في الشريان الفخذي قرب (نفق هنتر)، اسمه أسعد عبد الرحمن خليفة، مجند أمن مركزي، لقينا محفظته مرمية..

جلس مؤمن القرفصاء وتفحص وجه الضحية المشوه بتأفف، عينان مغلقتان يكسوهما الدماء المتجلطة، وجسد كساه لون أصفر قاتم لم يدم حتى شفثته، فاغر فاه كأنه يريد أن يبوح بشيء ما في صدره، يدها مضمومتان بنفس الطريقة على جانبي جسده كعسكري وقف يتسلم الأوامر الواجب.. تتقابل قدماء في انضباط، ضاقت عيننا مؤمن أسفاً من المظهر المؤلم، لكنه واصل النظر متمتماً لنفسه بضع عبارات الأسف وطلب الرحمة من الخالق، ثم أردف:

إيه اللي على وشه؟!

أه! فيه رقم.. رقم 9 محفور بنفس أداة الطعن غالباً على الخد الأيمن، ورقم 1 على الخد الأيسر.. 19.

قالها رامي فارس.

في اللحظة نفسها كان يوسف منشغلاً بشيء آخر، تابع بصره الهائم رسم دوائر تخيلية حول كل ما يلحظه.. شيء ملصق بأسفل الحائط فاتح اللون يشبه العلكة.. مروحة شفاط بها ضلع مكسور.. بصمة حذاء ميري كبيرة الحجم تنتمي - بنسبة 70٪ - لحذاء ضابط ضخم يلوك علكة باستنار، وأخيراً دائرة حول الأرقام المرسومة حول وجه الضحية وأربع دوائر ملونة بلون أحمر قاتم.. رسم بجانبهم بضعة أنماط تخيلية ليلها محاولاً الوصول لنمط متطابق لكن كل رسوماته فشلت فقام بملامستها جميعاً.

- أي أفكار نيره يا دوك؟!

قالها مؤمن لكنه لم يحصل على أي رد، صاح مقاطعًا سرعان  
يوسف:

- يوسف!

- ممم!. دقيقة من فضلك!

همس يوسف:

- بتعمل إيه؟!

قالها مؤمن ليوسف الذي تجمدت عيناه كأنه يتواصل ذهنيًا مع  
المكان، رد يوسف متمتمًا بشروء:

- بكتب.. ملاحظات.

- مش شايف قلم وورقة.

علق مؤمن مستفسًا:

- مافيش داعي.

قالها يوسف ببطء محدثًا نفسه ليتركه مؤمن بعدما حرك رأسه  
مستكبرًا، ثم اتجه ببصره للجنة الملقاة مستفسًا:

- في حاجة غلط! الجلد، واللون...

قاطعه صوت:

- أصفر! لون الجنة أصفر، لأن معظم الدم اللي فيها اتصفى.

كان يوسف هو من قال تلك الملحوظة مصححًا بعدما انتهى من  
الجلس المكان، شرد رامي مع الوجه الجديد الذي لم يره مسبقًا، ثم  
أردف بإعجاب مؤيدًا كلماته:

«وه حقيقي!». واتلون- جزء منه دول.. ماحدش فاهم ليه.

وأشار لأربع بلاطات اكتست بلون أحمر قائم تحت قدمي الضحية،  
فأدرك قد تم تلوينها بفرشاة، اقترب منها مؤمن مندفعًا ونزل على ركبتيه  
بهدوءها في صمت، لاحظ أنه قد تم طلاء عدد من البلاط بعينه، وبترتيب  
يشبه الهرم المقلوب رأسه يقابل قدم الضحية، درسها بعناية ثم حاول طبع  
صورة العريض فوق قم المعدة كمقبض موتوسيكل «هارلي» داكن، كان  
الفرشه حجرًا لف حوله جبل قائم رفيع بقسوة.

علق يوسف على تساؤل رامي:

«هناخد وقت عشان نفهم.

انفسى!!»

أماها مؤمن واقفًا على قدميه متعجبًا، ثم تأفف من دودة النصقت  
بكمب حذائه عنقه يوسف عليها واصفًا إياها بال«الدليل».

لدخل نوح محدثًا رامي:

«البيت أي مصلحة تنفعنا.. بصمات، أي حوار يعني؟!

«ماسابش وراه حاجة.



- متأكد يا رامي؟!

تساءل يوسف قاصداً الوجه الخارجي للحائط بالتحديد عند مدخل الغرفة، استوقفه نوح بطريقة مستفزة:

- ماتعرفاش بالباشا؟!

- شايف ان ده وقت تعارف يا سكانيا؟.. رحلة هي.. صح!!؟

- إيه يا باشا في إيه؟! هو أنا كل ما أقول كلمتين تديهو ملي.

- طبعاً.. و كل ما تدخل دخلة المقطورة دي هديهملك! عشان لما تشوفنا طالع ميتينا عشان نفهم.. تفكر معنا مش تتعرف.

نزل يوسف على ركبتيه متجاهلاً الحديث بعدما وجدها في مكانها الذي يعلمه جيداً، فعيناه الهادئتان قد رصدتها في طريقه للدخول ولم ينسها.. العلكة المتحجرة ذات اللون الوردى الفاتح للغاية والتي يصعب تمييزها من الحائط الذي التصقت به.

- Contrast Sensitivity!.. العلماء يقولوا إن 40٪ بس من البشر عندهم تمييز الاختلاف البسيط في الألوان.

أخرج من جيبه علبة محارم بلاستيكية وجردها من محتواها وأمسك بها العلكة وأكمل:

- ابتسم يا رامي!.. معنا (دي إن إيه).

وحاول شم رائحتها التي فاحت بنكهة الفراولة النفاذة، بدا رامي أكثر ابتهاجاً بعدما عثر يوسف على اكتشاف ثمين بالمجان.

أوجه نوح تجاهه مخربجاً علكة كبيرة الحجم نسبياً من فمه وألصقها القطعة التي أمسكها يوسف بعناية ثم أضاف ساخراً:

وفي حته (دي إن إيه) بطعم الموز.. لو حببت تعمل كوكيتل.

أسقط يوسف على القطعتين الدافئتين لثلتصقا معاً كالعجينة ليتبين أن الأهلما قد بصقهما فم نوح حديثاً.. نظر يوسف للسقف متمناً لنفسه:

عظيم!

حرك مؤمن حاجبيه مصدوماً ثم هرب من الموقف المرحج وتوجه بظهره للجنة مجدداً واضعاً يده فوق وسطه في ضيق واضح ثم حرك رأسه في خيبة أمل.

لم تمر ثانيتان حتى دخلت مسرعة كامراً جاءت لتقبض على زوجها في وضع خيانية، تخبط بقدميها الأرض في سرعة فتطرق طرفاتها الغامضة، قصدت الجنة متجاهلة يوسف وصديقه كأنهما هواء لا وجود له ثم قالت:

2 ملطاط بس؟ أنا قلت هلاقي الداخلية كلها هنا.

نظر يوسف مندهشاً لمؤمن وكذلك فعل نوح، لكنها أكملت مخاطبة أحد المساعدين:

بروفایل؟

مافيش بصمات.. ولا (دي إن إيه)..

قالها ذو الهندين بلدغته الواضحة.

أعطى مظهرها للصديقين انطباع عالمة كيمياء وهبت حياتها للعمل حينما شاهدها للوهلة الأولى، امرأة نحيفة ترتدي نظارة طبية كبيرة للغاية يفوح منها رائحة دخان مختلط بعبثر هادئ، تنتمي للعقد السادس، ترتدي قميصاً كاروهات ذكوري الشكل أغلقت ياقته بالضبة والمفتاح وبنظراً قماشياً قصيراً لم يصل لحذاء رياضي غير متناسق مع الشكل العام، تمتلك شعراً قصيراً يحتل نصفه الشيب.

جلست القرفصاء برشاقة تحسد عليها كاشفة الغطاء الأبيض من وجه الضحية بيديها الصغيرتين، عاقدة حاجبيها في صدمة.

- مين العالم اللي ساب بصمته على «الكاديفار»؟

- إحنا جينا لقيناه كده يا دكتورة.

قالها رامي محاولاً مفاداة غضب مديرته، ليتدخل نوح بعد أن أنهى كلامه غير المفهوم في اللاسلكي معلقاً:

- بصمة إيه يا هانم لا مؤاخذه..

- Oh! معنا كسبان!

قالتها بعدما حركت نظارتها الكبيرة للأسفل، أضاف نوح:

- أنا مش شايف أي تغيير يعني، ما كل حاجة زي ما هي..

- صح كده، المرحوم صحي ورسم حواله بالطباشير عشان ماحدش يدوس عليه، وبعدين اتغطى بالملاية البيضاء عشان السقعة؟  
...Just like that

قالها برعشة وعصبية تشبه كثيراً طريقة يوسف شاهين.

«إيه حاجات روتينية.. والكلام يكون أحسن من كده يا دكتورة الله بالارك!»

الشغل هو اللي لازم يكون أحسن من كده! إيه ده.. ده اسمه إيه ده؟! روت بعصبية مشيرة بإصبعها بنفس الرعشة الجنونية على الجثة، إيه نوح بلهجته المستفزة:

«أنا متعودين على كده يا دكتورة، ده الشغل بتاعنا..

الشغل؟.. ده شغل مبتدئين ده، بصمات إيديكو في كل حته وجزم ميري «البلاط وطباشير.. ماحدش خد صورة مع القتل بالمرة؟ فين اللوا عبد الجليل؟! أنا مش قولت 100 مرة مش هشتغل في أي «Crime scene» مش نضيف!

قالها بصوت عال أشبه بالصراخ.

«صل خير يا دكتورة.

مش عايزة تشتغلي دي بتاعتك انتي، ولولا احترامي لفرق السن كنت قولت كلام تاني، بس عموماً.. عبد الجليل بيه جاي كمان شوية إبقني اشتكيله.

انسعت عنبائها خلف نظارتها الطبية الكبيرة متأهبة للهجوم، تدخل «من مجدداً مقاطعاً بإتسامة في الوقت المناسب:

«إيه يا دكتورة جاكين؟ إيه يا نوح؟ الله!. حصل خير يا جماعة!

اتبعتها بغمرة لصديقه الضخم ثم أردف مخاطبًا جاكليين:

- هذي نفسك يا دكتورة!.. كل دي حاجات بسيطة إن شاء الله.

- بص كده! دي حاجة بسيطة بالنسبالك؟!

قالتها كاشفة النقاب عن الجثة كاملة، تأثر يوسف كثيرًا وأغلق عليه بعدما أشاح بوجهه.

تابعت جاكليين بيأس:

- بدمتلك! أنا لو جيببت الأمن بتاع دريم بارك هيبوظ مسرح الجريمة بالمنظر ده؟

- سليمة يا دكتورة، سليمة، يلا يا نوح عايزك بره... يوسف تعالى بعد إذن...

لم يكمل مؤمن الجملة ممسكًا بيد صديقه المنفعل ومحاولًا جذبها بعيدًا حتى جرى يوسف خارجًا من الغرفة يتصبب عرقًا واضعًا يده على معدته، ما لبث أن وصل للطريقة الخارجية حتى أطلق لمعدته العنان تخرج ما فيها بجانب الإطار القديم، مستندًا بيده اليسرى على الحائط.

- محمد!.. هاتلي فورسيس وقطنة وكيس sample.

قالتها جاكليين ثم تفحصت مؤمن الذي كان في طريقه للخروج، والذي بدا محرّجًا من زميله الذي أضاف بصمة جديدة لمسرح الجريمة، رمقت الجثة مرة أخرى محرّكة رأسها يمينًا ويسارًا في حقن، تمتعت بالإنجليزية:

..Fucking amateurs

في الخارج وقف يوسف ينازع الغثيان أمام الحائط المقابل، تنزل بهال شعره على وجهه المليء بحبات العرق، يحاول جاهدًا التنفّس بالنظام، استند مؤمن للحائط المجاور له ثم استطرّد:

كنت فاكّر إنك مافطرش.

أيرد يوسف مازحًا بعدما تمالك قليلًا من بأسه:

ده مجرد عشا امبارح.

شكلك نسيت الجثث يا دوك.

أضاف مؤمن مبتسمًا وهو يلوك علكته باستهتار.

حرك يوسف رأسه إيجابًا ماسحًا بكفه اليمنى على وجهه، ثم مسح على شفتيه الحمراوتين الدقيقتين اللتين استسلمتا للجاذبية وسقط منها هبوط من اللعاب.

ناولوه نوح علبة محارم صغيرة معلقًا:

- خذ مندليل انت ضايع!

- شكرًا!

اعتدل وسند ظهره على الحائط محاولًا الحفاظ على هدوئه، ثم مسح على فمه مجددًا، في حين تابع نوح حديثه الحاد مع مؤمن:

- انت ليه شدتني من جوه؟ أنا عايز أروح أفشخ بنت الو...

- قرية مجدي بيه ميخائيل.

- دي؟!

- أيوة يا أعمى القلب، «دي» تبقى رئيسة الطب الشرعي وبنت عمال مجدي بيه، وكانت عايشة في أمريكا.

- عشان كده طايحة فينا.. بنت الو...

- وطلي صوتك عشان نلم الدور! الست عندها حق بردو، انتوا فشغروا المكان بصراحة. قاطعه بصوت خافت مقاطعاً صديقه المتفعل، تايح نوح بغرور:

- أنا - بقولك إيه يا باشا- مايبرفش معايا.

- لما تفرق معايا.. يبقى تفرق معاك.. واضح!! كفاية هلك بقى وتعالى نطلع نشرب سيجارتين.

قالها متوجهاً للخارج ثم وجه كلامه ليوسف:

- يوسف! فوق واشربلك بق ميه.

أشار يوسف رافعاً إبهامه في علامة معناها (أنا جيد) محاولاً التعافي، ثم استند على الحائط المتسخ بظهره غير مهتم بشباهه التي تلوث.

في الداخل انهمكت جاكين بتنظيف جفون القتل بسائل شفاف واضعة قطعة من القطن ملصقة بأعلى عصى بلاستيكية على الدم الذائب، ثم دسته في كيس بلاستيكي صغير وشفاف ليذوب الدم المتجلط فوق

فان الشحية وتظهر المفاجأة الجديدة، لقد كان واضحاً للغاية أن عينيه لم تعمل عن قصد، ولم يتطوع شخص ما ليغلقهما احتراماً لحرمة الميت، بل فعلها شخص غصباً وعدواناً، لقد تم حياكتهما معاً بخيط أسود سلكي رقيق.

شاهد الجميع الموقف بشغف طفل يشاهد أضحية العيد، بدت عاقلين مهتمة بنوع الخيط اهتماماً كبيراً أكثر من اهتمامها بأي شيء آخر، استكنه بمقاطط طبي واقتربت برأسها منه لتتفحصه، اقترب رامي مجدداً معارفاً هوايته في التقاط بضع صور جديدة، تمتعت جاكين بغضب:

ارحميني يا رامي!

تلعثم رامي بعدما لمس نظارته الذهبية قائلاً:

أسف.. أسف يا دكتور!

وصل إمتى؟

قالتها جاكين لرامي الذي حاول لملمة أفكاره مردفاً:

من حوالي يومين.. الساعة 3.30 الفجر تقريباً.

راحت فين الـ (Accuracy) يا رامي؟.. أصحبه أسأله أحسن؟

حاول أن يكون دقيق أكثر.. المرة الجاية.

قالها متلعثماً في صوت خافت بسرعة شديدة، ليصبح في وجهه يوسف شاهين (النسخة النسائية) في إندهاش:

What the hell you saying?!

- هحاول أكون أدق أكثر الفترة اللي جاية.

قالها بسرعة ثم بلغ ريقه في صعوبة، ردت جاكلين:

- إتصلي بالدكتور طه بسرعة.. عايزه على التليفون.

شرعت في تفحص الخيط السلكي المستخدم بنفس الاهتمام، في حين عاد يوسف من الخارج وبدا في حالة مزرية، متظاهراً بالثقة بمسح العرق من فوق هامته ويعيد خصل شعره للوراء في صمت.

- مافيش شبكة هنا يا دكتور.. معلنش.

قالها رامي بتردد أقرب للرعشة، ردت بعصبية:

- يووه.. هات البتاع ده!

جذبت من يديه الهاتف بسرعة تحسد عليها وتوجهت للخارج تشبث غصياً.

استعاد يوسف جزءاً لا بأس به من عافيته، كان - في تلك اللحظة - وكيل النيابة قد رحل بالفعل بعدما كتب تقريره، اقترب يوسف من الجثة بهدوء، لم يطالبه أحد أن يتوقف فتابع، لملم زمام نفسه في حين تصاعدت ضربات قلبه وصوت تنفسه الذي طغى على أي صوت آخر، يتملكه إحساس طالب يدخل مشرحة كلية الطب لأول مرة، نظر للجثة ثم لتلك المروحة العرجة الصغيرة في أعلى الحائط المواجه، وتارة أخرى للمساعدين المنهمكين بجمع العينات، استشعر تلك البرودة بداخله، لكنه قاومها واقترب أكثر.. ازداد السكون حوله.. ازداد التنفس صعوبة.. جلس متزناً على أطراف أصابع قدمه.. مد أنامله وأزاح جزءاً

من الغطاء الأبيض، أراد رؤية الشيء المعلق في صدر القتل، كان خنجرًا كبير الحجم صنع بكامله من حجر أسود اللون، تنساب خطوط فاتحة اللون متوازية كالأمواج على نصله كأنه صنع من الخشب، كانت جوانبه غير مستوية وتملأها أعراف حادة جعلتها كالمنشار، وحفرت عليه بضعة كلمات بلغة غريبة للغاية لم يعهدها من قبل، كانت أشبه ما تكون الرسومات من أحرف، تأكد أن أحدًا لا يراقبه ثم أخرج هاتفه النقال، وصل على بعض اللقطات للخنجر بهدوء متظاهراً يبحث عن شيء ما في هاتفه، ثم اقترب مجدداً وغطى القاتل الذي أقسم أنه لن يخبر أحداً..

انت بتعمل إيه؟!

قالتها بصوت غاضب ليفزع يوسف وتجري قشعريرة سريعة في يده دائرة بكل جسده.

أنا كنت بحاول..

انت مين أصلاً؟

يوسف.. كاتب ومحلل جنائي و.. أهلاً بحضرتك!

رد واقفاً على قدميه من جديد ماداً يده محاولاً الهروب من الموقف مصافحتها، رمقته بنظرة دهشة واستنكار.

طالما مش ظابط ولا من الطب الشرعي.. يبقى مالكش مكان هنا.

علقت متجاهلة يده الممدودة التي رجعت مرة أخرى لمكانها الطبيعي في حرج.

- أنا بس.. كنت بغطي..

- إبعد عن «الكاديفر» لو سمحت! حاول تكتبلك كلمتين ينفعوك.

قالتها جاكلين بتأفف.

- أفندم؟

- مش انت جورنالجي؟

-..بتقري اليوم المصري؟!

قالها يوسف بالعاريقه بصعوبة، فلم يكن يتوقع أن يقابل أحد قرائه.

باغته ردها:

- مابقراش جرايد مصرية، بس باين عليك.

- إزاي عرفتي..؟

- مش صعبة أوي إني أقول مين بيتغدى وسط الجثث ومين بيشفوها كل فين وفين.

ثم أضافت بعدما جلست تتفحص الجرح الغائر في صدر الضحية:

- و صدق أو ماتصدقش.. بس أنا عرفت كل ده قبل ما...

قالتها مشيرة للموقع الذي أفرغ فيه يوسف معدته.

- في حاجتين ما بتعودش عليهم مهما حاولت..الجث.. والأماكن المقفولة.

قاطعته بحزم:

- يبقى إبعث حد مكانك!

أي حد معرض إنه يتعب لو شاف منظر زي ده.

رد يوسف مفسراً.

يوسف! أنا ماقصدش أي إهانة، بس الجرنال هياكل عيش كتير الفترة الحماية، لازم اللي هيتابع بقية القضية دي يستحمل اللي هيشوفه.. ولو إني ماعرفش أصلاً البهوات دخلوك إزاي م الأول.

بقية القضية؟!

أعادها يوسف متجاهلاً هجومها، تابعت مشيرة للجنة:

كل اللي انت شايفه ده..

توقفت عن الكلام لبرهة، ووضعت ملقأطاً له تدريج ذو شكل مختلف في مكان الجرح كأنها تبحث عن شيء ما.. ثم أكملت بعدما فرأت رقماً ما على الملقاط المدرج:

مجرد فقرة البلياتشو اللي قبل العرض.. لسه السيرك الحقيقي مابدأش.

بتكلمي عن سلسلة جرائم؟

بتكلم عن سلسلة جثث..

قالتها بثقة راقمة إياه بنظرة مستهترّة، حركت نظارتها بظهر يدها ثم أعادت للجنة مجدداً..

سمعت يوسف لثانيتين وعلق مصففاً شعره بيده:

ميناريو متوقع!

- مش يمكن نجيبه قبل ما يكمل؟ ويرده ممكن تكون جريمة واحدة.  
قالها مؤمن الذي عاد بصحبة نوح بعدما حوله لوضع الـ (silent).

ردت جاكلين متهكمة:

- كان بودي والله.

- شكلك متأكدة!

قالها مؤمن متفحصاً ساعته ثم ساد الصمت لبضع ثوانٍ لتضيف:

- أنا عدى عليا جرايم شبه دي في ويسكونسن.

علق نوح:

- وإيه اللي يخليكي - لا مؤاخذه يعني - سييتي الهنا ده كله ورجعني  
مصر..؟

نظرت له مجدداً بتفحص - من فوق نظارتها - كأنها ترى بكتيرها  
بمجهار إلكتروني.

سألته بسخرية واضحة:

- وإيه اللي يخليكي - لا مؤاخذه يعني - تسألني سؤال شخصي؟

- عادي.. مجرد سؤال.

- ماتسألش في حاجة شخصية.

قالتها ليعقد نوح حاجبه وينظر مجدداً لمؤمن الذي حرك أنامله  
بهدهوء أمام فمه المغلق من دون أن يلحظه أحد، في علامة مغزاها (ولا  
كلمة واحدة).

ون هانف يوسف المحمول فتنهذ ارتياحاً لأنه قد يخرج ليشم بعض  
الهواء النقي خارج هذا الجحيم، اختفى يوسف ونظرت جاكلين لمؤمن  
الذي بدا شاردًا، عاقداً يديه ينظر إلى الجثة التي جلست بجانبها الطليبة  
المزاج الحاد والتي أردفت:

الجورنالجي صاحبك؟

يوسف؟.. آه طبعاً.

قالها مؤمن بعدما باغتت شروده بسؤالها، ثم أضافت بهدهوء تحسد  
عليه:

هو عمره ما شاف جثث قبل كده؟

هو رئيس قسم الحوادث على فكرة.

ماكتش أعرف إن مجلة ميكي فيها قسم حوادث...

قالتها غارقة في حلق الجثة مستخدمة مصباحها الدقيق، تمكن مؤمن  
من منع بضعة كلمات من الخروج في اللحظة الأخيرة مطلقاً بدلاً منها  
لفرأ عميقاً، حرك رأسه نفيًا ثم وجد طريقه للخارج خلف يوسف الذي  
لم يعد له وجود.

وقف يوسف شارد الفكر يتأمل النهار الذي ظهر أكثر تفاؤلاً عن  
نصف الساعة التي مرت، في حين وجد يد صديقه تستقر بهدهوء على  
قلبه اليسرى قائلاً:

- إيه اللي حصل لكونولميو؟

بادلها بعدها يوسف بنظرة عميقة هادئة قائلاً:

- أنا كويس..

قالها بصوت خافت.

- متأكد؟

- صدقتي.. تمام.

- هحاول أصدقك.

قالها رافعا يده من على كتف يوسف مشعلًا سيجارة ثم أكمل بعد أن أطلق زفيرًا أبيض اللون.

- هي قالتلك إيه؟

نظر إليه يوسف مجددًا بعينيه اللامعتين ثم أكمل بنفس الشحوب:

- ولا حاجة..

أوما يوسف رأسه نفثًا في هدوء، وضافت عيناه اللامعتان فاحصًا حافلة مرت من أمامه، طبع عليها علامة مميزة تشبه هرمًا مقسمًا لثلاثة أجزاء، كانت لشركة كتب اسمها تحت العلامة «الشركة العربية للآلومنيوم»، أخرج عقل يوسف سهمًا تخيليًا من العلامة ورسم بجانب الحافلة علامة شركة عالمية شهيرة للملابس الرياضية كتب بجانبها «نسبة تطابق 96 في المائة» ثم مسح عقله بممحاة افتراضية كل ما كتب بمجرّد مرور الحافلة، صمت لثانية وتابع:

- في حاجة ناقصة.

من فاهم قصدك - بس أمانة لله يعني - أنا أول مرة أشوف حته زي التي، بس بردو..

قالها مؤمن لنفسه فاحصًا بعينه جنبات المكان ثم أضاف:

عاوزك ماتقلش! هنجيب أمه في ظرف يومين اتنين يعون الله.. تلاقية واد (...). ول اتفرجله على فيلمين رعب فحب يعمل شوية ألابندا..

لحسم شيئًا من إظفر إبهامه ثم أضاف:

هيقع.. هيقع..

قالها قاذفًا عقب سيجارته في بركة صغيرة أحدثها المطر في الطريق.

لنهد يوسف وعلق برد مبهم:

عمره ما هيقع من غير خيط.

ثم قصد البوابة الخضراء، وضع يديه في جيبه المعطف بعد أن لوح لله في الهواء لصديقه دون أن يلتفت، أدارها مؤمن في الفص الأمامي لعملة المكتظ بعلامات الاستفهام، ثم ما لبث أن تذكر شيئًا صاح به:

«موزة» عايز يشوفك!

سمعه يوسف، وأشار بعلامة بإصبعه الخنصر والسبابة عموديًا على أذنه بعلامة معناها (اتصل بي)، واختفى عن أعين مؤمن الذي ظل مجمدًا لغارة، يسترجع كل ما حدث منذ وطئت قدماه ذلك المكان المششوم.

\*\*\*



(5)

تصاعد صوت النقاش الصادر من التلغراف في الصالة الرئيسية للشركة البائسة، تبارى الجميع في تفسير جريمة القتل الغامضة التي هزت أركان القاهرة وقاطنيها بغرابتها وحشيتها، فيما انشغل يوسف بصناعة وجهه خفيفة من «شورية الجمبري»، أو الطبق الرسمي المفضل للصديقين.

أفزع يوسف صوت شيء ما يتحطم، ألقى بملعقته الخشبية في حوض المطبخ وجفف يده في فوطه صغيرة عاقدًا حاجبيه، هرع إلى الصالة منتظرًا مفاجأة جديدة من صديقه المزعج، وجده يتفحص جهاز الكاسيت القديم بعدما سقط على جانبه الأيمن بدون خسائر، شعر بالأسى على أحد تذكارات عائلته الراحلة، عدل من وضع الكاسيت ذي البابين والمزين بصور «باتمان» وغيرها، نفخ قليلًا من الغضب الساكن فيه. ثم رمق سيزار بنظرة نارية ليصدر الأخير صريخه المكتوم المعهود استعدادًا للعقاب.

لكن صوتًا آخر تصاعد من العدم ليفزع يوسف ويصعقه في ذهول، اتضح بعد ذلك أنه ميعاد الفقرة الدرامية المعتادة من الخريت الغاضب، الذي بدأ هوائيه في تعذيب حازم أمام والدته التي فشلت كالعادة في حمايته، صرخات متقطعة من حازم من حين لآخر تبعث الأمل في نجاته، ثم صمت يشعل الخوف في فراقه للحياة.. هكذا كان الأمر.

رمى يوسف سيزار ثم أشاح بنظره للسقف في تمنع وسط صوت  
اللمعات الممتزجة بتوسلات الأم غير المجدية، قال مبررًا لسيزار:  
داهلش نندخل..

رد عليه سيزار بنبرة صغيرة بها كثير من الثورة والاستهجان، ثم  
بعض اللمعات المتتابع منتظرًا رد فعل أكثر إيجابية من صديقه الكبير،  
والذي عطف على شفتيه الصغيرتين ثم حرك رأسه مستنكرًا فكرة دارت  
برأسه، فكرة استسلم لها بعد تفكير عميق ليشير برأسه لسيزار: - تعال!

أراد لهاته سرعة وضرب بذيله يمينًا ويسارًا ثم تحركا تجاه التليفون  
الأحمر بجانب التلغراف، رفع السماعة وعزف على الأزرار ليظهر الرقم  
1221، رن جرس التليفون برتابة حتى رد شخص على المكالمات:  
المجدة..

السلام عليكم!

وعليكم السلام.. اتفضل!

أنا عايز أبلغ عن حاجة مهمة.

الاسم إيه؟

يوسف أصلان..

للاي..

يوسف عبد التواب أصلان.

بشغل إيه وساكن فين؟

- يشتغل صحفي في جريدة اليوم المصري.. وساكن.. في مدينة نصر  
الحي التامن.

- تمام، إيه الحاجة المهمة؟

تجمد بعدها يوسف كالذي فقد الذاكرة فجأة، نظر ناحية سيزار في  
صدمة كمنذع ينتظر مساعدة شفوية من «Air Piece»، حاول إغلاص  
الخط لكنه تذكر أن فعلاً كهذا قد يكلفه كثيراً، منع نفسه بصعوبة من إنها  
المكالمة وأعاد السماع مرة أخرى لأذنه، سمع صوت الرجل مجدداً.

- ألو.. ألو..

- أيوة.. معلق الخط كان معلق.

- ولا يهكم.. قول!

- الكلب - الكلب - بتاعي، تقريباً.. اتسرق.

- الكلب بتاكل!

- آه.. بالظبط كده.

- وجنابك بقى متصل عشان كلب؟

- آه.. هو.. عزيز عليه بصراحة بقالة سنين و...

قاطعة الصوت مضيقاً بنبرة ساخرة:

- بص يا ريس! أنا هبلعها وهاخد كلامك ده بحسن نية، ولو فعلاً زي ما  
بتقول يبقى تاخذ صورة للكلب وتطلع على أقرب قسم تعمل محضر،

والله، ثاني مرة ماتتصلش بالنجدة إلا عشان حاجة تستاهل عشان  
واحدش يزعلك.. واضح؟

واضح.

أويس.

قالها الرجل ثم أغلق الخط معلناً عن نهاية درامية للمحاولة الفاشلة.  
للهذه يوسف بعمق ثم نظر لسيزار قبل أن يضع السماعة:

سلوك عدواني سلمي ليدير سيزار رأسه متعجباً كأنه فهم ما حدث،  
فاز يوسف من على مقعده قاصداً المطبخ، انتهاء صوت الصرخ أعطاه  
شعوراً لا بأس به، جال بخاطره مشهد ذلك الضابط الذي سيجعل منه  
الكلب اليوم مع أصدقائه في القسم، وأصوات ضحكاتهم الهستيرية وسط  
الدهانات نابية من خياشيمهم مع ترديد أحدهم كلمة «عزيز عليا» مراراً  
وتكراراً، لكنه تجاهل الأمر وتمشى قليلاً ناحية الصالة التي يحتلها  
السمت ويضع على كرتونية كبيرة مغلقة، قلب كتب عليها جميعاً نبذة  
عن محتوياتها استعداداً للرحيل ما بين لحظة وأخرى، ضغط على زر  
في الحائط لينير الصالة، ثم اقترب من علبة صغيرة مزركشة تبدو كعلبة  
للحلي للحلي وتمعن فيها قليلاً، اكتفى سيزار بالوقوف مشاهداً، نزل  
يوسف على ركبتيه وفتح العلبة في صمت، أخرج منها بعض الورق  
وساعة يدوية بدت قديمة وصغيرة للغاية و.. مسدساً متوسط الحجم،  
الذي اللون ذا مقبض أسود، من النوع «Revolver»، حفر عليه كلمة  
«أوروس» نسبة إلى الشركة المنتجة له أو «البرازيلي» كما كان يسميه

أنا رأيي ليديه لمؤمن بدل ما انتحريه عشان عمري ما استخدمته.. تتفق  
معها يا؟

أنا لمجهدت عيناه كثيرًا ومالت الصدمة وجهه ليقولها في فزع بخيبة  
أنا...  
الجمبري!

أنا جرس الهاتف الأرضي للمرة الثانية مقاطعًا الفيلم الكارتوني  
الشهير «عائلة سيمسون» في التلفاز الكبير الذي انعكست أضواؤه  
على وجوه الصديقين الغارقين في النوم، أفاق سيزر متعجبًا من فوق  
يوسف الأيسر والذي اعتبره وسادة جيدة لرأسه، حاول الانسحاب  
بهذا من تحت يد يوسف اليسرى الممسكة بالريموت كنترول، في حين  
انشغلت يده اليمنى بيطبق عميق به ملعقة وبقية حساء بارد، أفاق يوسف  
من غفوته في الرنة الثالثة ليحرك رأسه في دهشة ناحية الصوت، أشاح  
بجانبه نصف المغلقتين مجددًا تجاه التلفاز وأنقذ الحساء من السقوط  
بمعهزة، ثم توجه للهاتف مسرعًا:

أنا...

فأله بصوت محشر بعد ما رفع السماعة.  
أسفة! أنا صحتك؟

رد صوت ناعم للغاية.  
أنا عادي، ماكانش المفروض أنا م دلو قتي.

صديقه «العرباوي» وقتها، والذي أهده له عندما كان يعمل في السباحة  
قبل احترافه للصحافة، ضغط على زر في أعلاه ليفتح جزء منه وتعالى  
الرصاصات لأمعة ترجوه أن يطلقها متطوع ما، أدار خزان الرصاصات  
ليدور بقوة كما في أفلام «الكابويز» وأغلقه ثانيًا ثم نظر إلى المرأة  
الكبيرة التي على يمينه مصوبًا في تحد، عاقداً حاجبيه متظاهراً بالجدية  
«أي حركة حضرب في المليان!».

قالها برعشة واضحة في يديه، ترك ليديه حرية السقوط ثم نظر مجددًا  
لسيزار المندهب قائلًا:  
... ما شترتش؟! -

عصر عضلات وجهه مجددًا وصوب بكلتا يديه بعنف ناحية المرأة  
محركًا المسدس في أكثر من اتجاه مهددًا جيشًا من الأعداء الافتراضيين،  
ثم قالها بثقة ولكن بوجه أكثر حدة «اللي هيتحرك هيشوف مخه على  
الأرض».

ارتعشت يدها بعنف مجددًا ثم نظر لسيزار مضيقًا:

- تأثير مؤمن؟

لم يرد عليه سيزار واكتفى بإخراج لسانه ليكمل يوسف:

- سيزار! جاملني!

رد عليه سيزار بنبهة تجاهلها يوسف ثم أكمل فاحصًا المسدس في  
إعجاب:

تفحص ساعته الفضية في هدوء والتي أشارت للواحدة بعد منتصف الليل.

تابعت المتصلة بنفس النعومة:

- شو أخبارك؟

- أنا كويس! مين معايا؟

قالها يوسف ماسحاً وجهه بيده اليسرى محاولاً الاستيقاظ من تلك اللحظة التي تتوسط النوم والواقع.

- مش فاكِر صوتي؟!

- الحقيقة إني مش فاكِر صوتي أنا شخصياً، وده لحد ما اشرب قهوة على الأقل.. العقل بيحتاج وقت عشان يعادل مستوى الأكسجين ويرجع لنفس كفاءته قبل النوم.. أأأ.. بصي ماتحاوليش تركزي في أي كلمة بقولها!

خبط برفق على وجهه كي يستيقظ، ثم أغلق التلفاز، ضحكت الفناء ثم أردفت:

- واضح إني عمري ما معرف أكسبك، حتى وانت نايم، اجبك قهوة من لاتشانس.

- راندا؟!

- بالظبط كده.

- إزيك؟ مفاجأة جميلة!

ماي هتسألني جيب رقمك منين؟

هلينا نقول الجرنال!

أنا كده خفاف منك، انت شو يعني! سريع أوي.

قالها بلهجتها المميزة.

انت مش مصرية؟!

أه بابا سوري، انت خدت بالك؟

طبعاً.

رد يوسف متعجباً من سؤالها، فلهجتها غير المصرية تبدو أكثر وضوحاً من حاملة طائرات في الخليج، أردف بعدها:

هاسس إنك عايزاني في حاجة.

هايزاك في شغل.

شغل؟

سمعت عن الحادثة بتاعة المرج؟

جرمة مصنع الملابس؟!

أوه.. بالظبط.

هلينها بنفسي في الجرنال، بكرة هينزل تعليق عنها.

طيب كويس جداً، إحنا محتاجينك في القناة.

أنا؟!

أكيد، إلا لو في حد تالت معانا على الخط يا مايسترو..

ردت بدلال واضح.

- بس أنا عمري ما طلعت في التلفزيون.

- الموضوع سهل جدًا فوق ما تخيل.. والتلفونات معظمها بها  
وهنكون متفقين على الأسئلة وكل شي منيح، ماتخافش، وفيه مبالغ  
كويس ليك على فكرة.

- مش قصة فلوس.. بس...

- يوسف! هتكسني ولا شو؟

صمت يوسف لثانيتين محاولاً التفكير في عرضها المفاجئ لتضيف:

- بالمناسبة.. لما سألت عن رقمك، زميلك قال لصاحبه (رقم الدكتور  
كام؟)، هما ليه بيقولوك يا دكتور في الجرنال؟

- قصة طويلة.

- أنا فاضية طول الليل.

- خيلنا نحكيها لما نتقابل.

- مممم.. أوك! بس أنا مش هنسى أسأل.

- هجاوبك قبل ما تفتكري تسألني.

تبدلا السلام وأغلق الهاتف بعدما توصلا لمكان وميعاد المقابلة،  
أصرت هي على المقابلة في مقهى شهير بالزمالك من النوع الذي يكرهه

الزمالك ولكنه وافق على أي حال لينظر لسيزار الواقف على قدميه متحفراً  
لوق الكلبة قائلاً بنظرة بها كثير من البهجة:

«كلنا هناكل جميري كثير..»

لذاف يوسف بوجهه في حوض من الماء بارد لعله يفيق، ثم أخرج  
«هاجة شعير من ثلاجته واستلقى أمام حاسبه الأمين، أخرج مفكرته  
الصغيرة ونسخ منها مقالة قد كتبها مسبقاً عن الحادث:

«التحليل النفسي لجريمة المروج المروعة»، حفرها على برنامج  
«Word» ليعاينها قبل إرسالها لبريد «البطريق» الإلكتروني، كتب فيها:

#### «الحظية الجريمة»

أعلم أن الحديث عن أي شيء آخر بخلاف «جريمة المروج» سيفتح  
عليّ وأبلاً من النيران الصديقة من قراء «اليوم المصري» عمومًا، و«خيوط  
والدلائل» خصوصًا، لذلك قررت أن أكفي نفسي والمؤمنين شر القتال.

إن أهم ما يميز جريمة المروج المروعة - في نظري - هو الجزء  
النفسي، وقد تكون تلك هي الجريمة الأولى التي أشاهد بها طابعًا نفسيًا  
بشكلًا في العشرين سنة الأخيرة في المحروسة.. لماذا؟ سيحتاج الأمر  
بعضًا من الشرح..

المنطق يقول: إن الكثير ينظر تجاه مرتكب تلك الجريمة كشيطان  
«يربض جاء ليعيث في الأرض فسادًا، لكنه - حتى وإن كان شيطانًا يمتلك  
أسهمًا لا بأس بها في كل أنواع المرض النفسي - فإنه في النهاية رجل

يتملك دوافعه الخاصة، والدافع في بعض الجرائم قد يكون أكثر هرايا من الجريمة ذاتها.

لقد حير علماء النفس العديد من الجرائم السادية في العالم أجمع، فالتاريخ لن ينسى سفاح كاليفورنيا الشهير الذي أصاب العشرات من المارة وحصد منهم الكثير لمجرد أن أحدهم قد سرق باب حديقة الصغيرة، أو ذلك البريطاني الذي ذبح صديقه والتهمة فجأة بدون سبب مقنع، وماذا عن التوربيني مغتصب الأطفال وقتلهم في مصر؟ أو حتى جرائم الكونت دراكيولا السادية؟ والكثير والكثير من الأحداث المبهمة دوافعها في شتى بقاع البسيطة وأزمانها، لكن شيئاً ما يربط بينها جميعاً، لحظية الجريمة.

علماء الجريمة يعملون دائماً على فكرة واحدة كانت سبباً في حل الغالبية العظمى من الجرائم، اللحظة التي يفقد بها مرتكب الجريمة سيطرته على أعصابه ويفعل جريمته، تلك اللحظة لا يفكر فيها القاتل في بصماته، ولا السارق في كاميرات المراقبة، وحتى لو فكر كلاهما في تلك التفاصيل الحية، في وقت تنفيذ الجريمة فإنه يفقد معظمهم صوابه ويتروك أطناناً من الخيوط التي يلتفتها رجال المعمل الجنائي بصدر رحب.

كل هذا تفتقده جريمة المرح المبهمة، فلحظية الجريمة هنا غير متوفرة، لقد خطط شخص ما لكل شيء، شخص أراد أن نرى مسرح الجريمة كما نراه الآن، شخص لا يعتقد أنه يمتلك من الحظ السعيد ما أدى به لارتكاب جريمة شبه كاملة، لكنه امتلك التخطيط... التخطيط.

أما ما حدث، الحقيقة أننا لم نجد بالفعل أي بصمات أو دليل واحد عن ارتكابها، تلك الجريمة لم تكن وليدة اللحظة أو الصدفة... لكنني على يقين أن رجال المباحث سيجدون في النهاية، سواء بمساعدتي أو بدونها.

الجدير بالذكر أن الدافع النفسي لعديد من جرائم النفس قد يكون مبهماً حتى وإن كان مبهماً، بينما تبدو لي جريمة المرح أكثر عمقاً وعموضاً من مثيلاتها، إن ما حدث في تلك الليلة في المرح لم يجد الأمن المركزي البريء ما هو إلا بداية محتملة لسلسلة أخرى من جرائم أصعب وأكثر قبيحاً، يعلم الله وحده إن كانت ستكمل، أو أن رجال المباحث سيصلون لمرتكبها في الوقت المناسب.

يوسف أصلان

\* \* \*

أشود ضيقاً يلامس نهايته حذاء رياضيٍّ فاخرٌ ناصع البياض، تعلق وجهه  
بالساعة الكبيرة، لم يكن سوى معاذ عبد الحق صديقه القديم، تقدم بخفة  
لأخيه مؤمن الذي هب واقفاً ليعانقه في عنف.

قال ده عشان تاخذ أجازة؟!

معلش.. كان شهر ظالم.. حاجه بنت مره.

ما قولنا نجيب واسطة أجيبك جنبي القاهرة، انت اللي قولتلي في  
واسطة عندي وهظبط الكلام ولا نيلت أي حاجة.

أنااا جيبت واسطة يابني بس ده كان مشروع حرب أعمل إيه، ما انت  
عارف، الهمبكة في الجيش ليها حدود برده.

علق معاذ ناقراً فوق علية سجائره لتخرج إحداها ويلتقفها بأسنانه.

إيه الجديد؟

ولا أي حاجة، نوم وأنتخه وروتين ابن جزمة كل يوم زي اللي قبله،  
أوف!، صحيح، فكرتني، هحكلك حوار جامد أوي.

قالها معاذ مشعلاً سيجارته بقداحته «الزيبو» الفاخرة.

ظني يا منير!

من أربع تيام كده عسكري عندنا في الكتيبة، واد شَقَف كده وغلبان..  
الخانق مع سواق ييجو والسواق ضربه هو وواحد صاحبه، المهم الواد  
رجع الكتيبة وحكى لقائد الكتيبة على اللي حصل.

ونيلتوا إيه؟

## (6)

تعالت طرقات الباب الأبيض القديم في الدور الثاني من مبنى  
مباحث أمن الدولة بالجيزة، رد مؤمن البحيري بصوت واضح معلناً  
السماح للطارق بالدخول ليدخل سليمان، ألقى بسلامه الميري لرئيسه  
في صمت والذي بدا منهمكاً في هاتفه الجوال، تناقلت رأسه على كفه  
اليمنى التي اشتعلت بين أصابعه سيجارة مارلبورو لا تزال بكراً رشيداً،  
نظر مؤمن لسليمان الثابت كالصنم لا يتحرك في دهشة قاتلاً:

- إيه يابني في إيه؟

- معاذ بيه بره وعاوز يجابل سيادتك.

قالها سليمان بحزم ليجتمع مؤمن محاولاً عدم الضحك، سحب نفساً  
من سيجارته ثم أجابه بقليل من الدهشة مبتسماً:

- هاته يا سليمان!

قام سليمان بالتحية نفسها مرة أخرى وخرج ليدخل بعدها بثانيتين  
شاب في نهاية العشرينيات قصير القامة، أسمر البشرة ذو شعر قصير،  
مفتول العضلات يمتلك جسداً ممشوقاً للغاية وعينين سوداوتين  
صغيرتين ورأساً ذا جبهة عريضة يرتكز على كتفين عريضتين، إضافة  
إلى صدر مشدود بطريقة غير مبالغ فيها، يرتدي تيشيرت وبنتالاً جينز

- مش هتصدق! فيلم أكشن، طلعنا كلنا في مهمة واحدة بس، القائد قالنا ربع ساعة ويكون عندي ابن الو «..» ده، بالظبط يابني تلت ساعة وكان الواد وصاحبه والعربية ذات نفسها موجودة في الكتبية، مش عارلهم أقولك عملنا فيه إيه.. الواد كل ضرب بدينه هوه وصاحبه، وخدناهم عند قائد الكتبية وقطعنا قمصانهم وغمينا بيها عنهم والكل بياهم فيهم، في الآخر خلبناهم يركعوا على ركبهم وقائد الكتبية ببوز الجز ما و«دبيب» في جنباهم لما العيال عيطت دم، وواحد فيهم أغم عليه، مش عارف أقولك يابني، إترفعوا.. إترفعوا بجد.

- والعربية؟

قالها مؤمن مبتسمًا ابتسامة تنم عن انتشاء.

- هههه، كل الكتبية اتعلمت عليها السوافة.

- لا كده أمين، رجالة، مين ابن المجنونة اللي يضرب عسكري جيش في البلد دي؟

- إترشموا..

علق معاذ متمشيًا.

- وانت الدنيا عاملة معاك إيه؟ سمعت إن فيه ترقية قريب.

- ترقيتي موقوفة.

- ليه بس كفالته الشر؟

- حوار كده مالوش لازمة..

والله عيش بقى.. قول!

«وار كده بيني وبين عبد الجليل.. مارضيتش أخلص مصلحة طلبها «ني.. مصلحة شمال.

وانت إيه اللي مخليك تدخل شرطة أصلاً مادام انت عايش في دور جمال الشناوي كده؟

إتر يا روح أمك إتر يا!

يقولك إيه! انت اللي اخترت تكون ظابط، وقبلت تعيش في أكثر مؤسسة فاسدة في البلد وأقنعنا انك هتجيب حق أبوك، كنت فاكرا إنها هتبقى زي الأفلام؟ يابني إحنا مش في الجنة.

ما تفتش الحوار ده يا معاذ الله يكرمك!

مازعلش يا عم أنا قلبي عليك، مؤمن!، حاول تمشي الليلة معاهم عشان تعرف تعيش.. إسمع مني!

أنا ما فيش حد هيمشيني على مزاجه، وحقي وحق أبويه هاخده ثَمًا.

يابني الحج - ربنا يشفيه - اتعض من ناس ثقيلة أوي في البلد، وكل ما هتخلص من واحد فيهم هتلاقي وراه اللي أشد منه، انت كده مش هتخلص.

فولتلك مالکش دعوة يا معاذ بالحوار ده! أقطم بقى!

إراحتك يا عم، أومال فين يوسف صحيح؟

مرت عشر دقائق، استأذن سليمان للدخول مجددًا ليعلن وصول يوسف والذي دلف متعجلًا حاملًا شنته الكروس السوداء يلتقط



أنفاسه المتساقطة، ما أن رأى معاذ حتى عانقه بسعادة لم تخفها عيناؤه، قال معاذ مداعباً لإياه:

- أخيراً قابلت المحقق أبو 80.000 جنيه.

- همم!.. وأنا قابلت وزير الدفاع المحتمل.. اختفيت فين؟

- أكيد كان يدور على البيضة المسلوقة.

علق مؤمن ساخراً.

- انت بتقول فيها، أنا من ساعتها بَشُك في كل البيض اللي في الدنيا.

قالها معاذ ملوحاً بيده:

- ليه مش عايز تصدق؟

سأل يوسف:

- أنا حاسس إنه كان حظ.

- مكانش حظ.. القشرة كانت الخيط.

كان رد يوسف الذي لم يلتفت.

- إزاي عرفت ان.....

- إزاي انت ماخدتش بالك؟ إزاي حيلة يدائية تدخل على المباحث؟

هي دي الأسئلة المهمة.. والحل.. الحل دائماً في المعطيات.

قالها بنفس مستوى الصوت الهامس، وعاد ببصره لوجهي الصديقين.

يعني انت فعلاً عرفت انها اللي سرقَت الخاتم من قشرة بيضة؟! ده اللي انت عايز تقنعني بيه؟

مؤمن! شوف المعطيات بعقلك.. مش بعينك، لما معاذ كلمني يومها وعملنا لسنة لكل المشتبه فيهم.. كان في نهايتها الفلبينية.. بناء على طلب مدام ناهد، لكن بالنسبة لي.. اللسته كانت متساوية من حيث الأهمية أشاح بنظرة مسترجعاً ما حدث في تلك القضية، كأنه يراها أمامه، ليرد عليه معاذ بتعجب:

بس «ريكا» بقالها عشر سنين معانا.

الدوافع ممكن تكون موجودة مع نفس الشخص لسنين طويلة.

ليه مش الجتاني؟ ليه مش أي حد ثاني في الفيل؟ ليه مش العمال اللي جُم قبل سرقة الخاتم بأسبوع؟

تساءل مؤمن بطريقة دفاعية.

كل ده كان ممكن.. كلهم كان ليهم فرصة للوصول لأوضة النوم لمدة دقيقة على الأقل، أنا بدأت بالأسهل.. ده غير أنها كانت تتسافر خلال ساعات.. كان لازم اخرجها بره القايمة بأسرع وقت ممكن.

وإزاي أتأكدت انها هي.

زي ما قولت.. كانت تتسافر في خلال يومين.. معملتش حسابها ان الخطة تنكشف قبل ما تسافر، اعتمدت على رصيدها من الثقة عند العيلة طول السنين اللي فاتت.. أنا لقيت قشرة طولها 2سم مرمية

البهس المسلوق بقى عمله نادرة.

ياقول إيه؟

اسأله مؤمن.

غير يوسف حديثه بسرعة بعدما أفاق من غفوته متسائلاً:

هو أنا تأخرت عن الحفلة؟

مش كثير.

أنا جاهز.

في غرفة مجاورة لمكتب مؤمن تواجد جنديان من قوة الأمن المركزي يرتديان زيهما الأسود التقليدي، جلسا أمام متضدة معدنية كبيرة في غرفة خالية تماماً إلا من لمبة مدلاة من سقف قريب، وزجاج مرآة يحتل أحد الحوائط الأربعة، وضع أحد المجدنين غطاء رأسه الحريري بجانب يده على الطاولة في حين همس له الآخر بشيء في أذنه، المخدم مؤمن الغرفة فجأة وبدون إنذار مسبق، خلع معطفه الكلاسيكي الشامخ عن حزام جلدي أسود يلتف حول صدره يحمل صديقه الميري، إلى بمعطفه الداكن حول كرسي جلدي وضع خصيصاً له، بينما استقر يوسف في غرفة ثالثة مجاورة لغرفة التحقيقات، أمامه وجدت سماعات مائية بالحائط ويكرة لتعليق الصوت، وشاشة زجاجية يرى من خلالها ولا يُرى، شاشة بالنسبة إلى الغرفة المقابلة مجرد مرآة.

شربتوا حاجة يا رجالة؟

قالها مؤمن مشعلًا سيجارته باستهتار من دون أن يرمقهم بأي اهتمام.

لوحدها تحت حوض المطبخ.. مع الوضع في الاعتبار أنها ماكانت في بسبب ذرة رمل في أي مكان في البيت.. القشرة دي اتنست في لحظة توتر.. لحظية الجريمة.

- وعرفت إزاي خدعة الخاتم اللي في البيضة يا كلومبو؟

علق مؤمن بسخرية.

- خدعة أندلسية قديمة كان يستخدمها الخدم عشان يسرقوا أسيادهم.. كان بيكسروا بيضة - أو أكثر - من الجنب وبعدين يسحبوا منها محتواها بشرط ان هيكل البيضة الخارجي يفضل زي ما هو.. بعد فصل الصفار عن البياض يرجع البياض مرة ثانية ويتحط الخاتم في المكان اللي انكسرت منه البيضة.. في النهاية يتلرز الجزء المكسور بأي طريقة بتغلخ البيضة بعدما تنقشر هيبقى عندنا بيضة جاهزة للأكل تمنها 80 ألف جنيه.. واسمه فلومبو!

- مش هاخبي عليك.. آخر حاجة كنت اتوقعها اننا نلاقى الخاتم جوه تلاجتها.

- يا عم انت رخم ليه؟ ما الرجل أسعفنا يومها وأمي عماله تقول فيه شعر، ولا انت مضايقه علشان بيعلم على المباحث.

علق معاذ.

أردف مؤمن:

- ليك حق تهشتك فيه.. ما هم 80 ألف مش لعبة.

تمتم يوسف شارداً لنفسه:

- والله يا باشا ما حد عبرنا..

رد أحدهم مبتسمًا بلهجة يغلب عليها الطابع الصعيدى.

ومقه مؤمن مبتسمًا محركا رأسه إيجابًا، ثم سأله مبتسمًا:

- إسمك إيه؟

- رجب يا بيه..

- أسألك تجاوب إجابة كاملة يا رجب!

قالها بهدوء شديد.

تحولت ابتسامة رجب لصدمة بعدما شعر بأن عاصفة قد تهب بوجهه في أي لحظة ليصيب:

- رجب عبد الله محمود يا بيه.

أشار مؤمن لزميله ذي البشرة الداكنة والطول الفارع مضيفًا:

- نفس السؤال..

- محمد أمين البكري سعادتك!

- الهواري يقول عليكوا من أحسن رجالة.. عايزين نبقى حلوين عشان

نروحوا بدرى مع الشكر.. تمام؟

- آأمرنا يا بيه.. هو حصل إيه لا مواخذه؟

- تاني غلطة يا رجب! غلطة كمان وهوديك الأتريه عشان تاخذ

الواجب، أنا بس اللي بسأل هنا.. أمين؟

قالها مؤمن راقعا حاجبه الأيسر في تهديد واضح.. تدخل صديقه متفقدًا الموقف:

أسفنين يا سعادة البيه، ما يقصدش والله.

مدح يا حماده! تعجبني، خد سيجاره!

لقدفه مؤمن بسيجارة ووضع ولاعته أمامه على الطاولة المعدنية

للأفطها الأخير ويشعل سيجارته وسط دھول من صديقه الذي شعر

بغسه يتدلى فوق حافة سفح بمفرده.

من يد ما نعدمها جنباك.

وضع محمد الولاة مجدداً برعشة على الطاولة المضاء نصفها، لمح

«من شينًا فوق ظهر يده، بدا كجرح قديم، أطلق زفيرًا رماديًا وسأله:

«لن الجرح ده يا حماده؟

«أه، ده جرح «جديم» جنباك، كنا بتعامل مع اعتصام السودانيين وعيل

منهم كان شايل حتة «جزازة» عورني بيها بس عملنا معاه الصبح يا بيه

بلى، الله يسهله.

شكلك خيطه!

علق مؤمن مبتسمًا لاهيًا بولاعته.. ليرد المجند بتهكم:

والله يا بيه ما فضل منه حاجة.. في جنة الخلد إن شاء الله.

«أه.. وانت يا رجب ناشف كده زي حمادة ولا؟

«ده أنشف مني سعادتك..

علق محمد بوجه مستبشر للغاية نيابة عن صديقه المرتعد.

أنا سألتك يله؟؟!

صاح بها مؤمن ثم أطفأ سيجارته فوق المنضدة.

- آسفين يا بيه آسفين!.. آسفين يا بيه!

قالها رافعا كف يده في حركة دفاعية.

- فاضلك غلظتين! اتكلم يا رجب!

- أنشف منه بعون الله يا سعادة الباشا، لو شرفتنا في أي مظاهرة متشرف

سعادتك بتعمل إيه.. ماحدش بيروح سليم.

- جلع يلا يا.. رجب.

قالها مؤمن وطقطق أصابعه مضيئاً:

- وأسعد.. كان أنشف منكوا ولا أطرى؟

رمق رجب صديقه بصدمة ثم بلغ ما استطاع من ريقه وأردف:

- أسعد كان أنشف واحد فينا يا باشا - الله يرحمه - هواري بيه كان

يقول عليه يقض بلد لو لحده، عشان كده كان دايماً في الصف الأولاي  
حضرتك.

- الكلام ده صح يا حمادة؟

تساءل مؤمن موجهاً حديثه للآخر.

- صح يا بيه! هو مات إزاي سعادتك؟

رمقه مؤمن بنظرة نارية، ثم أخرج جهاز اللاسلكي الخاص به من  
جانبه الأيسر وضغط على زر به قاتلاً:

- جهزلي ترابيزة في الأنتريه والنبي يا دياب، آه لشخصين، ماشي  
طقم كمنجات مايخسرش، لا بلاش الحلو، نشوف هيتعشوا الأولو  
ولا لا..

صنع رجب صديقه في كتفه الذي اعترت وجهه الدهشة متمتماً  
بإشارة سب انتهت بـ«هتودينا في داهية»، ثم سيل من الاعتذارات لمؤمن  
بإهملها الأخير، حرر ساعده من الساعة وسأل سؤاله بعدما عاد بظهره  
الوراء متفحصاً سقف الغرفة:

كان ليه عداوة مع حد يا رجب؟

أبدأ يا باشا، ولا عمرنا سمعنا أنه إتعارك بره الشغل.

«مهم.. ماشي.. طبعاً انتوا عارفين إن المباحث عارفة حاجات كثير،  
واللي يقول معلومة غلط بيروح فين؟!

عارفين سيادتلك.

اقرب منه مؤمن وصمت لثانيتين ثم أضاف مرتباً فوق وجهه:

جذع يا حمادة!

اعتدل قائلاً لرجب:

أبوك صحته أحسن بعد العملية يا رجب؟

عاش بحسك يا سعادة باشا.

وأنت أخوك عمل مصالحة على حدة الأرض اللي بنى عليها يا حمادة  
ولا لسه؟

خلمست يا باشا الشهر اللي فات جنبك.

آه.. طيب، روحوا انتوا يا رجاله! وأي حد فيكوا يفكر حاجة يجي  
يلقولي.. وخدوا بكرة أجازة أنا كلمت هواري بيه ووافق.

قالها مؤمن واقفاً مرتدياً معطفه بسرعة يحسد عليها، ثم أعاد ساعته  
لمركزها ومعها اللاسلكي، وهم بالرحيل.

- ربنا يكرمك ويعزك يا بيه.

علق محمد مستبشراً، بينما نادى زميله، مؤمن:

- يا باشا!

توقف مؤمن الذي رفقته متعجباً، ليضيف رجب:

- كانوا مسميينه في الدفعة «شاكوشة» يا باشا! ماكانش بيسب وراء عضمة سليمة..

هز مؤمن رأسه متفهماً، ثم أخرج سيجارة وأشعلها.. نفخ زفيراً واحداً منها ثم ناولها إياه.. ورحل.

في الخارج كان يوسف في انتظاره، مشى بجانبه ثم قال بثقة:

- القوة الخارقة كانت عندك قبل ما تعرفني؟

- تربية كمان وهوديك الأتريه.

رد مؤمن في طريقه سخرية.

- كان نفسي أصدق إن فيه أتريه..

- وأنا كمان.. المهم انت شاكك في اللي أنا شاكك فيه؟

- ممكن..

- لازم نعرف اشتراك في مظاهرات إيه ونجيب أسامي المصابين، هتبقى

لغة بنت كلب. قالها مؤمن في طريقه لمكتبته من دون أن ينظر ليوسف.

- نوح ممكن يقوم بيه.

علق يوسف متفحصاً ساعته.

أله! بلا انت عشان تلحق التصوير، هبقى أعدي عليك أنا وموزه.

سلام!

مشى يوسف بضعة أمتار قبل أن يستوقفه مؤمن:

يوسف! هو خيط عنه إيه؟!

صمت يوسف لوهلة ثم رد:

كان عايزه يشوف حاجه..

قالها ومشى خطوات قبل أن يتوقف ويضيف:

أو ما يشوفش..

ثم اختفى.

عاد مؤمن لمعاد ثم جلس مضجراً، أخبره معاذ بأن هاتفه ظل يرن لعشرات المرات، تفحص هاتفه ليجد عشرة اتصالات مفقودة من والدته، ألقى بجسده على كرسية المريح وسأل معاذ عن ميعاد مناسب للخروج قبل أن ترد والدته على اتصاله، صمت لثانيتين أو أكثر مستمعاً، وبدأ كمن جفت الدماء في عروقه وفقد القدرة على النطق عندما تجمدت أمامه للحظة، حاول معاذ الاستفسار بقلق:

في إيه؟

لفظ إليه مؤمن بصدمة وبلغ ريقه بصعوبة شديدة، ثم وضع رأسه بين يديه للحظات ومسح بأصابعه على عينيه بحركة سريعة، كأنه يريد أن يمسحها من كابوس ما، قالها بصعوبة بعد صمت:

يا بابا دخل في غيبوبة..

\*\*\*

(7)

اخترقت رنة جوال يوسف التقليدية الهدوء المختلط بالموهبة الكلاسيكية في مقهى سيليترو في الزمالك ليظهر اسم وليد أمامه بجوار كوب قهوة دافئ، ضغط يوسف على زر في هاتفه ليتحول إلى الوصف الصامت ثم أكمل رشف المزيد من قهوته الساخنة، تفحص ساعة القضية التي تجاوزت الثامنة والنصف وديقتين ليرتد زفيراً عميقاً يلمح من صدره محملاً بكثير من الضيق والملل، أطلق هاتفه نغمة قصيرة ليعبر عن وصول رسالة من نفس الشخص قرأها يوسف:

- شفتك وأنا ماشي جنب الكافيه حبيت أسلم عليك، سلام.

التفت يوسف في صدمة حوله محاولاً البحث عن وليد من خلال الزجاج ليلمحه بعيداً، ابن عمه الذي يراه قليلاً وينساه كثيراً، في الخامسة والثلاثين من عمره، أسمر اللون نحيف الجسد تتدلى خصلات شعره الناعم فوق رأسه، يمتلك عينين رماديتي اللون يكسوهما الوهن والسواد يعلم يوسف من أين حصل عليهما، يمتلك قدرًا كافيًا من الوسامة والكاريزما لحصوله على زبائنه من الضحايا، كان وليد مثلاً حيًا للعار الذي يلاحظ ذكرى عائلته الكريمة كالشيخ، فسجله الحافل بحوادث النصب والسرقة قد فاق الحد، مدمن لكل أنواع الكيف بدءًا بالخمور انتهاءً بالمخدرات، وليد كان الشخص الذي يمتنى جميع أفراد عائلة أصلان لو أنه لم يولد.

بدأ كلاسيكيًا تلك المرة على غير عادة، رابطة عنق طويلة ذات لون أحمر داكن تصل لحزامه، تبدو كبيرة الحجم للغاية كأنها أنثى كوبرا تتلوى وتحتها قميص وردي اللون رخيص الثمن.

فكر ساعتها يوسف أن الشائعة الرائجة تلك الأيام أقرب للحقيقة، قد سمع من أحد أقربائه أن وليد قد حصل على عمل في مكتب محاماة كبير وسيع السمعة في نفس الوقت، يمتلكه أحد وحوش مجلس الشعب ممن يملكون دروعاً حمراء ضد كل المسائل.

اللي وليد بسجارة قد فرغ منها في الأرض، ونظر بعينه الشاردتين حوله في هدوء وهم بالرحيل ممسكا بشنطة سوداء سيئة الصنع كبيرة الحجم، ترك يوسف مكانه بسرعة محاولاً لحاقه قبل أن يذوب وسط الزحام، لكن حافلة مسرعة فصلت بينهما حتى اختفى هدفه. وعاد يوسف مجدداً للمقهى الراقي يفكر في ابن عمته الذي لا يبدو أنه قد تغير يوماً، جلس في مكانه مرة أخرى لربع ساعة.. فاجأه صوت ناعم بعدما استسلم للصمت:

الآنحرت عليك؟

ولا يهمك.

«عاش حصلت ظروف في الـ»location« والمخرج طلب مني...

«مهل خير.

لا شكلك مكش وزعلان.

- مافيش بينا زعل.. خلينا نتكلم في حاجة تانية.

- ممم براحتك.. إتفضل!

- إيه ده؟

علق متفحصاً ورقتين وضعتهما أمامه.

- دي الأسئلة، بالنسبة للناس اللي هتصل معظمها تبعنا، في النص في تليفونين ثلاثه كده مش معانا كنوع من المصادقية والجوده، لو حصل أي حاجة يارا هتتذك والـ «Air piece» برده هيقوم بالواجب.

وماتز علش بقى، زعلك وحش أوي.

- اعتبري مافيش حاجة حصلت، الفيلم كان كويس؟

- يعني.. قالتها ثم تداركت شيئاً ما واستفسرت:

- فيلم إيه؟

- انت كتي في السينما، مش كده؟

- ممم! كنت بتراقبي ولا شو؟

- الموضوع أبسط من كده.

قالها بابتسامه ثم أكمل قراءته للورق مضيقاً:

- فيه بواقي فيشار.. حباية قظرها 3 مللي بين شعرك وقعتها زميلتك وهي بتعدي عشان تقعد جنبك، الجزمة اليمين مش ملبوسة كويس، فيه ناس بتحب تريح رجلها لو هتفضل في مكان لفترة طويلة من غير ما حد يشوفها زي العربية مثلاً.. أو السينما، ده غير إن الساعة تسعة ونص..

معظم السينمات عندها حفلات بتخلص من ثمانية ونص لتسعة.

ماكانش واحدة.

فالتني دي.

إزاي عرفت؟

أنا قولتلك.

انت مش طبيعي.. بس تجنن.

كان فيلم ممل صح؟

شوية، بالمناسبة.. كنت عايزة أسألك سؤال.

كنت في طب.

شو؟

كنت هتسألني عن سر كلمة «دوك» بتاعة الجرنال.. صح؟

.. وكمان بتقرى العقل؟

زادت ابتسامه يوسف لتحتل نصف وجهه في صمت ليكمل متجاهلاً

السؤال:

«دخلت طب، نجحت 4 سنين وفي نهاية السنة الخامسة اتفردت

وحولت آداب.. اتخصصت في علم النفس.

ليه ده كله؟

رأيي في طريقة تفكير عميد الكلية ماعجبوش.

بس مشنان هيك؟.. حرام عليه!.. شوها القسوة يعني؟!

قالت لها راندا بوجه متأثر لا يخلو من الإثارة.

- راندا!! مش كل عمد الكليات هتقبل وصف «كلب يراس فرش»

انفجرت راندا ضاحكة ثم سيطرت على ضحكتها مضيفة:

- يا الله!! انت مو طبعي.. وعمتو سابك تسوي هيك؟

- وعمتو؟

- أقصد طنط، مامتك زي ما بتقولوا.

- ماكانتش موجودة ساعتها.

قالها يوسف بوجه واثق وأشاح بنظرة بعيداً.

استدركت خطاها وأكملت:

- هيا طنط؟!!

- أيوة.. من وأنا طفل.. هي والدي.

- أنا أسفة يا يوسف..

قالتها ممسكة بيده اليسرى.

ثم مرت لحظة من الصمت اكتشفت فيها راندا أن يدها مازالت معالمة فوق كفه اليسرى لتتركه في هدوء، حاول يوسف مفاداة الحرج بتغيير الموضوع.

- بتحبني شغللك؟

- يعني.. انت بتحب شغللك؟

ابسم يوسف للحظة وتساءل:

أيه شغل؟

أي شغلانة من الاتنين..

صمت لثانيتين قضاهما في تفكير عميق ليرد:

الثالثة.

ادرك يوسف دهشتها قبل أن تستفسر وسألها متفحصاً ساعته الفضية

هدوء:

هدوء التصوير إمتى؟

لحقت تزهق مني؟

بالعكس، أنا بسأل عشان عايز أسألك سؤال مهم.

أيه قدامنا.. ممم.. نص ساعة، إيه بقى السؤال المهم؟

ابسم يوسف مجدداً ثم قال في هدوء:

لأخبرني إيه؟

في الاستوديو بدا كل شيء كالمرشح، كل شيء ما يفعل، يارا

لأسم تنظر للكاميرا بإبتسامة مفبركة ليرد عليها المخرج بصوت عال:

«Excellent»، يحيطها بعض الأشخاص كسرب سالمون جانغ، الكل

يبدو به شيء ما، يد تحمل ورقة بها مقدمة يجب أن تطيعها في ذاكرتها

الطالها على الهواء بعد ثوان، فتاة تحمل علبة عصير تخرج منها ماصة

تستقر بين شفيتها المطليتين باللون الأحمر الفاقع، وآخر يضع بعض



المساحيق على وجهها الجذاب بفرشاة رقيقة، في حين جلس يوسف على بعد مترين ونصف فقط منها يتحدث بصمت، على بعد وقف المخرج ذو الرأس الأصيل اللامع والدوجلاس الكثيفة، عالمًا ساعديه فوق بطنه المتنفخ والواضح وضوح الشمس تحت ثي شهر قطني ضيق، تستقر أسفله ساقان رفيعتان يحتويهما جينز «ديرتي»، بهاءة وقفت رائدا واضعة يدها اليسرى على كتفه، تصطنع الضحك على نكاته السيئة، لينظر بعدها في ساعته ثم يطلق العنان لحنجرته الجهورية:

- فاضل دقيقتين ونص عالها، كل واحد يخلص اللي في إيدِه!

تحرك بعدها سرب السالمون بسرعة الصوت، انتاب يوسف إحساس بأن الفتاة قد ترحل من أمام يارا حتى ولو مازالت تشرب من ذلك العنبر والغريب أنها - أي يارا - لم تعترض ولكن نظرت مبتسمة ليوسف الذي ابتلع قرص دواء قد يساعده على محاربة مخاوفه من الأماكن المغلقة، قاطعت شروده:

- جو جديد عليك؟

- لحد ما.

رد ماطًا شفتيه.

- جاهز؟

- جاهز.

قالها محركا رأسه بالموافقة.

- أتمنى تكون تعرف تتكلم زي ما بتعزف.

الاسم يوسف ابتسامة عريضة لتضيف بعدها يارا:

أنا بت تحفظ الإجابات؟

عاولت.

أوه، حاساك مش خايف من الكاميرا.

أههه يوسف وقال بهدوء:

أنا معرف اشرح وجهة نظري زي ما أنا عايز بس اللي يتشاف بعيون البحث.. مش هخاف لو يتشاف بكاميرا.

قالها محاولاً الابتسام لترمقه يارا بنظرة تحمل كثيرًا من الصدمة، فبدأت ثانيتين ثم همت بقول شيء ما لكن صوتًا قاطعها:

يلا يا أساتذة!!

صاح بها مساعد المخرج.

عادت يارا ببصرها ليوسف لتجده غارقًا في تقليب عينيهِ اليربنتين في أوابب الاستوديو فاعزًا نصف فيه كأنه يرى إعجازًا علميًا، ثم تابعت أراءها للورقة بعمق لمدة نصف دقيقة.

في تلك الثواني بدأت عينا يوسف تسجل ملاحظاتها عن كل شيء، بدأت بخططين وهميين رسما أسفل أربع طفايات سجاجير ممتلئة بأعقاب السجائر المنحنية، كل منها يشبه أحدهم نوتردام صغير.. الجميع يدخن الآن، ثم سهم اقتراضي ينتهي بعلامة تعجب يخرج من جورب أسود أظفاره يتضح جزء منه، كان لرجل في الخمسينيات يجلس على كرسي،

«لأنهما كبدة وستان في فاترينة بداخل مول، ليكمل الصوت  
الوحي بالإنجليزية: «فايف.. فور.. ثري.. تو...».

(الت الدهشة من أعين يارا وابتسمت مجددًا، نظرت للكاميرا بثقة،

بدأ الحديث :

«أهلاً بكم مجددًا في برنامجكم.. صدى الحقيقة.. عقود مرت على  
المحروسة بعد حادثة الإسكندرية الكلاسيكية الشهيرة، شاهدنا  
كيف اهتز المجتمع بأكمله لقيام الشيرتين «ريا وسكينة» بأول  
«جريمة قتل ممنهج في تاريخ مصر الحديث، يسميها علماء الجريمة  
«إليات قتل متسلسل»، أبطالها مشردون أو غير مشردين، متدينون  
و«محلون».. لكن يجتمعون في عنصر واحد فقط حقيقي، مهما كان  
«شهوة القتل، دعونا نتابع في الجزء الأول من حلقتنا اليوم،  
«الصدمة الجديدة والكابوس الذي استيقظ عليه المصريون أجمع  
في الثلاث أسابيع الأخيرة، حادثة القتل الصادمة بالمرج، والمصحوبة  
بطفوس أغرب، دعونا نرحب بالخبير والباحث الجنائي يوسف أصلان،  
المصحفي بجريدة اليوم المصري ورئيس قسم الحوادث:

أهلاً وسهلاً..

أو حيننا نبدأ يا أستاذ يوسف، هنبداً منين؟

من حادثة المرج طبعاً، لأننا..هي.. حديث الشارع حاليًا في مصر..  
لأنها صعبة.

كان ظهري متصبًا يتحدث باهتمام مع شاب يحمل على كتفه بعض  
معدات الإضاءة، السؤال.. لماذا قد يرتدي رجل في الخمسينيات  
شفاطًا؟

و أخيرًا شاب يتظاهر بالعمل له شعر أسود غزير يغطي جزءًا من  
وجهه لم يستطع يوسف أن يلحظه، رسمت حول يده دائرة كتب عليها  
«تظاهر»، حيث إنه كان يقوم بتركيب بعض الأسلاك الكهربائية ثم يقوم  
بخلعها مجددًا استهلاكًا للوقت، كأنه عامل جديد لا يمتلك خبرة لا يريد  
أحدًا أن يلحظ أنه لا يعمل، حركته المتكررة بدت كخلفية نمطية لجمهور  
يقوم بتشجيع مقاتلين في لعبة قتال الشوارع في ألعاب الفيديو القديمة.  
- خلي بالك! ماتخليلش التعلب ده يقلب عينه في المكان.. خطر!

قالها رائدا لتعيده مجددًا من رحلة صمته، ردت يارا بإعجاب:

- فعلاً؟

- أكيد.. عنية عندها. super powers

- ليزر أحمر مميت...

علق ساخرا يبطء متابعًا العامل الذي بدا في طريقه للخارج.

- مجرباه بنفسي.. حذرتك! أوعي تتخدي في براءته.

دقيقة واحدة!.. نجهز!

قالها المخرج ليكتشف بعدها يوسف أن 90٪ من الأشخاص قد  
غادروا الاستوديو بالفعل، أطفئت بعض كشافات النور، وتركز كل

- على أي أساس نقدر نقول الجريمة دي أصعب أو أسهل من غيرها؟  
في حالات القتل بقيسها أنا - كخبير جنائي - بعدد الخيوط اللي سابها  
القاتل وراه، وغالبًا - أو نقدر نقول - 99٪ من المجرمين يسيبوا أسلحتهم  
أو خيوط وراهم، المشكلة كلها إن فيه جزء من الخيوط دي مايوصلهم  
لحاجة، فبتنتهي الجريمة في الحالة.. أو بتتأيد ضد مجهول.

- خيوط دي بتفكرنا بعمود «خيوط ودلائل» الشهير طبعًا.

قالتها مبتسمة. لبيادلها يوسف باتسامة مماثلة وكلمة شكر، تابعها  
- يوسف! واسمحلي أقولها بدون تكليف أنا سمعت إنك بتشتغل مع  
الداخلية.

- إتعاونت معاهم مرات قليلة، بطريقة شبه رسمية.

- وده في حد ذاته اعتراف بموهبتك، إحكي لي بقى بتساعدهم إزاي؟  
- مش هقدر للأسف أتكلم في كل تفاصيل الشغل، لكن أنا حاضرة  
ماجستير في السلوك المنهجي للمجرمين.

- بمعنى؟

- بمعنى بحاول أعمل بروفايل أو صفحة لكل مجرم، بكون فيها  
الدوافع المحتملة ونوع الجريمة وطريقة تنفيذها.. ومع تشابه الخيوط  
اللي بيسيها المجرم بقدر أقارنها بالبروفایل القريب منه.. وأقدر أن أفهم  
رد فعله، وده بيساعد في بعض الجرايم.

- أنا أسمع عن حاجة بره إسمها «Profiler»، هل نقدر نقول إنك بتعمل  
حاجة شبيهها؟

أفريتا.

سمعت إنه كان ليك دور في التعرف على الشاب اللي قتل عيلته،  
ما عدش كان متخيل انه يطلع هو القاتل في النهاية.. أظن كانت صدمة  
أفريتا من اللي بتحصل في الأفلام؟

قالتها ليوسف الذي شرد مستحضرًا مشهد ركضه في ذلك الممر  
المظلم.. وسقوطه أرضًا والبلاط البارد الذي صدم وجهه بعنف، انتهى

يوسف من شروده ورد:

أفريتا.. كانت صدمة..

ثم أردف:

بالنسبة لقضية مصنع الكيماويات.. أنا مجرد قولت وجهه نظري  
أفريتا، كاتب «مؤمن البحيري»، هو اللي قبض عليه، يعني أنا مجرد  
عامل مساعد.

وه أواضع بقى!

قالتها يارا بإعجاب

لأفريتا دي حقيقة.

رد مبتسمًا إبتسامة أمريكية مصطنعة لترمقه يارا بنظرة تعجب، بلغت  
رفقها وأردفت:

«طيب»، إيه رأيك لو رجعنا لـ «خيوط» جريمة المرح - زي ما بتحب  
أوصفها - ومدى صعوبتها؟

- الجريمة زي لعبة الاستغماية، بتدور على حد مش شافيه، بس ما  
انه موجود، وبستخدم كل الطرق الممكنة عشان توصله.. مع العار  
إن الشخص ده ممكن يكون أي حد.. وفي أي مكان.. إحنا لسه في  
البداية.. لسه الصورة ضبابية بالنسبة لحادثة المرج.

قالها يوسف بثقة.

- بس على حد علمي إن الطب الشرعي مش قادر يوصل لمرتكب  
الجريمة لحد دلوقتي.. وإنها هتتقيد ضد مجهول.

- زي ما قولت، جريمة صعبة، إحنا بالفعل لقينا خيوط.. ولو افترضنا إن  
الخيوط رسايل، ممكن جدا الواحد يلاقي رسالة فاضية.. عموماً لسه  
بدري الحكم على أي شيء.

- انت رحت مكان الحادثة بنفسك؟

- بعد استئذان الجهات المتوطة بالتحقيق، وشوفت بنفسي الجثة.

- وكانت إيه ملاحظاتك؟

- للأسف.. جريمة شبه كاملة، مافيش بصمات شخصية لأصابع أو أذن  
أو حتى لأحذية، حتى الـ«دي إن إيه» اللي لاقيناه يخص الضحية بس،  
كل اللي لاحظته هو الأرضية المتلونة بدم القتل، والتشويه اللي حصل  
في وشه وصدره.

- إحنا عرفنا من مصادرنا إن التشويه اللي حصل في وش القتل كان  
عبارة عن خياطة لعنيه الاتنين.

وه جزء من الكل.

كان في حاجة كمان؟

فيه أهم فقرة في العرض.. الأرقام.

أرقام إيه؟

من حقك أتكلم كثير بدون إذن من الداخلية، بس اللي متأكد منه  
إنها رسالة - غالباً - بيحاول القاتل إنه يوصلها لحد، مش للقتيل بس.

حد زي مين؟

أو عرفنا اللي عايز يقوله، أكيد هنعرف بيكلم مين.

أي مرعب، مين اللي ممكن يعمل دا في عسكري أمن مركزي  
غليان؟ وعشان إيه؟

إيه دي ممكن نعرفها، المشكلة الأكبر في رأيي إنها ممكن تكون مجرد  
بداية.

لغرض انه قاتل متسلسل؟

وا حقيقي، ودي أول مرة أتمنى توقعاتي تكون غلط.

حسرتك شاف أي علاقة بين الجريمة الأخيرة وغيرها من الجرائم،  
علاندنا مثلاً جريمة قتل في العمرانية برودو غربية فيها فصل للرأس عن  
الجثة وواحدة في أسبوط من شهر تقريباً وغيرها في الأسكندر....

مافيش أي علاقة.

قالها يوسف مقاطعاً ثم أردف:

التي هيخدم الحلقة مكتوب في الورق، أي إضافات لو سمحت خليها لنفسك.

... أنا كنت بحاول أدخل...

والعالم!

قالت يارا مقاطعة ليوسف الذي أثر الصمت بعدها، ثم صاحت باسم صديقته بعصبية:

واندا تعالي عايزاكي.

حاول يوسف -دعاً للإحراج- النظر مرة أخرى إلى ورقة الأسئلة معلناً النظر في وجه أميرته الغاضبة، التي انهمكت في حوار خاص مع صديقها، وتخلت عنه من الجولة الأولى على عكس أحلام البارحة كانت السيناريو الأكثر رومانسية، قام بتطبيق الورقة مرة أخرى ووضعها في حبيب قميصه في هدوء، حينها سمع المخرج يطلق العنان لحنجرته مرة أخرى، معلناً عودة التصوير لتتحول يارا للفتاة البشوشة مجدداً، وانظر الإشارة مجدداً لجولة أخرى من الحوار، ارتشف يوسف من أرواح موضوع أمامه يحتوي على بعض من عصير البرتقال ويحمل شعار البرنامج، ثم وضع الكوب منتظراً بدء الجزء الأهم والأصعب في الحوار.. المكالمات التلفونية.

لم يستطع تجاهل ذلك الإحساس الذي سيطر على جسده كالقشعريرة البارحة، إحساس يخبره بأن تلك المكالمات لن تمر على خير بالرغم من إرادة الجميع له بأنها أسهل من أكل الحلوى.

- طريقة تنفيذ الجريمة هي مفتاح اللغز، زي ما قولت: فيه رسالة بتتبعها أي جريمة غيرها مجرد جريمة مكتملة الأركان من حيث الدافع، لكن باختصار.. القاتل هنا بيستخدم الضحايا كورقة ييكتب عليها لغز معين وفي اعتقادي منتظر حد يحله.

- كلام خطير جداً، دا احنا كده غلبنا أوروبا وأمريكا.

- طبعي جداً إن ييجي يوم وحتى الجريمة في مصر تتطور.

- وأهو يبقى حاجة اتطورت عندها.

قالتها مازحة في حين بادلها يوسف بابتسامة هادئة، استطردت يارا - طيب نطلع فاصل سريع وتقرير عن أنواع الجريمة في مصر من 100 سنة، بداية مرعبة شوية أعزائي المشاهدين لكنه شيء كان لازم يلفت نظرنا في صدى الحقيقة، ونرجع مرة ثانية مع الأستاذ يوسف أصلان.. خليكوا معانا.

قالتها بابتسامة وترحاب شديدتين. ثم تجملت لحظات أمام الكاميرا حتى انطفأ نور أحمر صغير يخرج منها، تحولت معالم وجهها دراميتيكاً للشحوب كأنها «مصاصة دماء» قرر الحصول على وجبة العشاء، انطفأ الضحكة ورمقت يوسف مندهشة ثم سألته بحدة:

- انت ليه مش بتجاوب زي ما احنا متفقين؟

- 80٪ من اللي مكتوب فالورق قولته، الباقي كان لازم أضيقه.. لانه هيخدم الحلقة.

- إيه رأيك في التقرير يا أستاذ يوسف؟ أظن مافيش جريمة مشهوره ماجاتش فيه. قالتها مبتسمة كأنها لم توبخه منذ دقائق، رد بطريقتها مختصرة مبالغ فيها:  
رائع.

ورمقها بنظرة أكثر جراءة من ذي قبل.

- طيب.. إيه رأي حضرتك نسجم رأي المشاهدين في الجزء الأول من الحلقة عن «الجريمة في مصر في 100 سنة؟» معنانا حد!  
طيب كويس.. ألو!

رد صوت أنثوي على يارا:

- السلام عليكم، إزي حضرتك يا أستاذة يارا؟ أنا بتابع البرنامج وبحب جدًّا المواضيع اللي بتجيبوها..

- نتعرف باسم حضرتك؟

- شيماء مع حضرتك.

- أهلاً يا شيماء، تابعتي الحلقة من أولها؟

- أه وبصراحة حاجة جديدة جدًّا أول مرة أشوف حد بيتكلم في موضوع الجرائم ده بالتفاصيل دي برافو عليكو بجدة.

- إحنا بنحاول دايماً نقدم المواضيع الجديدة في صدق الحقيقة، لكن بشرط إنها تفيد المشاهد وتعجبه، قوليلي بقى! انت منين يا شيماء وإيه تعليقك عن التقرير وعن كلام الأستاذ يوسف؟

أنا ساكنة في المرح.

يارا! أعني من قلب الحدث كمان، سمعتي طبعًا عن جريمة المرح.

أه.. وبصراحة أعني كان نفسي حد يتكلم فالموضوع ده، الجريمة فترت أوي يا جماعة والواحد بقى يخاف يتأخر بره عن الساعة تمانية بالليل م اللي بيقراه كل يوم في الجرايد، أنا عارفة إن البوليس شايف أهله كويس بس هيلحق على إيه ولا إيه يعني، أنا شايفة إن الفقر سبب أساسي لانتشار الجريمة بصراحة، ماهو لا مؤاخذه في ناس بالحل بعضها عشان الجنيه حضرتك.

اللام صحيح طبعًا، بس في بعض الحوادث الدوافع وراها مش مادية ولا إيه رأي حضرتك يا أستاذ يوسف؟

في حادثة المرح، البوليس لقي المحفظة زي ما هي، الموضوع مش مختصر على عامل واحد بس وإلا كانت كل الجرائم اتحلّت.

مست ثلث ساعة من الشد والجذب والاتفاق وعدمه، مرت كالدهر على يوسف الذي بدا ممتعًا من تلك الفترة، محاولاً عدم إظهاره رغبته الملحة في الرحيل، مغلفًا عدم ارتياحه بابتسامة مصطنعة، إلى أن أعلنتها يارا أخيرًا:

طيب ناخذ آخر اتصال، معلنش إحنا عطلنا حضرتك عن الميعاد المتفق عليه، لكن زي ما انت شايف المشاهدين متفاعلين أوي مع الموضوع ودي حاجة كويسة.. ألو.. ألو..

لها على صوت شهيق عميق قبل أن يبدأ المتصل بالكلام:

- كنت حاسس ان المقابلة دي تحصل، الحاسة السادسة موجودة..

- مين معايا؟!

تجاهلها المتصل وتوجه بحديثه ليوסף الذي لمعت عيناه:

- دكتور يوسف! كباحث جنائي، تقييمك لشغلي كام من عشرة؟  
...-

- لو ماعرفتش نفسك هنضطر نقطع الخط.

قالتها يارا بحدة.

- تقدري تقطعي الخط، بس هتكوني بتحرمي المشاهدين من خط الموسم.

- مين حضرتك؟!

سأته يارا.

- أنا السبب في وجود الحلقة دي، السر اللي جوه العلية، أنا الشيطان المريض زي ما كتب عني.. يوسف! أصعب مرحلة في حياتك بدمار النهارده!

- Cut يا عمرو لو سمحت! أنا مش قبل التهريج ده في البرنامج.

- هل أنا فعلاً بهرج؟ ولا الاحتمال الأصعب ممكن يكون حقيقة؟ أنا عارف إنك بتسال نفسك السؤال ده دلوقتي.. عارف كل اللي بتفكر فيه.

إيه اللي يثبت إنك القاتل؟

أعطى بها يوسف أخيراً بهدوء حذر وعينين ثابتتين، كأن عقله يحلل أياً ما.

يوسف! عمرك فكرت إيه اللي هيحصل للعالم لو اختفى اللي (أي؟) الحياة هتبقى مملة وياردة.. زي الفيلم القديم بالظبط، وجودي ووجودك قدر، من غيرنا الحياة تنتهي.. توازن بيبي.

أنا عارف إنك قتلته لسبب!

قالها يوسف بترقب، كأنه يرمي لشيء ما.

المنازير احتلوا البلد.. لو معاك تصريح بالقتل، وكتبت الأسماء على ورقة.. هتموت قبل ماتخلصها.. أنا عملت نموذج مصغر.. أهلاً بيك في الليسته!

أصاعد صوت الرنين الدال على انتهاء المكالمات المرعبة، ظلت عينا يوسف على دهشتها، وتجمدت الكلمات في حلقة كأجساد المحاربين الأفريق عندما نظروا في أعين الـ«ميدوسا»، أطلق العنان لشهيق تخلل أعضائه بعدما افتقد الأكسجين لفترة.

عذراً أعزائي المشاهدين، نعتذر عن التليفون غير اللائق من شخص، الله فقط يعلم من هو، لكن عمومًا أكيد الكترول هيسلم الرقم للموليس، طيب، كده انتهى الجزء الأول من حلقتنا.. نشكر الأستاذ يوسف الصحفي بجريدة اليوم المصري على وجوده معنا النهارده.. فاصل إعلاني قصير وبعده نشوف تقرير عن حق المرأة في التعليم

ونرجع عشان مفاجأتنا الليلة، سيادة السفارة شادية أبو العزم والتي  
هتشرفنا الليلة في... صدى الحقيقة، خليكوا معانا.

قام يوسف في صمت مخرجًا الميكروفون من قميصه في وسط  
دهشة كل الحضور من الموقف الصادم، الذي حاول المطر  
تخطيه عندما ألقاها بصوته الواضح:

- It's okay! ... حصل خير يا جماعة، عيل بيهزر، ننسى ونركز في التي  
جاي، عدى علينا مواقف أصعب.. يلا نجهز!

هم يوسف بالمغادرة، في حين تقدمت راندا من خلف الكاميرا  
لتلحق به، أضافت بارا في لهجة أقل حدة من المرة السابقة:

- المرة الجاية عايزين نسـ..

- مافيش مرة جاية.

قالها يوسف مقاطعًا بارا منهمكًا في وضع هاتفه النقال ومفاتيح  
سيارته في جيب بنطاله من دون أن ينظر إليها، في حين وضع على بارا  
تأثير صدمة جديدة من يوسف.

- إستنى يا يوسف عايزاك!

نادته راندا حاملة ظرًا أبيض في يدها محاولة عدم إظهاره، تجاهلها  
يوسف مسرعًا نحو الباب.

- يوسف!.. الظرف بتاعك.

قالتها لكنه قد اختفى، اختفى وكأنه لم يأت... أو كما تمنى.

\*\*\*

## (8)

الخرق هدوء طابق العناية المركزة بمستشفى الشرطة بالعجوزة  
بوت اصطدام يوسف بباب الدخول، لم يبد على الممرضة أي  
انعاش أو صدمة مما حدث بل تابعت كتابة بعض الأشياء في صمت،  
غير الأجهزة المتتابع كان أشبه بصوت قبلة تطلق ألفاظها الأخيرة، لم  
تدلف عن الركض ولم يسأل أحدًا عن أي شيء بل تابع في طريقه كأنه  
يعرف جيدًا إلى أين يذهب، انعطف يمينًا ليجد معاذ في انتظاره.

دخل معًا في غرفة مقابلة تملأها رائحة البنج وما شابه، جهاز قياس  
الضربات القلب يشدو بلحن مربع يعلمه يوسف جيدًا، بدا مؤمن مستقرًا  
على الكرسي المجاور للسرير، ممسكًا بيد والده ذي الشعر الأبيض  
والوجه الشاحب، ظهر مستسلمًا وفاقذًا للوعي، يحتضن فاه وأنفه قناع  
الحاف يخرج منه أنبوب متصل بجهاز تنفس صناعي أبيض اللون، في  
الكرسي المجاور لمؤمن جلست سيدة نحيفة وقليلة الحجم، تحمل في  
يدها مصحفًا تقرأ منه في صمت، انهمرت من تحت نظارتها الطبية ذات  
الإطار الأسود بضع دمعات لم تلتفت لمسحها، قام مؤمن عند رؤيته له،  
لكن صوت الممرضة الخافت قاطع سلامهما:

الدكتور قال إن التجمع هنا في الأوضة مش كويس، أسفة!

لعالوا نطلع بره يا جماعة.



قالها صاحبًا صاحبيه من ذراعيهما في هدوء، في حين استسلم كلاهما لمعاذ كطفلين صغيرين.

خارج الغرفة لم يتمالك مؤمن نفسه وترك كثيرًا من دموعه تسقط في صمت محددًا في أرضية المستشفى البيضاء، أخرج من جيبه علبة سجائر وولاعة، في حين أسكس يوسف على يده بقدر كبير من اللين قائلًا:

- ركز!.. إحننا في العناية المركزة.

- نسيت.

- لو مكانك هنسى إسمي، ما تخافش، بكرة يقوم بالسلا..

- ماحدش بيقوم من الغيبوبة.

قالها مؤمن مقاطعًا.

- فيه احتمالية كبيرة يقوم...

- لأ مفيش!، انت أكثر واحد فينا فاهم في الطب وعارف إن كلامي صح، أبوية فرصته ضعيفة.

- رحمة ربنا كبيرة يا مؤمن.

أضافها معاذ.

- وكانت فين الرحمة من الأول؟.. هه؟! كانت فين الرحمة لما الحكوم خدت قلوبه بالدراغ؟ كانت فين لما اتبعت وراه بلطجية عدموه العالميا وشاف كرامته وصحته بتضيع قدام عنيه؟ فوقوا! رحمة ربنا عمرها ما تنتزل على ناس قبلت بالظلم.

استغفر الله.. حرام يا مؤمن.

تابع معاذ مستكبرًا.

حرام إيه يابني، إحننا عيشتنا كلها حرام، شغلانتك وشغلانتي كلها «صالح ورشاوي، ده مش حرام؟! حتى يوسف شغله ماييسلكش من غير الظرف، إحننا يابني عايشين في مزيلة العالم، اللي مالوش ضهر في البلد دي، صدقني!.. يستاهل يموت.

لا يا راجل؟ دلوقتي بقيت على الصراط المستقيم؟.. طاب مانت «فعت رشوة عشان تشيل على كتفك دبورة وتذل بيها خلق الله، وبردو «اعرفتش تجيب حق أبوك.

أنا ماجييتش حق أبويا لأنني لوحدي.

قالها مؤمن بصوت عال مشيرًا بسبابته في وجه معاذ بعنف ثم أكمل: فاهم يعني إيه لوحدي! وبعدين، على الأقل حاولت، فاهم!.. حاولت..

ولو أنا ويوسف كنا مباحث، كنت هتعرف تجيب حقك عشان مش لوحدهك؟

انت مالكش دعوة بالموضوع ده، مش شغللك!

هادي نفسك! انت بتوجه غضبك للشخص الغلط.

لدخل يوسف مستوقفًا مؤمن، ليتابع معاذ بغضب:

- عمرك ما كنت تتوصل لحاجة، وانت عارف كده كويس، البلد في مش هيغيرها واحد لوحده، لازم تفوق من الوهم اللي انت عايش فيه ده يا مؤمن! ما فيش حل غير إنك تقبل البلد زي ما هي، يا إما تسبها وتمشي، انت صاحبي وأنا واجبي أفهمك.

- وأنا مابا صاحبش جبان.

ألقاها مؤمن كالسهم.

صمت معاذ محدقاً في وجهه مؤمن ثم استدار تجاه باب الخروج وسط صمت من يوسف الذي بدا وكأنه يدرس رد فعل الصديقين، ثم تلاشى معاذ تماماً.. جال في خاطر يوسف أن تلك كانت أصعب نهاية ممكنة ليوم - لا يعلم إلا الله - كيف سينتهي.

أحكم صوت عصافير الصباح المستبشرة بنسمات الفجر سيطرته على هدوء القاهرة غير الاعتيادي، لقد مرت أربعة أيام، لم ير فيها لون الشارع ولا دفة النهار، يجلس على مقعده الجلدي يشاهد الحلقة المشنونة على حاسبه القابع فوق ركبتيه كالجاثوم، ينهيها ثم يعيدها مجدداً، ثم يشاهد لفظة الاتصال مجدداً بغير ملل، ينظر في كل مرة بنفس الاهتمام والترقب، يسهو عن كوب قهوة كبير الحجم فقد حرارته، يكتسي وجهه بلون القلق والترقب، يتمنى لو أنه أخبر مؤمن في تلك الليلة عما حدث، يضغط زر التشغيل لتنتقل عيناه بين أركان المشهد كأنه يبحث عن شيء ما، «ماذا لو كان فعلاً هو؟»، سؤال جال ودار في رأسه، حتى رسم نفسه بالجرافيتي على كل حوائط عقله نصف المهدمة.

الهمك سيزار بالتلفاز كطفل في السادسة، يستقر أمامه طبق صغير بألفه بدون اهتمام، لم يلحظ يوسف أن ما فيه من طعام قد انتهى منذ يوم.. مضى.. استقام يوسف واضعاً حاسوبه على مقعده الجلدي، واختلط صوت حديث يارا قاسم مع الكارتون الذي يتابعه سيزار بشغف، هم يوسف بالذهاب للصالة متجاهلاً صوت رنين هاتف المنزل الذي انتهى بملمة واثقة وقصيرة «انت عارف ده تليفون مين، سيب رسالتك بعد صبح الصغاره..» ثم صوت صافرة قصيرة ظهر بعدها صوت مؤمن.

يوسف!.. يا عم المعزول.. أنا عارف انت متدابق ليه، وعارف كمان انك سامعني.. كفاية قفش وافتح موبايك، أنا صالحت معاذ خلاص وكلها كام يوم وهيرجع خدمة ثاني، بلا عايزين نخرج ونغير جو.. إبقى كالميني.. سلام.

تجاهل يوسف الرسالة الصوتية كغيرها من رسائل الجريدة والمطعم وحتى من وليد الذي أراد أن يتقابل معه مجدداً ولكن بدون فائدة، جلس على الكرسي المقابل للبيانو القديم، بجانب الكاسيت المشروخ والعبة المزرقة القيمة والكراتين المغلقة، رفع الغطاء من فوق أصابع البيانو، بدا مجهذاً للغاية من قلة النوم وظهرت خصال شعره البني أكثر طولاً.

بدا العزف مغلقاً عينيه كعادته، تائهاً بين جنبات لحن البيانو الهادئ من عمد، استمر يعزف بهدوء يحسد عليه لساعة كاملة، لم يشعر فيها بالعالم الخارجي حتى انتهى من دون أن يعرف كم مر من الوقت.. لكن دوناً ما صفع انتباهه، كأن شخصاً ما يفتح باب شقته، فتحت عينيه عن

استكان حازم في مكانه تلك المرة، توقف عند السلمة الأخيرة من دون أن يلتفت بوجهه ناحيتها، حاول يوسف تفسير الأمر:

أنا زي أخوك الكبير.. مش كده؟

الفت - ولأول مرة - بوجهه ناحية يوسف رامقاً إياه بنظرة باردة صدمت يوسف كمقطورة مختلة، ليس لبرودتها، لكنه رأى ذلك الوجه الذي تملأه الكدمات وتحديداً أسفل عينه الضيقة، حيث تقع كرة الزرقاء قاتمة اللون، أصابه خرس وشلل تام امتد إلى خصال شعره، وأدّت عيناه صدمة ورجعت يده الممدودة مكانها مرة أخرى بجانبه، أصبح الوقت طويلاً للغاية، أكمل حازم نزوله الهادئ على السلم ثم عاد بعدها يوسف خائب الأمل لشقته، أغلق الباب ثم استند برأسه على الباب في بأس ونظر مجدداً ناحية سيزار، أحضر منشفته وقرر الاستحمام وعلاقة ذقته التي فاقت مرحلة النبات، لم تمر دقيقة حتى استقر في الحمام الواسع ذي اللونين الأبيض والأزرق، خلع ملابسه بعدما اتفق مع حرارة الماء على حل وسط، جلس في البانيو واضعاً كفيه فوق ركبتيه الممتدتين، أغمض عينيه مستسلماً لشلالات الدش الساخن المتدفق فوق رأسه في صمت، بدأ بتوزيع بعض الشامبو على رأسه ثم على جسده ليجد شيئاً ما يؤلمه في كتفه، تفحصه ليجد بقعة زرقاء أشبه ببقايا كدمة قديمة، تذكر كيف يتقلب كثيراً على فراشه، أجزم أنه حصل عليها وقت يومه، فجاه هذا الصوت مجدداً، لكنه أتى من داخل البيت هذه المرة، لم يكن سيزار.. كان صوت شخص ما يغلق باب الشقة بعنف، تذكر أنه

آخرهما، جلس على ركبتيه أمام ذلك الصندوق المزركش وفتحته برؤوس شديدة مخرباً المسدس الفضي وتسحب ناحية الباب، وجد سيزار وغلبه النعاس، تساءل كيف أنه لم يشعر بذلك الصوت، اقترب من الباب ثم نظر بحرص شديد من خلال «العين السحرية».. لم يجد أي شخص بالخارج.

- مين؟!

صاح يوسف بعينين حادتين.

لم يحصل على أي رد شاف، فتح الباب على مرحلتين، تقدم قليلاً للأمام ناحية السلم حتى رآه.. لقد كان حازم.. جاره الصغير.. يجلس على السلمة الأولى محاولاً عقد رباط حذائه في صمت، وضع يوسف المسدس سريعاً في جيب بنطاله القطني الواسع، لاحظ حازم وجوده لكنه لم يلتفت إليه، تمم على شطنته التي تزن أكثر من نصف وزنه، لم يستعداً لرحلة عذابه اليومية، الذهاب لمدرسته مشياً على الأقدام.

- حازم! إزيك! أنا.. فكرت حد يفتح الباب.

قالها مصفقاً خصل شعره بأصابعه منتظراً رد حازم الذي توقف عن النزول للحظة، ثم نزل ثلاث درجات من السلم من دون أن ينطق بكلمة واحدة أو حتى يلتفت للصوت، في حين أضاف يوسف بعدما وجد رفاقه فئة الخمس جنيهات في جيبه بالصدفة:

- ممكن تاخذ مني الفلوس دي.. إشتري حاجة تشربها في الفسحة!

احتفظ بمسدسه في جيب بنطاله، قام من مسبحه متجهًا لملايحه الماء  
ارتدى بنطاله وأخرج سلاحه بهدوء ويسر، أغلق نور الحمام وتسلل  
ببطء، تتساقط قطرات الماء بين خصل شعره فوق صدره النحيل، قام  
باب الحمام قليلًا متجنبًا أي ضجيج قد يفضحه، نظر من خلف الباب في  
ذعر، ترجل بدون حذاء ليكمل طريقه ناحية باب الشقة، لم ير أي شيء  
غير مألوف.. فجأة.. نبح سيزار.. ارتعش يوسف موجهًا المسدس ناحية  
الصوت ليجد سيزار واقفًا في تحفز مخرجًا لسانه، أغمض عينيه ونفس  
الصعداء، استنتج أن سيزار قد فتح الباب وأغلقه الهواء.

- لينا حساب بعدين..

قالها معاتبًا، ثم هم بالعودة مرة أخرى للحمام ليجفف جسده الذي  
قارب على التجمد ما بين برودة الجو والخوف، وضع المسدس المائل  
بقطرات الماء البارد على سطح التلغاز بجانب علبة سجائر من نفس  
النوعية التي شاهدها في سيارته، فكر ساعتها في عدد المرات التي نسي  
فيها مؤمن علب سجائر عنده وهو يلمسها في صمت، ثم تجمد عندما  
رآه.. ملقى على الأرض كالقتيل.

مكتوب عليه: «يوسف أصلان».

تملكته قشعريرة قاتلة..

اقرب منه في صمت، نظر إلى سيزار، ثم هروا ناحية النافذة والى  
نظرة على مدخل العمارة، لم ير شيئًا غير اعتيادي، توجه إليه مرة أخرى  
قرر معرفة محتواه منتظرًا إجابة مصيرية عن كل الأسئلة الصعبة.  
وغيرها.

\*\*\*

## (9)

انعكس شعاع ضوء فوق زجاج صورة مبارك اللامعة، تاركًا فلاتشًا  
مضئًا في عيني مؤمن البحيري بعدما أغلق الباب المكتوب عليه اسم  
يوسف قسم مكافحة الجريمة في مباحث أمن الدولة «اللواء/ عبد الجليل  
الحري» رئيس إدارة مباحث العاصمة، رئيسه المنهمك في مكالمته تليفونية  
لم يمنع إصبعه السبابة أن يشير له بالتقدم، جلس مؤمن في الكرسي  
المقابل له، كان اللواء عبد الجليل طويل البنيان وعريض الكتفين، ظهر  
على رأسه تأثير نهاية الخمسينيات من تساقط بعض من شعره القصير  
الذهب الخشن، والمهذب بصعوبة على جانبه الأيسر، تاثرت بضعة  
العماد فوق جبهته متوازية كأسنان المشط، يمتلك ذراعين طويلتين  
النهاية وأنفًا طويلًا أيضًا وأذنين لم يرضيا أن يتركا نصيبهما من الطول،  
«أمر» بشرة قمحية غامقة، سرح مؤمن في تفاصيل المكتب الكبير المنظم  
بناية وعلم مصر الأنيق الموضوع بجانب المكتب ذي التكييف الساخن،  
حاول مؤمن تجاهل المكالمات التليفونية بين عبد الجليل وضابط يعرفه  
«هذا» يقوم بتأديبه واجبه الوطني بعناية فائقة بإحضار اللحوم والدواجن  
والمغسرات والفاكهة «بمقابل رمزي» لقليل سيادته في المعادي، انتهى  
الحديث أسرع مما يجب حين وجد عبد الجليل أنه من الأفضل التحدث  
في تلك الأمور منفردًا، أغلق الهاتف وأخرج سيجارًا من العلبة البنية  
الأليلة التي أمامه ونظر مبتسمًا لمؤمن بعدما أشعله فأنالا:

- إيه يا سيادة المعاون.. مالك قالب وشك ليه؟

- تمام.. ما فيش حاجه.

- آمال مزعل الناس منك ليه؟

- أنا قصرت في حاجة لا سمح الله؟

- والله من ناحية قصرت، فالموضوع على مرحلة التقصير.

- ليه بس يا فندم؟ التحقيقات ماشية كويس في كل القضايا.. حتى قضايا المرح ما..

قاطعة عبد الجليل قاتلاً:

- أنا مابتكلمش عن قضايا يا بيه، لو القصة جرايم وقضايا بس كنا ارتعنا، في حاجات ثانية كان لازم تعملها وماعملتهاش، وده في حد ذاته جريمة.

- نقصد الانتخابات؟

- انت شايف إيه؟

- أنا شايف كل خير، يعني أنا المفروض بدل ما بقى راجل بكالم الجريمة.. أمولها، صح؟ كده أبقي ماقصرتش يا باشا؟

- انت إتهملت يابني؟! جريمة إيه اللي بنمولها؟! انت عايز واحد زي أيمن نور ولا واحد إخوانجي يمسك البلد؟! شكلك اتجنتت!

قالها منفجراً ثم أخرج علبة دواء زجاجية شفافة اللون، أخرج حبتين كبيرتي الحجم ألغاهما كالسهم في بلعومه ولم يخطئ الهدف، تبعهما

الهدف كوب من الماء، ثم أشار له بإصبعيه وبينهما السيجار ذو الرائحة النفاذة في تهديد:

الكلام معاك مايبيش تمنه، أنا هعرف أفوكك إزاي.

اللي يرضي ضميرك يرضيني يا سيادة اللوا.

قالها ثم نظر أمامه في ثقة.

لخصه عبد الجليل لثانيتين مطلقاً بعض السحب الدخانية النفاذة ثم هلك أنفه بهدوء ورمق هاتفه المحمول بنظرة غير بريئة، وضع السيجار في العلغاية الذهبية لثوانٍ قام خلالها بإغلاق هاتفه، قلبه مرتين ثم ضرب إصبعه بعنف في أحشائه ونزع بطاريته، تأكد من إطفاء اللاسلكي ثم نظر له من الذي تملكته الدهشة لكنه أدرك ما يحاول رئيسه فعله ثم سأله: شعير؟!

أشار له عبد الجليل مديراً إصبعه السبابة في الهواء في حركة معناها «سرعة» قام بعدها مؤمناً بعمل المثل بهاتفه، اقترب منه عبد الجليل هامساً في غضب شديد:

انت عايز تجنتي يابني؟! انت عارف إحنا بتعامل مع مين؟! هتودينا في ستين داهية بعنادك ده.. أنا - أنا - نفسي أفهم!. إيه اللي مصبرني عليك لحد دلوقتي؟! دانا عمري ما حد عصالي أمر وسييته، يمكن ساعات بتفكرني يابني الله يرحمه بس ده مش سبب كفاية إنك تعصي أمر مباشر، ويا ريتة مني، مانت عارف كويس جاي منين، يابني فوق!

الناس اللي فوق لو عرفت واتلست انت مش هتلاقي حد ينجدها  
اعقل!

- وإيه مصلحتي في إني أأجر..

قالها بصوت عال ثم تراجع ليعود لتغمة صوت قريبة من تلك اللي  
يستخدمها عبد الجليل:

- وإيه مصلحتي في إني أأجر بلطجية أو.. أو.. إني أخذ من حق مرشح  
تاني عشان الباشا يضمن انه كسبان؟ هي دي مصلحتي؟ هي دي  
مصلحة البلد؟

- يووووه! تاني هيرجع بقى يقولي البلد، بلد إيه يابني؟ دي عزبة  
عزبة كبيرة والناس خلاص وافقت وقبلت إنها تعيش فيها زي ما هي  
انت فكرك إن الناس دي بتاعة حرية؟ ولا بتاعة حرية ولا بتاعة تقدم  
ولا دياولر، يابني دول شوية همج أقصى طموحهم ياكلوا زي الحمير  
ويناموا مع نسوانهم بالليل، انت أصلك صغير مش فاهم حاجة  
الناس دي اتفرج عليها من غير كرباج، هياكلوا بعض زي السمك.

- يا بيه مش معنى إننا بنستعبدهم إنهم لازم يعيشوا طول عمرهم عبيدا  
لحنا نفسنا عبيد في عزبة الباشا.

- عبيد إيه يابني؟.. عبيد إيه؟! انت فعلاً اتهيلت! داحنا عايشين أحسن  
عيشة وبناكل أحسن أكل وأحسن شرب وأقل واحد فيكوا بيوقوف  
أتخن شارع انتباه.

يأمره بالقدش يقف انتباه قدام ربنا.  
رد بهدوء وثقة.

أصبح عبد الجليل ينظره بعيداً محاولاً تجنب النظر في عيني مؤمن  
في أورا جعله يعود بظهره للوراء.. حصل على سيارة مجدداً، أحرق  
أحد بولاعته الذهبية مجدداً ثم أطلق سحبه الغاضبة في هدوء، صمت  
الذين محركاً رأسه يميناً ويساراً في خيبة أمل ثم تمت لنفسه في ضيق.  
لمس العند، نفس كل حاجة.

يا باشا ما حدش يقدر يعصي أمر مباشر من حضرتك بس أنا خلاص،  
حدث عهد على نفسي إني مش هعمل حاجة من دي تاني، كفاية أوي  
الطلبات مجلس الشعب.

يا في قول لنوح ينفذ الأمر، واعتبر عندك خصم أسبوع.

صاح بها ثم تفحص ساعته اليدوية الفخمة والسيجار لا يزال في فمه  
أضاف:

أنا هنقلك من هنا يا مؤمن.

أوامر سيادتك يا عبد الجليل بيه.

رد مؤمن ثم بدأ في تجميع أشلاء هاتفه النقل مرة أخرى، في حين  
أمر عبد الجليل بعيداً من خلال نافذته الزجاجية ذات اللون الغامق مطلقاً  
اليد من سحبه الداكته، بعد ذلك أردف بهدوء لم يتملكه منذ فترة:

من أربع سنين، أمين شرطة لقي راجل كبير لابس جلابة نازل من بيته  
بعد الفجر، سأله على بطاقته.. قاله: (مش معايا، ثواني هطلع أجيبها لك

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

طبعا بعدها الدنيا اتقلبت والمباحث وقفت على رجل واحد، جابوله أمين الشرطة ووطى عشان يبوس رجله والراجل مارضيش، وحتى مارضيش يأذيه أو يسجنه، لما اتسأل إيه؟ رد قالة (أنا طول عمري قاعد فوق المنصة، و كنت ناوي أستقبل عشان حسيت البلد ماشية غلط، ولما الولد ده عمل فيه كده سييته، عشان كنت عايز أشوف الناس اللي في الشارع بيحصل فيها إيه، لأن أمثاله هم اللي خلوا الناس مالهاش قيمة)، بعد كده قدم استقالته وبطل شغل، ووصلت لدرجة إن العادلي شخصيا كلمة بالتليفون ولا الهوا.. مارجعش برده، لازم تعرف حاجة مهمة يا مؤمن.. البلد دي حالها مايل.. عشان تتعدل بيك، لازم تميل معاها، واللي ليه شهر اليومين دول حفظه من السما، الأيام الجاية هيكون فيها

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

طبعًا بعدها الدنيا اتقلبت والمباحث وقفت على رجل واحد، جابوله أمين الشرطة ووطى عشان يبوس رجله والراجل مارضيش، وحتى مارضيش يأذيه أو يسجنه، لما اتسأل إيه؟ رد قالة (أنا طول عمري قاعد فوق المنصة، و كنت ناوي أستقبل عشان حسيت البلد ماشية غلط، ولما الولد ده عمل فيه كده سييته، عشان كنت عايز أشوف الناس اللي في الشارع بيحصل فيها إيه، لأن أمثاله هم اللي خلوا الناس مالهاش قيمة)، بعد كده قدم استقالته وبطل شغل، ووصلت لدرجة إن العادلي شخصيا كلمة بالتليفون ولا الهوا.. مارجعش برده، لازم تعرف حاجة مهمة يا مؤمن.. البلد دي حالها مايل.. عشان تتعدل بيك، لازم تميل معاها، واللي ليه شهر اليومين دول حفظه من السما، الأيام الجاية هيكون فيها

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم.. يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!.. في اليوم الثالث وكليل النياية حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكليل النياية اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قالة: (رئيس محكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).



أينعم اللي أذاه مسنود بس.. ربنا مايقبلش الظلم برده.. وإلا قد  
هتبقى.. يعني..

- بتاكل بعض زي السمك؟

قالها مؤمن ليتحول عبد الجليل لتمثال شمعي لشامبانزي مصاص  
بالصرع، مرت بضعة لحظات حاول فيها عبد الجليل البحث عن أي  
شيء في درج مكتبه في حين هب مؤمن واقفاً ليقولها بطريقة رسمية  
للغاية:

- أي أوامر تاني سيادتك؟

أراد عبد الجليل الرد لكن الكلمات تعثرت وتشابكت، في النهاية  
أشار له من دون أي اتصال عيني قائلاً:

- روح انت يا مؤمن، خذ النهارده أجازته، لو أنا احتاجتك هقولك.. ألف  
سلامة على البشهندس!

- تمام يا سيادة اللوا.

ألقي بتحتيته الميري، وخرج في صمت.

استرخى عبد الجليل في مقعده الجلدي الوثير ثم أطفأ السيجار  
المشتعل مجدداً، فتح الدرج المقابل له في المكتب، اقترب من سطح  
المكتب وظل يبحث عن شيء ما في الدرج حتى وجده أخيراً، كانت  
مجرد صورة قديمة وضع تأثير الزمن عليها، يقف فيها هو وشاب مراهق  
يشبهه حتى في بنيانه لكنه فاتح اللون يرتدي مايوه أسود وتستقر فوق  
رأسه نظارة بحر رفيعة، يزين صدره ميدالية ما ذهبية اللون واضعاً يده

أينعم اللي أذاه مسنود بس.. ربنا مايقبلش الظلم برده.. وإلا قد  
هتبقى.. يعني..  
- بتاكل بعض زي السمك؟  
قالها مؤمن ليتحول عبد الجليل لتمثال شمعي لشامبانزي مصاص  
بالصرع، مرت بضعة لحظات حاول فيها عبد الجليل البحث عن أي  
شيء في درج مكتبه في حين هب مؤمن واقفاً ليقولها بطريقة رسمية  
للغاية:  
- أي أوامر تاني سيادتك؟  
أراد عبد الجليل الرد لكن الكلمات تعثرت وتشابكت، في النهاية  
أشار له من دون أي اتصال عيني قائلاً:  
- روح انت يا مؤمن، خذ النهارده أجازته، لو أنا احتاجتك هقولك.. ألف  
سلامة على البشهندس!  
- تمام يا سيادة اللوا.  
ألقي بتحتيته الميري، وخرج في صمت.

\* \* \*



ارتعشت يده المبللة ماسحة بضع قطرات الماء تسلت من خضائل شعرة الممدد فوق جبهته، مسح كفه عفويًا ببظالته رامعًا إياه بحذر.. ذلك المظروف الكبير المبهم، سهو الصدمة جعله يجلس بلا قميص في جو قطبي ظالم، بالرغم من ذلك امتلكه شعور بأن رأسه يغلي من دون أن يهدأ، كانت الساعة تشير للسابعة صباحًا عندما اقترب من المظروف الأصفر ذي الحجم الكبير، كتب عليه بقلم غليظ أسود اللون «يوسف أصلان»، قام بالتقاطه من على الأرض بهدوء وحذر.. أحضر سكينًا من المطبخ ثم توجه إلى الصالة واستقر على السفرة شبه الأثرية، تبعه سيزار الذي أيقظه شعور غير جيد، أدخل نصل السكين في جانب المظروف وبدأ بفتحه برفق، صمت لثانيتين ثم تسلت يده بحذر للدخل، لمس شيئًا ناعمًا بلاستيكي الملمس، أشبه بكيس رقيق للغاية، أخرجه بهدوء محاولاً التنفس من أنفه المزكوم عفويًا، بضعة صور فوتوغرافية باللونين الأبيض والأسود، كانت كل ما يحتويه الكيس الرقيق، مزق الكيس الهش وتفحص الصور ذات الحجم المتوسط، بدأ بتقليب الصور واحدة تلو الأخرى، في كل مرة تزداد السرعة، ويزداد الهلع، تلمع الدهشة في قرنيته المشتتين، هم بالقيام لفعل شيء ما، لكنه أسقط المظروف على الأرض بالخطأ ليخرج منه صوت اصطدام مكتوم، بدا وكأن شيء ما زال

بداخله، نزل على قدميه وأمسك المظروف وقام بإفراغ ما فيه في كفه اليسرى، كان شيئًا صلبًا يحتويه كيس رقيق من نفس النوعية، قام بتمزيق الكيس لتزداد صدمته رعبًا.

كان شيئًا صغير الحجم ينتصف كفه اليسرى كجنين ربع مكتمل، ربطه كاسيت قديم الشكل رمادي اللون من النوع الصغير، قام بتقليبه أولاً في كفه في صدمة ثم نظر لجهاز الكاسيت القديم، مسح عنه التراب وحمله بكلمات يديه لأقرب مصدر للكهرباء، دبت فيه الحياة عندما أنارت لهب حمراء تدل على وصول الكهرباء لخلاياه النائمة، وضع الشريط في الباب المخصص له بالاتجاه الصحيح، ثم ضغط على زر التشغيل وقام بالضغط مؤثر الصوت لأعلى درجة.. ومرت دقيقة من دون أي شيء..

بدأ صوت ما في الخروج من تلك السماعات السوداء، صوت لم يكن لتخيل أذنه سماعه في موقف مثل هذا مطلقًا، صوت أرغم عينيه على الخفقان، وقلبه على الركض ذعرًا.. رغم أنه لا يمت بصلة لأي فلس مربع عرفته البسيطة.

كانت الحادية عشرة قبل منتصف الليل.. عانق عبق العشب النضر روح العفن الحديث، اختلطت أنفاسه المتقطعة مع خطوات المتسارعة، بالهت وسط الصمت والظلام الغابر، يشق طريقه بين القبور ويلتفت من حين لآخر، ينظر وراءه ليرى الرعب فيتعثر ويقوم ليركض مجددًا، يتسهم لاراء وينفجر ضاحكًا تارة أخرى، تنساب شلالات الخوف فوق جبينه

العريض ذي اللون الفاتح وعينيه الجاحظتين، يتنفس في رعب.. ويلهث مجدداً في ترقب.. ثم يضحك بطريقته الهستيرية.. ثم يتجههم.

كان نحيباً ذا عينين جاحظتين للغاية، على جبهته قطرات عرق لا تنتهي، ينفخ فمه زفيراً ساخناً وتتدلى خصال شعره نصف المجعدة فوق جبهته، تعالى من خلفه صوت لبضعة أشخاص يتقدمهم كلب متوسط الحجم من نوع «بيتبول» الشرس، يطلق نباحاً متقطعاً، يحارب ليلهم ويفتك بفرسته لكن طوقاً أحكمه سيده منعه من ذلك، سيده صاحب الملامح المبهمة، يجذبه الكلب ليركض معه خلف الشاب المدعور الذي انتهى به الأمر ليسقط مترنخاً بعدما صرعه التعب، ثم قاوم ليلهم مجدداً واستدار، ثم أخرج من جيبه مطواة ضغط على طرفها لتنفخ لحظات وهذا صدره المجهد لترسم ضحكة على وجهه النحيف، تقدم الجمع وكلبهم كصائدي براري يترصبون بغزال هادئ في موسم الصيد بغابات تكساس، توقفوا على مسافة عشرين متراً منه، همس أحدهم في أذن آخر شيئاً ليعاودوا التقدم مجدداً، قلت المسافة لسته أمتار لم يفر بعدها رد فعل الشاب المتحفز ذو النظرة المترددة.

- حلو القميص!

قالها شاب آخر، فاتح اللون، أصلع، ممتلئ الجسد يجلس مستهزئاً فوق قبر حجري من وراء الشاب المدعور، بجانيه ظهر العديد من القبور المشابهة في تلك المقبرة المظلمة، يدخن سيجارة المساء في هدوء وشراسة، يرتدي زياً بسيطاً مكوناً من بنطال جينز أسود و«جاكيت» بنفس اللون مكتوب عليه عبارة ما بالإنجليزية.

القميص بس؟ أنا كل حاجتي حلوة يا منض.

رد الرجل بعدما رمق قميصه، ليرد الشاب الممتلئ بنفس الاستهتار:

لله جادى مهمة عندك يا «هربانة»؟!، تستاهل إنك تموت عشانها؟

ما عندكش فكرة يا صاحبي! وأقتل عشانها كمان!

كانت تلك الجملة رد «هربانة»، وهو رجل في منتصف الأربعينيات، هدف الجسد ذو بشرة قمحية اللون، تراصت نياشين الواجب وعلامات العودة فوق وجهه المنكمش من «بشل» وجروح سابقة تدل على سجل عاقل، كذلك كانت أوجه من معه من عشيرته، تلك العشيرة المكونة من ثلاثة أفراد يختلقون عنه في العمر والجسد، لكن يتفقون معه في ذوقهم في اختيار ألوان وموضة ملابسهم المستهلكة منذ عقود، تتكون من قمصان وبطولات عفى الزمن عليها وعلقها في متحف التاريخ، ملابس تاجر بورسعيدي نصف ثري يقف على باب محله الخشبي في شارع الجمهورية في ثمانينيات القرن الماضي.

«مش يمكن حد من رجالتك مخيبها يا «هربانة»؟ أو.. قلبت على بلد

لأهبة وصنفتك.

قالها الشاب السمين وقبل سيارته مجدداً.

اصغره! هربانة ما يتصنفرش يا كوكو! أنا ما عندش حريم يتهرب، الحرمة دي مخطوفة وعندك انت يا منض وأنا عارف أنا بقولك إيه، وهاخذها يعني هاخذها، وبعدين نبقى نتكلم..

نزل «منص» من فوق مقعده الصخري متجها ناحية «هربانة»، وبعد الأخير وأشباهه متأهبين للهجوم، نبج الكلب غضبًا حينما أضاف ماله واثقًا:

- فكر قبل ما نتدم يا هربانة! انت عارف! الأسود مايرحمش..

«أسود»، أسود مين ياه؟ مانا عرفت اللي فيها، الأسود دا اشتغلا انتوا عامليهن، فيلم رعب مألفينه عشان تخوفوا بيه أي هتية عايز منك مصلحة، لو الأسود موجود فينه دلوقتي يكلمني وأنا أطلع ثلاثه مياهن أمه، البت يا منص.. يا إما هخرطك.

قالها مشيرًا بيده ويصق عن يمينه ليرد «منص»:

- عارف مشكلتك إيه يا هربانة! مشكلتك إنني ماعديش وقت أثبتلك إنك حمار، للأسف.. مضطر ألعب معاك..

قذف «منص» عقب سيجارته تجاهه ليسقط على بظاله القماش الرخيص ويصنع دائرة صغيرة به، تفحص «هربانة» بظاله المعدل لم رمق الشاب السمين وصديقه المرتعد ذا الضحكات الهستيرية وقالها بعصبية:

- يبقى جنت على نفسها كراش..

قالها بلهجته الغريبة.

أخرج «منص» سيفًا من ظهره مرتكزًا أمام صديقه المضطرب وصرخ مهاجمًا كبيرهم والذي ضغط بدوره على مطوأة في يده لتلمع في الظلام.

لهم الشاب المذعور ذو الشعر المموج مع أحد رجال «هربانة»، بينما لعل «منص» مع الأخير وأحد مساعديه في حوار أبيض دموي، في موقف المساعد الأخير ممسكًا بجماح الكلب الهائج بصعوبة.

على الجانب الآخر من المكان، وعلى بعد عشرين مترًا تقريبًا ارتعش فوس حديث المنشأ أزرق اللون، يشبه القوس الذي يستخدمه متسابقو الرماية في الأولمبيات، انطلق سهمه في اتجاه ظهر أحد معاوني «هربانة» ليلقط صرخًا بعدما خبأ السهم رأسه في حبله الشوكي، التفت الآخر ليرد سهمًا آخر يخترق رقبته النحيفة ويجاور صديقه على الأرض، ليرد الكلب في حين اشتغل الـ«هربانة» في جولته المؤلمة مع «منص»، والذي انقضض الكلب عليه بلا رحمة وتعلقت أنيابه بساعده، زاده «هربانة» من الجراح في كفه، ثم غرز مطواته في رقبته ليخرج منها شلال من الدم القاتم، اشتغل الشاب الضاحك ذو العينين الجاحظتين بأخر أفراد المجموعة، يجرحه ويضحك في هيستيريا، ثم يصاب هو فيضحك أكثر.

في تلك اللحظة وعلى بعد بضعة أمتار، ركضت مجموعة قطط سوداء خمرية تتجاوز في عددها العشرين، ركضت مسرعة لتختفي شجرة كبيرة، لدها لم تمر من أمام تلك الشجرة كما هي، بل لم تمر مطلقًا.

بدا وكأن الشجرة ابتلعها جميعًا، ولكن بعد ثوان قليلة خرج شاب طويل، نحيف الجسد يشق طريقه وسط صرخات العراك وظلمة المقابر، يرتدي معطفًا قاتمًا طويلًا وصل لعقبه وحذاء جلدًا لامعًا، يسقط نصف العره الأسود الطويل على نصف وجهه ليغطيها، ترك الكلب الغاضب

ساعد «منص» وركض ناحية الدخيل ليفتك به، لكن - ولسببه ما مالبث أن اقترب منه حتى هداً تماماً كحمل وديع، لعق في حذائه مطلقاً صغيراً مكتوماً أذهل كل أطراف العراك.

استقر الدخيل فوق بركة الدماء الغارق بها مزيج من أسدائه وأعدائه، تراجع الشاب المضطرب مترنحاً وممسكاً بساعده الدامي كانت ضحكاته الهستيرية المكتومة لا تزال تنهمر مع قطرات دمه وقف الدخيل يتفحصهم جميعاً في صمت، ثم تقدم ثلاث خطوات ونزل على ركبتيه ليشرّب معطفه قليلاً من الدماء، وضع إصبعيه أسفل عنق «منص» الملقى على الأرض، والذي بدأ يهذي يبضع الكلمات غير المفهومة مخربجاً بعض الدماء من فمه الصغير، إلا أنه تعلق يد الغامض متمسكاً ببضع الكلمات برعشة، رآه «هربانة» المصاب أيضاً في فخذه اليمنى والملقى على بعد أمتار قليلة من الأخير، تفحصه بخوف وبلغ ريقه بمعاناته، أمسك الدخيل بالسيف من يد صديقه المحتضر ثم قذفه لصديقه الآخر ذي العينين الجاحظتين والذي واصل ضحكاته المكتومة، تفحص «هربانة» مكان الجرح القطعي العميق ونظر للدم الذي غطى يده، ثم رمق الدخيل الغامض صارخاً برعب:

- يا كوري! يا جابر!

تجاهله الدخيل الذي بدا منهمكاً في البحث عن شيء ما في جيوبه «منص» الذي استسلم للموت، أخرج حافظه صديقه الميت ولعق بدمع قطرات من الدم من على ظهر يده قائلاً:

«الله جيت هنا عشان حاجة تخصك!»

لم ينظر تجاه الشجرة التي خرج منها ليرمقها «هربانة» مصدوماً، صعدت نبضات قلبه وأنفاسه ليروى فتاته الجميلة ذات الشعر الأحمر الطويل لقف بجانب الشجرة الكبيرة، ترمقه ببرود يحمل الكثير من المعاني.

اعتدل قليلاً في مكانه واستند على جثة أحد أتباعه وقال محسناً على رأسه في لا مبالاة:

«هي بقى كذا؟.. ماشي!.. بس ماتفرحش بيها، أنا عمري ما حسيت بالمسي وأنا باخد حاجة مش بتاعتي.. الدناوة - الدناوة - مافيش أسهل منها».

لم النطق بأنفاسه اللاهثة وأردف بصعوبة:

«انت غلطت غلطة كبيرة.. دا حتى اللي بيتشاقوا فيه بينهم حاجة نضيفه.. صدقني!.. مسيره هيعرف.. «قدورة» هيعرف ومش هيسيبك.. كان «ابننا» يقول: اللي يعور زميله في الكار.. يبقى بذرة وسخة».

قالها وبصق دماً بتأفف.

توقف الغامض عن العبث في جيوب صديقه ورفع رأسه قليلاً كمن يذكر شيئاً، كانت ملامحه شديدة الجاذبية والقسوة، يخفي نصفها وشم الدلف قد خياه شعره الطويل، وشم غطى نصف وجهه الأيمن تماماً حتى عيونه، كان على شكل لسان وحش أو تين بلونه الأخضر القاتم، تخرج منه نار تصاعدت حتى وصلت لعينه اليمنى.

رد بصوت خافت لا يخلو من الثقة:

- بس دا مايمنعش إن الحياة كانت أجمل لما دارون قال الهاد للأوسخ.

ثم أشاح بنظره تجاه «هربانة» المصاب بشدة مزيجاً شعره لينير الوجه نصف وجهه المظلم، اتسعت عيناه عندما رأى وجهه مكتملاً وكأنه رأى ملك الموت..

ابتسم الدخيل نصف المشوه وأضاف ساخراً محرّكاً خصال شعره خلف أذنه:

- ماتبش لنص الكباية المليان!

قالها ليتقدم من خلفه رجلان أحدهما ضخم الجثة والآخر ذو عيش ضيقتين يمتلك شعراً أشيب ككيس قطن مصري طويل التيلة على الرغم من أنه لم يتجاوز عقده الثالث بعد، لم يكونا سوى «جابر» و«كوري» اللذين وقفاً مستعدين لأي أمر من سيدهما الجديد، قام الأسود والماء ليقوم «هربانة» بدوره من على الأرض ويتراجع مترنخاً للوراء في حركة دفاعية قائلًا:

- انت مستحيل تكون هوا!

رد عليه الشاب متقدمًا بضع خطوات تجاهه متجاهلاً كلماته ومشرًا لمساعديه:

- جت في بالك قبل كده فكرة إن القدر يعاملك معاملة مميزة؟ خدي مثال.. يضع مني منصور، أكسب مكانه إثنين.. خريش وإكسب!

أنت فاكّر نفسك هتخش عليا بالحركتين دول! انت اشتغالة مش أكثر! مددعة.

أخرج الشاب قطعة صغيرة سوداء من كم معطفه ثم استطرد:

في خدع كثير حقيقية.

تركها تنزل على الأرض وتكشر عن أنيابها صارخة في وجه «هربانة» الذي أفرغه الأمر لثانية، في حين أكمل الشاب:

بالمناسبة.. هو أنا وريتك آخر خدعة عملتها؟!

أضاف مقترنًا:

هي نفس فكرة القطعة.

قاوم هربانة ليقوم رغم جرحه الغائر ثم تراجع مترنخاً ليصطدم ظهره بالحائط، تملكه الذعر ليستل من جيب سري في قدمه سكيناً آخر صغير الحجم، حاول أن يخفيه مستعداً للهجوم، أضاف الدخيل مجدداً من دون أن ينظر إليه سارحاً في كم معطفه:

أنا سميتها (القط الخفاش)، حاول تركز في الكم! اتفقنا! ممم

واحد!.. اثنين!.. هابرا...

قالها ويسط أصابعه ثم..

لم يخرج شيء، نظر ليدته منزوعاً ثم مرة أخرى لـ «هربانة» الذي ترقبه في رعب ثم اتخذ قراره بالهجوم بعدما فشل في السيطرة على هدوئه، لجاهل الغامض هجومه وصرخته المدوية وحاول مجدداً عمل الخدعة

التي تحدث عنها، قبض يده وفتحها مرة أخرى في اللحظة التي هي فيها «هربانة» نحوه، طار من ساعده شيء استقر في صدر الأخير والذي تجمد للحظة مشاهدًا الدماء تنفجر من صدره كالبركان.

قال متعجبًا:

- أويس!

ثم أضاف:

- أسف! دي ماكنتش المقصودة.. دي خدعة السهم المستخفي.

أشار له بسببائه مضيئًا:

- عمومًا.

وأمسك بفروة رأسه الكثيفة جاذبًا رأسه للوراء بعدما سقط على ركبتيه ليردف:

- ماناخذش الموضوع على صدرك المرة الجاية! دي مجرد بنت.

رمقه الأخير بنظرة ذعر مترددة.. ثم سقط في بركة من دمائه مرددًا شيئًا عن انتقام «قدورة»، انتهت كلماته بجملته واحدة:

- انت... الشيطان!!

تمتم بها محتضنًا ليرد عليه الأسود محرّكًا رأسه في نفث واضح بعدما نزل على ركبتيه وشده من ياقتي قميصه:

- أسوأ..

لعلقت أنظار «هربانة» المحتضر بوجه الشاب، نظر للوشم بدعر أنه يرى فيه كل قصص الرعب، لفظ نفسه الأخير، ثم هب الشاب واقفًا يستدير وينظر إلى المشاهدين من جيشه، بسط ذراعيه القاتمين كغراب لهم برغبة في التحليق في العدم، ثم ابتسم ابتسامة مسرحية مخرجًا زفيرًا بصيرًا مضيئًا:

أهلا بكم في فقرة الساحر..

وحرك رأسه مرتين بزهو.

\*\*\*

## (11)

اهتزت زجاجة مياه مستقرة على سطح السفرة وتمايلت يمينًا ويسارًا قبل أن تستقر عندما قال يوسف مخاطبًا نفسه: «الأرقام!».

كان ذلك الاهتزاز بسبب لكمة غاضبة من قبضته صدمت السفرة معلنة نهاية فترة من الصمت طويل، نصف ساعة باردة من التفكير مرورا كالدهر، رأى فيها كل شيء، بداية من الجثة المشوهة مرورا بلحظة معرف المشوومة بـ«راند» في تلك الليلة، حتى اللحظة المميتة الحالية، ثم في يده المرتعشة التي بدت وكأنها تخص مريضًا بمتلازمة باركنسون ترك الصور الفوتوجرافية من يده وقصد غرفته نصف المظلمة، ارتدى قميصًا قطنيًا وفوقه جاكيت جلدي قديم وحذاء غير ملائم، تأكد من ربطه جيدًا قبل أن يشعر بشيء ما...

اقترب من الدولاب ببطء كأنه يسير على زجاج مكسور، لمس مقبضه الخشبي بهدوء، جذبه بعنف... و...

لا شيء، لا يوجد شيء بالداخل غير طبيعي، هم بالبحث خلف باب حجرته المفتوح، جذبه بسرعة، و.. نفس النتيجة..

حصل على شهيق أكثر عمقًا مما يحصل عليه سباح المائة متر قبل القفزة الأولى، ثم تركه يخرج في صمت.

ال ده ما يبحصلش.. همس بها لنفسه، ثم توجه ناحية سريره وترك جسده يسقط سقوطًا حرًا مسترجعًا كل ماحدث: الاستوديو مرورًا بالمخرج ذي الصوت المفعز وراندا والمصور وعامل الإضاءة ذي الشعر الطويل والـ«توكه» ويارا قاسم، الأميرة المحاربة ذات المزاج البارد، ثم سلم على أخيه الذي افتقده منذ فترة وقدم له بعض الطعام ولكنه رفض تناول أي شيء وظل صامتًا والدش الساخن وسيزار يستلطف على صوت باب المنزل عندما انغلق والمظروف الأصفر والصور الغريبة ذات اللون الأبيض والأسود و..

للاث صدمات متتالية كطلقات المدفع، نزعته من نوم عميق انتصر عليه، لم تكن سوى ثلاث دقائق علي الباب.. وبدت كأنها ليست أول ثلاث دقائق، استيقظ يوسف من غفوته التي لم يشعر بها إلا بعد أن أيقظه الباب، لقد غفا لدقائق من التعب دون أن يشعر، رأى فيها كثيرًا من الواقع وعكسه، كانت المرة الأولى التي يلامس فيها جسده ذلك السرير منذ ثلاثة أيام، قام مسرعًا ومسح خيطًا صغيرًا من اللعاب عن جانب فمه، ثم توجه لباب البيت ونظر من عين الباب ليرى صديقه ينتظران في الخارج وقد ملاههما الملل من كثرة الانتظار حتى قالها مؤمن:

«لكله مشي...»

رد عليه معاذ وانقًا:

«مستحيل يكون مشي، العربية مركونة....»



فتح يوسف الباب ليصطدم الاثنان بوجهه الشاحب، ترك الباب مفتوحاً وقصد يسار الصلاة، ثم جلس أمام السفرة نفسها، أغلق مؤمن الباب خلفه ودخل معاذ متفحصاً المكان بعينه، حاول تجنب سيزار الذي حاول بدوره التقرب منه ولكنه - أي معاذ - أبعدته بحذائه في هديل ليرد عليه سيزار بنبحة غاضبة.

- مالك؟.. شفت عفريت...

قالها مؤمن منتقداً رد فعل معاذ.

- أصلها مش ناقصة نجاسة يعني..

- فعلاً؟! وبالنسبة للنسوان اللي بايت في حضنها كل يوم والثاني دول إيه بركة؟!.. بلا نيلة.

قالها مؤمن مرتباً على رأس سيزار الذي استبشر كثيراً برد فعله وحرك ذيله متحفزاً، تجاهله معاذ بعدما رمقه بنظرة نارية وقصد الصلاة المستكين بها يوسف.

كان الأخير متجمداً يحدث الصمت على السفرة، وأمامه الصور بعدما وزعها بهدوء كعرافة تبحث عن نبوءة سوداء في أوراق الكوتشينة.

اقرب منه مؤمن مستفسراً:

- إيه اللي حصل يا يوسف؟

- إيه الصور دي؟

علق معاذ بدهشة، ليلتقط مؤمن إحدى الصور ويلحق:

غريبة!

ظهر بالصورة رجل في نهاية العشرينيات ملقى على الأرض يرتدي ملابس كاملة ويبدو فاقدًا للوعي، تركها ثم التقط صورة أخرى للشخص نفسه بدون أي ملابس من نصفه العلوي في غرفة خالية تمامًا من الأثاث، فإن هو المكان نفسه الذي حضر فيه تلك الجريمة البشعة منذ أسبوعين، أربعة المرح.

فانت ربع دقيقة صامته تفحص فيها مؤمن بضعة صور من التي أمامه، وأخيراً التقط إحداها وتفحصها بتمعن.

مين صورها؟!

علق معاذ

اللي قتله.

رد مؤمن قاضماً أسفل شفته، محدقاً بعينين لامعتين لم تغادرا تلك الصورة، كانت. ليد تحمل خنجرًا غريب الشكل وكبير الحجم، حجريًا ذا مقبض مميز - وبه العديد من الكتابات بلغة غريبة للغاية، ليجد بعد ذلك صورة أخرى لنفس الخنجر وهو مغطى بدم داكن، وصورة أخرى لوجه الضحية عن قرب قبل أن تحاك جفونه وأخرى بعد حياتهما، أضاف معاذ متأففاً:

إيه القرف ده؟ أنا مش فاهم حاجة.

استقر مؤمن في الكرسي المجاور ليوسف، الذي نظر بدوره ناحيته الباردة نفسها، رفع يوسف كفيه الموضوعتين أمامه لتظهر صورة



تحتهما، حركها بهدوء بأطراف أصابعه ناحية مؤمن الذي التقطها في  
ترقب، ازدادت عيناه صدمة بعدما تفحصها، ثم نظر ليوسف المشهور  
مجدداً وعلق في صدمة:

- كان جنبك!

ثم أمسك بالصورة الأخرى من تحت يد يوسف مضيقاً:

- مستحيل!

- جنبه فين؟ وربي الصورة دي.

جذب معاذ -الواقف بجانب الكرسي الجالس عليه مؤمن- الصورة  
من يده، ثم أضاف:

- إيه ده؟ ده انت! الصورة دي جوه الاستوديو.. يعني إيه؟!

حديق مؤمن في صورة أخرى ليوسف ظهر بها وبجانبه يارا قاسم لم  
قال بصوت خافت به كثير من خيبة الأمل:

- كان بيراقبك طول الوقت.

- أنا شتمته!

- شتمت مين؟!

- المقالة..

قالها لنفسه في صدمة.

- انت اتجننت؟!

صاح بها معاذ.

فولت انه شيطان مريض.

صمت لثانيتين ثم أردف:

بغير فواعد اللعبة، المجرم هو اللي يلاقي المحقق.. هيقولني.

طربها، آمال انت منتظر إيه؟ بيعتلك ورد يعني ويقولك خلينا صحاب

أحسن؟ انت مجنون؟!

أهدى يا معاذ عشان نعرف نفكر.

قالها مؤمن متأثراً.

أهدى إيه يا عم الحج، واحد فاكركي نفسه المفتش العالمي وهيو دي

روحه في داهية وتقولي أهدى.

أهدى يا أخي عشان نعرف نفكر!. الله!! لو مش قادر تمسك نفسك

امشي وسيبنا يا أخي.

صاح بها مؤمن متفجراً كالزلازل.

ماشى.. أديني هديت، اتفضل حلها انت، أما نشوف إزاي هنخرج من

مقلب الزبالة اللي إحنا فيه ده.

تجاهل يوسف انفعاله، وتابع من دون أن تتحرك عيناه بنفس الصوت

الهادئ كأنه يحدث نفسه ليتذكر تفاصيل ما حدث:

كنت باخد دش، طلعت لقيت الظرف ده على الأرض.. فيه الصور

والشريط.

شريط إيه؟.. جاب مفتاح الشقة منين؟

«يا إيه؟! قتال قتلة بيعتلك أغنية في شريط، عاوز يقول إيه يعني بأغنية؟.. ده هبل رسمي!»

«عاود الشريط مع الصور لجاكين، لازم ندور على بصمات غير بصماتنا، أو أي حاجة جوه الشريط.»

«يوسف؟»

«هانا طبعا... مش هتقعد لوحذك بعد كده.»

«أنا هدف سهل... هيقدر يوصلني..»

«لم أشاح بنظره للصديقين كأنه توصل لنتيجة ما مضيقًا: «مسألة وقتية...»»

«ش هيوصلك.»

«يوسف؟ هتمنعه إزاي يا باشا؟»

«قالها معاذ متهكمًا.»

«هو وصله إحنا الأول.»

«قالها مؤمن في تحد واضح محددًا في وجه معاذ الذي صدمه الرد، لم ينطق بأي شيء، وكذلك يوسف لم يعلق هو الآخر، ولكن انطلق مع أصدقائه في رحلة وجب فيها محاربة المجهول... والذهاب إليه.»

\*\*\*

علق مؤمن ليرد عليه يوسف بنظرة صامتة، ثم اتجه بنظره المشفق ناحية الكاسيت القديم.

هرول مؤمن من مكانه متجهًا ناحية الكاسيت في صمت وحذر، مرتكزًا على ركبتيه ليضيف معاذ متعجبًا:

«- شريط كاسيت؟ فيه حد لسه بيستخدم شريط كاسيت؟!»

ضغط مؤمن على زر التشغيل متجاهلاً تساؤلات صديقه المزعج وممرت بضغ ثوان لم يحدث فيها شيء إلى أن بدأ صوت ما في الخروج متلعثمًا كصوت شريط رديء الجودة استهلكه الزمن، يجاهد ليعبر بعض الموسيقى، ثم بدأ صوت الموسيقى في التماسك ليتضح الصوت تدريجيًا ويشدو صوت ناعم وعذب للغاية:

«- بحلم معاك بسفينة ويموجه ترسينا.. ونبحر ثاني، الريح تعاند والافان... في عنيك وإديك.. شطي وأمانني.. العالم كله بأسراره.. عايش وبابا.. عايش جوايا.. طول ما انت في الرحلة معايا.»

«-أغنية؟!»

«-أكيد فيه حاجة في الشريط ده.»

قالها مؤمن بعد انتهاء الأغنية، ثم قام بتكبير الصوت وضغط على زر التسريع وأعاد الضغط مجددًا على زر التشغيل، لكن لم يرد عليه المسجل القديم، كرر الأمر بضع مرات بحثًا عن أي شيء غير طبيعي ولكن النتيجة كانت واحدة.

في إيه؟ أنا مش مطمئن.

فأعرف كل حاجة.

أهت الدكتور جاكليين المكالمة بعدما استقرت على كرسيها الجلدي الكبير ووزعت نظراتها الباردة عليهم بصمت، لفت نظرها جمودهم المريب لتكسر الحاجز الثلجي بقولها:

«هيكم مشكوراً!

مرت بضغ ثوان وجاءها الرد من مؤمن الذي أطلق زفيراً عميقاً:

بعد القعدة دي،، ماحدث هيشكرنا.

قالها وأمسك بفنجان قهوته وتوجه به للنافذة متفحصاً الحالة الأمنية المكان، ثم تجرعه كله مره واحده، لثرد جاكليين:

أوكيه! أنا شامه ريحه مشكله.. قالتها وأشعلت سيجارة رفيعة من هابيتها بتلذذ وتابعت:

مشكلة كبيرة.

بعد الجليل ناوي يشيلني من القضية، عشان كده اللي هيتقال هنا.. لألام يفضل هنا.

قالها مؤمن بهدوء يحسد عليه

مش عارفة ليه مش حاسة إنك في موقع يخليك تدي أوامر يا كابتن مؤمن!

الافاق مش أوامر..

(12)

اصطدم رامى فارس في صباح اليوم التالي برؤية الدكتور جاكليين لمسرعة ععادتها في العمر الدور الأول لمصلحة الطب الشرعي بالسيدة زينب، ابتلع ريقه كمن رأى عقرباً في وضخ النهار، تظاهر بالتأمل ورسم ابتسامة مصطنعة على وجهه الأبيض السمين، توجه لتحيتها وأما الله ألا تطلق عليه النار من قمها الضيق، سلمت عليه في طريقها منهكاً في التحدث في هاتفها النقال، تأففت من عامل نظافة ملتح يمسح البلاط القديم وقفزت من فوق الماء المتسخ برشاقة وقالتها ولكنه أمرها غاضبة لمن يهاتفها

«It's hilarious» Am drowning in a pool of shit here.»

تابعها رامى بعينه ثم حاول إكمال طريقه للدور الأسفل لكنها أشارت له بإصبعها أن يتبعها من دون أن تلتفت. بالفعل تبعها كالمنوم مغناطيسياً، لكن عند وصوله لمكتبها المنظم وجدهم جميعاً في انتظاره مؤمن ويوسف ومعاذ.. وكانت تلك صدمة أخرى.

كان مؤمن ويوسف يقفان جنباً لجنب، رحب رامى بهما كثيراً ثم تابع بنظره يوسف لبضع ثوان بعدما جلس في الكرسي المقابل لمعاذ، والذي تفحصه بنظرة متحرشة محرّكاً فمه ببطء وتلذذ ليشيح بعدها رامى بنظره بعيداً عن عمد، لم يقاوم أكثر من ذلك لكنه قام من مجلسه وهمس لمؤمن:

قالها يوسف مصنفًا خصال شعره بتوتر.

- شكرًا على الترجمة.

ردت مشيرة بسيجارتها بسخرية.

- اتفاق إيه وترجمة إيه مش فاهم؟

علق معاذ.

- خليني أخمن، انت مساعد الجورنالجي.. صح؟

قالتها بعينين ضيقتين بعد تفكير عميق.

- معاذ ضابط جيش.

قالها مؤمن ببرود وعاد يبصره للنافذة.

- لو مافيش مانع.

أضاف معاذ بفتور ووجه مستفز

- Sorry!، شكلك.. I mean، حصل خير!.. ازيك؟

- أنا تمام.. إيه الأخبار؟

- قالها معاذ بوجه مبتسم ونبرة صوت ساخرة تعبيرًا عن سخطه، تجاهلها

جاكлин رد فعله وردت:

- الأخبار عندكم انتوا.

مرت بضع ثوان من الصمت قاطعها مؤمن:

- إيه اللي خلاكي متأكدة إن معانا أخبار؟

ومن ماتقنعينش إن الباور رينجرز اتجمعوا في مكتبي صدفة.

إنا محتاجين مساعدتك، بخصوص حادثة المرح.

قالها مؤمن.

بالنسبة لحادثة المرح، كل حاجة هتكتب في التقرير اللي هيتبعك لعبد

الجليل بيه.. مافيش جديد لحد دلوقتي.

ردت بلهجة رسمية متخلصة من بعض رماد سيجارتها في طبق

ذهبي، ثم أطلقت سحابة دخانية كبيرة، ورمقت يوسف بتمعن قاتلة:

أأقريت المقالة بتاعتك!

هز يوسف رأسه موافقًا في صمت.

إنا هنا عشان فيه جديد.

قالها مؤمن بثقة

Wow.. زمان كنت بتفكر إن الجديد عندي أنا بس..

قالتها مبتسمة لتظهر التجايد بكثرة حول فمها الدقيق.

أشعل مؤمن سيجارة متأملًا الحي نصف المهدم الملقى فيه مصلحة

الطب الشرعي ليضيف:

اعتبره عندك.

نفحصت يوسف مطلقة سحابة جديدة وأضافت:

شكله يوم طويل.

فألفها مندهشة وهي تقلب مقلتها في الصور بعناية، مستخدمة عدستها  
التي تعلقها بذراع بلاستيكي كبير.

إيه اللي حصل في البرنامج؟

سأل مؤمن يوسف.

العسل بيه واحد.. قال عن نفسه انه القاتل.

ورامي بحرج.

وما قولتلناش ليه يعني؟

سأل معاذ بغضب.

إزاي تحصل حاجة زي كده وما...!!؟

فألفها مؤمن منفجراً ثم تمالك أعصابه وقالها بلهجة أقل حدة بعد أن  
تفكر به الجميع:

وإزاي تحصل حاجة زي كده وماقوليش؟

يمكن افكرها خدعة.

فألفها وعادت بعينها للصور مجدداً معتصرة عينها اليمنى خلف  
العدسة، ليرد يوسف بوجه حاد:

ما كانتش هتفرق لو قولت.. المهم انه حصل.

مرت دقيقة بعدها نظرت ليوسف عاقدة حاجبها، ثم عادت ببصرها  
مجدداً للصور لتضيف بعدما لفتت نظرها لإحدى الصور:

مش ده البرنامج بتاع يارا قاسم؟

تنفس مؤمن من سيجارته، ثم حرك لسانه داخل فمه وألقى بسيجارته  
من الشباك مستخدماً إصبعه الوسطى كمقلع، دس يده أسفل «جاكيت»  
البدلة التي يردتها، أخرج ظرفاً أصفر كبيراً، ثم اقترب منها وألقاه أمامها  
على المكتب مضيقاً:

- أطول من أي يوم شوفتيه.

تفحصته جاكين بعينها مصطنعة عدم الاهتمام، ثم لمست إطار  
نظارتها الطبية الكبيرة بإصبعها الخنصر.. ومطت شفيتها وحاجبها  
الأيسر إعجاباً.

مرت دقيقة من الصمت، أمسكت بعدها جاكين الظرف بمنديل  
ورقي رقيق وقلبت مرتين في هدوء، فتحت وأفرغت محتوياته على  
المكتب بسلاسة وهدوء شديدين، ثم قالتها قبل أن ترى المحتوى:

- بعثلك الرسالة دي إمتى يا يوسف؟

- عرفتي إزاي انه...

قالتها يوسف متوتراً.

- عرفت.. وعرفت كمان انه هوه نفس الشخص اللي بعث الرسالة بتاعه  
المرج.. أو اللي.. كلمك في البرنامج.

- كلمه في البرنامج؟

أعادها معاذ مصدوماً

- أوه! ده مايعرفش.

- ..اتصل من جوه الاستوديو.

قالها يوسف مقسراً.

- عارفة.

- يعني كل اللي في بالنا صح؟

أضاف مؤمن.

- صح، بس السؤال: ليه؟

علقت جاكليين ليعقب معاذ بغضب:

- الباشا اتكلم عن القاتل في العمود بتاع الجرنال، و...

- وإيه؟

قالتها من دون أن تشيح بنظرها عن الصورة.

- جاكليين!.. انتي عارفة كل حاجة.

رد يوسف متفحصاً جاكليين بنظرة ثابتة.

Sick devil ha?!

- بالظبط.. وأنا دلوقتي على الليسته.

- لسه ماحدث جاوني على سؤالي.. انتوا هنا ليه؟

- محتاجين خيط نبدأ منه.. لازم نوصله الأول.

رد مؤمن

- ومن قالك إننا لقينا حاجة في المرج؟ انت عارف إننا مالفيناش حاجة.

بإأكدة؟

سألها مؤمن مستنكراً.

هتبر نفسي ماسمعتش سؤالك.. وعموماً لسه كل حاجة مجرد

أعمال، مش ممكن يكون حد ثاني غير القاتل، مش يمكن حد...

قالتها جاكليين وهي تقلب في الصور ثم تجمدت كالتي أصيبت

بالناري في رأسها عندما شاهدت صورة القاتل قبل وبعد عملية القتل

ال«شبية»، صرخت في فزع:

«Jesus Christ!»

أتركت السيارة في الطابق الكريستالي وقامت بتقليب بقية الصور في

«رعة» ثم نظرت لمؤمن ويوسف قائلة بصوت به كثير من الصدمة:

«في ال«Cadiver» اللي أنا شيكيت عليها!

حرك مؤمن رأسه إيجاباً لتضيف بنفس الهلع:

«مصوره قبل ما.. God!

قالتها ثم نظرت ليوسف بعدما تركت الصور أمامها ليضيف:

«أظن دلوقتي واضح إحنا قد إيه محتاجين خيط!

«حصلت جاكليين علي نفس عميق وأطلقتها بعينين مغلقتين، كان يبدو

عليها الانزعاج لأول مرة، قالت بلهجة أكثر هدوءاً:

«أنا ماغنديش أي حاجة تبدأ منها.. إحنا - فعلاً - مالفيناش حاجة في

«مستع الملابس.

- والحل؟

تساءل معاذ لتجيبه جاكين:

- متيألي مافيش قدامنا غير إننا ندور احنا على الخيط.

- بمعنى؟

قالها مؤمن.

- لو مافيش فرص نخلق فرص.. ده الحل الوحيد، أنا هحتاج فريق عمل 24 ساعة ومايتامش، ده غير خط اتصال مباشر مفتوح بيني وبينه فريق فيه حد من الطب الشرعي أنا بقى فيه وحد من المباحث عشان الحماية.. وكمان ناس تساعدكم.

- بس عشان نعمل الكلام ده رسمي هحتاج واسطة.

علق مؤمن

- مش هبقى رسمي، لو مشينا في جو الروتين مش هعرف أنفذ اللي في دماغى.. حياة يوسف في خطر، لازم نفكر في النقطة دي كويس!

- يا دكتور إحنا في مصر مش في أمريكا، هنجيب الفريق ده معي يعني؟!.. إحنا محتاجين حلول عملية.

- مش هنروح بعيد..

قالتها وحصلت على جرعة نيكوتين جديدة ثم أضافت:

- انتو الفريق، المهم إننا نجتمع معلومات على قد ما تقدر في أسرع وقت ولازم -علي الأقل- يكون فيه أكثر من ظابط أو حد بيعرف يضرب لار زي مهند كده.

قالها مشيرة لمعاذ، فيما تدخل معاذ محتدًا:

اسمي «معاذ»..

..! sure! المهم إن الفريق يتأمن.

بس أنا ماينفعلش آخذ أوامر منك.

علق مؤمن.

بس ده لحماية صاحبك.

أو على الحماية، أنا هعرف إزاي أحميه لو حدي.

أنا مش محتاج أي حماية.

قالها يوسف بخدة.

Come on! فكر من غير عواطف يا يوسف.. و نفس الكلام للباشا!

الكلام ده نظري!.. الحماية الكاملة مستحيلة، مافيش هدف يستحيل الوصول إليه.

ماشى يا يوسف، يبقى ربنا معاكو، أشوفكو قريب على خير يا شباب.

قالها بعدما أطفأت السيجارة، ثم همت بالقيام قابضة على كوب

البر من القهوة سهت عنه.

واضح إننا جينا المكان الغلط. قالها مؤمن راقًا إياها بنظرة نارية، لترد باستهتار مرتشفة قهقهتها:

هانتخبير الجملة دي بعدين.

- وافترضوا عملنا كل ده ويردو ماعرفناش نمسكه قبل ما يوصل لـ يوسف!  
مش يمكن يقرر يقتلنا عشان واقفين قصاده، يبقى ساعتها كلنا نحس  
حياتنا عشان محاولة فاشلة! قالها معاذ مستفسراً.

- هي دي الروح الإيجابية اللي دايماً بتكلم عنها.  
قالتها ساخرة مشيرة إليه بكوب القهوة الكبير.  
- جدد يا خ.. ل!

علق مؤمن بخيبة أمل شديدة.

- يا عم أنا بقول افترض، أنا مابقولش نرديه في الشارع ونتخلي عنه،  
بقول ان في حل ثاني أحسن من موضوع الحماية ده.

- معاذ بيتكلم عن ا.. احتمال.. ممكن يا مؤمن باشا.  
قالها رامي بتردد شديد.

- يعني انت عايز إيه مش فاهم؟  
ألقاها مؤمن لمعاذ بحدلة.

- أنا بقول يوسف يختفي عن العيون شهرين لحد ما السفاح ده يتفلسف  
وخلصت الليلة على كده، وترجع الميه لمجارياها.

- معاذ عنده حق.

أضاف يوسف ليرد مؤمن متعجباً:

- انت بتقول إيه؟!!

لو فضلت في مكاني، هتعرضوا حياتكم وشغلكم للخطر، والنتيجة  
مش هتكون مضمونة، زي ما قولت.. مافيش هدف يصعب الوصول  
إليه، ماحدش يقدر يوقف راجل مافيش حدود لطموحه.

انت إنتجنت؟ عايزنا نسيبك لوحذك عشان ابن الوسة.. ده يقتلك؟  
سواء هنتشغل مع الدكتور أو غيرها ماحدش هنا هينام قبل ما نجيب  
الوادة.. ماقدمناش حل ثاني.

لا في.

قالها يوسف بثقة ثم نظر لمؤمن مسطرداً:

أسبب البلد.

عين العقل يا صاحبي.

علق معاذ بوجه مستبشر

يوسف!، فكر صح للحظة واحدة! افترض إنه.. سافر وراك، ده شخص  
مجهون وانت بنفسك قولت إن ماعندوش حدود.

قالها مؤمن مشيراً بسبابته في وجه يوسف.

ماعتقدش انه هيسافر وراءه.. مستحيل طبعا.

علق معاذ مستنكراً.

الافراح مش وحش، بس فيه مشكلة.

قالها بعدما جلست مرة أخرى على كرسيها الجلدي واضعة الكوب

الكوب على سطح المكتب وتابعت:



- «The Cooling off period» -

- النبي عربي يا دكتوراه الله يكرمك.

قالها معاذ بعفوية ناسيًا أن الدكتور ليس لها نبي عربي، أطلق جاكليين زفيرًا ماطة شفتيها في حقن، ثم أغمضت عينيها لثوانٍ وهز رأسها يمينًا ويسارًا في حركة معناها «لا فائدة»، أشعلت سيجارة الثالثة وأكملت:

- في حاجة عند القتلة المتسلسلين اسمها فترة الكمون.. يبقى بين ال جريمة والثانية.

- ما بين أسبوعين لشهر.. تزيد أو تقل.

أضافها يوسف مصححًا.

- بالظبط! فترة شبه كده الوقت اللي ما بين الغدا والعشا، المصم مايقومش بأي عمل إجرامي فيها.

- وإيه المشكلة!

استفسر مؤمن.

- المشكلة إن السفر ده عقبال ما يتم هيكون فيه على الأقل أسبوعين ثلاثة

لحد مايعرف رايح فين، على مشاوير للسفارة على فلوس على تأشيرة والجريمة اللي فاتت فات عليها أكثر من عشر تيام، يعني ممكن حد يحصل حاجة قبل ما يسافر.

- احتمال حقيقي.

قالها يوسف بتأمل.

«مؤمن عنده شاليه فاضي في الإسكندرية..

أشار معاذ لمؤمن.

«ل كويس! بس بردو مش أمان 100%.

«قلت جاكليين، ليرد يوسف بثقة:

«أنا هتصرف.

لهند مؤمن بصعوبة بعدما صمت طويلًا، ثم أضاف:

«مش عارف، عمومًا لو لازم تستخبي.. يبقى ماقدمناش غير شاليه الإسكندرية فعلاً، واهو تغير فيه جو لحد ما ربنا يريد ونجيبه.

بدا أن مؤمن قد استسلم للفكرة أخيرًا، حرك يوسف رأسه إيجابيًا «لهندما بيطء، رمقت جاكليين يوسف نظرة بها بعض الشفقة وأضاف:

«ربنا معاك!

«القلقش يا يوسف! أسبوع أو اتنين بالكثير، وأوعذك إنني هتصل بيك قبل كده كمان وهنكون جيبناه.. اعتبرهم ترفيه عن نفسك وهرجع للافى الدنيا أحسن من الأول.

ابتسم يوسف نصف ابتسامة محاولاً تصديق حماس صديقه، وأوحى له وهو وافقته على كلامه الذي بدا متفائلًا للغاية، وكأنه يريد أن يقول له ردًا على تفاؤله:

- طبقاً سوف تقبض على القاتل في أقل من شهر وتأخذ ميدالية وساعة  
كأن شيئاً لم يكن، وربما أيضاً أقابل في الإسكندرية فتاة أحلامي  
والوظيفة التي كنت أتخيلها في أحلام البقطة، تماماً كنهاية فيلم عربي  
في بداية الخمسينيات حينما يقبض البوليس على الأشرار جميعاً  
ويتوب المذنب ويتزوج الحبيب من بنت الحلال الجميلة من دون  
خسائر.

ولكن شيئاً ما جعل يوسف يرغب في تصديق مؤمن، ربما غريب  
الحياة.. ربما الأمل في البقاء.. وربما.. لم يصدقه.

\* \* \*

### (13)

انطلقت الميتوسويشي الغاضبة تشق غبار الدائري لنصفين، متوجهة  
إلى السهم المتحفز تجاه شقة يوسف الواقعة على بعد ساعة من مصلحة  
الطب الشرعي، بسط خلالها الصمت سيطرته المطلقة على الثلاثة،  
شرح معاذ في محادثة ساخنة مع إحدى صديقاته اللاتي لا حصر لهن،  
بأنها حاول مؤمن البحث عن أي شيء قد يعطل تفكيره في الراديو، في  
حين استندت رأس يوسف على زجاج السيارة الأسود وتحركت مقلته  
أماماً وهو يراقب أعمدة الإنارة كالطفل الصغير.

فك يا بني مش نهاية العالم..!

فألهها مؤمن الذي وضحت عيناه الحادثتان من خلال مرآة السيارة.

بالقول إيه؟

بالولك روق يعني.. هتعتدي على خير.

قابلها يوسف بهز رأسه بالإيجاب بصعوبة شديدة جعلت مؤمن

يسأل:

انت آخر مرة نمت فيها إمتي؟.. شكلك ميت.

كنت لسه عايز أقولك.

ألقاها معاذ بعدما فرغ من محادثته.

- مش مهم.

قالها بصعوبة واضحة في النطق، ثم عاد بنظرة ليشاهد عواميد النور المتسارعة كأنه يبحث عن شيء ما، يرسم دوائر التخيلية على كل ما يلحظه في الطريق، في حين خلد معاذ لنوم عميق.

تابع مؤمن:

- أول حاجة تعملها لما توصل الإسكندرية تناaaaaااااا.. فاهم؟

حرك يوسف رأسه إيجاباً وتابعت عيناه مشاهدتها لأعمدة الإنارة ليقاطعه مؤمن بعد دقيقتين:

- لا، أنا مش مطمئن إني أسبيك لوحذك في الأسكندرية، لازم حد يمشل معاك..

صمت يوسف لثانيتين ثم أجاب بهدوء بعد تفكير:

- ماتقلش! معايا ده!

أشهر يوسف سلاحه الفضّي الذي كان في جيب معطفه، رمقه مؤمن بتعجب، ثم بلع ما تيسر من ريقه مردفاً:

- عندك فكرة عن ضرب النار.

أشار يوسف برأسه إيجاباً.

رمقه مؤمن بنظرة طويلة مضطربة.. ثم تابع طريقه..

مرت ثلث ساعة أخرى، أفاق معاذ وأخرج سيجارة وقذفها في فوهة ثم أشعلها، أطلق زفيراً رمادياً في الهواء، ثم فتح زجاج السيارة ليدخل بعض الهواء وأردف بعدما عاد برأسه للوراء:

أنا لقيت الحوار في دماغي.. لقيت إن مالوش لازمة جو أفلام الرعب ده مجرد حته حيوان غاوي شهرة وعمله شوية (باللو) وحب يزاول يوسف شوية، هيتجاف في ظرف يومين ثلاثة وشكراً.

ثم أردف:

معاذ يا بني!.. أشعل.. أشعل.. أشعل الله في جسدك.

قالها معاذ مازحاً ماداً يده بسيجارة ليوسف الذي نظر إليها بحدة من رأى سكيناً.

أيه ده؟

قالها يوسف ببرود.

ده حماده ابن خالتي عايز يلعب معاك.. خد هشتكه!

فاشربش سجائر.

في الموقف اللي انت فيه ده، لازم! لازم تشرب سجائر، دانا هجيلك ويهدرات كمان.

أنت عارف إني مش محتاج أدخن.

قالها يوسف بوجه حاد متجمد.

معاذ ماتتكشفش! أنا وانت عارفين إنك محتاجها.

يوسف بيكرها يا موزه.. انت عارف اللي فيها.

أنا لفلان إن قلبي عليك يا عم.. إمسك!

قالها معاذ ورمى السيارة فوق ركبتي يوسف الذي تجاهلها  
مؤمن ساخرًا:

- الراجل قلبه عليك، خايف على صدرك.

- ببعدين ينضف..

قالها معاذ مطلقًا ضحكة قصيرة.

فتح يوسف الزجاج المجاور له واعتصر السيارة في يده لتلتصق  
الهواء وسط ذهول معاذ ثم أغلق الزجاج معلقًا:

- كنت محتاجها فعلاً.. خلصت بسرعة.

- إيه الجو ده؟ كل ده عشان سيارة؟!

- أنا قولتلك.

تمتم معاذ ببعض عبارات السخط في حين تدخل مؤمن محاورًا له  
دفة الحوار:

- إيه الجديد في الكتيبة؟

- أهو.. ولا حاجه.. لسه زي ماهي.

- لسه المسيري بتاعكوا ده ماسكها؟

- هو إحنا عندنا غيره يا «مو»؟.. الباشا مسيطر سيطرة كاملة الله  
يصلحها، مولعها.. مافيش حاجة ماعملهاش.

- كل دنيا وليها قوانينها.

القانون الوحيد عندنا اسمه أحمد المسيري، الراجل ده ممشي كل  
حاجة بالسنتي، وماحدث قادر يفتح بقه معاه.

وانو راضيين بكده؟

يا بني أنا الراعي الرسمي لأحلام المسيري باشا، حرق الله وجهه.

هههه.. وانت معاه.

وأنا مالي يا عم، أنا بنفذ.

عدي بلا!

مرت بضع دقائق أثر فيها يوسف الصمت حتى اقتربت المتسويشي

من منزله، بعدها شرح مؤمن كل شيء ليوسف، كان الاتفاق بسيطًا:

(أحضر أغراضك لأنه لا مجال للعيش وحيدًا بعد الآن حتى ميعاد

السرور أو - كما يعتقد مؤمن - القبض على القاتل)

\*\*\*

بدأت كعنان كوبرا بغير جلده القديمة في صمت بعد موسم الزفاف  
غير ناجح، تلك السيارة المشتعلة حتى نهايتها، سيجارة ملهدة  
تحصل بعد على قبلة فرنسية عميقة من شفتي الدكتور جاكليين  
التجاعيد، تجاعيد تشبه في تجمعها حول فمها أشعة شمس مرسومة  
بمسطرة طفل صغير في حصة رسم، تمتد ببيض الشتائم في هدوء  
تذكرت السيارة المحتضرة وأعطتها قبلة الموت، أطفأتها ثم أكملت  
سبابها بالإنجليزية، كان الجو يزداد برودة مع الوقت، لقد مرت ساعة  
ونصف منذ رحيل الجمع وهي لا تزال غارقة في الصور التي تركها لها  
يوسف تحت تلك العدسة المعلقة، كانت الإضاءة مرتكزة حول مكاتبها  
البسيط الخشبي:

!Nasty, pretty nasty, The son of a bitch -

تفحصت الساعة المشيرة للسابعة مساءً بجانب قهوتها الرابحة  
ذات الرائحة النفاذة، لفت نظرها شيء ما فجأة في الصور الكبيرة التي  
تتفحصها:  
- مستحيل!

لمنمت بها مندهشة ثم رفعت سماعة تليفون المكتب، ضغطت  
على بضع الأرقام تحاول تذكرها بصعوبة ثم انتظرت قليلاً حتى  
أجاب شخص ما لتقولها بصوتها الخشن:

أيوه يا مؤمن أنا دكتورة جاكليين.

أيوه يا دكتوره؟.. خير؟

مايالك تجيلي المكتب.

أيوه حاجة حصلت عايزة تقوليها لي؟

الصور هي اللي هتقولك.

أيوه متمعة في الصورة محرقة إصبعها بنعومة على سطح الصورة  
أيوه يلمس وجه طفل صغير.

أيوه بالظبط؟!

أيوه لما تيجي، وياريت يكون معاك يوسف.

أنا مش فاهم.. إيه المشكلة؟ ما حاش شوفنا الصور!

أيوه، بس المهم...

أنا لازم أقفل دلو قتي حالاً.. هكلمك ثاني..

أيوه مؤمن مقاطعاً كلماتها مغلقاً الهاتف كأن شيئاً ما حدث، تجمدت  
جاكليين قليلاً ثم نظرت للسماعة في ذهن كأنها لا تعلم كينونتها، ثم  
عدلت من وضع نظارتها الكبيرة فوق أنفها الصغير، وضعت السماعة في  
أذنها، ثم أمسكت بسيجارة جديدة وأشعلتها قبل أن ترتشف من القهوة

التي خرجت من مسامه كمية لا نهائية من العرق البارد وابيضت عيناه وأعاد في التشنج على الأرض مثل المجنون حتى انتهى به الأمر ليختنق بها بعدما تجمدت عضلة الحجاب الحاجز عن العمل بالإضافة للقلب الذي دمر نفسه تلقائيًا.

نعم، هذا ما حدث ولا تتمتع كثيرًا إنها مادة الإستركنين.. سم الداء.

وكما كان الإستركنين لغز الجريمة.. كان مفتاح حلها أيضًا، فحينما جاءت نتائج المعمل الجنائي، حلت صدمة على كل من يعمل على تلك القضية في العام 2007، لقد وجدوا السم في دم الضحية وكانت كمية كافية للغاية، حيث إن مادة الإستركنين تختفي تلقائيًا من الجسد بعد فترة وجيزة.

لم يكن هناك أي أثر لأي نوع من أنواع الحقن لتلك المادة في جسد الضحية، وقد استبعد أيضًا دخول السم عن طريق الطعام أو الشراب بعد فحص أمعائه، إذن كيف دخل ذلك السم إلى دماؤه؟ ومن فعلها؟ أيام من الحيرة والبحث، لكن تلك الحيرة لم تمتد كثيرًا، فبعد التأكد أنه قد تم إعدامه معمليًا، ضاقت دائرة الاشتباه لتجد بنت عمه - صاحبة الأربعة والعشرين ربيعًا - نفسها وحيدة بداخلها، معيدة بكلية العلوم..

أهلًا وسهلًا بالحل:

لقد امتلكت كل الإمكانيات للحصول على مادة الإستركنين المستخدمة في العديد من التجارب المعملية التي يدفع ثمنها فئران

النفاذة، أُلقت بسية بالإنجليزية ثم رُمقت عددًا ملقى أمامها من جريد اليوم المصري، مفتوحًا على صفحة الحوادث - عدد يوم الجمعة بتاريخ 15 من سبتمبر من سنة 2010 - عمود شهير فوقه صورة شاب في أواخر نهاية العقد الثاني من عمره، تعلو وجهه الوسيم ابتسامة واثقة، مكتوب بجانبه بالخط العريض.

(خيوط ودلائل)

«شبح في سيجارة»

جريمة أخرى حيرت الطب الشرعي المصري، ما هو سر مقتل المهندس المدني بسم غامض؟

مادة الإستركنين.. Strychnine

لقد رأيت العديد والعديد من الجرائم السادية ومثيلاتها، لكنني لم أبدأ شيئًا مماثلًا لذلك.. لمعرفة ما قصدهت عن مدى دموية الطريقة العالمة من القاتل.. أرجح لك عزيزي القارئ أن تقرأ هذا السؤال البسيط:

ماذا ستفعل لو قامت كل عضلات جسدك بالتشنج واحدة تلو الأخرى بدءًا من عضلات الوجه والرقبة مرورًا بالجزء السفلي من الجسد.. نهاية بالقلب والحجاب الحاجز؟

دعني أقل لك نبذة بسيطة عن ما مر به الضحية، لقد تجمدت عضلات وجهه وفكه تمامًا، التوت رقبته التي حفر فيها أظفاره من الألم لتنفجر منها الدماء، وتحركت قدماه لا إراديًا عشرات المرات بينما وجهه أصابع قدميه للأسفل حتى اختفت تحت مشطي رجله وكسرت بعضها من شدة

التجارب البائسة، ولكن بقي السر الآخر.. كيف فعلتها؟.. كيف لم  
سمومها من دون أن يشعر؟

هل فكرت مسبقاً في استخدام السجائر كسلاح؟

لقد أخبرتنا الفتاة في تحقيقات النيابة عن حل القضية، قالت إنها  
بدلت ثلاث سجائر من علبة التي لا يفارقها بأخرى مثلها تماماً، البرق  
نفسه، فقط اختلاف بسيط في السجائر الثلاثة، وهو تشبيهم بالإسار  
عن طريق حقنه في الفيلتر.

كان سيجارتان منهما كفيلتين تماماً أن تجهز على مصارع «سودو»  
ضخم في ثلاث ساعات، كانت أذكى مما توقعنا، علمت شرائط  
للسجائر، وعلمت أيضاً مدى نشاطه وتحركه الكثير في يوم واحد، فهو  
- بحكم عمله كمهندس مدني - لن يستقر في مكان واحد في اليوم نفسه،  
كانت تعلم أن سلاح الجريمة سيرمي من شباك سيارته الفارهة أو يدورها  
بحذائه في موقع بناء ما بعد أن يستخدمه في قتل نفسه تطوعاً.. وقد  
فعلها.. وفعلتها هي أيضاً.. عقاباً له عن تحرشه بها عندما كانت طفلة  
صغيرة - على حد قولها.

بعض الأوقات يصبح مفتاح اللغز هو اللغز نفسه، لقد كان تمرزها  
العلمي هو مفتاح الوصول إليها وسقوطها، إضافة إلى السم النادر الذي  
استخدمته، فعالية القنلة - من هواة استخدام السجائر في القتل - يفضلون  
سم السيانيد السهل «نسبياً» في الحصول عليه، خصوصاً للذين يعيشون  
في بلاد يسمح فيها باستخدامه كمبيد للفئران، فهو عملي.. أسهل من

الحصول عليه.. وأقل ألماً.. «هذا لو كان التعرض لازمة قلبية مميتة  
لقد تم حلها بالمخ شيئاً أقل ألماً».

هل هذا جعلنا نرجح اسمها.. لكن في كل الأحوال، يطرح السؤال  
مجدداً.. من الضحية؟ ومن القاتل؟

طريقة ما زلت أبحث عن إجابة لذلك السؤال في كل كتاب قرأته..  
والذي لم أجد ردّاً كافياً له في فلسفة الحياة..

وفي النهاية.. يبقى الدرس المستفاد دائماً..

رسالة واضحة وصريحة لكل المتحرشين جنسياً في أي مكان في  
العالم..

لا تقترب من فتاة لديها ميول كميائية.

يوسف أصلان.

\* \* \*

تسلل اللون الأحمر ليد يوسف البيضاء عندما فتح باب معمل التحميص الصغير الذي صنعه في تلك الغرفة غير المستخدمة، مهدوء وسط صورة المعلقة كالدبائح، يملأ صدره برائحة خليط كربونات الصوديوم والميتول الموضوع في حوض كبير نسبياً، يقطف الصور الجافة ويضعها بهدوء في ملف كبير خاص به، صور للقاهرة في الليل، صورة لبياتو مطعم لا تشانس اللامع وبجانبه كرسي مقلوب، صورة لنفق مظلم كاد أن يفقد فيه حياته.. يصل بين معمل مشووم ومخزن بارد، وأخرى لرجل في الخمسينيات، نحيف.. يجلس بملابسه المستهلكة وذقنه المكتسية بالبياض، وأخيراً لملك شطرنج أبيض يقف بين جدران أسود التقطها من قبل مع أبيه الروحي في مستشفى القصر العيني، وضع الملف أمامه على الأرض وجلس يستند بظهره على الحائط السيراميكي البارد، احتضن نفسه بعنف وصمت، نظر لسقف الغرفة لدقيقتين متتاليتين من دون أن تتزحزح قرحيته، دفن رأسه بين ركبتيه ثم أخذ يحرك جسده يميناً ويساراً كارجوحة بطيئة، ثم فزع وكأنه تذكر شيئاً ما، فتح الملف الذي يحتفظ فيه بكل الصور المهمة وأخذ يقلب حتى رأى صورة كان قد طبعها عن طريق طابعة ملونة بعدما حملها من هاتفه، صورة لخنجر يختفي نصفه في صدر ضحية المرج وعليه بضعة نقوش، قام من مجلسه

وأغلق صنبوراً يقطر ماءً ببطء فوق حوض التحميص، كان الحوض به دورتان متجاورتان بيضاوتان، همّ بالرحيل لكنه نظر مودعاً لغرفته كأب يشاهد طفله الصغير وهو يلهو على فراش الموت، شيء ما ملأه بشعور أنه لن يرى تلك الغرفة مجدداً.

أطفاً النور وأخرج شطنة أخرى معبأة بكل ما يلزمه من ملابس وبعض احتياجات المهمة بجانب باب الشقة المفتوح، قصد الصلاة ولا مست يده اليانور القديم في طريقه ثم ضغط ثلاثة مرات على أصابع البيانو ليطلق صفاته المتقطعة، تركه واتجه ناحية المطبخ محاولاً شرب كوب من الماء ليروي بعض الظمأ الذي تملكه فجأة، رفع مقبض الصنبور فوق الحوض المصنوع من «الإستانلس ستيل» ليجري الماء البارد فوق يده النابته كالثلج وتسري قشعريرة شديدة بين عروقه.

كان ذلك في اللحظة نفسها التي شاهد فيها مؤمن شاباً نحيفاً شاحب الوجه يلتفت حوله في ترقب، في ثوان قليلة اقترب الشاب المجهول من مدخل البناية التي يقطن بها يوسف، كان على بعد شارعين منه عندما راه.

لازم أقفل دلو قتي حالاً.. هكلمك تاني..

قالها في عجلة مغلقاً هاتفه الجوال عندما انتصبت قرون استعمار صابط المباحث فوق رأسه، معلنة دخول شخص ما ذي شكل مربب البناية يوسف.

تحرك مؤمن في هدوء قائلاً بصوت حازم:



- كابتن!

تحول المشي لهرولة عندما لم يسمعه الشاب، ثم أكمل مؤمناً

- يا بني أنت!

لم يرد وتابع الشاب تجاه الأسانسير لتتحول الهرولة إلى

بأقصى سرعة، صرخ في الطريق:

- انت ياله!

لكن الشخص لم يسمعه واستقل المصعد في صمت، تفحص

في هلع الرقم الذاهب إليه المصعد ليجد أسوأ مخاوفه تكتب أمامه.

كان الرقم هو «10»، مكتوبة باللون الأحمر فوق باب المصعد

الحديدي، الدور العاشر حيث يسكن يوسف، تحول مؤمناً

أوليمبي لم يتعاط سيجارة واحدة في حياته عندما انطلق كالسهم

الوقت والمصعد الذي تفوق عليه بطابقين على الأقل، يتعثر

أرضاً ويقوم مجدداً، يقفز كالمجنون فوق سلالام البناية الباردة،

في «ضرايبزين» السلم ليعطيه بعض القوة للمواصلة.

في اللحظة نفسها كان شخص ما يدخل من الباب المفتوح

يوسف من دون أن يستأذن، اقترب من يوسف الذي تجمد أمام

مستغرقاً في التفكير في شيء ما، طغى صوت خرير الماء على

ذلك الدخيل، والذي أصبح على بعد خطوات قليلة من يوسف، والذي

أفاق من غفوته بعدما أحس أنه ليس بمفرده في بيته، اتسعت

الذهاب، أراد أن ينظر خلفه ليرى، لكنه تجمد، تذكر أنه نسي باب

الذهاب مفتوحاً، لعن بداخله غباءه وتملكه شعور بالندم، لم يلتفت، بل

الذهاب هو... منتظراً قدره... مهما كان نوعه.

\* \* \*

يلا يا يارا نجهز!

قاطعهما سمير الشوربي المخرج بصوته الأجش المميز ثم

أصابت:

فدأنا 10 دقائق يا جماعة!

ألفاها لفريق العمل الذي بدا كخلية نحل لا تكل، في حين عادت راندا للجانب الأيمن من حيز سمير الشوربي تاركة العنان لعطرها الفرنسي في التغلغل داخل أعماقه، تفحصت الشاشة الصغيرة التي تظهرها يارا منهمكة في قراءة بعض الأوراق استعدادًا للدخول على الهواء، في حين اقترب منها الماكيب محاولاً إضافة لمسة جمالية للوحة التي لا تخلو من الجمال «الرباني»، شاهدتها راندا على الشاشة غير مهتمة ببعض كلمات الملاحظة من سمير الشوربي الذي ينتظر فرصة قد وعدته بها كثيرًا، لململت قبضتها اليمنى لتختفي أظافرها ذات اللون الأخضر بداخلها، اعتصرتها جميعًا حتى اقترب إحداها من اختراق راحة يدها، نظرت لسمير الذي أكمل جملته الأخيرة من سلسلة جمل لم تسمع منها شيئًا كان آخرها:

وبعدين كوكو وعمرو كمان جاين الساحل، قولتي إيه بقى؟ هتيجي ولا لا زي المرة اللي فاتت؟

بيبي! أنا هطلع أشرب سيجارة عشان مصدعة، لما يرجع بنحكي.. أولك؟

(16)

لم تكن مجرد كأس عصير البرتقال البارد يهبط على زجاج المنفذ المجاورة لتلك الفتاة الشاردة، لكن أقرب بلبلطة مزارع أفغاني غاضب على جذع متهتك من شجرة المورينجا، جذع من الأفكار المشتتة في شجرة تسمى «ذهن يارا قاسم»، أفاقت بعدما وضع الساعي العصير بقليل من العنف، سيطرت حركة كثيرة على موقع التصوير، تذكرت أنها تنظر ميعاد تصوير حلقة جديدة من برنامجها، تفحصت بعينها المرهقين شيئًا ما في هاتفها النقال ثم حولته للوضع الصامت حينما قاطعها صوت ناعم تعرفه جيدًا:

- نقول حمد الله عالسلامة؟

- ليه؟!

- شو! سرحانه بقالك عشر دقائق يا بتي مش واخذة بالك؟

تتهدت يارا بعدها بعمق ثم هزت رأسها نفيًا مستطردة:

- لا عادي.. أنا بس... مش عارفة يا راندا!

- لا عارفة بس مترددة تقولي، قولتي..

- حاسة ان في حاجة غلط، من ساعة التليفون بتاع الحلقة اللي فاتت وأنا...

خرجت من الاستوديو راققة صديقتها المنهمكة في القراءة بالظلمة  
تكفي لتحرق نصف الكرة الأرضية، وتبعث الحرارة في النصف الآخر  
قاطع رجل نحيف للغاية سمير في لحظة تأمل لكعب راندا العالي  
في طريقها للخروج:

- أستاذ سمير! عندنا مشكلة في الإضاءة، هو فين عمر؟ هو أجازة فعلاً  
زي ما سمعت؟

- بتسألني أنا؟! ما تشوف يا بني آدم عمر فين، جاي تقولي قبل الهوا  
بسبع دقائق؟!

- مانا سألت عليه يسري قالي أخذ أجازة، والواد الجديد ده هيشغل  
مكانه.

- أنهي جديد؟ الواد أبو ضفيرة ده؟

- أه، اللي كان معانا الحلقة اللي فاتت.

- وانت جاي تسألني أنا يا محمد؟! مانت اللي متبيل جاييه يا بني.

- أنا ماجيتش حد يا أستاذ!

- إزاي يعني؟! أنا لما سألته قالي محمد جاييني عشان أساعد عمر.

- والله ما جببت حد يا أستاذ وحياة أمي.

- آمال جاي يعمل إيه؟

في حاجة اتسرقت ولا حاجه؟!

- لا أبداً، ولا أي حاجه.

إزاي يعني؟ الواد ده كان هنا بيهيب إيه؟!

حاجة تحير والله يا أستاذ.

سكت سمير لبرهة ثم أكمل:

طيب... خلاص مش وقته، روح دلوقتي، وأنا هكلم كريم بيحي يشوف  
المشكلة دي.

أخرج هاتفه النقال باحثاً عن رقم ما في قائمة الاتصال السريع، ثم

لوحظ لبرهة مفكراً وتمتم بكلمة ما بحق، لفت نظره شيء ما أصفر اللون

والذي أسفل الكاميرا، اتجه بهدوء ناحيته، بدا وكأنه مظروف أصفر اللون

قائم عليه بقلم داكن: «افتح الظرف!»، التفقه وتردد لثانيتين... ثم قطع

رأس المظروف عرضياً ليجد بداخله عدة كروت فتوغرافية، قلبهم ليرى

محاوياً الصورة، اتسعت عيناه عن آخرهما عندما دهسها الذهول، تلفت

عوله في دعر... ثم تذكر أن كريم بالفعل على هاتفه النقال منذ فترة.

الو... الو...

أبوة يا كريم...

إيه يا أستاذ عايزني في حاجة؟

لعا... تعالى شوف محمد عايز إيه في الإضاءة.

حاضر يا كبير، صوتك ماله؟!

لا... ما... فيش حاجة.

طيب يا كبير، عايز حاجة تاني؟

- أيوة يا كريم، عايز..

- آمرني يا أستاذ!

... مرت لحظة لم يرد فيها سمر الشوربجي على كريم الذي أقبل

مندهشاً:

- أستاذ سمر انت معايا على الخط، ألو!

- معاك يا كريم!

- آمرني سعادتك!

- اتصل بالبوليس!

قالها شاردًا كجندي أمريكي فقد كتيبته في حواري بغداد، مرهلاً  
كطفل، مشتتًا كمفترق الطرق، لكن في كل الأحوال.. كان يعنيها.

\* \* \*

(17)

انتشر الأدرينالين بعروق جسده الواهن كنار التهيّب في غابة استوائية،  
والصاعدين ضربات قلبه المتتالية في محاولة بائسة لدفع دائرة الحياة  
بداخله، اقترب المجهول منه لكنه لم يلتفت ليقابله بعد، أغلق الصنبور  
اليدويح ليملك الصمت مقاليد اللحظة، شعر بأنفاسه المتسارعة على  
بعد خطوات منه، أغمض عينيه في ألم، حاول تحريك يده بهدوء محاولاً  
الوصول لسكين ملقى في الحوض المجاور، لم تتحرك يده ثلاث  
دقائق متراثرات حينما جاءه الصوت الغاضب ليصبيه بمقدمات أزمة قلبية:  
حركة واحدة.. وهدفك!

قالها صوت غاضب على مرتين، صوت لهث صاحبه بعنف كمريض  
أزمة ريو.

رفع يوسف يديه في صدمة وحركة تلقائية، بيد أن الصوت الغاضب  
لم يكن بغريب على مسامعه، التفت ليجد أن شخصاً آخر يرفع يده  
سلسلماً مثله تماماً، وخلفه مؤمن يصوب فوهة مسدسه لرأس «الدخيل»  
في الرقب، وعلى وجهه غضب وإصرار واضحان.

لجعد يوسف للحظة، ثم أغمض عينه ماسحاً يده المبللة على وجهه  
المتفرب وتنفس الصعداء، وأشار لصديقه المتحفز بكف يده:

- خلاص يا مؤمن!

- ده وليد.

هبط ذراع مؤمن على مراحل كأن عقله رفض إعطاء الأمر ليد مرًا واحدة، ثم نظر في حلق بجانبه مطلقًا زفيرًا فيه من الغضب أكثر من الراحة فأضاف:

- الباشا عمال أنادي عليه وهو طالع ولا معبر ميتين أهلي...

- ما سمعتكش.. هو أنا لو هسمعك مش هرد ليه يعني؟ ويعدين هو الله أي حد مايردش عليك تثبت د(..) أمه بسلاح كده؟! هو إحتافين هنا في شيكاغو ولا...

قاطعة مؤمن غاضبًا:

- ماتردش عليا يا حيوان!

- مؤمن!

قالها صارخًا.

- أنا مش هرد على الشنينة دي عشان الدكتور بس، غير كده أنا لسانى زفر وانت عارف، عرق الوساخة في جيبى ممكن أطلعه في أي لحظة ولا يهمني أي حد.

- ماتوريني كده يا حماده! ما تيجي نلعب مع بعض نشوف مين وسع أكثر؟!

قالها واضحًا مسدسه في جرابه الخاص ومخترقًا حاجز وليد اللبني، تدخل يوسف فاصلاً رأس مؤمن عن وليد بصعوبة بالغة:

مايش وقت لمشكلة جديدة.

انت تعرف منين الأشكال الوسخة دي؟

لا، دانا أنا أطلع...

اسكت!

قالها منفجرًا في وجه وليد الذي احمر وجهه قبل أن يتطور الأمر. ثم أعلل موجهًا كلامه لمؤمن:

وليد ابن عمتي يا مؤمن، كفاية من فضلك!

ابن عمك!؟ إزاي؟!

كفاية! أرجوك!

وجهها لمؤمن الذي شعر بكثير من الحرج.

طيب.. أنا.. - هستن - هستنك.. تحت.

رد متجنبًا النظر ليوسف ثم اختفى.

مرت لحظات من السكوت المميت، فتح فيها يوسف الصنبور مجددًا ولكن تلك المرة وضع رأسه، غمسه في الماء البارد كأنه يحاول الاستيقاظ من كابوس ما، ثم أغلق الصنبور وحصل على منشفة بجانبه

التحف بها وجهه، كانت قطرات الماء لا تزال تسقط من خصال شعره  
عندما أضاف:

- عاجبك حالك؟ .. عاجبك حالنا؟

قالها مكدًا في سقف المطبخ في يأس.

- سيك منه ده واد ابن وسد(..) مالوش لازمة، انت عارف إن...

- مالکش دعوة بيه!

- إيه يا يوسف؟ بتدافع عن الباشا؟! عن الحكومة.. انت ناسي أهوا  
لما...

- وده كمان مالکش دعوة بيه!

- ماشي.. تمام يا دكتور الله يصلح حالك، ماحنا مش قد المقام.

- مش موضوع مقامات.. بس عايزك تبص لنفسك! لأهلك!

- وأنا عملت إيه بس يا يوسف؟!، ما أنا بحاول أهو!

ألقي يوسف بالمنشفة على الأرض قائلاً باستهتار:

- حظ سعيد مع المحاولة الجاية..

- يعني اعمل إيه يعني يا يوسف؟! أنا عندي 35 سنة، ولا اتجوزك

ولا اشتغلت ولا عملت أي حاجة في حياتي، مستكتر عليا تراها

أشربها أو واحدة اشقتها؟ وبعدين هو مين اللي بيعمل فينا كده؟.

مش الحكومة بردو؟!

اللي الحكومة! كلمني أكثر عن طبيعة شغلك الجديد.. أنا عرفت انك  
البلد.

قالها يوسف بعينين لامعتين كأنه توصل لشيء ما.

أ.. شغلي.. بخلص مصالح للمكتب.

بخلص مصالح؟

من اللي في بالك ماتخفش.

وعرفت إزاي اللي في بالي؟

يا عم ما تقلقش ده مكتب محاماه محترم.

مكتب محاماه محترم؟ الجملة دي فيها حاجة مش صح.

هي أول شغلانة شريفة اشتغلها.. يعني اعمل إيه.. أنتحر يعني.

واضح إن كلمة «شريفة» معناها مختلف ما بنا، احكي لي!.. احكي لي

إزاي انتهى بيبك الطريق مع حمدي الأنصاري! ملك البودرة والدعارة،

محامي النزاهة والشرف.

ملا يوسف كوبًا من الماء وتجرعه مرة واحدة ثم قذفه في الحوض

الغليظ، أضاف بمزاج حاد:

بهدشك إزاي يا وليد؟ ترامادول ولا بودره؟

يا يوسف انت محسستي إن البلد مرشقة شغل وناس نضيقة وأنا اللي

ناهم! انت مش شايف البلد عاملة إزاي؟ أنا سامع إمبارح بودني اللي

قصة طويلة، ماتعش نفسك.

هو أنا أبقى أجي أشوفك كل يوم والثاني وأطمئن عليك.

هاول يوسف إنهاء الحوار ممسكًا بحافظته البنية مخرجًا ثلاث أوراق فئة «الخمسين»، ألصق إياها في يد وليد الذي لم يحركها من مكانه مظاهرًا بالتعفف.

والله لآخر الشهر بس أول ما أقفش المرتب هسدد عطلول، وحياتنا.

الجاهل يوسف قسمه الذي اعتاد على سماعه كثيرًا، ثم توجه بعد ذلك الحار مع وليد للسلم متجاهلاً الأسانسير كعادته، وصل للدور الأرضي ثم فتح قفل الحديقة الصغيرة ليستوقفه لهاث صديقه المفضل، وصوت الموسيقى المكرر والناتج عن جر سلسلته المعدنية وراءه وانكسارها بالأرض، احتضنه بعنف ومسح على رأسه، تأكد من وجود الطعام وصب له قليلًا من الماء ليشرب بتلهف واضح.

أول الطوب عندك هنا! على يمينك بابا، فتح مخك معايا يا معلم الله يصلح حالك!

قالها خضر بصوت عال، منهمكًا بتوجيه بعض العمال الذين يحملون الأسمنت والطوب، لكنه مالبت أن تكشف عن أسنانه مجددًا مبتسمًا عادته ورافقًا يده بتحتيته العسكرية المعروفة مضيئًا:

بغات الباشا.. واحشنا.

تاكلها الدود دي على الدش واحدة بتقول إن أكثر من نص الدش المصري تحت خط الفقر، الناس خلاص.. على آخرها، كله بيحرق فيعضه، أنا سببت الشقاوة وقولت خلاص، خلاص يا واد حد الدش والله لو مصلحة بيضه مقشرة كده جواها المأظية وذهب مانا عادله. تيجي انت تقولي ماتشغلش مع الأنصاري عشان ليه في الشقاوة وأنا مالي أنا؟.. لو هو قالي انقل الشنطة دي فيها ورق وكان فيها مخدرات، أنا بعمل اللي بيطلب مني ويس، وبقبض نتيجة عربي وبعدين لو هو وسخ أوي كده، مالبسش أساور ليه؟!

- لا إطمئن!.. مش هيلبس أساور، ولو لبسها هتبقى أساور ذهب نهائيه.. عايز كام؟

- عرفت إزاي إني عايز فلوس؟

- عندي موهبة خارقة في توقع المواقف اللي بتتكرر أكثر من خمس تلاف مره، عايز كام؟!

قالها بوجه صارم.

- ولو إني مش فاهم انت قولت إيه.. بس مش مهم الفلوس دلوقتي قولني الأول!.. إيه اللي أنا سمعته ده؟ مين اللي عايز يعورك وأنا أطلعلك ميتين أمه؟

كانت محاولة كرتونية من وليد أن يلعب دور الأخ الأكبر الذي يعلم أخاه الخائف، مظاهرًا بعدم أهمية المال بعدما ضمن بعضه على الأهل أجابه يوسف:

- سيزار عطشان يا خضر، انت بقيت تعطش عيالك اليومين دول؟

- والله يا بيه ماليله مية إمبراح ويشهد عليا ربنا.

- مرتين يا خضر، مرتين.. الصبح وبالليل.. أحفظها لك إزاي؟

- عنيا يا بيه حاضر.

- مش عايز عنيك يا خضر، سيزار ماينقعش يشربها، هو ماينقعش عليك؟!

- والله يا بيه..

قاطععه يوسف:

- إمسك دول ليك، وده مفتاح الشقة إديه للحاج، وده إيجار الشهر كده فاضل أسبوع في الشهر عقبال ما يخلص.

- ليه يا بيه هو في إيه؟

- هتعرف تأجر الشقة إمتى؟

- والله يا بيه في 100 واحد مكلمني على شقة مفروشة، بس ليه يا بيه؟

- حصل ظروف ولازم أسافر، أنا هتصل بالحاج نعيم وهقوله إني هتأجرها وهو مش هيقول لأ، بالعكس هيفرح، أجرها بس قبل ما تأجرها إستنى لما الحاج يتصل بيك من السعودية يقولك على السعر تمام، وشوفه لو عايز تشيل حاجة م الشقة..؟

- تمام يا بيه، بس هتوحشنا كثير يا بيه والله المكان ما هيقاله طعم غيرك ولا من غير «سيسار».

لا سيزار هيستنى هنا، إطلع هات الشنط بتاعتي اللي قدام الباب وتمم علي الباب وادي المفتاح للحاج.

هزعل أوي الحاج والله.

ارهم نفسك حلفانات فشك!، وعموماً شكراً لكلامك الحلو، طبعا أنا عارف إن سيزار هيبقي في مسؤوليتك، صح؟

قالها باهتمام لخضر الذي لا يزال يتسم كاشفاً الستار عن كل أسنانه، يوسف يده في جيبه مخرجاً أكثر من 200 جنيه وأردف:

خد صحيح، هاتلة أكل، وأنا هبعثك أول كل شهر فلوس تجيبه أقل من عند عم صبحي، هاتله الشوية بتوع كل مره، إشتري كل يومين لاله.. وقول لحازم اللي ساكن جنبي يبقى يجيبه بواقي الأكل بدل ما هتأجرها.

واه.. وليه حازم يا بيه وانا موجود؟

مشان سيزار هيبقي ملك حازم يا خضر.

ليه هو انت مش راجع ثاني بعون الله يا بيه؟

مش متأكد.

لا مؤاخذه يا بيه، أنا عارف انت بتحب سيزار جد إيه- لا مؤاخذه يعني في السؤال- هو حضرتك ما هتاخدوش معاك ليه؟

سكت يوسف بعدما شرد لثوان ثم أضاف بوجه لم يخف كثيراً من الغلي:



- السفيرة اللي أنا وايحها ماينفعش يكون فيها حد غيري.

قالها محرّكاً أصابعه بسلاسة وتدلّيل فوق رقبة سيزار الذي حاول  
لعقه باستماتة، لم تمر الدقيقة حتى نزل حازم في صمته المعهود  
للسوبر ماركت القريب من البيت، ناداه صوت يعرفه جيّداً، صوت فادم  
من حديقة العمارة الضيقة، تحدث له يوسف لدقائق، ابتسم و  
البريء للمرة الأولى رغمًا عن الكدمات التي بدأت تندثر تدريجيًا، نزل  
على ركبتيه متجاهلاً بنطاله الذي لطخه الطين، ضم صديقه الجديد، أو  
بمعنى آخر... صديقه الوحيد.

أقسم على حمايته..

و كان عنيتها.



## (18)

أشار ذلك الشاب النحيف ذو الشعر الناعم والعينين المحاصرتين  
بالسواد لسيارة تاكسي القاهرة رفضت المثل لرغباته، ذلك أملًا في  
الوصول لبيته سريعًا محاولًا اللحاق بأصدقائه القدامى ليبدأ يومه  
المعتاد، فلديه جيب معتمر لأول مرة منذ فترة ورأس مشتاق لكل أنواع  
القهف، رخيصه قبل ثمينه، يفكر في أقرص الترامادول المترافضة فوق  
الماجات البيرة الباردة، يفكر في إحدى ساقطاته المدمنات وهي تكافئه  
على توفير الكيف بليلة حارة طويلة، يشير للسيارات في حلق ولكن  
لا جديد، تمر السيارات من أمامه كأنها لا تراه، أطلق سبابه ولعن جميع  
الأهوان بحق بالغ، أشار لسيارة أخرى ذات إضاءة شديدة، استقرت  
أمامه لتصدمه المفاجأة، فهي لم تكن بسيارة من التي يمكن استئجارها،  
بل ملاكي فاخرة حمراء اللون وبداخلها فتاة.. أشبه بجنية بحر جميلة،  
بماسك شعرها الأحمر خلف رأسها بقلم رقيق ازدادت قيمته السوقية  
قائمًا، قلم قد ينصب عليه مزاد في موقع «أمازون» يومًا ما، شعر أشبه  
بالسلة الذهب المشتعلة، ينبعث من جلدها الأبيض الثلجي رائحة عطر  
استطاع كسر حاجز الزجاج والوصول لرتبته المتفحمتين، رسمت ملامح  
«هها» الدقيقة ببراءة شديدة، إلا من عينين واسعتين يغلفهما كحل شديد  
وفرهما ظل داكن زادهما جاذبية وغموض، نظرت إليه مبتسمة وضغطت

ولا بهمك، بصي! هسهلهالك.. أول يمين لأ.. ثاني يمين، بعدين  
للات تقاطعات، اللي على إيدك الشمال خشبي فيه.. بعدين.

أو عدني إنك مش هتخليني أندم لو ركبت معايا؟

فالتها ليتسم نصف ابتسامة حملت الكثير بعدما غمزت السنارة  
بعيد كبير.

أنا عندي أخت بنت، يا..

رويانا.

وأنا ولید..

لم اقرب ليسلم عليها بيده ليضيف بعض الطمأنينة، ضغطت على  
زر الغفل المركزي لتفتتح أبواب السيارة وغمًا عنها، ابتسم قائلاً:

أعتبر ده افضل؟

اللي تشوفة بقى!

فالتها رافعة حاجبها الأيسر في حين ابتهج وجه ولید كثيرًا، ثم  
لقد لدخل السيارة وألقى دعابة ثم تجرع قليلًا من عطرها المنتشر في  
الأرجاء، ضحكت بعدها الجميلة النათية وانطلقت السيارة.

ون الهاتف بإزعاج مرتعشًا على تابلوه السيارة الميتسوبيشي، موقفًا  
بعاد من غفوته ليطلق سحبة طويلة من منخاره، ملحًا إياها بطلب من  
مؤمن بتغير تلك النغمة الأجنبية الصاخبة، عاد مرة أخرى لغفوته في حين  
ظل يوسف شاردًا يراقب الشارع في صمت، التقط مؤمن هاتفه ونظر  
بعين للرقم ثم ضغط على زر الإجابة:

على زر بجانبها لينفتح الزجاج الداكن بسلاسة، وضعت خصلة شاردا  
بأنامله الرقيقة خلف أذنها اليسري وقالت بركة شديدة:

- أنا شكلي تهت.. ماتعرفش أروح (الكوريه) إزاي؟

ابتسم ولید ابتسامة أسد جائع أيقظه صوت غزالة حادت عن قلعها  
ثم أضاف بثقة محترف:

- ده حوار صعب أوي، هتعرفني تحفظي الاتجاهات كويس؟

- هحاول.

قالتها مبتسمة في براءة.

- بصي! هتفضلي ماشية عطلول زي ما انتي كده أول يمين لأ، ثاني يمين  
أه، بعدين هتمشي هتلاقي ثلاث تقاطعات، هتاخدي آخر تقاطع، بعدين

هتلاقي بنزينة كالتكس على إيدك اليمين، من جنبها وتكسري...

- يا خبير، أنا كده تهت أكثر..

قاطعته بصوت متوتر.

- أنا مش عارف أقولك إيه والله، الدنيا ليل وأنا نفسي أساعدك بصر  
أنا أصلًا رايح «القوريه» على فكرة، بيتي هناك.

- بجد؟.. بس!.. مممم.

- بصي! أنا محامي على فكرة وبشتغل في مكتب محاماة بتاع الأستاذ  
حمدي الأنصاري، ماتخافيش يعني أنا ابن ناس مش واحد م الشارع

- أنا ماقولتش حاجة بس..

- إيه يا بني؟ أنا هوصل يوسف مشوار كده، لا، إيه؟! إمتى وإزاي حصل النهارده! ممم.. طيب أنا عايز أشوف الكلام ده، يعني إيه عنده حفلة؟ يعني إيه يعني؟! ماليش فيه.. يجي لحد عندك، فين الحفلة دي؟ عارفه النادي ده، طيب خلاص مش قضية أنا هنا، أه هروح مافيش وقت.. لا طبعا، ماشي، لا إقفل انت وأنا هكلمك لما أقالده سلام.

- في إيه؟

تساءل معاذ الذي مال بوجهه النائم ناحية مؤمن الذي غير اتجاه سيره العربية بعدما أخذه شروده لبعيد.

- إيه؟.. لا ده «سكانيا» بيكلمني.. المخرج بتاع البرنامج لقي صور «الارض».. في ال Location.

- صورة إيه؟

قالها معاذ متثابرا.

- صورة زي اللي معانا، بس يقول فيهم حاجة غريبة.

- حاجة غريبة إزاي.

- معاذ، إرحم أمي..! هو أنا لسه شوفت حاجه.. إصبر إحنا رايحينه أه.

- يا عم خلاص مش عايز أعرف منك حاجة، أنا عايز أروح.

هروح نادي الروتاري وبعدين هروحك، في حفلة تكريم ليارا قاسم وهو فيها، لازم نشوف الصورة ونهزه.. أهو يمكن، إن شالله حتى أشده ليله ولا ليلتين.

هانهزه إزاي؟ هو يعرف إيه أصلا عن الحوار غير إنه استضاف يوسف؟

يقول إن كان في حد في ال «Location» ماحدش يعرف مين هو.

هو مخرج.. ممكن يكون عنده مهارة رسم المنيو سكريبت.. لو افكر شكله ممكن نرسمه.

قالها يوسف كأن الفكرة قد لمعت أمام عينه في الفراغ.

«افكرتك نايم!»

علق ملتفتا ليجد عينين مفتوحتين عن آخرهما كعيني قط بري في «اللام منتصف الليل».

«افكرتك استسلمت!»

قالها محاولا الابتسام.

بالمنااسبة جاكين كلمتي في التليفون وانت في الشقة وكانت عايزة لغولي حاجه.. اتصلت بيها بعد كده عرفت إنها وصلت لحاجة مهمة.

«اهرنني!»

هو مش شخص واحد.

همم.. عارف.

- عرفت إزاي؟

- في الصورة اللي صورها في الاستوديو، حصل انعكاس جزئي لصور  
هو وحد واقف جنبه في الإزاز.

- واضح إنك عارف حاجات كثير.

- معلومات مشوطة.. مش متناسقة..

- الترجمة بقي؟!

قالها معاذ.

- يعني معطيات كثير.. بس مش كفاية إنها تمنعني من الموت.. معاذ  
«داتا» أكثر.

- مافيش موت يا يوسف.. مافيش موت.

أضافها مؤمن محدقًا في طريقه بتحد.

حرك بعدها يوسف رأسه إيجابًا فأغرا فاه وعينيه كمسافر متجهد  
يجاهد ليبقى مستيقظًا فوق حطام تيتانك، مسافر قال له صديقه كاذبًا إن  
المدد قادم لا محالة.

هرب الثلاثة إلى الصمت حتى اقتربوا من مكان النادي، عند البوابة  
ألقاها مؤمن في طريقه للداخل:

- مباحث يابني.

سمعها الحارس لتعود يده تلقائيًا بجانبه مرتعشة بعدما مدها ليمس  
مروهم، خاصة بعدما لمح المسدس الذي يزين الجينز الداكن، في حين

أبوهم لينظر مؤمن ناحيته من الأساس، بل شق طريقه للداخل ومن  
عاده يوسف.

على عارفة أقول إيه طبعا غير إني فرحانة جدًا بوجودي معاكم هنا في  
الروثاري، واسمحولي أهدي التكريم المميز ده لكل اللي وقف جنبني،  
بداية من طاقم العمل ونهاية بالجمهور اللي هو السبب في نجاحي  
بعدي رينا، اسم يارا قاسم مش هيكون ليه قيمة أدبية أو إعلامية من غير  
مشاهدتكم واهتمامكم، وكمان نقدكم ليه وتقديركم، شكرًا من كل  
لبي.

فالتها وازدهر تصفيق الحضور الحار في تلك القاعة المغلقة، ثم  
لمحت شخصين على باب القاعة يختلفان كثيرًا عن الحضور، يمسح  
أحدهم القاعة بعينه الحادتين باحثًا عن شيء ما، في حين اكتفى الآخر  
بإغراق راحته في جيب معطفه العميق، لم تمر ثوانٍ حتى وجد الباحث  
هالته حينما قبض بيده على معصم أحد الجارسونات ذي الجسد النحيل  
وهمس في أذنه لتتسع عيناه كثيرًا في دهشة، هز رأسه في خضوع وكان  
المتفحص ما قد ألقى عليه تعويذة، وضع الصينية التي في يده سريعًا وذهب  
مباشر لرجل ذي جسد غير متناسق، همس في أذنه ليقوم من مكانه وينظر  
ناحية باب القاعة بقليل من الذعر، ترجل بعدها مسرعًا تجاه مؤمن الذي  
انظر بكثير من الفتور، غادر كلاهما للخارج في حين ظل يوسف وحيدًا  
يشاهد مراسم تكريم أميرته المحاربة، تقابلت عيناهما أكثر من مرة خلال  
التكريم، في المرة الأولى كادت تسقط منها الهدية التذكارية التي تشبه

«أطباق خان الخليلي» المزخرفة، في الثانية رمقته بعينيها الداكنة ثم ساكنًا كالتمثال، شاحبًا كالشيخ، وسيما كعادته.

و في الثالثة، اختفى، تلاشى كالدخان، حاولت البحث عنه وفهم ابتسامها للصور الفوتوغرافية المفتعلة وعبارات المديح الملونة لكنها لم تجده، حاولت مجددًا ووصلت إليه، شاهدته يقف وحيدًا، يستنشق هواء المساحات الخضراء المحدودة، ويناجي الزهور الزاهية، واضعًا يده بجانبه كالجندي تلك المرة، مغلقًا قبضتي قليلًا، شاهدت يارا كل هذا من خلف زجاج القاعة المبهرة، شعرت أن شيئًا ما يحدث، انتهت مما تفعل سريعًا وأنهت سبل الفلاشات مع امرأة سمينية كخنزير بري ناصح، ومتبرجة كال«جوكر»، و.. استأذنت الحضور وخرجت من أجله.

- هي دي كل الصور؟

قالها مؤمن متفحصًا بضعة صور فوتوغرافية أخرجها من ظرف أصفر مماثل للذي حصل عليه يوسف، كانت الصور مماثلة للتي شاهدها في منزل يوسف لدرجة كبيرة للغاية، حتى ألوانها كانت بالأبيض والأسود، لقد التقط صورًا ليوسف ويارا من زوايا كثيرة، حتى المخرج لم يسلم من التصوير.. و صورة أخرى لخنجره المميز الذي أصبح توقيع الشخص، إلا أن صورة واحدة كانت مختلفة.. كان هو من بها.. القاتل.

كانت صورة غريبة لحد كبير، يقف فيها ذلك الشخص الغامض معطًا ظهره للكاميرا.. وأمامه الزجاج القائم الخاص بالاستوديو ويدخله فريق العمل كلٌ مشغل بما يفعل.

كل الصور.

أعادها سمير محررًا رأسه إيجابًا.

انت قولت إنك شوقته.. وعارف تفاصيل وشه.

معظم الناس افتكروه في إضاعة.

أنا سمعت إنك موهوب في حوار الإعلانات.. انت اللي كتبت الإعلان بنوع الشيبسي الجديد ده صح؟

قالها مؤمن مبتسمًا محررًا رأسه إيجابًا بترحاب لم يعتاده من قبل.

أه.. خد مني مجهود بصراحة خصوصًا الإسكريبت.. إيه رأيك فيه يا باشا؟

قالها بعدما أصبح وجهه أكثر تفاؤلاً.

أخرج مؤمن من جيب جاكيت البدلة مفكرة متوسطة الحجم وقلم رصاص ودسهم في يد المخرج المنتشي، وقالها بعدما عادت ملامح وجهه للجمود فجأة:

ارسمه!

أرسم.. مين؟!

نحن!.. هترسم مين؟!

بس أنا مش فاكرك كل تفاصيل وشه، و.. و.. رسمي مش حلو.

تحب أساعدك؟! أنا ممكن أخليك فان جوخ.

قالها مؤمن بوجه غليظ رمى في قلب سمير الرعب ليتردد قلبها  
ويمسك بالمفكرة البيضاء والقلم برعشة ملحوظة.

- تعجبني!

قالها مؤمن محرّكاً رأسه برضى، وأشعل سيجارة.

في نفس اللحظة أمام قاعة التكريم بالنادي:

- بتكره الزحمة؟

قالتها ليوسف الشارد مع الحديقة الجميلة بمفرده في طقس شتوي  
قارس، طقس غير اعتيادي جعل أنفاس يوسف تكتسي باللون الأبيض،  
التفت بوجهه ناحية الصوت ليجدها بجانبه.. على بعد خطوة منه.. حرراً  
رأسه موافقاً ثم هرب بنظرة مجدداً للجنة الملونة الماكثة أمامه كأنه لم يره  
شيئاً، أضافت بعد بضعة ثوانٍ صامتة:

- في سبب معين؟

- تفاصيل كثير في مكان واحد.

- وانت بتكره كثر التفاصيل؟

- بكرهها عشان بلا حظها.. عقلي يحلل المعطيات من غير اذني.

قالها بطريقته المميزة كأنه يحارب ليرسم الكلمات نتيجة لشعوره  
بالإجهاض، ثم تفحص وجهها بعيني الهادتين وعاد مجدداً لحديثه.

تابعت يارا:

- أعرف ناس كثير بتكره الزحمة.. أنا عمري ما كنت منهم.

أم يرد يوسف وتابع تأمله بهدوء.

أضافت:

يمكن عشان كده حسيت إنك متضايق في الاستوديو.. صح؟

نظر إليها يوسف مجدداً ثم حصل على نفس عميق أخرجه من فمه  
الحسنى كالدخان مردفاً:

الجو سقعة هنا.. كان لازم تجيبي معاك جاكيت.

أضافت بصوت خافت:

بعد شوية هتعود.. على الجو.. انت كمان.. لازم تتعود على الزحمة.  
صمتت لثانية وأردفت محرّكة يديها حول ذراعيها باحثة عن بعض  
الدفء:

الواحد ممكن يعود نفسه على أي حاجة مع الوقت، زمان كنت بكره  
التكريم والصور والمعجبين والنحو اللي أنا عايشة فيه، دلوقتي بقى  
جزء من حياتي، والمشكلة انتهت.

أردفت:

أي حاجة بتنتهي بالعود والوقت، وزى مايقولوا ضريبة الشهرة  
وال....

في حاجات ما بتنتهش بالوقت!

قالها مقاطعاً بشيء من الثورة.. ثم صمت لثانيتين وأضاف مفسراً  
بنفس الحدة:

ماتخيلتش إن في بلد زي مصر بيتكرم حد بيعارض الحكومة.

قالها من دون أن يجيب عن سؤالها.

يعارض الحكومة؟! انت فعلاً مصدق إن أنا معارضة؟ أنا زي زي  
كمال الشاذلي بالظبط يا يوسف، بطلع كل أسبوعين أخط كلمتين  
في الحكومة وأمجد في الباشا من تحت لتحت، ماتصدقش كل اللي  
بنشوفه.

بس على الأقل معارضة.

أنا معارضة فاسدة، معارضة كدابة، زي اللي بيصنع دوا رخيص  
وبوزعه على الغلابة وهو عارف انه مش هيفيدهم، والناس يشتري  
مشان بتعلم إنها تخف، أنا مش فرحانه بالجائزة دي.. مش فرحانه  
بأي حاجة.

شكسبير قال إن الحياة مسرحية.. وكل واحد بيختار دوره.

شرح محدداً في وجهها مقلِّباً نظره بين عينيها وملامحها.

وأنت.. اخترت دورك؟

.. هراختارني.

قالها بصوت خافت ثم أضاف:

أنا لازم أمشي.. لازم أسيب القاهرة دلوقتي.

هم بالرحيل لكن يدها الناعمة أمسكت بكف يده ليتوقف للحظة  
لشيف بنبرة بها كثير من الحزن.

- الأمراض - الأمراض مثلاً - مش كلها بتنتهي بالوقت، المشاكل كلها  
كلها بتنتهي بالوقت. قالها راقماً إياها بنظرة مجهدة.

- عندك حق.

ردت بمزيج من الدهشة والصدمة غارقة في عينيها كأنها لم تلاحظها  
من قبل، أشاح بنظره مجدداً إلى الحديقة لتفعل مثله وتحاول فهم  
الموضوع.

- مريح للعين المنظر هنا.

- رائع.

همس بها ويخار الماء يخرج من فمه.

- انت مش جاي هنا عشان الحفلة..؟

هز رأسه موافقاً وبلغ قليلاً من ريقه لتتابع يارا مجدداً:

- حاجة مهمة؟

- في الأول كانت مهمة.

أخرج زفيراً عميقاً أبيض اللون متابعاً دراسته العميقة للحديقة  
الصغيرة.

- أنا كنت هاخذ رقمك من راندا عشان أعتزلوك.. عشان...

- مبروك الجائزة!

صمتت يارا للحظة ثم أجابت:

- من قلبك؟

- أنا آسفة! كنت صعبة يوم التصوير، مش عارفة مالي اليومين دول،

هز رأسه متفهمًا من دون أن ينطق بأي رد، أضافت مجددًا:

- يوسف! سمير قالي على الصور، أنا مش عارفة اللي بيحصل هيتني

على إيه، بس أرجوك.. خلي بالك من نفسك.

تأمل عينيها الواسعتين، ومرت لحظة أيقنت فيها أن يده لا تزال معللة بيدها، حررت راحته من يدها وتركته يذهب بعيدًا، ثم تمنّت لو أنه لم يذهب أبدًا.

\* \* \*

## (19)

تعالّت الضحكات وسط سحب الدخان وصخب موسيقى «Trance»، تلاقت الأيدي على طريقة «كفك» وتابع قص حكاياته العارضة بكثير من الإضافات المثيرّة، سيطرت كاريزما الإلقاء الخاصة به وخفة دمه التي لا تخلو من «الأباحة» على الحسنة المراهقة ذات الشعر الأحمر، فتتها حديثه المعسول وطريقته في الإلقاء، فضحها اهتمامها بكلامه الشيق وقصصه. التي لا تنتهي، وصلنا لمنتصف الطريق حينما قال:

«ي ما انتي كده علطول وعند الإشارة يمين.

ثم استطرد:

«بس يا ستي، ويعدين خدت اللي فيه (النسيب) ومشيت.

قالها بلغته المتدنية.

يعني إيه مش فاهمة؟ خدت فلوس يعني؟

فلوس إيه بس يا بتي! انت مش لاضمة معايا ليه بس؟! ظبنتنا الأداء يعني.

أوووو!. وليد! انت مجرم على فكرة.

قالتها بصدمة ممزوجة بضحكة مكتومة.



وأشعلت سيجارة رفيعة مستوردة، ثم أطلقت سحابة صغيرة من  
شفتيها الحمراءتين، ليتابع وليد:

- ليكي في البني؟

- لا أنا كده هحبك.

- حبيب قلبي، سيبيلي نفسك انتي بس.

- لا يا عم أسيلك نفسي ليه، انت طلعت يتخاف منك.

ردت مازحة.

- ليه بس يا بنتي الكلام ده؟ داحنا خلاص بقينا فرد.

ثم حاول الاقتراب من صديقته التي بدت سهلة المنال.

- بالسرعة دي؟

- إيه عندك مانع؟

قالها ضارباً بيده على مؤخرة عنقه محاولاً الفتك بناموسة مملوكة  
فرصته ولم تراع حميمية الموقف.

- لا يعني، بس إحنا في الشارع.

- أم أي حد يا بنتي، انت خوافة ليه؟ الدنيا ليل أصلاً.

Ok، أنا موافقة بس بشرط.

- أمري!

قالها محاولاً تجميع شتاته بعدما شعر ببعض «الزغلة» الغريبة في  
عينه.

- هسألك.. ولو جاوبت عليه، نعمل كل اللي انت عايزه.

أساسي، أسألني!

وه محاولاً التركيز مع أضواء كشافات السيارات المسرعة، والتي  
بدأت تتحول لخطوط سير يالية مضيئة، ثم عاد برأسه للخلف قليلاً  
ليستد على مسند مقعده مبتعداً عنها مجدداً.

نعمل إيه لو دي آخر دقيقة في حياتك؟

آخر دقيقة ف.. حياتي؟!

قالها متعرقاً محاولاً التركيز فيما تقول، مقاوماً رغبة كبيرة في السقوط  
هشاً عليه.

جاوب بقى عشان تكسب!

بدأ وليد في أسوأ حالاته مستنداً بيده على ذراع الباب مانعاً نفسه  
من السقوط، يقاوم شيئاً ما أقوى منه، لكنه لم يتجاهل ذلك الزفير الذي  
الارب من أذنه اليسرى رويداً ثم رويداً.. ليأتيه الجواب بصوت هامس،  
يحدث يحمل في طياته كثيراً من معاني الخوف.

مش هتلق تعمل حاجة.

قالها الصوت هامساً.

لم يلتفت وليد لينظر إلى مصدر الصوت، بل نظر إلى الفتاة التي  
كانت ملامحها في عينيه الناعستين، أصبح جفنه ثقيلًا جداً غير قادر على  
الارتفاع مجدداً كلما أطبق، كأنما علق به حوت يزن طناً ونصفاً، دفعت  
رأسه يد عنيفة جاءت من الخلف ليصطدم بتابلوه السيارة الذي لم يرحم

خوار قواه، كانت دفعة من شخص ما يجلس في المقعد الخلفي للسيارة  
شخص ما جلس مستريحاً بعدما حصل على ما يريد.

نظرت الفاتنة في المرأة مبتسمة بسخرية، لترى عينيه القاتمتين، عينا  
تعرفهما جيداً.

ضغط حاتم الأسود على زر في قلم يشبه أقلام تحليل السكر ليعيد  
صوتاً أوتوماتيكياً..  
و تابعت القيادة.

\* \* \*

(20)

الإسكندرية - بعدها يوم

مؤكد انه هنا؟

قالها يوسف مناولاً سائق تاكسي متجهًم الوجه ورقة فئة العشرين  
فيها، تفحصها الرجل متأقفاً ثم دسها في جيب قميصه وبصق بصقة  
بعيدة المدى مجيئاً:

أول يمين.

كانت الرياح قوية للغاية في عروس المتوسط، أطبق يوسف معطفه  
الرمادي على صدره ورمق ساعته التي أشارت لتمام التاسعة مساءً، لقد  
رفض أن يستريح بعد ما ألقاه أصدقائه هنا وقرر أن يبدأ العمل في أسرع  
وقت، كانت المرة الأولى التي تخطو فيها قدماه ميامي، سلك طريقه في  
أول يمين قابله، كان أشبه بزقاق ضيق.. في نهايته وجد لافتة قديمة كتب  
عليها كلمة كان يبحث عنها: «بابا ستراو».

احتل المتجر الدور الأرضي بأكمله، مندثراً تحت مبنى يبدو وكأن  
التاريخ قد فقهه في حقبة الستينيات، نزل من فوق سلم خشبي مدمر نسيباً  
«نبي وصل، دفع باباً خشبياً قديماً كتب عليه بالأخضر «Open»، قذفه  
أحد الأطفال المستكين على ناصية المبنى المقابل بكلمة فهم مغزاها:

«هتروح النار يله!»، ثم تكفل أحد أصدقائه من المراهقين بالركض وراءه، تردد يوسف لثانيتين وحسم أمره بالدخول.

أصدر الباب صوتًا موسيقيًا مزعجًا كان سببه لعبة معدنية معلقة في سقف المتجر، وقفت سيدة نحيفة قصيرة القامة ترتدي تنورة فارسية عتيبة، تتسلق عقدها السابع بصعوبة، بهت شعرها القصير بين اللولبين الأبيض والأصفر، أشارت مودعة رجلًا قصيرًا وامرأة متبرجة فارعة الطول تعلقت بيده، وبيده الأخرى شنطة سوداء بها شيء ما قد أتى من أجله:

- مع السلامة رامي بيه!

قالتها بصوت شبه منبوح متفحصة الثنائي حتى غادرا متجاهلة يوسف تمامًا، بعد خروجهما بثانية فتح ذلك الطفل المشاغب باب المتجر صانعًا بوجهه وجهًا ساخرًا وتقابلت عيناه بشكل يثير الضحك، أصدر صوتًا ناعمًا ثم صفع الباب فجأة، صنعت الصفعة ضجيجًا كاد يكسر زجاج الواجهة، ركضت وراءه حتى فتحت الباب صارخة:

- أدي اللي عايزين «سياحة» واستثمار في بلد... والله أطلب بوليس ويرميك في السجن مع الحرامي!

هدأت ثورتها بعد ثانيتين وعادت ليوسف محاولة رسم ابتسامة على وجهها المجعد متسائلة:

- أأمرنى بابا!

- عايز أتكلم مع مستر إستراتو.

هو يعرفك؟

لا.. بس أنا أعرفه.

لواني بابا!

كان المكان أشبه بمغارة، إنارة خافتة وثلاجات وأرفف، تشتعل بكل أنواع الخمور والكنوس، وبضع الأنتيكات التي لا يعلم المرء مصدرها أو ثمنها، بالإضافة لثعلبين محنطين ورأس غزال بري، زيت قرونة «الغلا» يحكي قصة زوجين قصدا أهرامات الجيزة عندما كانت الصور الفوتوغرافية لونيون فقط.

نفحص يوسف المكان بنظرة متأثرًا برائحة «السبيروتو» المختلطة ببعض العطور الغريبة والرطوبة المستأصلة، باغته صوتها المنبوح:

تعال بابا!

قالتها من غرفة في نهاية المتجر ناحية اليمين.

دخل يوسف الغرفة ذات الطابع المميز والإضاءة الخافتة المعتادة، ثلاث من الكتب والتحف صغيرها وكبيرها، وبخور لا يعلم مصدره، لكنه يقن أنه قد ترك بضعة رواسب بين خملات رثيته منذ أن وطئت قدماه المتجر.

استريح يا حبيبي!

قالتها رجل في نهاية العقد السابع بعريية أكثر صلابة من السيدة، وحجم الجثة متوسط الطول، يجلس فوق كرسي جلدي كبير الحجم

وأمامه ساعة قديمة يصلحها بمجهر بدائي برز من عينه اليمنى كالمنظار  
يحارب سمكة مفرطة وتتدلى شحمة أذنيه بلونها الوردي فوق رقبته  
البیضاء الناصعة، أصلع ويمتلك عينين زرقاوتين صغيرتين نسبياً.

استراح يوسف في كرسي أمام مكتبه الخشبي القديم وتأمل إصلاحه  
للساعة القديمة ذات السلسلة الذهبية، سرح الرجل في ساعته لبعدها  
ثوان ثم قالها بعدما فرغ:

- هتأخذ وقت كثير، أصل أنا عارف الساعات دي، صعبة بنت كلسها...  
تقرفك!

- شكلها غالية عليك.

- آه... كانت بتاعة والدي، تمنها يعدي السبعين ألف جنيه مستريح، فيها  
ترس بايظ مش لاقى زيه.

قالها الرجل بلهجة يونانية مميزة.

- صعب تلاقيه في مصر.

- وإيه في مصر سهل يا حبيبي؟!

تجرع قليلاً من كأس على يساره ثم أردف:

- ماريا قالت إنك تعرفني.. مين حضرتك؟

- اسمي يوسف.. وسمعت عنك كثير.

- أأمرني يا يوسف!

- عايز منك خدمة.. حاجة أوريجينال.

علينا من أول 8٪ وانت طالع.

قالها متابِعاً العمل في ساعته مجدداً

لا، اللي عايزه أقوى من كده.

يقف أكيد عايز ويسكي يا بيه..

قالها بكسر الياء كثيراً.

لا... أصعب شوية.

أخرج يوسف صورتين فوتغرافيتين من جيب معطفه وضعهما أمام  
الرجل، والذي رمقهما بشغف جعله يترك الساعة أمامه بحركة بطيئة،  
رمق يوسف بصدمة ثم اتجه بنظره لزوجته الصامته قائلاً:

Ena lepto Mary!

لم تنطق السيدة بكلمة ولكنها رحلت ممتعضة بعض الشيء،  
أسك الرجل بالصورتين وتفحصهما بالعدسة نفسها التي دسها في  
جيبه عينه الكبير، مرت دقيقتان لم يتفوه فيهما بكلمة واحدة سوى  
بضع كلمات باليونانية تتمم بها لنفسه، ترك الصورتين وأخرج من عينيه  
العدسة بأصابع مرتعشة، رمق يوسف مجدداً بنظرة ذعر، تجرع بقية كأسه  
على مرة واحدة، ثم خاطب يوسف بكثير من الريبة مردفاً:

انت مين؟

- أنا بشتغل صحفي.. ودي حادثة حصلت في القاهرة.

- و أنا مالي بالكلام ده؟ هنا بنبيع خمرة وتحف يا بيه، الصور دي تباعا للبوليس.

- في حاجة شدتك في الصورة، أنا متأكد..

قالها يوسف متحفظًا بعينين ثابتتين.

- ولو.. برده مش هقدر أساعدك، لأن ده مش شغلي.. فيه ناس تالاه ممكن تساعدك.

- ماحدش في الطب الشرعي يعرف حاجة عن الخنجر ده، أنا عارف إن ماحدش هيساعدني غيرك.

قالها ثم دس يده في جيبه ليخرج ورقتين فئة المائة ووضعهما على المكتب أمام العجوز اليوناني مضيقًا:

- دي مسألة حياة أو موت، أرجوك!

أشاح العجوز بنظره بعيدًا عن يوسف لثانيتين، ثم عاد بكرسيه للوراء وهم واقفًا، تحرك بصعوبة تجاه أرفف الكتب العتيقة التي تزين حوائط مكتبه، تحسس أحد كتبه القديمة وأخرجه ونفض عنه غبار الوقت.

فتح الكتاب العتيق ومرر إصبعه القصير فوق الفهرس، قلب في صفحته الصفراء حتى وصل لصفحة رُسم عليها شخص يقف فوق سفح هرم يشبه هرم سقارة، حوله تجمع بضعة أشخاص ساجدين في خشوع وأمامه شخص ما ملقى على ظهره وتحيطه كثير من الحبال، حبال ربطت بقسوة حول جسده الذي فقد أحد أهم أعضائه، قلبه، والذي حمله الرجل

أو الجسد الفارع بيده اليسرى، وفي يمينه خنجر كبير الحجم رُسم شيء على نصله.

أو نوكوم.. أنا كنت صح.

قالها الرجل مناوئًا يوسف الكتاب القديم ليتفحصه يوسف بحاجبين مضيقين.

أو نوكوم؟

أعادها يوسف متعجبًا.

أو قرئت عن حضارة المايا تعرفه، النوكوم خنجر بيستخدمه الراجل اللي انت شايفه في الفوتوجراف، فيه مؤرخين يقولوا على الراجل نفسه اللي بيثيل قلب الضحية نوكوم، كانوا بيضحوا بالبشر، بيثيلوا فلوبهم وهم صاحيين.

عرفت إزاي إنه...

شوف الصفحة اللي بعدها!

قالها الرجل ليوسف الذي وجد في الصفحة التي تليها صورة طبق الأصل لخنجر مماثل للذي حصل على صورة منه بهاتفه المحمول، لكن النقوش التي يحويها الخنجر في الكتاب كانت مكتملة عن تلك التي برز نصفها فقط من صدر ضحية المرح، تحت الخنجر وجد رسم يائي يوضح أطوال الخنجر الحجري وألوانه.

هيلوغريف المايا.. إزاي ماخدتش بالي؟!

قالها متمناً لنفسه ليرد عليه الرجل:

- هيلوغريف سيبشال، عمري ماغلط فيها.

!...pattern... تضحية ممنهجة.

تمتم بها يوسف لنفسه بعدما رفع عينيه عن الكتاب.

صب الرجل بعضاً من الشراب لنفسه وجلس مستريحاً كأنه ركب

لמائة متر حواجز وسأل يوسف:

- مين اللي بيقتل؟

- مش عارف.

قالها وصمت ثم أردف:

- بس معرف.

تجرع الرجل قليلاً مما صب وأشار بيده ليوسف مردفاً:

- واضح انك واثق في نفسك يا يوسف.. أوعى تكون مغرور.

- لسه بيني وبين الغرور مسافة، الحقيقة إن ده شغلي.. زي ما انت واللى

في شغلك بالظبط، وعارف اني هوصله لأني فعلاً هوصله.. السؤال

بالنسبالي هو: إمتى؟!

نكز الرجل كوبه الزجاجي مبتسماً وقال بنبرة إعجاب:

- بقالي كتير ما قابلتش حد عارف قيمة شغله للدرجادي.

أضاف يوسف مبرراً:

- كل راجل فوق جزيته ملك.

عاد الخواجة لساعته ويدا شاردًا لوهلة.. ثم تركها مجدداً بعدما

مررت زكري ما صمته الممتد، قرر أن يريح ظهره وبدأ بالكلام:

أنا كنت إيجيتولي جيست، مش بس كده.. كنت الأحسن والأذكى..

حيث هنا مصر مع ماري وأنا عندي 24 سنة، جيت عشان حلم.. أنا

كنت مجنون بملوك مصر، توت عنخ آمون.. خوفو.. كيوس.. و كل

يوم كنت بتأكد أكثر اني هلاقي الكنز اللي هيخليني ملك.. بس عارف

يا يوسف لقيت إيه؟!

قالها ثم مال بجسده قليلاً ليوسف مردفاً:

ما فيش ملك بيعيش مرتاح.

انزع مزيداً من الشراب ودس العملتين داخل الكتاب وناول إياه

ليوسف قائلاً باقتضاب:

ألهي خلتي بالك!

هز يوسف رأسه متفهماً، ثم أمسك بالكتاب..

نصاعد صوت المذيع المتألق يتحدث عن حادثة سير مروعة على

الطريق الدائري في القاهرة، ثم انتقل لحادث دموي آخر عندما أضاف:

من ناحية أخرى توجه اللواء عبد الجليل نصير رئيس مباحث العاصمة

وفريق عمل من النيابة، والطب الشرعي ورجال الشرطة لمنطقة

الحسين، حيث عثر بالصدفة على جثة لضحية مشوهة في إحدى

البنائات الآيلة للسقوط، وكان واضحاً من التحريات المبدئية أن

الرياح المتجمدة لتبعثر خصال شعره فوق عيتين مفتوحتين لا تعرفان  
بعض الإغلاق.

تفحص شنته ملقاة بجانبه ثم نظر عن يمينه ويساره ليتأكد أنه غير  
اراقب، بدت الرياح في أوج غضبها وقت الغروب.. لم يجرؤ أحد غيره  
على الاقتراب من الشاطئ نصف القطبي في هذا التوقيت من العام..  
أخرج من الشنطة سلاحه الفضي اللامع وقلبه قبل أن يتأكد من خشوه  
الكامل، سمع صوتاً قادمًا من داخل الشقة الساحلية المزخرفة.. صوتاً  
غير الصغير المسبب بالرياح، والموسيقى غير المتناغمة الناتجة من قطع  
المعدن المدلاة أمام الباب، والتي أخذ يلهو بها الهواء بداع أو من غير.

دخل بهدوء تتسحب قدماه الواقعتان ويبيده سلاحه مطأطئاً الرأس..  
أكد أن الأمر مجرد هاجس عندما لمع وجهه في المرأة صدفه.. وجه  
لحاحب لميت يشبهه كثيرًا.. بدا من الواضح خسارته لبضعة كيلوجرامات  
في وقت قياسي.. تفحص عظام ترقوته التي بدت أكثر بروزًا.. ثم قصد  
الشنطة بالخارج والتي دغدغتها رياح الصقيع، دفن سلاحه مجدداً في  
الشنطة واتجه لحائط بطولاته المؤلم، أمسك بقلمه الغليظ وخط شيئاً  
ما لم يعد يستطيع أن يحويه صدره.. ثم اتجه للخارج مجدداً حتى قصد  
أسناناً خشبياً يتتصف البحر الهائج.

ترك ملحوظته بجانب صورة من صحيفة بها أربع بلاطات مطلبات  
لون أحمر قاتم رسمت حولهم دائرة وعلامة استفهام.

«كان عنده فرصتين يقتلني!»

جريمة القتل حدثت بنفس طريقة جريمة المرح الشهيرة.. مما برز  
وجهه النظر القائلة باحتمال وجود قاتل متسلسل يقتل ضحاياه بنفس  
الطريقة البشعة.. من جانب المعمل الجنائي أفاد متحدث بالهاتف  
الوصول للجاني...

توقف عبد الرؤوف مجففاً يديه الملطختين بالوحل الداكن بفعله  
قماش لم تقل عن يديه استأخداً، فقد انتهى لثوه من صناعة بعض الأواني  
والتحف الفخارية المشوهة، هوايته التي لا يعلم لماذا تسيطر عليه بجانب  
هوايه النحت التي هي أفضل من ناحية الناتج النهائي.

أخرج اسم يوسف من هاتفه النقال وحصل على رشفة عميقة من  
خليط الشاي بالتعناع، ليرن الهاتف بدون رد..

في مكان أكثر هدوءاً ورومانسية توقف هاتف عن الرنين بعد معاناة  
استمرت لعشر دقائق كاملة، انتهت برسالة كتب فيها «أنا كلمت مؤمن  
وعرفت إنك هنا.. لازم أشوفك.. رؤوف».

كان المكان شاليه مزخرفاً يجتاحه الهدوء كالمرض في منطقة  
بينانكي الشهيرة، غطى الحوايط اللونين الأزرق والأبيض المزركش  
بصور السمك الكرتوني الممل، ومراة معلقة على حائط زينه عشرات  
من صفحات الجرائد وصور رسمت عليها دوائر قاتمة، وملاحظات  
مكتوبة بقلم «ماركر» أزرق اللون تنتهي بعلامات استفهام، وباب مفتوح  
جلس أمامه يوسف يواجه أمواج البحر المتكررة، تصدم وجهه أسهم

تلك كانت خاطرته..

اقتحمت الرياح المكان حتى قاربت على اقتلاع الصور من فوق الحائط... وأغلق الباب نفسه.

\* \* \*

(21)

يا بني المنطقة دي كلها يا بني!

قالها عبد الجليل مرتكزا أمام مبنى قديم مشيرًا بجهازه اللاسلكي لباحة شارع مكتظ بالمارة في منتصف حي الحسين، انتبه ضابط وبضعة عساكر ومخبران بائسان لاتجاه يد سيدهم كبضعة دلافين تنتظر إشارة خروجها لتقفز في الهواء، انطلقوا سريعًا ليعيدوا المارة المتجمهرين وبضعة صحفيين جذبتهم رائحة الموت، لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا بعد، نصبوا بضعة حواجز حديدية على بعد عشرة أمتار من مدخل عقار كتيب بدا كمركز للأحداث، حواجز قديمة استقر وراءها بضعة عساكر يتشجعهم السواد بدا عليهم الإعياء والحزم، رآهم ذلك الغلغل ذو العينين البائستين في طريقهم نحوه، قمحي اللون له عينان مضرورتان وشعر أشقر غير مهذب، كان في التاسعة من عمره.. لكنه املك عينين لرجل قد جاوز الخمسين عامًا منذ أمد، طفل يرتدي لباس الغفر والذل بالرغم من ملامحه القوقازية الجذابة.

حاول البائس تفادي الصدام معهم عندما رآهم يتقدمون بكل ثقة الجنود سليمان يدبون الأرض فوق النمل المرتعد، ملاء الخوف على رأس ماله البسيط المكون من تماثيل فرعونية رخيصة وأساور واردة العينين وبضعة ولاعات مزخرفة تجاورها علب سجائر لامعة، لملمهم



أوقف الجر فجأة من جانب العسكري الغاضب وضعفت قبضته  
«ما سمع صوتاً عالياً به كثير من الحزم والغضب:

«عمل إيه يا بني آدم انت؟!

استوقفه مؤمن -الذي صاح بها- مرتدياً نظارته السوداء القاتمة  
«أنا كنت جلدنياً قاتماً، تلعم العسكري قليلاً ورد بصوت خافت:

«أنا بنفسي المكان زي ما جال عجيليل باشا يا مؤمن بيه! جام الواد ده  
سأهلي الدين.

«ميش عارف تمشي أمورك مع عيل صغير؟! انت إيه لازمك انت؟!  
سبيله!

قالها بنفس الصوت الهجومي الغاضب ليفلته العسكري الغاضب  
«معلماً بضع الكلمات تعبر عن حقه، ثم توجه مؤمن بنظره ناحية الطفل  
بعدما خلع نظارته الشمسية مضيقاً:

«انت بقى راجل يا روح أمك؟! تسبيله الدين؟ عايز تتروق يله؟!

«يا باشا مالاكش دعوة بأمي بعد إذنك.

«تسبيله الدين ليه؟

«كسرلي الفرشة يا باشا من غير ما اعمله حاجة، كنت بشيل البضاعة  
ويقوله خلاص يا باشا ماشي، قام مكسر هالي بجزمته، بص يا باشا!

قالها مشيراً لرأس ماله المَهَان على جانب الطريق، تفحصه مؤمن  
بأنف ثم أضاف:

بدون ترتيب بأقصى سرعة ممكنة في «فاترينة العرض» الخشبية التي  
يحملها في كل مكان، طاح المجندان بغضب بالغ في الجميع، لا فرق  
ركلاتهم بين الباعة والمارة بشرط ألا يحملوا ملامح غير مصرية، أثار  
الطفل العجوز إلى عساكر الشرطة بيده اليسرى وهو يلملم بيده اليمنى  
بأقي ممتلكاته:

- تمام يا باشا! خلاص!

لم تعره الطلائع المتحفزة أي اهتمام، بل أكملت طريقها تضرب «أنا  
وتدفع هذا وتسب هذا إلى أن اقترب منه أحدهم راکلاً الفاترينة الصغيرة  
بحذائه الميري الأسود صائهاً بعدما «هوش» الآخرين:

- يلا!!! هتتحايل عليكوا ولا إيه!

رد الطفل البائس بعدما تحولت ملامحه البريئة لملامح نمر هائج  
- يا باشا ما خلاص يا باشا! ما قولنا ماشيين يلعن (..) أمك عالصبح!

- طاب تعالى يا بن الو (..)!

قالها العسكري ذو الطول الفارع جاذباً الطفل من ظهر ياقته جازاً إياه  
تجاه أصدقائه المشغولين بالدفع والنسب، وقع الطفل مرتين في الأرض  
مقاوماً يد العسكري العملاق محاولاً ضرب يده التي تساوي نظرياً حجم  
جمجمته ولكن بدون فائدة، صائهاً بكل حق:

- سيب القميص بقولك! عليه الحرام من ديني لو الفرشة اتسرقت لول  
في ميتين أم الحنة دي باللي فيها.. سيب ياه بقولك!

- روح لمها وتعالى! لو مشيت هخلي يومك اسود من الليادة الميري  
يلاروح!

- شعر الطفل ببعض الانتصار وهم بالركض ناحية بضاعته ليزيح عنها  
التراب، في حين توجه مؤمن بنظره ناحية العسكري بعدما هداه  
ملامحه قليلاً:

- إيه يا فرج؟! إفترا وخلص! ده حتة عيل صغير، دا انت كنت أحسن  
نفر عندنا.. حسدناك ولا إيه؟

- يا بيه والله كلمناهم 100 مرة، دول عيال ولاد ستين كلب جولوا  
الأدب ماتسمعش منهم.

- طاب روح انت يا فرج! وهدي أعصابك الله يصلح حالك المكان  
مرشق أجنب مش ناقصة فضايح.. لو حد صور صورة كده ولا كده..  
كلنا هنلبس اسود.

تأمل مؤمن المكان مطلقاً لعينيه الحادثتين العنان لدراسة كل التفاصيل  
المتاحة، أخرج حافظته في جيبه الخلفي لتظهر حافظته جلدية أخرى  
حول خصره تحتوي على مسدسه الميري، قاطعه صوت يعرفه لم يده  
غريباً عن مسامعه:

- شكراً يا باشا!

قالها الطفل واضعاً الفاترينة بين قدميه.

- إسمك إيه؟!

مهد.

ماالشمش حد ثاني يا سيد عشان مازعلكش.

فلك عليا يا باشا بس هو والله اللي...

مهما يعمل فيك.. حتى لو دبحك.. هات ولاعه!

أحسن ولاعه للباشا.

قالها بتحضر.

بكلام دي؟

نساءل مقلباً الولاة يميناً ويساراً متأملاً الصور الفرعونية المرسومة  
عليها، ثم أشعل بها سيجارة من العلبة التي أخرجها من جيبه.

- 5 جنيه، عشان الباشا باتنين بس.

كمان هتبقيش!

قالها مازحاً مطلقاً بعض الدخان في نشوة.

أخرج من جيبه ورقة فئة 10 جنيهات ووضعها في يده وهم بالرحيل  
حين قاطعه الطفل:

الباقى يا بيه!

أشار مؤمن بحركة معناها أن يضعهم في جيبه ثم أضاف:

لو حد كلمك ابقي أسأل عن مؤمن البحيري.

ثم توقف مؤمن كأنه تذكر شيئاً:

- أبوك يشتغل إيه يا سيد؟!

هز الطفل كتفه محرّكًا حاجبيه لأعلى في حركة تدل على جهل  
بالإجابة ثم أجاب:

- ميت باين.

هز مؤمن رأسه متفهّمًا ثم أكمل طريقه إلى مدخل العقار بعدما فتح له  
السياج الحديدى بدون أن يطلب كبوابات فندق كهربائية، أطلق الحضور  
البوليسي تعظيم سلام لمؤمن الذي كذب بسيجارته إلى كوم من النفايات  
على يمين المبنى، ثم شق طريقه بين البصاق ووضع فضلات بلاستيكية  
حتى وصل لمدخل العقار، بدا العقار ثملًا يفكر مليًا في الانهيار رغم  
الدعامات الهندسية التي تجاهد لتبقية صحيًا، اخترق السلم الضيق  
وصعد بخفة للدور الثاني وسط أصوات فلاشات الكاميرا والمحادثة  
مكتومة ورنين اللاسلكي الذي لا يهدأ، بادله شخص يرتدي بدلة بيضاء  
بوليسية كاملة السلام:

- منور يا بحيري بيه!

ليبادله مؤمن التحية.

- راضي باشا!

واصل الصعود حتى وجد ضالته في الدور قبل الأخير عندما بدأت  
الضوضاء تنحسر بين صوت فلاش الكاميرا وتحركات رجال الطب  
الشرعي، وقف ضابطان من المباحث يتوسطهما عبد الجليل بوجه  
متجهّم يراقبون ما يحدث بشغف وصدمة، بينما بدت غرفة أخرى في

الداخل أكثر هدوءًا وصمتًا، كمدينة محرمة، لا أحد يجرؤ على التقدم أو  
على التفكير في الأمر، ألقى مؤمن التحية بهدوء وتكلم لمدة دقيقتين مع  
رئيسه بفتور واضح في انتهى بتسليمه ورقة بها رسم كروكي لوجه حاتم  
الأسود، ثم هم بالدخول للغرفة المبهمة، حاول أحد أصدقائه استيقافه  
لكنه أكمل طريقه للدخول:

في داخل الغرفة بدا الأمر كأنه عالم منفصل عن الخارج، صوت غناء  
أنثوي يشدو بإحدى روائع فرانك سيناترا:

«I like New York in June» How about youuuuuu?!

I like a Gushuin Tune» How about youuuuu?!

كانت هي، تستمتع بعملها كالعادة بالرغم من كل شيء، لم يمنعها  
منظر الجثة المشوهة من الغناء، كانت لشاب أسمر ذي شعر ناعم وجسد  
لحيل، يحيطه بقايا دم متجلط على الأرض، استقرت على ركبتها  
الحيفتين، تنظر من خلف نظارتها الطبية الكبيرة الساقطة على أطراف  
أنفها الدقيق. تحرك فرشاتها بسلاسة وخفة فوق جبهة الضحية، كأنها  
قطعة فنية تلمعها من الأتربة والغرفة، في حين انشغل رامي بوضع شعرة  
وجدتها على الأرض في كيس بلاستيكي ولصق ورقة بيضاء صغيرة  
عليه، ثم وضعه على الأرض وقام بتصويره بجانب بقايا سيجارة رفيعة،  
فألمعت غناها الخافت وتغيرت معالم وجهها كأن بها مسًا من الجن  
عندما صاحت:

- رامي!!، كام مرة لازم أتحاول عليك عشان تجيبهولي!!؟.

ثم استدارت صارخه:

- Where is my fucking forceps?!

ركض رامي بعدها محاولاً إنقاذ حياته وجلس بجانبها واضعاً  
الأدوات التي قد تحتاجها لمائة سنة مقدماً، تجمدت وأشارت للشخص  
الواقف خلفها بيدها المكتسية بجوانتي طبي من غير أن تلتفت:

- مؤمن!

استند إلى الباب متفحصاً المكان قبل أن يتكلم قاصداً غناءها:

- الموهبة دي عندك من زمان؟!

- آه!!، شرطي العدالة بيعرف يهرج.. كويس.. كويس.

- كان نفسي يكون فيه وقت للتهرج..

أضافت بدون إبداء أي دهشة بعدما التفتت:

- بتحب سيناترا يا مؤمن؟!

أجاب عاقداً ساعديه بعدما رمى السلام بكف يده على رامي.

- أي حاجة غير الكابوس ده ممكن تحب يا دكتورة.. نفس الكلام؟

- Copy Paste نفس «الكاديفر» اللي فاتت، عنين متخيلة وطعنة  
الصدر، دم متصفي، وبلاط متلون.. نفس الخنجرجر.

قالتها بعدما حكّت ظهر يدها في مقدمة رأسها مرتين وهملاً

باستكمال عملها لتضيف:

- الأرقام بس اللي جديدة.

يوسف في الطريق، كان لازم أقوله عشان نتأكد من...

في تلك اللحظة تحت جاكليين جانباً عن الجثة لتظهر كاملة لمؤمن  
بعد ما كانت تداري نصفها العلوي تقريباً بجلووسها أمامها، انكمش وجهه  
لؤمن من كثرة الاشتزاز وصاح بعدما أشاح بوجهه بعيداً واضعاً يده  
أمام وجهه في حركة تلقائية:

إيه الأرف ده..؟!، انتي إزاي ما بتتأثرش بالمناظر دي؟!

في أول 5 سنين.. الجثث كانت أزمة بالنسبالي.. ويرده في أول 5 سنين..  
«واو.. كنت فرحانة.

بالنسبالي كانوا أول خمس أيام.

قالها مؤمن باستهتار.

ردت تفحصت الجرح القطعي بعدسة كبيرة نسبياً ثم أضافت موجهة  
«دينها لرامي الذي هم بكتابة شيء ما:

يردو.. نفس السلاح المستخدم في الطعنة هو السلاح المستخدم في  
رسم الأرقام على وش الكاديفر.

«كلامك وكلام يوسف كان صح.. حادثة المرج كانت بداية.. كل ده  
كويس. التعديل اللي حصل في الضحايا هو اللي مش كويس.

نظرت إليه جاكليين مرة أخرى كأنها لا تفهم ما يقول ثم أكملت عملها

فأثالة:

«نقصد وليد؟

- مش بس قصة انه قريب يوسف.. الفكرة في اللي هيحصل بعد كده فيه تعديل حصل في اختيار القاتل للضحايا..

ثم حرر يديه مضيئاً :

- لازم نتكلم يا دكتوراه!

- كلام كثير.. فعل قليل، إحنا Already اتكلمنا يا مؤمن.

قالتها ووقفت لتدنو من شطة خاصة بها تركتها بجانب الحائط أخرجت منها ظرفاً أبيض متوسط الحجم ووضعت في كف مؤمن لتضيف بعدما حكّت أنفها:

- مختار بتاع الآي تي كبر الصورة بالفوتوشوب.. مش واضحة أوي بس بتنفع.

ثم أشارت له بسبابتها:

- انت ويوسف مديونين لي!

كانت تتحدث عن انعكاس لصورة لتصف وجه القاتل في زجاج الاستوديو القاتم، كانت ملامحه مبهمه كالشبح إلا أنها أوضحت شعره الغزير وتفاصيل جسده التشريحية.

- هنقارنها بالرسم اللي معانا..

أخرج هاتفه النقال من جيبه ليجد اسم يوسف على الشاشة، ضغط على زر الإجابة ومشى قليلاً ناحية سلم العمارة محاولاً وصف مكان العقار ليوسف الذي قارب على الوصول بسرعة مخيفة قياساً من الإسكندرية، عاد بعدها مؤمن ليقول شيئاً لصديقه غريبة الأطوار.

أنا هروح مشوار عشر دقائق.

Sure!، بقولك! محتاجة خدمة كبيرة، لو تبعت حد من المخبرين

بيبيلي سجاري عشان سجاري قريت تخلص..

أنا معايا سجاري.. بتشريبي إيه؟

كربليا، ويا ريت...

قاطعها صوت موسيقى عذب.

«بحلم معاك.. بسيفينة.. وبموجه ترسينا.. ونبحر تاني....».

وضع مؤمن يده على جراب مسدسه بهدوء وحذر في رد فعل غريزي، تفحصت عيناه الحادثان المكان بشغف يملأه الحذر، في حين اجتمعت جاكليين في مكانها مستمعة لتلك الأغنية التي تعرفها جيداً ولا تعرف مصدرها، تكونت بضع قطرات عرق فوق جبهة رامي البيضاء المائلة للاحمرار وتجمدت الكاميرا في يده، أشار مؤمن للجميع بالتزام الصمت، ثم تقدم ببطء ناحية الجثة ونجاة الصغيرة لا تزال تشدو في «وقف لا يحتاج لأي رومانسية إضافية:

«العالم كله بأسراره.. عايش جوايا.. عايش ويايا.. في الرحلة طول ماتت معايا...».

رفعت جاكليين يدها في صدمة والملقاط بين أصابعها الدقيقة، نجمدت الدماء في وجهها في حين واصل مؤمن تقدمه ناحية الجثة، مال بجسده ناحية القتل، ثم أشار بإصبعه ناحية صدره الشخصي لأعلى ثم

فالتها ورفعت حاجبها بإعجاب مرتدية جواتي طبي آخر ثم أردف  
(من):

هو عايز يقول إيه؟

مش عارفة..

مش عارفة!، هو ده اللي قدرك عليه ربنا؟

مؤمن! دي قصيتك من أولها لآخرها، أنا شيلت إيدي منها.

ما فيش مشكلة..

حرك رأسه إيجابًا وصمت لثانيتين وهم بالرحيل لتستوقفه جاكليين:

All right!.. إستنى! ماتبقاش دراماتيك أوي كده، كفاية أوي الدراما  
اللي إحنا فيها.

دراما!.. إحنا واقفين نهرج فوق جثة ابن عمه يوسف.. ده غير إن كل  
لحظة بتعدي فيها خطر على حد جديد- جاكليين! لازم تعرفي انه  
عارفنا كويس.. وعارف كل خطواتنا بالثانية.. دي الدراما اللي لازم  
نشكر فيها.

قالها مؤمن بهدوء لا ينقصه أي جدية وصرامة.

ثم أضاف:

تمام!!

حركت جاكليين رأسها إيجابًا بعدما فكرت مليًا في كلمات مؤمن  
التي بدت مقنعة، ثم رفعت حاجبها الأيسر وتابعت عملها.

\*\*\*

لأسفل، ثم أشار لصدر القتيل الذي كاد يتعارك معه منذ ثلاثة أيام في  
حركة معناها: (تفحصي الجرح الذي في صدره!)

توددت جاكليين قليلًا ثم حركت يديها ناحية الجرح القطعي العميق  
وحاولت شق طريقها بالملقاط إلا أنها لم تغلق بينما لا تزال الأظفار  
تستمر، وضعت الملقاط الطبي جانبًا ثم غرزت يدها في صدره كرهل  
يبحث عن مفاتيح سيارته في جيب بدلته، ابتلع صدره كفها اليمنى حتى  
مرفقها، تجمدت للحظة بعد ثوانٍ من البحث، أخرجت شيئًا ما يبدو  
ككيس بلاستيكي شفاف، زادت حدة الموسيقى، نظرت لما حصلت  
عليه بدهشة يمكن أن توصف بالذهول.

كان هاتفًا محمولًا يرن بداخل صدر جثة وليد..

فتحت الكيس مخرجة هاتفًا صغير الحجم بتأفف من ذلك الكيس  
الملطخ بسائل لزج وبقياء دماء متجلطة تشبه الخيط.

- كنت فاكدة إن الجراحين بس اللي بينسوا..

قاتلتها بوجه متأفف وأضافت:

- Well That was Sick!

ضغطت على زر لإيقاف المنبه الذي دق في ميعاده تمامًا ثم وضعت  
الهاتف جانبًا وخلعت الجواتي المغطى بالدماء عن يدها.

- هو عارف إن إحنا هنا..

قالها مؤمن لترد جاكليين بتهكم:

- بأمانة!.. الواد creative!

(22)

كان هناك بصيص من الأمل على الرغم من بكائها المتواصل، تذكر كيف طمأنها الطبيب بأن زوجها قد يستيقظ قريباً، تشعر بقرب اللحظة كلما تحركت يده حركة لا إرادية أو قال كلمة غير مفهومة على سرير الموت، أرادت أن تذهب لتغتسل وتصلي العصر لكن شعورها بقرب اللحظة جعلها تتردد كثيراً، فهي تريد أن تكون بجانبه عندما يستيقظ، تريد أن تكون أول شخص يخاطبه، تريد الكثير والكثير لكنها لا تستطيع فعل أي شيء، اتخذت قرارها وذهبت وأغلقت عليها باب الحمام وتركته نائماً بين الأجهزة التي تتصل أسلاكها بكل بقاع جسده كالأخطبوط، يغطي وجهه قناع شفاف متصل بخراطيم رمادي يتنفس منه بصعوبة، يعلم ويهبط صدره مع كل نفس وتعلمو معه أيضاً مضخة صامته تملده بالهواء. ارتعشت يده اليسرى المتصلة بقسطرة صغيرة قليلاً ثم تحرك إصبع السبابة لأعلى وعاد مرة أخرى لوضعه الطبيعي وسط صغير الأجهزة، لم تمر ثانية أخرى إلا وتكررت الحركة مرة أخرى وسط رعشة ملحوظة من باقي أصابه، لم تنته المرة الثالثة إلا وارتعش جسده كله كرعشة شخص يصحو من كابوس مؤلم، طرف جفنه مرات عديدة من دون أن يفتح عن آخره، شعر وكأن جفنه أثقل من شاحنة نقل بضائع يجب عليه رفعها بيد واحدة، بدا ضوء الحجرة الأبيض البسيط أقوى من لسعة برق شتوي

فالهب، بدت الصورة باهتة كما هي أحلامه، تسبح التفاصيل فوق بعضها والمزج الألوان ولا تنفصل حتى بعد أن مرت دقيقة كاملة على استيقاظه، أدر أن شخصاً ما يجلس أمامه، أراد أن يصرخ ولكن لم يطاوعه صوته، حاول ليتحرك لتخذه عضلاته نصف المحترقة، اتضحت الصورة شيئاً فشيئاً، كانت لشخص يجلس أمامه في تقرب. شعره طويل قائم اللون وملهي نصف وجهه، يرتدي زياً قاتماً أيضاً، بمعنى أدق.. زياً أسود.

أهلاً بك!

قالها الشاب.

...!!!

هدي أعصابك، أنا هنا عشان أنا اللي اتكلم.

قالها للبحيري الذي تجمدت الكلمات في فمه كثيراً وتحركت عيناه بهيئاً ويساراً في رعب، في حين فتحت زوجته الباب بسرعة لتراه مفتوح العينين وترفض تجاهه متجاهلة الشخص الدخيل، قبلت يديه ثم رأسه ودموعها تنهمر كالسيل، حمدت الله وشكرت فضله آلاف المرات المتتالية، هنأت زوجها بعودته مرة أخرى، إلى أن شعرت أن شيئاً ما غير طبيعي في المكان، التفت لتجد ذلك الشاب غريب الأطوار يجلس مستريحاً مصفقاً بحرارة قائلاً:

كان نفسي أعيط بس...

مين حضرتك؟ ودخلت هنا ازاي؟



قام الشاب من مكانه مواجهًا السيدة ومقتربًا منها، تراجعت وتابع هو تقدمه مخترقًا مساحتها الخاصة لتتحول ابتسامته فجأة لوجه غاضب:

- أنا الكابوس!

قالها بصوت غريب ومخيف أشبه بصوت شخص مبحوح الصوت من كثرة الصباح، جاذبًا إياها من مقدمة ملابسها، ارتعشت كثيرًا وصرخت صرخة مكتومة وسقطت نظارتها الطيبة على الأرض لتتكسر عدستها، تجمدت وبكت من الخوف كطفلة صغيرة، سقطت على الأرض بعدما عجزت قدامها عن تحمل الأمر، زحفت للخلف في حركة غريزية ماسحة أرضية الغرفة بفستانها الطويل في حين حرك زوجها يده قليلًا مطلقًا نصف صرخة بها كثير من العجز والغضب.

أمسك الأسود بيده النحيطة التي امتدت بها كثير من العروق الزرقاء ويكسوها جلد متهالك مبتسمًا.

- أسف لو أزعجتكوا في اللحظة الرومانسية دي، بس أنا عندي رسالة للباشا الصغير ولازم أوصلها.

أخرج من جيبه علبة صغيرة سوداء تشبه علب الساعات القيمة ثم أكمل بعدما أخرج من جيبه مقصًا متوسط الحجم، أحمر اللون غليظ المعدن الكالذي يستخدم في تهذيب الأشجار، دلفت صديقه ذات الشعر الأحمر الملتهب وأغلقت الباب خلفها لتستند عليه مبتسمة، قبض الأسود على المقص مرتين ليصدر صكيكًا مخيفًا قائلًا:

-Ciao-

ابتسم وأمسك بإصبع والد مؤمن الصغير ونظر للسيدة المسنة قائلاً:

هزم:

لازم يقطع علاقته بالقضية في أسرع وقت... هنعمل تجربة عملية على الفلعل دلوقتي عشان.. لو اشتغلنا بإدينا عمرنا ما هننسى.

قالها ليفلت الأب إصبعه من يد الأسود.

ركز!

استعاد إصبعه وأعاد خصال شعره خلف أذنه.

ماعتقدش إنك بالغباء إنك تصرخي وتخليني أترفض.. صح؟! صح!

تساءل مشيرًا لزوجته بمقصه اللامع في حين ضحك كثيرًا صديقه السادية، أضاف واضحًا المقص فوق إصبع الخنصر للمعجوز الواهن:

ولو انه مش من مبادتي إني أدايق راجل عاجز، بس أنا قررت أضحي عشان هدف أسمى. وضعت السيدة يدها على فمها محاولة عدم إصدار أي صرخة، تفحصها الأسود عاقدًا حاجبيه مضيقًا:

نصيحتنا النهارده!.. مانجربش اللي هنشوفه في البيت.

خرجت صرخة قصيرة من تلك الغرفة الخاصة في المستشفى الهادئ، وبدا الحارس الشخصي المعين أمامها غارقًا في نومه على كرسيه إثر تناوله لشاي لم يكمل نصفه.

وعاد الهدوء للمكان.

\*\*\*



فألهما بنبرة ساخرة لم تفهمها ثم رجع قليلاً للوراء إلا أنه تفادى سيارة  
الشاهين بسرعة كانت قريبة من دهسه ليصبح بحق:

فتح يا بني آدم انت!

لكن صاحب الشاهين البيضاء لم يسمعه منطلقاً بنفس السرعة  
المنخفضة على الفرامل وتستقر السيارة في مكان غير مخصص للركن، نزل  
مسرّعاً على بعد ثلاثين متراً من زحمة الحسين ولاحظ تجمع المراهقين  
والمواطنين كالقطيع حول فائدة ممسكة بميكروفون أمام مصور ماء، لكنه  
علم جيداً سبب حضورهما هنا وفي هذا التوقيت، هم بالمشي بعدما  
أغلق السيارة ولكنه لاحظ أنه نسي شنته «الكروس» في الكرسي  
الخلفي لسيارته، تجرد أمام السيارة يفكر فيما بداخل تلك الشنطة، قام  
بإعادة حساباته مرة أخرى عندما أيقن أنه سيحصل على مخالفة لا مناص  
بالإضافة إلى أن السيارة قد تجر بعيداً، لكنه لا يريد أمر ضبط وإحضار  
بجانب ما سبق.

فتح سيارته مرة أخرى ودخل بهدوء حتى تمكن من حقيبته ثم رماها  
فوق كتفه وهم بالرحيل متمتمًا لنفسه:  
- قضية واحدة أحسن.

هروول مسرعاً متجاهلاً شائناً أشار له وقال شيئاً عن المرور وكلمة  
«الونش»، تجاهله لأنه يعلم تماماً مقصده، لكنه يعلم أيضاً أنه يمتلك  
أشياء أكثر أهمية في عقله حالياً من خسارته لسيارته، أخرج هاتفه النقال

(23)

- تمام كده يا سامي؟.. الـ View ده كويس؟

قالتها الفتاة في منتصف الحسين في ذلك اليوم القاتم، سيطرت  
ابتسامة خفيفة على ملامحها المميزة بينما أزعجت خصلة شعر شارونة  
عن عينيها الواسعتين، حاولت التأكد من تناسق ملابسها المكونة من  
جيبه رمادية مميزة، وقميص حريري ناصع البياض فوق ياقته يوجد شال  
رمادي ربط بطريقه تشبه الـ «كرافيت»، كانت الساعة تقترب من الحادية  
عشرة صباحاً عندما امتلأ الشارع خلفها بالمارة وطلاب المدارس  
الفنية ذات الميعاد المتأخر، يرمقونها بنظرات تكاد تجردها مما تلبس،  
يسرحون في تفاصيلها مع بعض المارة الذين فقدوا قدرتهم على الحركة  
وحدث لهم نوع من أنواع الشلل التام.

كان سامي هو فتى الكاميرا ذا الخامسة والثلاثين ربيعاً والصلابة  
الناصعة البياض والتي أخفاها بطاقي حفرت عليها علامة رياضية  
شهيرة، وذقن بني هو أعز ما يملك حالياً، متوسط الطول والوزن يمتلك  
كتفين عريضتين، يمزج علكته بقوة دائماً كأنه يريد أن يقطعها لأشلاء،  
لا تفارق وجهه ابتسامة تتم عن استمتاعه بعمله، وجه الكاميرا على  
فتحة القميص الخاص بها- أي يارا قاسم- انتظر قليلاً ثم رفع عينيه عن  
الكاميرا الكبيرة التي يحملها ليضيف:

هل تكون جريمة حي الحسين الهادئ بنفس تعقيد جريمة المرج الشهيرة، مصادرنا تقول إنها نفذت بنفس الكيفي...

غيرت ملامح يارا فجأة مقاطعة جملتها:

لواني يا سامي! إيه قلة الأدب دي؟!

فالتها عندما التفتت لحفنة من الشباب ذوي الأوجه المثيرة للقلق وبضعة طلبة يرتدون قمصاناً بيضاء شفافاً ومن تحتها أكواماً من البوفورات غير المهتمة، صدمها عددهم وضحكاتهم غير البريئة، اعترت برعب من نظراتهم التي اخترقت ملابسها كأشعة «الإكس راي»، اجتمعت ملامحها وتلعثمت الكلمات تحت لسانها وشعرت بشيء ما سيحدث.

كانت مفاجأة عندما اكتشفت أن مايفصلهم عنها هو متر واحد فقط، رجعت قليلاً للوراء واتسعت عينها عن آخرهما عندما شعرت أن شخصاً ما أو بضعة أشخاص يدفعون الحشد نحوها، زادت ضحكات هؤلاء الذين يحتلون الصفوف الأولى كلما دفع أصحاب الخطوط الخلفية الحشد وتداخلت كلماتهم بين المزاح الجنسي والترقب والصراخ الإيهائي المستفز.. إلى أن أطلق أحدهم صرخة أخيرة.. وبدت كإشارة لبدا الهجوم..

سقط الميكروفون على الأرض ليختلط بالطين، ذلك عندما وضع سامي عدسة الكاميرا للأسفل مصدوماً مما يحدث، تدافع الحشد عليها وسط صراخ جنسي مصطنع من بضع المراهقين ليثيروا به أقرانهم،

وضغط على اسم مؤمن، وقف في مفترق طرق عند مدخل الحسين ينظر لكل المداخل والمخارج منتظراً الرد، رد مؤمن على المكالمات وحاوله قليلاً عن العنوان وكيفية الوصول، نظر يوسف لليمين وهز رأسه قائلاً بصوت خافت:

- تمام!

في حين اصطدمت كتفه ببعض المارة ودفعه البعض، وضع إصبعه السبابة على أذنه اليمنى ليقفل من ضوضاء نداء الباعة على الجانب ثم أكمل:

- بيني وبينك دقيقتين.

قالها وعيناه الرماديتان تتفحصان الحشد الذي تزايد حول المادحة ذات اللباس الجذاب، والتي بدت تتحدث لكاميرا بكل ثقة وتوجه لداخل الحسين أكثر ثم أكثر ليتبعها الحسين كما يتبع الرمال المتحركة ضحيتها.. ساعتها شعر أن شيئاً ما في غير محله، مضى في طريقه مندهشاً من جرأتها وغشامتها في الوقت نفسه، فوجدها في ذلك المكان المزدحم بتلك الأناقة هو قمة الاستهتار - كما يعتقد، اصطدمت كتفه بمجموعة جديدة من طلبة المدارس الفنية تتجه ناحية الحشد في حين قال أحدهم لآخر:

- إيه ده يالا! دي جامدة أوي، تعالى يا سوري بسرعة!

قاوم يوسف شعوراً ما تملكه بأن شيئاً ما سيحدث لكنه آثر أن يكمل طريقه لهدفه ركضاً، وبالفعل اخترق الزحام.

تداخلت الأيدي ومزق القميص الحريري الأبيض، جذب شعرها الناعم بكل قسوة ممكنة، صرخت وكلما صرخت زادت شهوتهم ازدهاراً، كانوا في عداد الأربيعين معتد تقريباً، تراجع المصور للوراء لتتحول صدمته وريداً لايتسامة حقيرة، وضع الكاميرا على كتفه مجدداً ثم ضغط على زر جعل لمبة حمراء صغيرة تعمل على يمين مقدمة الكاميرا، مضغ علكته بتلذذ وبالابتسامه نفسها وسط صدمات المتدافعين لكنهم

أياد جانعة تمتد لتقطف من الجنة المحرمة ما لا يخصها، جسد يعصر

وروح تغتصب، تدخل أربعة رجال من البائعين والمارة أخذتهم الشهادة لحمايتها، يضربون ويركلون ما يقابلون من الحشد بكل ما أوتوا من قوة، يسبون ويلعنون لكن لا أحد استطاع أن ينقذها، شعرت بالكدمات تكال إليها والأظافر التنتة تنهش في جلدتها الناعم، تبكي ولا تصرخ من الصدمة، وقعت على الأرض وقامت مرة أخرى، بدت كالحظنة لن تنتهي، توقف الزمن عندها وسط صراخ وركل وسب وتدافع وضحكات، تمتد لو قتلتهم جميعاً، واحداً واحداً بكل هدوء وبرود، تمتد لو تمثلك مدفعا رشاش أو سيفاً يقطع كل شيء، اتسعت الدائرة المقامة حولها قليلاً كرد فعل لدفاع الشهباء المستميت، حاولت الركض لكن أحد الكلاب المسعورة أمسك بقدمها فوقعت مرة أخرى، قامت مرة أخرى بعدما ساحت المساحيق على دموعها، لم تغلق الدائرة عليها مرة أخرى لأن الرجال الذين تولوا مسؤولية الدفاع عنها كانوا قد تعدوا السبعة، يجاهدون من دون فائدة فهي تفلت كل يد تصل إليها لتجد الأخرى حتى لو كانت يد متقذ، لا تدري من يريد جذبها من المجزرة أو إليها،

ترددت ثم وضعت يدها المرتعشة بين أصابعه من دون أن تسأله من هو، ضغط بقوة على يدها الضعيفة، جذبها في اتجاهه كما تجذب السيارة المسرعة أوراق الخريف، تحرك للأمام ليقابله حشد كبير يزيد على الخمسين، اقترب منه الحشد بالرغم من المعركة الدائرة بينهم وبين المتلوعين، رفع يسراه التي تمسك بمسدس فضي تجاههم، سقطوا على أعقابهم أرضاً كأنه قد ألقي عليهم سحراً، وقف التدافع نسبياً نحوهم وهو لا يزال يتقدم ناحيتهم بكل ثقة وهي من خلفه، لا تعلم ما يحدث لكنها شعرت بأنه هنا من أجلها، يفعل المعجزات لينقذها من الجحيم من دون أن تسأله عن كينونته، كان لها متقدداً.. كان كالحياة بعد الموت.

رفع يسراه تلك المرة ناحية السماء، لمع مسدسه الفضي في الهواء كمثل سيف روماني، ضغط على الزناد ثلاث مرات متتالية، انطلقت الرصاصات تمحو الأصوات والصراخ، توقف الكل عن الحركة كما توقف انقطاع التيار صوت التلفاز المرتفع، وقف صامتا يلوح بسلاحه في وجوه الذئاب المتحفزة، يسيل لعابها في ترقب وحذر، تطلق

خناجرهم صرخات الكبت الممتزج بالخوف، تتراجع.. ثم تترقب  
تنتظر هفوة لتتقض مجدداً على فريستها الثمينة، تتنفس بغضب، سقط  
بضعة أمطار من السماء، سقطت غاضبة على شعره البني ذي الخصل  
الطويلة ليستسلم فوق عينيه الرماديتين، قالها بحدة أكبر وصوت أعلى  
قالها وانثاقاً رغم تلك الرعشة التي في يده:

- أي كلب هيتحرك هيشوف مخه على الأرض!

أشار ناحية اليسار بالحدة نفسها فسقطوا وتراجعوا، ثم لليمين فحددت  
نفس الشيء، وجه فم سلاحه ناحية الأمام فانشق الطريق كما انشق البحر  
أمام عصا موسى، ضغط على كفها الرقيق وأكمل طريقه للأمام بعدما  
بصق عليهم، التحم المتطوعون مرة أخرى مع الذئاب لينشغلوا عنهم،  
أكمل الشاب طريقه بها لبناية قريبة وأدخلها في المدخل الخاص بالبنابة  
وسط ترقب المارة، خلع الجاكيت الخاص به ووضع حوله، ازداد  
الأمطار سرعة وغزارة، ارتعدت متممة ببضع الكلمات وسط هيسبورها  
بكاء حادة، أمسكها من ساعديها مقاطعاً نوبة البكاء:

- إهدي! أنا يوسف.

نظرت في عينيه بعينين مفتوحتين عن آخرهما مصدومة كمن رأت  
آخر شخص تتوقع رؤيته الآن، تجمدت الدموع في عينيه وتجمد بها  
الزمن لثانية،

قالتها هامة من دون صوت تقريباً:

..وسف!

هو رأسه موافقاً ثم تأكد من غلق الجاكيت حولها، تجمع بضعة  
الجناس وسيدة يحاولون الاطمئنان عليهما وإشباع قليل من الفضول،  
أشار لهم يوسف بأن كل شيء على ما يرام، ثم أخرج هاتفه النقال وضغط  
على قائمة الاتصال السريع وتحدث لمؤمن بعدها بثوان، أتى بعد بضعة  
دقائق مؤمن محاطاً ببضعة مخبرين..

وكان غاضباً.

أسفل المبنى المشغوم بجانب المدخل بدا كل شيء طبيعياً، يارا تجلس  
على كرسي مرتدية جاكيت رادياً غير متناسق من ناحية الحجم لكنه يبدو  
هكذا عليها، على بعد أمتار منها وقف بضعة عساكر ومخبر يتحدثان  
عن صديق لهما فقد طفله، وأمامها -أي يارا- استقر كوثٌ ساخنٌ من  
الشيكلاته لم تلمسه بعد، يتصاعد البخار منه بدون توقف، بجانبها جلس  
مؤمن وأمامهما منضدة بلاستيكية صغيرة، كانت السماء قد هدأت ولكن  
الأرض قد تحولت لمستنقع من البرك الصغيرة والوحل..

كويسة دلوقتي؟!

سألها مؤمن محاولاً الابتسام، حركت رأسها إيجاباً بصعوبة محاولة  
مجاراته، أشار للكب الكبير الموضوع أمامها لتشرب منه فحركت  
رأسها مجدداً بالقبول، أنهى يوسف محادثة تليفونية قصيرة مع صديق له  
في المطعم قد اعتقده بشدة وصمم أن يراه الليلة، حاول يوسف الاعتذار  
لكنه أصر وذكره بأن له نصف راتب لم يحصل عليه بعد، استسلم يوسف

لإصرار صديقه أخيرًا خصوصًا بعدما تذكر أنه مفلس تمامًا بالمعنى  
اقترب من مؤمن ويارا، تأكد أن يارا في حالة جيدة ثم سأل صديقه:

- هينفع نطلع دلوقتي؟!

- مافيش مشكلة.

قالها ثم هب واقفًا ليشير لمخبرين ومجندين:

- لما توصلوا العماد بيه خليه يكلمني.. مش عايز حد من العيال يروح إلا  
لما أعرف مين اللي بدأها.

رد عليه جميعهم بالإيجاب ثم مشوا حتى وصلوا لشارع جانبي  
وسعًا استقرت به سيارة «يوكس» محملة بباقي الذئاب الصغيرة المنهكة  
من الضرب.

كانت يارا هائمة في كوب الشيكولاته كأنها ترى المستقبل فيه  
منعزلة عن كل العالم، أشار مؤمن برأسه ليبارا في عزلتها الإجبارية، أما  
يوسف برأسه متفهمًا وجهة نظر صديقه بأن يارا يجب أن ترحل سريعًا،  
بعدما أمست تحمل من ذلك المكان بضع ذكريات مؤلمة.. للغاية.

إشار مؤمن بيده لمخبر أن يتقدم ناحيته، ثم أضاف بصوت خافت:  
- خليك جنب الهانم!

صعد معه يوسف بهدوء في ذلك المدخل الضيق الذي بالكاد يتحمل  
شخصًا واحدًا، محاولًا تفادي بضع سلمات مكسورة سلفًا، وصلوا  
للدور الأخير ووجدوا بضعة أفراد من النيابة منهمكين في كتابة تقرير عن

الحدث، تقدم مؤمن قليلًا للأمام مشيرًا ليوسف بالتوقف لثانية، دخل  
الغرفة المكتبية التي لم يكن بها أي شخص غير جاكليين في تلك اللحظة،  
أشار ليوسف ليتقدم ثم قال له بتأثر:

سامحني إني ماقولتللكش في التليفون.. بس المنظر صعب، حاول  
لمسك نفسك.

لم يفهم قصده، لكن اتسعت عيناه حتى قبل النظر إلى أي شيء،  
احرك للأمام مثقلًا بأكياس رمل في قدمه، يبدو عليه الإرهاق الذي يصل  
الإرهاق، بدا ولأول مرة في أعين صديقه بأنه قد فقد الكثير من الوزن  
فجأة، قامت جاكليين من أمام الضحية بهدوء، وقف يوسف على بعد متر  
ونصف من الجثة المتجمدة، سقط بهدوء على ركبتيه غير مصدق لما  
راه، وأغمض عينيه لثانيتين.

مرت دقيقة من الصمت حاول مؤمن مساعدته لينهض لكنه رفض،  
فتح عينيه وظهرت حمراء ملتئمة تملأها الدموع، سأل بوجه حازم:

- الخنجر المستخدم.. نفس الشكل؟

هو بالظبط.

ردت جاكليين

نفس تفاصيل جريمة المرح يا يوسف!

قالها مؤمن.

حرك يوسف رأسه مرتين مستنكرًا جملة الأخيرة، ثم نظر له مفسرًا:

- مش نفس التفاصيل...

قالها وأعاد النظر للمعطيات أمامه بتركيز، ارتسمت دائرتان تخيلهما على البلاط الملون بدماء وليد والذي اتخذ شكلاً شبه حرف V، وخرج سهمان افتراضيان من رقتين إضافيتين تم تلاؤهما مقارنة بالجرمة السابقة.

أوما مؤمن برأسه موافقاً وساعده ليقوم بعدما مد له يده، قام بهاء تاركاً يد صديقه متجهًا للخروج، استوقفته جاكليين ورثبت على كتفه وأمسكت ساعده المبتل من المطر، تأكدت أن ظهره للجنة عندما قالت: - أنا عارفة إن مافيش كلام هيعوضك عن خسارتك، بس أنا لازم اكلم معاك.

- مش لازم نتكلم.

رد يوسف بصوت واثق متجاهلاً ما تريد جاكليين قولهما.

- لا لازم.. بلاش تحمل نفسك كل حاجة.. لازم نفكر في اللي جاي.

- قتله عشان ماسافرش.. عايزني استنى.

تابع متمتمه لنفسه بوجه متجمد وعينين دامعتين ماسحا بكم القميص الأبيض الذي يرتديه على وجهه، ثم حاول أن يحصل على نصف نفس من أنفه المحتقن حينما أضاف:

- يوسف! لازم تسمع اللي هقوله لك كويس!، أولاً، شد حيلك!

ثم أضافت:

فاننا.. اللي هيحصل في الأيام الجاية غالباً أصعب من اللي على.

واستطردت:

للأسف.. فيه ناس تانية هتموت.. غالباً ناس تعرفهم.

حرك يوسف رأسه بالإيجاب، ثم تابع:

فإن بيحاول يتغير..

قالها قاصداً وليد مخاطباً نفسه في ذهنه.

يوسف! القضية مش قضية قريبك بس! لو السيناريو اللي في دماغي صبح يبقى هيمنعك من السفر باستهداف قريبك أو صحابك.. جهز نفسك لحاجة زي كده!

أنا عارف إن الوقت مش في صالحى.

لا في وقت.. المهم انت لازم تخففي الفترة الجاية..

فالتها ونظفت نظارتها بقميصها قائلة:

لأنه ممكن جداً يكون بيعمل ده.

فقاطعها مؤمن متدخلاً:

عشان تظهر ويعرف يوصلك.

قالها مرتباً على كتفه ثم أضاف:

أنا جيبنتك عشان ماكانش ينفع ما أقولكش، ده غير إنى محتاج عنيك

نشوف الاختلافات بين الجريمتين..

ماقولتش ليه في التليفون؟

أشعل سيجارة وأردف بعد ما نفخ الدخان بعيدًا عن وجه يوسف في  
عمد:

- أسف إنني ما قولتش التفاصيل.. عموماً دي آخر مرة هتظهر فيها لحد يا  
نجيبه، الواضح إنه عايز يوصلك بأي تمن.

حك مؤمن أسفل منخاره وأضاف بحرج:  
-البقية في حياتك!

- وليد دفع تمن غلطتي.. تفنكر هتفرق معابا بعد كده لو قتلني؟

- هتفرق معانا إحنا!  
قالها مشيراً برأسه ليوسف بالخروج من الغرفة الكثيبة.

- يوسف!

صاحت بها جاكين ثم أردفت بعد صمت:

- مش كل واحد هيقول كلمتين في جرنال هيشيل ذنب العالم.

حرك يوسف رأسه متفهماً بينما لم تكن عيناه على وفاق واضع مع  
ما يقوله رأسه.

توجه مؤمن مع يوسف خارج العقار المترنح، في مدخل العقار  
أخرج مؤمن من جيبه بضعة أوراق وجواز سفر وناولهم ليوسف الذي  
تردد لثانيتين قبل أن يمسك بهما، وأضاف مؤمن:

- كلام معاذ وجاكين كان صح.. ده الحل الوحيد.. تذاكر السفر عندك  
والفيزا على الباسبور.. ابن خالتي هيستاك في أبو ظبي هتسكن معاه

لحد ما ربنا يكرم بشغلانة، في ظرف أبيض فيه قرشين يسندوك لحد  
ما تلف على رجلك هناك.. تذكرتك بعد بكرة.. وأوعدك خلال شهر  
هناصل بيك عشان ترجع.

ليه مصمم.. تغير صورة ظابط المباحث اللي في بالي؟

كانت رد يوسف الذي ابتسم نصف ابتسامة يائسة، وجاهد ليتكلم  
بسهولة.

يمكن جه الوقت إنك تغيرها.

أجاب مؤمن بابتسامة مشابهة وريت على كتفه مرة واحدة، ثم تابع  
طريقه خارجاً فهو يكرة كثيراً تلك اللحظات المؤثرة.

في الأسفل وجد الاثنان معاذ قد وصل بالفعل بعدما وصله الخبر  
المشؤم، جاء يعزي يوسف ويشد من أزره، ليجد مفاجأة سارة تنتظره  
أسفل العقار..

يارا قاسم.. بالشيكولاتة.





(24)

مشى بخطى ثابتة ناحية هدف يعرفه جيداً، يتمنى أن تنطوي الأرض فتقل المسافة، يتخيل إحساس صديقه القديم عندما يراه، يسمع لهاله الفرح بلقائه المرتقب قبل أن يحدث، يتخيل قفزاته الرشيقة كأنه يراه، محاولاته للعبقه واستماتته للعب معه، يفقد شكله المميز وذيله الذي تخيله يرقص فرحاً، جاء هارباً من جحيم يركض خلفه في كل مكان، وندم يتساقط منه أينما وضع قدميه المجهدتين، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً.

تعالّت دقات قلبه عندما اقترب أو ظهرت إحدى التفاصيل التي تذكره بقرب بنائته، لم يشعر بطول المشوار الذي مشاه منذ أن نزل من سيارة معاذ، الذي تكفل بتوصيله لنصف المسافة تقريباً، لم يشعر أبداً بأي حرق تجاهه، حتى لو فضل أن يتركه يمشي 10 كيلو مترات أو أكثر على قدمه ليوفر قليلاً من الوقت للأميرة المحاربة، فهو مشغول بكل كيانه بتوصيل يارا قاسم لباب بيتها، ولربما لغرفتها لو قبلت، يتمنى لو أن مؤمن هو الذي قام بتلك المهمة، فقط لأنه يعرف أنه لن يملأ رأسها بصداقه الصنفي طوال الطريق لبيتها، مؤمن الذي تلقى اتصالاً من أمه طلبت منه الحضور وشعر شيئاً ما في صوتها رغم محاولاتها المستمثلة للنفي، كل هذا مر برأس يوسف في طريقه لبيته الذي اقتنذه لبضعة أيام.

ظهرت الحديقة الصغيرة على بعد أمتار منه، بلع ريقه كمن تنفس الصعداء بعد سباق طويل، حاول الإنصات لحركة صديقه ميتسماً لأول مرة منذ أيام لكنه لم يسمع شيئاً، اقترب من الباب الحديدي حتى لامسه محاولاً النظر من خلال فتحاته بتلهف شديد، توقع أن يكون صديقه الحميم قد شم رائحته منذ أمتار بعيدة لكنه لم يلحظ أي أثر أو حركة، حاول مجدداً هزيمة الظلمة ليرى من خلال فتحات الباب، لكن لا شيء يدل على وجود أي حياة، أطلق صغيراً رقيقاً وناداه بعدما هز الباب قليلاً لعله نائم فيوقظه

سيز!

تذكر أنه يمتلك المفتاح، أخرج من جيبه مفاتيحه القليلة وأخرج منها مفتاح الحديقة، هم بفتح الباب، كانت الصدمة أن المفتاح لم يعد يعمل، انابه بعض القلق جعله يهز الباب ببعض العنف ويرفع من صوته قليلاً، شعر أن شخصاً ما وراه، نزلت عينه المحدقة تدريجياً وهدأت أصابعه المشتبته بالباب، لف برأسه ببطء ليجد شيئاً صغير الحجم تحجب الإضاءة السيئة ملامحه، يقف في ثبات كالتمثال، ينظر للأسفل في ذل وشيق ويتدلى شيء من يده الصغيرة يلمس الأرض.

كنت عارف إنك هتيجي!

قالها بأسى شديد.

حازم!

عبد النعيم اتفق مع جوز أمي أنه يبيعه ويديله تمته.



قالها ورمى بين قدميه طوقاً بني اللون في نصفه دائرة فضية اللون  
حفر عليها كلمة «Cesar».

- انت بتقول إيه؟

اقترب يوسف من الطوق في ترقب، نزل على ركبتيه ولمسه بهدوء  
وبطء كأنه جسم مشع.

- باعه بـ 800 جنيه لواحد ماعرفوش، إدى الفلوس لـ «البواب» ولجوز  
أمي.

- انت اتجنتت!

قالها منفجرًا ممسكًا الطوق بيده محددًا فيه غير مصدق لما يقول  
الشيخ الصغير، ثم أكمل بعدما قام واضعًا كفه على عينيه مصدومًا ليرى  
عليه حازم بنفس الأسى:

- باعه عشان التجاسة، حاولت اتصل بيك ماعرفتش..

- لو كنت عاوز توصلي كنت هتعرف!.. كنت هتعرف!!

قالها صارحًا مشيرًا إليه بأصبعه السبابة بطريقة هجومية بها كثير من  
العصبية، ثم تحرك يمينًا ويسارًا في توتر ليضيف:

- إزاي تسيبهم يعملوا كده؟! هه؟! أنا اختارتك انت عشان تخلي بالك

منه.. هي دي - هي دي - الأمانة؟ ده صاحبك يا أخي، صاحبك! تسببه

يتباع من غير ما تدافع عنه؟

- إزاي أتأكدت إنني مادافتش عنه؟!

قالها رافعًا وجهه تجاه يوسف الذي أضاف:

«لو كنت دافعت عنه كان عمر...»

أبى ضوء مباغت من سيارة مسرعة ليكشف عن كل تفاصيل وجهه  
الصغير، وكانت تفاصيل تكفي لتجعل مصاص دماء جائع ينهار باكياً  
بدون مقدمات، وجه لا يوجد مكان فيه لكلمة أو جرح، بل امتد الأمر  
ليصل لبضع غرز فوق حاجبه الأيسر وعين تكتسي بالأزرق الغامق وفم  
ماورم، شعر يوسف بصدمة جديدة جعلته يعجز عن النطق، نزلت سبابته  
أمر تخلي بجانب أخواتها وأعجزته الصدمة عن الحركة.

«ابن الحيوان!!»

قالها وهم بالصعود لشقة «الخرتيت» ليلقنه درس منتصف الليل غير  
أبى بالفوارق الجسدية بينهما، لكن كلمة جديدة من حازم جعلته يتجمد  
في طريقه للمصعد.

«لو عملته حاجه.. أمي هتطلق، وهترمي كلنا في الشارع.»

مرت ثانيتان على يوسف الذي نظر خلفه مصدومًا ليقول بنبرة أقل  
حدة أقرب لنبرة رجل محرج.

«عادي.. أنا ممكن أنصرف بعد كده.»

«هتتجوز أمي؟»

«ماقصدش.. بس..»

«يبقى ماتطلعش فوق.. لو سمحت!..»

«بس أنا.. لازم...»

«انت عندك مشكلة كبيرة، أنا لسه صغير بس بفهم.»

قالها في طريقه للمصعد ثم ضغط على زر في المصعد لينفتح باب المصعد مضيئاً:

- لو قدرت تحلها، ساعتها ممكن تقدر تحل مشكلتي.

ثم وقف على أطراف أصابعه المخفية في ذلك «الشيبب» الصغير ليضغط على زر في لوحة الأرقام ليتحرك باب المصعد وينغلق أو تومأ الباب على وجهه المشوه، لتكون تلك هي آخر كلماته قبل أن تتلاشى صورته البائسة من أمام عيني يوسف.

هم بالصعود للدور الأول غاضباً كالثور، وصل لباب مكتوب على «شقة المهندس عبد النعيم عايش» ثم ضغط على زر الجرس، مرت دقيقة بينما هو يستعد ليبدأ ثورته التي قد تنتهي بمجزرة، تمالك جأشه وطار الفكرة المجنونة من رأسه وهم بالرحيل.. نزل مسرعاً ليجد «خضر» في طريقه لغرفته، لمحة الأخير وارتبك.. ثم صنع ضحكة نصف مكتملة وقام بعمل تحيته العسكرية المعهودة قائلاً:

- يوسف بيه - إيه - إيه النور ده؟! والله كنت لسه هتصل به...

حركته اللكمة متراً ونصفاً للوراء ليرطم رأسه بالحائط، لكن رأسه الصغير لم يتأثر بالصدمة بقدر كبير، لأنه محاط بخودة مصنوعة من طابلي صعيدي ملفوفة بشال يكفي ليتغطى به طفل رضيع في أصعب أيام الشتاء دون أن يبرد، لكن فكه بدأ متأثراً باللكمة المباغتة، سال الدم داخل فمه ليصرخ من الوجع وترجع للخلف مرتعداً، فيما تفحص يوسف قبضته التي بدت وكأنها تهشمت، تجاهل بكاءه وعويله وأسئلته التي من نوعية

إيه كده يا بيه؟!، ثم خاطبه ببرود:

عايز اسم الواد اللي اشتراه ورقم تليفونه.

واد مين يا بيه؟! آآه!.

الواد ورقم تليفونه يا خضر!

قالها صارخاً مسكاً مقدمة جلبابه بقبضتيه، دافعاً إياه مجدداً ناحية المعامل ليجمي خضر مؤخرة رأسه بكفه الكبرى.

أبوة.. أبوة فهمت.. بس يا بيه حج عبنعيم مريضيش يجولنا أي حاجة.. والله يا بيه وحياة ولادي.

تركه يوسف بعنف بعد ثانيتين لكن ملامحه الغاضبة ظلت كما هي، لم هم بالرحيل مستطرداً:

انت وهو تستحقو الموت.

ليرد عليه خضر:

ما كانش العشم يا بيه تبجي دي المعاملة بعد العشرة اللي بينا.

قالها ومسح بعض الدماء من فوق شفته السفلى في شاله المزركش، أوقف يوسف من دون أن يلتفت بوجه ناحيته، ثم قالها ببراءة لم تغير من ملامح وجهه:

ليه يا خضر؟! دانا بعاملك زي عيل من عيالي.

قالها ثم أكمل طريقه خارج البناية متمماً على قبضته التي بدأت لإلمه، وقلبه الذي تحطم.

\*\*\*

شكرًا...!!

لم ضغط بضعة ضغطات على شاشة هاتفه مستطردًا:

هيا هاش بقى.

فألها فاتحًا موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، لتظهر حالته المزاجية تقول:

أنا وصلت يارا قاسم يا جدعان، كان يوم صعب جدًا.

طلع ابتسامه مستفزة بجانب تعليقه، وانهالت التعليقات عليه من كل صوب ونوع، ابتسم بعد قراءته التعليقات ثم انطلق بسيارته مجددًا بعدما أكد من دخولها الفيلا بسلام.

كانت حزينه وبائسة، يملأها خوف غاضب، تشعر بالألم كلما عاودت الذكريات الصعبة في العودة لذهنها، دلفت لغرفتها من دون أن ترد على أحد من إخوتها أو أمها القلقة عليها، أغلقت أبواب الغرفة، ثم فحنت شباك غرفتها ليتخلل الهواء البارد بين خلايا جسدها، الآن ترى العالم كما لم تره من قبل، وتقسم أنها لم تكن تعرفه.

يارا هانم! راندا هانم عالتليفون.. بتقول إنها اتصلت بيكي كذا مرة على الموبايل ولقيته مقفول. قالتها خادماتها بهدوء شديد، كانت نحيفة لا تبدو عليها ملامح بؤس أو فقر، نظرت إليها يارا من دون أن تنطق بكلمة واحدة، هزت رأسها ببطء، وذهبت الخادمة.

لم تهتم لتجيب على الهاتف، بل استقرت فوق سريرها المنمق، فحنت سوستة الجاكيت الذي كانت ترتديه بعدما اكتشفت أنها مازالت

(25)

تلامس جزء من جبينها ناصع البياض المغطى بخصلة كبيرة من شعرها الحريري مع زجاج الباب الأمامي، ضمت ذراعها حول جسدها في صمت، تستمع لحكايات لا تذكر منها أي شيء وسط موسيقى لا تسمعها، تهز رأسها تفهمًا محاولة عدم إحراجها، تسقط دموعه من عينها تمسحها بهدوء وتكمل تحريك رأسها موافقة على هراء لا تعلم له أول من آخر، ظهر اهتمامها فجأة عندما لاح بيتها واقترب، عدلت من جلستها وضغطت على زر أحمر في الجانب الأيسر من الكرسي المدمج ذي الكسوة الجلدية السوداء لتتحرك من حزام الأمان، أشارت له أن يأخذ يمين الطريق ويقف عند المدخل التالي:

- بس.. وقامت مسافرة ثاني على النمسا، ومارعفش عنها حاجة لحد النهارده.

ثم أضاف بعد أن أوقف سيارته أمام فيلا فخمة للغاية:

- ياريت نتقابل مرة ثانية عشان نتكلم أكثر وكده، ولا انت إيه رأيك؟  
ففتح الباب في طريقها للخروج من سيارته، وألقت بكلمة شكر غير واضحة في حين انتظر معاذ ردًا جديدًا بعد الشكر لكنه لم يحصل عليه، لم يعلم لو أنها لم تسمعه أم أنها لم تهتم لتجيب، أخرج هاتفه الجوال الحديث من جيبه رافعًا حاجبة الأيسر ومضيئًا لنفسه في تعجب:

تحتفظ به، نظرت ناحية سقف الغرفة الواسعة، أغمضت عينيها لئلا  
دمعة واحدة، شقت طريقها لأذنها اليسرى، حام الهواء البارد في طرفها  
كروح تائهة، يداعب أوراها مفردة على مكتبها ويرقص مع الساعات  
ويقتلها ببرود.

تلقي مؤمن رسالة نصية على هاتفه، فتح جهازه «الموتورولا» كبير  
الحجم نسبياً لينقسم لجزأين وقرأ رسالة تقول:

- أنا وصلت يارا وجايلك على المستشفى، البت دي مالها يا عم ١٩

قرأ رسالته وأغلق جهازه النقال مرة أخرى ثم تأكد من أنه ركن سيارته  
جيداً، هم بالصعود للدور الثالث حيث غرفة والده في المستشفى، بدأ  
المكان غير هادئ أو مريح مقارنة بآخر مرة، كل شيء يحدث حواء  
في طريقه للغرفة ملا معدته بشعور بارد يقول بأن شيئاً حدث، نظرات  
وهمسات من الممرضات، وجود بوليسي أكثر من الطبيعي حتى - ولو  
كان - في مستشفى لضباط الشرطة، استقل الأسانسير للدور الثالث،  
أخذ نفساً بارداً عميقاً مخلوطاً برائحة البنج الفاتحة في الهواء، انظر  
وصول المصعد بفارغ الصبر لمقصده، فتح باب المصعد تلقائياً ليرى  
المفاجأة، فريقاً من النيابة وغيره من المخبرين والضباط يتحركون في  
صمت في كل الاتجاهات، تأكد أن حدسه لم يخذله، ركض ناحية غرفة  
والده كالمجنون، استند بيديه على حلق باب الغرفة، وجد والده كما هو  
على سريريه لكن بوضعية مختلفة عن التي عهداها عليه، كان نائماً على  
كفنه اليسرى مواجهاً للباب، يتنفس بانتظام من خلال قناعه الشفاف،

لاحظ وجود شاش أبيض حول إصبعه الصغير، وبقياء دماء على الملائة  
واللون الأبيض الناصع، وجد أمه تتكلم بمزيج من الألم والرعب مع  
رجلين يدون أحدهما أقوالها، تتساقط دموعها مع كلماتها المهزوزة من  
ظلالها الطيبة، تربت على كتفها أخته الصغيرة صاحبة العشرين ربيعاً،  
صدمة الموقف واتسعت عيناه كمن رأى شيئاً، لاحظ الجميع وجوده  
بعد بضعة ثوان، حاول الرجل أن يبدأ بالحديث لكن سيقته الأم، ضمته  
بغضب وانفجرت باكية على صدره قائلة الكثير من الكلمات المتداخلة.

تركها تتلو عليه كل ما بداخلها، تفهم ما حدث وسلم عليه شاب ذو  
العينين الخضراوتين عرف نفسه كوكيل نيابة، ثم أضاف:

- الأحسن نتكلم بره.

- قالها بهدوء شديد.

قبل مؤمن رأس أمه وسلمها لأخته التي هزت رأسها متفهمة، توجه  
مؤمن والشاب للخارج في حين انتظر الآخر على كرسيه مسكاً بقلمه  
وكثير من الأوراق، قام عسكري يقف على الباب بتحتيتهما بالسلام  
العبري في طريقهما للخارج، مشى وبجانبه الشاب الذي نظر في ساعته،  
لمت نظره حارس الغرفة يجلس على بعد خمسة أمتار من الباب واضعاً  
يده على رأسه كأنه يعاني من صداع شديد، يبدو عليه كثير من الإعياء  
وبجانبه شخصان يتوليان التحقيق معه، في حين التقط شاب يرتدي قفازاً  
طلياً أبيض، كوب الشاي نصف الممتلئ الموجود بجانبه على كرسي  
ومشى بعيداً، استوقف مؤمن وكيل النيابة قائلاً في عصبية.

- إحنا رايعين فين؟!

- خيلنا نتكلم في حته بعيدة، الصوت العالي مش كويس عشان الوالد

- أنا مش همشي متر كمان غير لما أفهم في إيه! إيه الكلام اللي

جوه ده؟

- قول الحمد لله يا باشا! الحاج زي الفل وربنا نجاه.

- مين اللي عمل فيه كده؟

- لسه مانعرفش.

- يعني إيه مانعرفوش؟!

- مؤمن بيه! اهدى لو سمحت! وبعدين الحاج فاق كمان من الغيوب

يعني في أخبار حلوة أهو.

- وماحدش قال لي؟

- عشان لما فاق... للأسف - لقاهم قدامه.. مالحقش.

- اللي هما مين بقى أصلاً؟!

قالها بصوت عال أقرب للصياح.

- يا مؤمن بيه بالراحة بس عشان أعرف أشركك، ماينفعش كده.

- إتفضل يا باشا! إتفضل كمل!

مسح مؤمن على وجهه بكفه ونظر بعيداً في محاولة لتقليل العصبية

المسيطرة عليه، ليكمل الرجل:

أولاً إحنا مانعرفش مين هم، من الصور والكاميرات والتحريات عرفنا

أيه واد ومعا بنت هما اللي اقتحموا الأوضة على الوالدة والوالد، و..

وفعلوا صباعه وخده تذكّار، صح؟

ربت الشاب على كتفه محاولاً طمأنته:

هت سليمة.. كان ممكن تكون أصعب من كده.

طبعاً سليمة.. أومال مش سليمة!

قالها قارصاً شفته السفلى بعنف مستخدماً إيهامه، مرت ثانيتين فار

بعدهما دم مؤمن فجأة كما يفور الحليب فوق النار وهم بالهجوم على

العسكري نصف المخدر صائخاً:

مانا لو موقف مرة غالباً! عمرها ما هتسيب...

استوقفاه مخبر وضابط كانا يقفان أمام العسكري المخدر بصعوبة

وقاما بصناعة حاجز بشري أمامه، كأنما توقعوا أن يفعلها، فيما وقع

العسكري أرضاً من الفرع.

مالوش ذنب يا باشا! خدروه، خدروه يا باشا.. ماحسش بنفسه.

سيطر الاثنان على مؤمن وساعدهم وكيل النيابة الشاب، تراجع

مؤمن فجأة عن فعلته كأنما عاد إليه صوابه في لحظة من الزمن.

.. خلاص.. تمام! تمام..!

قالها بهدوء يحسد عليه وثقة لزملائه الذين تأكدوا من صدق نيته

وتركوه على مراحل.

حرك مؤمن رأسه متفهمًا، ثم ضرب الحائط بقبضته بعنف شديد.  
وهم بالرحيل، استوقفه وكيل النيابة قائلاً:

- أوعذك بمجرّد ما نجيب الواد ده هتعمل عليه أحلى حفلة مالهيلي  
مشكلة.

نظر إليه مؤمن بعينين حادتين محرّكاً رأسه إيجاباً ببطء ليضاهي  
الشاب:

- أنا نسيت أعرفك بنفسي، معلش.. الكلام خدنا.. أحمد موسى، وكيل  
نيابة قصر النيل.

- ابن رفعت بيه موسى؟

- صح كده يا باشا.

قالها مبتسمًا كاشفًا عن أسنانه بمزيج من الفرحه والخرج.  
- تمام.

- آه، نسيت أسألك، بالنسبة للحادثة، في حد معين تحب نشده الله  
شاكك فيه؟ أي أعداء للبحيري بيه؟

- لا مافيش حد في دماغى، معاك الصور؟  
- صور إيه؟

- كاميرات المراقبة بتاعة الطريقة.

- انت عارف إنه مايتفحش أوريبها...

- أنا شاكك في حد..

بس انت لسه قايل مافيش حد في دماغك!

قصة كبيرة.. قضية بحقق فيها.

وماله يا باشا نسمعها.

نظر إليه مؤمن بنظرة متفحصه ليقاطعها ثالث بدا وكأنه مساعد  
أحمد موسى قائلاً:

أنا خلصت أقوال الهانم، باشا! لو تقدر تخليها تروح ترتاح شوية عشان  
أعصابها.. يبقى تمام.. الهانم متأثرة جدًّا.

هز مؤمن رأسه إيجاباً ثم استوقف ممرضة كانت تمر أمامهم في  
عجلة.

خدي الهانم اللي في أوضة 212 ترتاح في أوضة تانية وخلي دكتور  
أعصاب يكشف عليها عقبال ما خلص مع الباشا، لو سألتك قوليلها  
مؤمن هو اللي طلب مني.

أومات الممرضة في خضوع وتوجهت ناحية الغرفة، وبالفعل  
تحرّكت الأم بجانبها الابنة التي جاهدت لتساعد على المشي للغرفة  
المجاورة، نظر لهما مؤمن من بعيد، شعر بكثير من الغضب والحزن  
بجتاحه، سب الحقير الذي فعلها بأقبح الأنفاظ من دون أن يتكلم،..  
تخيل نفسه يعذبه ويتزع من قلبه الصرخات، قاطع حبل أفكاره الدموي  
أحمد موسى:

- إتفضل يا باشا!.. إحكي!

أغلق الطبيب الباب وراءه وجلس الاثنان على كرسيين متقابلين، أخرج موسى شنترة صغيرة جلدية، فتحتها وأخرج منها ملفاً مغلقاً ذا لون بني فاتح، أخرج منه بضع أوراق وبضعة صور فوتغرافية، سلم إياها لمؤمن في يده، اتسعت عيناه مؤمن عن آخرهما كلما قلب الصور، تابع أحمد موسى انفعالات وجهه الواضحة ثم قال بهدوء شديد:

هو...!

تابع مؤمن مسح الصور بعينه من دون أن يدرك أن أحداً يتحدث إليه، توقف كثيراً عند صورة يمشي فيها الشاب ذو اللباس الأسود بنصف البسامة لم توضح كثيراً من شكله، حيث إن شعره الناعم قد غطى تقريباً نصف وجهه المقابل للكاميرا المراقبة، احتوى رد فعله على كثير من الاستهانة والتحدي، بطير ذيل معطفه الأسود وراءه، وتبعه الفتاة بكل لفة وهي تنظر للأمام، صورة من زاوية أخرى يشير بذراعه ناحية الكاميرا الخفية وجهه بينما ينظر بكل ثقة للأمام في طريقه للخارج، دقق مؤمن في الصورة ليجد أن الشاب قد أشار بإبهامه للأسفل كأنه يريد أن يقول «سبي!»، كان هو، نفس مواصفات الشخص الغامض الذي تحدث عنه المخرج ورفاقه تلك الليلة.. تطابق شبه مكتمل.

مؤمن بيه؟!

قالتا أحمد موسى بصوت أعلى لينظر إليه مؤمن مصدوماً بعدما أدرك أنه قد شرد للحظة، محرراً رأسه إيجاباً:

هو..

تكلم مؤمن قرابة نصف الساعة عملاً حدث بداية من جريمة القتل الغامضة في المرح حتى الحسين، شارحاً لزميله المهتم نوع المجرمين الذي يلاحقونه، والذي يشك أنه هو من بدأ بلاحقهم جميعاً الآن، رد عليه أخيراً موسى باهتمام شديد:

- طب انت عرفت بيقتل الناس دي ليه؟

- ماحدش عارف، الأولاني نفر آمن مركزي مش لاقين حاجة عليه، والثاني كان شغال محامي في مكتب الأنصاري!

- أنا بسمع عن واحد بيعتصب النسوان الشمال مثلاً يعذبهم ويعذبهم يذبهم، واحد معقد بيقتل العيال الصغيرة، لكن واحد بيقتل الناس عادية.. جديدة بصراحة.

تحرك مؤمن خطوتين للأمام وسرح في طفلين صغيرين يلهوان في القسم المقابل للعناية المركزة، ثم استطرذ:

- أنا كنت مستني منه أكثر من رسالة الفترة اللي فاتت، بس كده كثير عدى الخط.

دخل غرفة الوالد حيث يحتفظ «موسى» بصور فوتغرافية حصل عليها من كاميرات المراقبة، قبل مؤمن رأس والده شبه المغشي عليه، في حين هم طبيب ضخمة الجثة كان يتفحصه بالخروج من الباب بعدما طمأنه على حالته، سأله مؤمن:

- هيقدر يتكلم يا دكتور؟

- ممكن جداً.. إن شاء الله.



- عرفت منين إن هو وانت عمرك ما شوفته؟

- أنا متأكد انه هو.. زي مانا متأكد إنني بكلمك، 100٪ شبه الرسم اللي سلمته لعبد الجليل.

- يا باشا ده معظم وشه مش باين، ثانياً عشان تربط الواد ده بجرايم ثانياً لازم يكون عندك دليل، ماينفعش بالإحساس كده.

- دي تفاصيل شغلي، مش مطلوب منك إنك تصدقني.

- طيب، أنا هاخذ الصور، مش هقدر اسببها لك، من وجهه نظري دي قضية غير بتاعتك.

- مش صح.. هي نفس القضية.

- دي تفاصيل شغلي..!

قالها ساخرًا ثم أكمل مادًا يده:

- الصور!

تردد مؤمن في إعطائه إياها ثم تذكر أنه في غنى عن صدام جديد مع النيابة، أعطاه الصور بعدما ألقى نظرة أخيرة عليها ثم قال بسخرية:

- كان عندي إحساس إنك مختلف عن بتوع النيابة.

- إحساسك لتاني مرة مش صح يا مؤمن بيه..

قالها بعدما وضع الظرف في مكانه مرة أخرى ثم استطرد:

- أنا كان نفسي فعلاً أساعدك، بس انت اللي مش عايز تساعدنا، عموداً يردده من حقلك تعرف ان الواد ده صورته اتبعت بعد الحادثة علطول

للمباحث ولا الهوا، لا حد يعرف عنه أي قصة ولا حد شافه قبل كده، حتى المسجلين والسوابق عمرهم ما شافوه، وطبعاً ما عندناش اسمه، فرمة سعيدة يا باشا، سلام!

هم وكيل النيابة بالخروج بينما جاء اثنان من أصدقائه ليستقبلوه، أطلق واحد منهم مزحة نابية غير مكرترة بالجو العام للمكان، قابلها موسى بضحكة هيسيرية، اخترقهما مؤمن بنظرة غضب مرت خلالهما كطليقة مختربة الدروع، ثم نظر لوالده بنظرة بها كثير من الشفقة التي تقطر غشياً، أخرج مسدسه المحاط بجرايه الأسود ووضع على المنضدة التي أمامه، مسح يديه على وجهه كما يغسل المستيقظ وجهه بالماء البارد حتى يفيق، نظر للسقف في يأس، ثم قالها متمثلاً لنفسه بصوت خافت للغاية يملأه خيبة الأمل.

هبدأ منين؟!

هم بالقيام متوجهاً للخارج بعدما وضع مسدسه في مكانه مجدداً ثم قفل رأس والده، نظر لعينييه المغلقتين وقال له بهمس:

- حقلك عليا.

شرب قليلاً من الماء من زجاجة بلاستيكية موضوعة على المنضدة على يمين السرير، أغلق الزجاجات ثم نظر مرة أخرى لوالده، ثم همّ بالخروج واضعاً يده على «كوبس» الكهرياء حتى يقلل من إضاءة المكان، لكن شيئاً ما جعل أصابعه تتجمد على زر الكوبس، صوت ما.. يعرفه جيداً.



- حاتم.. تم.

قالها صوت ضعيف للغاية، به كثير من الضعف والوهن، لكنه لم يكن سوى صوت والده الذي استيقظ مجدداً، ذلك بعدما طارعت عضلات ذراعه الواهنة لتمسك بالقناع الشفاف، ويقولها بضعف شديد ثم تلاها شهيق عميق بدا في غاية الصعوبة، كأن الهواء يمزق رثيته ببطء كانت صدمة جعلت مؤمن المتجمد ينظر بشغف ناحية مصدر الصوت.. هب مؤمن بالركض ناحية والده جالساً على ركبتيه أمامه، قائلاً بكثير من الفرح:

- حمد الله على سلامتك يا كبير!

- حاتم.. اسمه.. حاتم.

قالها بصعوبة شديدة.

- بتتكلم عن مين..؟

- الولد.. اللي كان.

تابع ثم أخذ شهيقاً آخر بنفس العمق والصعوبة واستطرد:

- اللي كان هنا.

- حاتم..؟

- حاتم.. الأسود..

نظر مؤمن لوالده بصدمة شديدة، تلاقى حاجباه في دهشة وتجمد الكلمات في حلقه، سأله بشغف تملأه الصدمة:

أعرفه منين؟

أعرفه.. عشان أنا...

ردّ بعناء شديد ثم أخذ شهيقاً عميقاً وأكمل:

أنا اللي مريبه.. يا مؤمن.

هم مؤمن بقول شيء ما بعدما فتح فمه، لكن الكلمات رفضت الخروج من فمه.. ضاق صدره بما يحدث من مفاجآت، وانتهى الحوار بينهما.

\*\*\*

«علق بصوت خافت ساخرًا بعدما استقر فوق كرسي أمام البار، اتجه  
بطائرة ناحية عازف البيانو متعجبًا.

«لغيتوه فين؟

«كسبناه في جبة باندا.

«انفجر منير ضاحكًا، ليبادل يوسف باتسامة حاربت الأعصاب  
الدخفية الاثنتي عشرة لترسمها على وجهه.

«المستر كان يبسأل عليك، مش ناوي بقي؟!

«وضع منير واضعًا كوبًا زجاجيًا كبيرًا، ثم صب فيه قليلًا من المياه  
الغازية الشفافة المفضلة من جانب يوسف.

«صعب أرجع.

«براحتك، آه، المصلحة دي تبعك.

«قالها منير واضعًا ظرفًا أبيض على البار بجانب كوب المياه الغازية،  
نظر يوسف للظرف محاولاً فهم ما يحدث ليكمل منير.

«بقيت فلوسك.. مصطفى سابهملك النهارده الصبح.

«هو فين مصطفى؟

«أخوه تعب، كان عامل عملية في مستشفى حكومة وجاله فيرس، بس  
مش عارف إيه بالظبط.

«دي حاجة تزعل.

«رد يوسف متأثرًا.

## (26)

كانت كغيرها من الليالي الهادئة، تحمس يوسف طريقه للبار في  
صمت بغية ألا يلتفت النظر إليه، وجد كل شيء على طبيعته في مطعم  
وبار «Le Chance» الفاخر، إلا مكانه أمام البيانو، والذي احتله شخص  
ما، كان رجلًا في نهاية الخمسينيات، ممتلئ الجسد، تنزل صغيرة صغيرة  
من شعره الأبيض على ياقة بدلة السوداء، يعزف مقطوعة «Moon light»  
ليبتشوفن برداته، كان المطعم نصف مزدحم، استقر يوسف على كرسي  
طويل أمام البار الهادئ، ألقى عليه منير تحية دافئة بوجه بشوش للغاية،  
صافحه مبتسمًا لتبتسم عيناه البشوشتان مع كل ملامح وجهه كعادته.

«منور يا مايسترو!

«إزيك يا منير؟

«رد يوسف وقد ظهر عليه العناء لينطق كلمة واحدة مكتملة.

«تمام الحمد لله.. إيه؟!.. إتحولت إمتي؟

«قالها منير ماسحًا كأسًا زجاجيًا أمامه بغوطة بيضاء ناصعة.

«إتحولت؟!

«بقيت مصاص دماء إمتي يا مايسترو؟ انت مش شايف ولا إيه؟ عليك

داخلة لجوه وشك مصفر، ناقصلك نابين بس.

«عضني خفاش.

- ده الطبيعي، بقولك! لازم تفكر ترجع بجدة.. الناس كلها هنا عايزين  
وبعدين الزباين بتتعذب يا عم حرام عليك، في ناس كتير سألت عايزين  
بالإسم.

- في حاجة حصلت هتخليني مشغول الفترة الجاية.

- مش مطمئن أنا، تغيب كام أسبوع ترجع خامس النص ومشغول  
لو مش يوسف أصلاً كنت حلفت ان اللي قدامي ده واحد بيض  
بودره.

- مش طريقي المفضلة في الموت.

- شكله حوار كبير.

صفق بضعة أشخاص مجاملة للعازف نصف السيء بعدما انتهى من  
عزفه وهم بالقيام.

- نبقى نكمل كلامنا بعدين، شكرًا على الساقع!

- براحتك يا مان، بس استنى صحيح! المستر عايز يكلمك في حوار.

- مش هينفع يا منير.. مستحيل أرجع دلوقتي.

- قوله الكلام ده بنفسك معلش، انت عارف دماغه، لو انت مشيت من  
غير ما يشوفك أنا اللي هتشدد.

- بسرعة عشان لازم أمشي.

تفحص يوسف ساعته الفضية في حين تابع منير:

«بقية وهيكون قدامك، واهو بالمره أحط سيدنهاية أنضف بيها ودان  
الGuest مطرح ال«تسلخات» اللي كانوا بيسمعوها دي.

مان تأخرش!

«يا عم لو اتأخرت عليك ناملك شوية، انت آخر مرة نمت إمتى؟..»

قالها متجهًا لمتنصف المطعم بدون أن ينتظر الرد.

سؤال صعب.

تمتم يوسف بها لنفسه بصوت خافت، ثم ألقى نظرة على كتيبة  
المشروبات الروحية التي أمامه كأنه لم يراها من قبل، بدأت موسيقى  
اللاسيكية رقيقة ترتفع في كل جنبات المطعم، كان الصوت خافتًا لكن  
«سَمِعْ»، غنت مطربة مجهولة «قلبي ومفتاحه.. بقى ملك إديك..»  
لهتل صوتها العذب قلب وعقل كل الموجودين في المطعم، نظر  
يوسف مرة أخرى لساعته وتابع شرب ما تبقى من الشراب من دون أن  
يفكر فيما يشرب، سرح في تفاصيل حياته الدامية منذ أن بدأ التحقيق  
في تلك القضية اللعينة، تمنى لو أنه قد استقال قبل أن يكلفه «الرجل  
البطريق» بتلك المهمة المشؤومة، يتخيل منظر الضحيتين ويطابقهما  
بذاكرته، تذكر كيف تجاهل الاتصال من عمته وبتتها لأنه لا يعرف ماذا  
يقول، تملكته التشعيرية عندما تذكر منظر ولید وهو متجمد كقطعة  
الثلج على الأرض ودمه يزين بلاط الأرضية، تمنى لو أنه لم يحضر ذلك  
البرنامج، ثم أخذه عقله في جولة ليستحضر ما حدث في الحسين، تلك  
المسكينة التي تلقت إهانة عمرها، تملكه شعور بالألم أنه لم ينقذها منذ

البدائية، ذلك الجسد الذي تسابق الأثرياء والمشاهير للحصول عليه بأي ثمن وفشلوا، ثم انتهى به المطاف على مائدة مجانية لبضعة ذئاب جائعة لا تفرق بين العاهرة والأميرة، يارا قاسم: الأميرة التي سقطت من فوق جوادها في بئر من التوستيسترون والعرق، تمنى للحظة أن يفيق من ذلك الكابوس ليعود مرة أخرى لحياته الطبيعية، تمنى أن يرى صديقه المخلص مرة أخرى.. سيزار.

أخرج من جيب الجاكيت مفكرة صغيرة ملحق بها قلم، بدأ بكتابة بضعة كلمات في صفحة مكتوب التاريخ في أعلاها مسبقًا، كتب على مجلدها الخارجي «الأيام الأخيرة»، ثم ترك قلمه يكتب ما يريد:

«لا ضرر أن تصف قاتلاً في جريدة، الضرر يحدث لو اشتراها..

إثارة قاتل متسلسل.. كان آخر ما أحتاحه، لقد صنعت كابوساً من العدم.. رميت حجرًا في بحر من الغضب، أيقظت الشيطان ووقفت أمامه، أحياناً يكون أعمق مخاوفك وقتاً لا تجد فيه شيئاً لتفعله، النزعة الإجبارية التي يرغمك الوقت أن تحصل عليها مع عقلك، المشي بين الذكريات الشائكة والصور المؤلمة عاري القدمين، تدمي قدميك الخسائر كما تدميها أكسار الزجاج، ثم تحصل على وجبتك المجانية من الندم.

ها أنا ذا أخسر شيئاً تلو الآخر، أتخطى حدود الجاذبية وأسقط، كلاعب جبل عبث مع فيزياء الاتزان وشرد مستمتعاً بالتصفيق، لقد

كتب يوسف ما بداخله ثم وضع المفكرة في جيب الجاكيت مرة أخرى، فتح جهازه النقال وقصد هاتف مؤمن، انتظر لثانيتين حتى يرد «من قالت خلالهما تلك الساحرة:

«قلبي الحيران يا حبيبي.. وعيني كمان يا حبيبي.. هجروني وراحو من شوقهم ليك».

ثم رد مؤمن على المكالمات:

«انت فين؟

«في المطعم، مال صوتك؟

«مافيش، حصل حوار كده.

«قول كل حاجة!

«لما نتقابل.

«بس أنا عربيتي مش معايا.

«قالها يوسف معيداً مفكرته لجيبه.

«خذ المترو وانزل في أي محطة قريبة وأنا هجيلك.

«مش هينفع المترو، أنا هاخذ تاكسي وهجيلك المستشفى.

«مستنيك.

- مسافة السكة.

ابتسم يوسف قليلاً بعدما أغلق هاتفه مجاملة للـ «مستر» الذي حذر نفسه ليقابله، سلم عليه يوسف بعدما قام من على كرسية احتراماً، سأل بعدما استقر بالكرسي المجاور له:

- إيه يا فنان؟! تفلان علينا ليه؟!

- بالعكس.

قالها يوسف مبتسماً نصف ابتسامة.

- أمال في إيه؟! مالك! شكلك مرهق جداً، في مشكلة؟

- شوية تعب.

- ألف سلامة، منير سلمك الفلوس؟

- حصل..

- يوسف!، انت عارف إحنا بنحترمك إزاي، فريد بيه بنفسه سألني عليك، أنا قولته مرهق شوية وأكيد هيرجع ثاني.

- أنا عايز أرجع للمطعم بس...

- مايشش ولا حاجة، هترجع لمكانك، الناس هنا محتاجك، وهنزودلك الفيزا كمان.

- صدقتي الوقت مش مناسب حاليًا، أنا أسف جدًا!

- يعني إيه مش هينفع! يعني أنا أجيلك بنفسي وتقولي الكلام ده؟ يبقى

الكلام اللي بسمعه ده بجذ بقي؟!

قالها بحدة بعدما تغيرت معالم وجهه.

انت بتتكلم عن إيه؟

من جرايم وتهديدات بالقتل وكلام أهل مايتصدقش.

قام يوسف مترنحاً من فوق كرسية الذي كاد يسقط ثم قال:

مين اللي قالكوا الكلام ده؟

قالها يوسف بعصبية شديدة مشيراً بسبابته ناحية منير الذي

اجمعد على البار أمامهم.

إهدى يا يوسف الGuest بيص علينا.

يعني الكلام ده بجذ؟!

تساءل متعجباً وناظرًا ناحية منير الذي بادله نظرة تحمل كثيرًا من

الصدمة، في حين بدأت أغنية جديدة لمطربة أخرى تمتلك صوتًا أكثر

جمالاً وكلمات أكثر عمقًا وتأثيرًا:

«بحلم معاك بسفينة.. وبموجة ترسينا.. ونبحر ثاني.. الريح تعاني..

والأنيك في عنبك وإديك.. شطي وأماني..».

- إزاي؟! إزاي يجيلكوا الجرة تعملوا حاجة زي دي؟!

قالها يوسف بوجه حاد للغاية.

- إهدى يا يوسف بس! حاجة إيه اللي بتتكلم عنها؟!

رد منير.

«العالم كله.. بأسراره.. عايش جوايا.. عايش ويايا.. طول ماله»  
في الرحلة معايا».

- مالك يابني في إيه؟!

قالها المدير بصدمة.

- مالي؟ مالي! يا شوية مرضى يا حيوانات!، كان لازم أعرف إنكم مشتركين في ده م البداية.

- إهدى يا يوسف إيه اللي بتقولو ده؟!

قالها منير ليوسف الذي تراجع للخلف في حركة دفاعية لسطح الكرسي أرضاً وخلفه يوسف ويصمت المطعم كله، قام من كبوته والجميع بنظرهم ناحيته في دهشة، أكمل يوسف طريقه للخارج قائلاً:  
- أنا عرفت كل حاجة، كل حاجة!! هقفلكم المطعم ده وهرميكوا كلكم في السجن! النهاية قربت!، هوصله.. وهخليه يعترف عليكم! بكرة تشوفوا!!

قصد يوسف باب المطعم وسط صمت كل من في المطعم على نجاة الصغيرة، تحسس المسدس المختفي في جيب معطفه ثم هم بالركض بعصبية، خشية أن يتبعه شخص ما، تركض معه أنفاسه المتفعل ومخاوفه.

\* \* \*

(27)

استقرت التويوتا الزرقاء الداكنة ذات الزجاج المطلي بالأسود الداكن أمام مستشفى ضباط الشرطة، لم يكن واضحاً عليها أية أرقام سوى يافطة صغيرة سوداء كتب عليها «Number Busy»، بجانبها قليلاً ظهرت علامة «أرنب بليس «بيبون» فوق رقبتة بالأبيض، لمع نسر ذهبي فوق زجاجها الأمامي الداكن، بداخلها لم يكن سوى معاذ يأخذ آخر أنفاس سيجارته الأخيرة، يتابع ردود أفعاله أصدقائه على القيسبوك بينما اعتلت وجهه السامة ساخرة كلما قرأ التعليقات، كانت سيارته من الداخل عبارة عن مزيج من موسيقى الـ «Trance» الصاخبة وسحب الدخان المتمزجة بالعطش، قاطع شغفه اتصال هاتفي من زوجته جعل وجهه المستبشر بانهم، رفض المكالمات ثم وضع الهاتف جانباً وهم بالنزول، لم يفتح باب السيارة حينما رآها تنزل من التاكسي، متجهة ناحية المستشفى في عجلة، ظهر واضحاً أنها ممرضة قد تأخرت عن ميعاد دوامها، كانت من النوع المفضل لديه، بيضاء، طويلة، نصف ممثلة، تمتلك بعض الرشاقة وشعرًا أسود طويلاً ملفوفاً فوق رأسها، ترتدي زيًا موحدًا «يونيفورم» من اللون الأبيض يزينه خط وردي الفاتح، في يدها شنطة كبيرة تحتوي على ما يبدو - على ملابس أخرى سترتديها بعدما ينتهي العمل.

- سامحني يا (مو).

قالها معاذ لنفسه عندما رآها تعبر الشارع في اتجاه المستشفى، ثم  
 ترك السيارة سريعاً وأغلق الباب، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته وقلدها  
 بعيداً في الطريق لصيدة الثمين، يلتهمها بعينه الضيقتين، يرسم ملامح  
 وجهها المكتنز في ذاكرته مطلقاً ما تبقى من دخان في رثيته ثم استوقفها،  
 وقف بينها وبين بوابة المستشفى التي بعدت عنهما بسبعة أمتار تقريباً،  
 ابتسم غير مهتم بالفروق الحجمية بينهما، نظرت له بصدمة وقالت  
 - أفندم؟! في حاجه؟!

- بصي، أنا مش جاي أضيع وقتك أو أعاكسك، ولا أبهدل نفسي قدام  
 بوابة مستشفى، أنا بس عايز أقولك على حاجة مهمة جداً.  
 قالها بكل ثقة.

- مين حضرتك الأول؟! وتعرفني منين أصلاً؟!

- أنا ظابط جيش، وأعرفك منين؟.. هو ده بقى مربوط.. (الفرس).

قالها بسخرية جعلتها تكتم ضحكة أرادت أن تخرج منها عقوباً.

- لو عايزة تعرفي أنا عارفك منين وعماز منك إيه، يبقى تبجي معايا نفعاً  
 في أنضف مطعم في مصر وتكلم وإحنا بتعشى، وصدقيني! عمرك  
 ما هتندمي.

- أنا ما بندمش.

قالتها ورمقته بنظرة إعجاب واستهتار يزينها ابتسامة تقول بكل  
 وضوح (الإشارة خضراء لامة).

و أنا معاذ السيد.

رد ساخراً ماذا يده ليسلم عليها في حين ضحكت الفتاة بهيستيريا ثم  
 لما لكت نفسها ونظرت لبوابة الأمن خشية أن يراها أحدهم، وقالت وهي  
 يسلم عليه:

بس أنا ورايا شيفت..!

- ولا أكنك (شيفت) حاجة.. تليفون واحد وهخلي إسمك حضور  
 لآخر الشهر.

أطلقت ضحكة نصف رقيقة ثم نظرت للسماء في حيرة وقالتها بعد  
 بضعة ثوان:

- غلبتني!. وانت ظابط بجد، ولا بتضحك عليا؟!

قالتها في الطريق لسيارته.

- هتعرفي قد إيه أنا ظابط لما تعرفيني أكثر...يا...

- إيمان.

- حلو إسمك.

- وانت دمك خفيف.

- كل دي حاجات بسيطة.

ضغط على زر في ريموت كنترول لفتح العربية أقالها منتظرة الفريسة  
 الجديدة لتدخل الشرك بإرادتها الحرة، استقر الاثنان في الكرسيين  
 الأماميين وألقى معاذ مزحة جعلت الفتاة ذات الملامح الجذابة تضحك

بصوت أعلى هذه المرة، وانطلقت السيارة، أضاءت مصابيح التويوتا زئبقية اللون الطريق، أصاب صَوُّها القوي رجلاً كبيراً في السن يعبر في الناحية المقابلة معتكراً على عصاه، أطلق سبّة وتلاها بدعوة خرجت من قلبه ولم يسمعها أحد.

لكن المشير في الأمر أن التويوتا أصدرت صريراً وتوقفت فجأة في منتصف الطريق... كأن شيئاً ما حدث لسائقها.



## (28)

أعلنت ساعته الرقمية كبيرة الحجم عن تمام الواحدة صباحاً، كان هو ذلك الشاب المهندم ذا الشعر اللامع والحاجبين الأسودين الكثيفين... مؤمن.

دفع الباب الزجاجي ليدخل ذلك المطعم الشهير لوجبات الدجاج المقالية السريعة، نظر يساراً حتى وجد ضالته في منضدة صغيرة يجلس عليها شخص كبير الحجم لا يتناسب مع حجمها، بدا الكرسي الذي يجلس عليه ككرسي أطفال بالنسبة لجسده الضخم، لم يكن سوى أحمد نوح، يلتهم وجبة العشاء الخاصة به في انتظار مؤمن الذي هاتفه منذ دقائق.

- الصوت عالي قوي هنا يا سكاتيا!

قالها مؤمن معلقاً على صوت التلفاز العالي بعدما جذب كرسي واستقر بجانب صديقه العملاق.

- إيه يا كبير عامل إيه؟

رد نوح وبقايا الأكل على فمه ورمق مؤمن بصدمة كطفل قد ضبطته أمه يأكل من طعام إخوته في منتصف الليل.

- إيه الجديد؟



انت هترسم؟! مش عارف يعني إيه مسطردة؟!

أنا ما عرفش يعني إيه بجد؟

هقولك كلمة وسخة!

فالها مؤمن بحددة.

والله ما عرف.

بنحلف بالله؟!

يا باشا إحنا ولاد كلب تعليم مجاني، معلش، مالناش في الحاجات

المودرن دي زيك.

سكانيا! كمل بقى عشان أنا فعلاً على أخرى!

ماشي يا كبير، براحتك.. تحرياتنا عن الواد الأولاني، نفر الأمن

المركزي، واد غلبان جذاً، ولا ليه في أي حاجة.. كل الكلام اللي

سيادتك قولته صح.

هم بقضم قطعة دجاج كبيرة وتلاها بشفطة عميقة من المياه الغازية

لم أكمل:

الغريبة انه مالوش تقريباً أعداء، والأغرب انه شخص عايش حياة

بسيطة جداً.

إزاي يعني! أكيد فيه حاجة بيعملها، أو خصلة فيه عملت منه هدف،

انت جاي هنا تسمعنني نفس كلام العيال اللي معاه في المعسكر!!

ما فيش مجنون بيقتل الناس بعد ما يعد عليهم حادي يادي.

تابع مؤمن بوجه صارم متفحصاً الوجبة العائلية التي قد التهم نوح نصفها تقريباً بمفرده.

- معلش يا باشا لسه سامع على البحيري بيه، ألف ألف سلامة عليه أنا...

- من دلوقتي ولحد ما آخذ حقي، ياريت ماتكلمنيش في الحوار ده.

قاطعه مؤمن مقاطعاً بهدوء وثقة.

- حقتك يا كبير، نخلي كلامنا عن التحقيق أحسن.

- وصلت فين؟

- هقولك بس تاكل معايا الأول، أطلبلك واحدة دينر؟

قالها مغرماً قطعة دجاج في حوض من الكاتشب صنعتة منذ فترة.

- ماباكلش فاست فود، وماباكلش أصلاً بالليل.. خلينا نتكلم في الشغل!

- طاب ناولني الكاتشب اللي جنبك ده معلش عشان الكاتشب اللي

معايا قرب يخلص.. وأنا محكيلك.

بعد تفكير عميق، أطلق مؤمن نفساً عميقاً مسيطراً على أعصابه

بمعاناة، ثم نظر تجاه زجاجة الكاتشب التي أرادها نوح ليرد:

- دي مسطردة مش كاتشب، ما فيش كاتشب هنا.

أشار لزجاجة صفراء على المنضدة المجاورة.

- يعني إيه مسطردة؟!

- صدقتي يا باشا مافيش حاجة.

- فكر كويس يا نوح! مافيش أي حاجة شمال عملها؟

- ولا الدموع - بقولك إيه - أبيض.

رد عليه مؤمن بعد دقيقة من الشرود:

- في حاجة مش تمام.

- مش عارف.. والله.

قالها واضعًا إصبعه الصغير بين أسنانه محاولًا إخراج قطعة دجاج عقلت بين أسنانه الديناصورية.

- والثاني؟

- كنت فاكرك إنك تعرفه أكثر مني!

- أرغني.. قلولي حاجة أنا ماعرفهاش!.

- مافيش حاجة معينة.. وليد.. مميم، مدمن طبعا، مسجل نصب وعنده كام سابقه، بس كن شويه، يعني بقاله بتاع سنة ماتشاقاش، وشغله مع الأنصاري كان يعتبر متغطي يعني، الأنصاري فاتح مكتب المحاماة ده يعني واجهة كده عشان فلوس البودرة اللي عملها زمان يعرف ينضفها لو رجالة «المشروع» هاجوا عليه، وعشان يخش الحزب من غير ما حد يعلم عليه.

- ما تاجرش في أي حاجة الأنصاري؟

تساءل مؤمن ماسحًا المكان بعينه.

ولا انا حتى تمناية بني.

استحيل الكلام ده.. يعني انت عايز تقولي...

قالها مؤمن بصوت عال ليلفت بضع أشخاص في المطعم ناحية الصوت الذي انفجر فجأة، عدل من نبرة صوته وأكمل حديثه بنفس الهدوء والعصبية لنوح الذي تجمد الطعام في فمه الكبير:

انت عايز تقولي إن سفاح قرر يدبح مجند أمن مركزي ماشي في حاله ونصاب قرر يتوب، انت عايز تجيبلي الضغط؟!

يا باشا أنا مال أهلي أنا، انا جيتت اللي أقدر عليه عن الحنتين، بتسخن عليه أنا ليه؟.

لأن في حاجة ناقصة..

ماشيني.. و أنا حدودي خلصت هنا.. أعمل إيه!

صمت مؤمن ثابتيين بعد أن شرد ببصره بعيدًا وأضاف:

أنا اللي هعمل!

شرد في زجاج المطعم محدقًا في الشارع ثم في ساعته مجددًا، مرت دقيقة من الصمت لم يسمع فيها مؤمن شيئًا ثم.. رن هاتفه، كان يوسف المتصل، ضغط مؤمن على زر الإجابة وقالها بسخرية سوداء:

انت جاي مشي بقى.. مش بتاكسي.

ثم صمت لتتسع عيناه عن آخرهما، تغيرت معالم وجهه لترسم صدمة رجل رأى شبحًا في المرأة، هب واقفًا على قدميه قائلاً:

- انت فبن بالظبط...؟

ركض خارج المطعم في دعر واضعاً الهاتف على أذنه محاولاً سماع شيء ما، استقر بالخارج ثم صاح:

- ألوا! يوسف! يوسف!

قالها بصوت عالٍ للغاية به كثير من العصبية والخوف، ثم نظر إلى هاتفه كأنه لا يعرفه، ركض تجاه سيارته.. وهو يعلم أنه سيضار الوقت.

قبلها بساعة..

- ميه معدنية لو سمحت.

قالها يوسف لصاحب كشك صغير افترسه الزمن، يقع فوق رصيف هنك عرضه وتقبله علامة محطة مترو في حاجة ماسة للتنظيف، كان ذلك بعدما ترك المطعم ببعض الوقت.

- التلاجة على شمالك، إنفضل معانا يايا!

كانت رد رجل في الفصل قبل الأخير من حياته، يرتدي «طاقية» بيضاء مزركشة صغيرة فوق رأسه الأصغر، يقشر برتقالة خضراء كبيرة بسكين صغير.

شكره يوسف وفتح التلاجة ثم أخرج زجاجة مياه صغيرة، أخرج من جيبه عملتين معدنيتين وضعهما من خلال النافذة الصغيرة، فتح الغلاف البلاستيكي المحيط بعنق الزجاجة ثم وضعه في جيب الجاكيت الذي

بدا هادئاً بالرغم من الإعياء الشديد الواضح عليه، شرب نصفها في مرة واحدة، كأنه تائه في صحاري إفريقيا لم يشرب الماء منذ أمد، خرج في علامة المترو الحمراء «M» وامتلكه الهدوء المسيطر على المكان، تنفس قليلاً من الهواء المجدد الذي كاد يمزق رتبية كالكسكين، ثم نظر لساعته للتأكد من نظريته، كانت الساعة الحادية عشر وأربعين دقيقة، تجرع النصف الآخر من زجاجته ثم بحث عن سلة مهملات يدخلها بداخلها، لم يجد حوله أي شيء يفيد، لكنه لمح بقايا سلة مهملات صدمة بالقرب من علامة الميترو، بدت كبقايا شظية تركتها حروب 73 في متحف حربي، مفتوحة من الأسفل ليسقط منها الزجاج وبها الأكل، توجه ناحيتها ووضع الزجاجة بها لتسقط بجانب رفقاتها، على ناحية حافة الرصيف متمنياً أن تلقفه سيارة أجرة لصديقه الذي بدأ الغافق يتباه عليه بعد المكالمات الأخيرة، ففزت السيناريوهات السوداء داخل عقله لدرجة جعلته لا يريد أن يفكر في أي شيء جديد، تمنى أن يكون ما يخفيه صديقه أقلمهم ضرراً، أشار لسيارة تحمل علامة «تاكسي» بها ملته، ثم أشار لآخر مر بعد دقيقة، سألهم يوسف:

المعجزة؟

لا معلش مش هروح هناك.

قالها السائق ماضعاً علكة باستهتار ثم أكمل:

اركب المترو يا برنس ماحدث هيوصلك هناك دلوقتي، انزل البحوث.. دي أقرب حاجة.

- شكراً.

قالها يوسف بهدوء وخيبة أمل ثم أضاف بعدما ذهب السائق بسيارته بعيداً.

- كان نفسي يا برنس!

نظر لعلامة الميترو ثم نظر أمامه مجدداً وحرك رأسه يميناً ويساراً بحثاً.

لقت نظره نباح كلب بالقرب من السلم المؤدي لمحطة المارو تحت الأرض، صوت جعله يدور بوجهه ناحية الصوت بصدمة ودهشة شديتين.. لقد كان صوتاً يعلمه.

نظر ناحية الصوت ليجد أن حساباته صحيحة، كان هو، أو على الأقل كلب يشبهه بنسبة مائة وعشرون في المائة، بدا كأنه يبحث عن شيء ما، شم الأرض ثم هرول على سلم المترو للأسفل، كل ذلك على بعد بضعة أمتار من يوسف الذي تجدد من الصدمة ثم صرخ:

- سيزار!!

لم يتوقف الكلب عن الحركة وظل يشم شيئاً على سلم المترو ثم يركض مجدداً للأسفل حتى اختفى، شعر يوسف بالصدمة لأن سيزار لم يشم رائحته من هذه المسافة القريبة، بل ولم يلتفت عندما ناداه، كان هناك شيء غير صحيح.. شيء أكثر غرابة من أن تسقط السماء فوق رأسه وينجو بنفسه بدون خدش.

كابوس.

تمتم بها يوسف، كان اليوم كله ضريباً من الخيال بالنسبة له.. خيال برنس، وما هو ينتهي بمرور صديق عمره بجانبه دون أن يتوقف، أقسم بأنه وبين نفسه أنه هو، ركض تجاه السلم وهبط للدور الأسفل محاولاً العثور عليه، خبط في كتف شاب ضخم الجثة وصغير السن، لم يلتفت له، ظل يطارده ضالته، نادي عليه مجدداً بنفس درجة الصوت، حاول لنفسه أثرة في ذلك المكان الذي لا يفضل، لكن لا شيء، لا أثر له.. لجاهل شعوره بالخوف من الأماكن المغلقة الذي بدأ يتسلل لعروقه لأن شعور أصعب قد تملكه.. وأكثر ألماً.

كانت محطة المترو شبه فارغة، مثل قسم الجراحة في مستشفى عام في عيد الفطر، نظر حوله في دھول، حاول العثور عليه، لكن لا شيء، كان حوله ما يقرب من ستة أشخاص، اثنان عند جهة القطار، واثنان يقفان أمام شباك الحجز يتحدثان مع الموظف عن شيء ما، وآخر يتحدث في هاتفه في الطريق للصعود على السلم، والأخير، شاب يغطي رأسه بجزء من قميصه الرياضي الداكن الذي يرتديه، يتجه في نفق ناحية اتجاه القطار المقابل بمفرده، واضعاً يده في جيبه.

توقف يوسف عن الحركة وسكن في مكانه، تمنى أن ينتهي صوت شهيقه وزفيره المتسارعين حتى يتمكن من سماع صوت سيزار، خرج بهار الماء من فمه كالدخان مع كل زفير، انتظر يشغف أي صوت أو خبط ليتبعه، ومرت بضعة ثوانٍ.. ولا شيء.

دوى صوت نباحه في المكان مجدداً، لكن تلك المرة كان من الذي مر منه الشاب ذو الرأس المغطى كالرهبان، اتجه ناحية النفق بسرعه ركض حتى سمع الصوت مجدداً وتأكد أنه في الاتجاه الصحيح.

عندما انتهى الممر، وجد يوسف نفسه في مواجهة رصيف آخر وقف عليه ثلاثة أشخاص، رجل وامرأة على أقصى اليمين، وأمامه ذلك الشاب بمفرده، يعطي ظهره للمكان في انتظار قطاره، لا يتحرك قيد أنملة، لسبب ما جلس سيزار بجواره، لكن بشكل معاكس يقابل وجهه يوسف مخرباً لسانه.. ولاهثاً بقوة، تفحص سيزار الشاب المبهم ولكن لم تظهر ملامحه من تحت الغطاء الذي يحوي رأسه، ثم نظر مجدداً أمامه، ابتسم يوسف وهمسها بفرحة:

- مستحيل!

ركض يوسف ثم استند بيده اليمنى على بوابة المرور الإلكترونية وقفز بخفة من فوق المانع الحديدي دون أن يخشى أحداً من الأمن أو الموظفين الساهرين ليلاً، لم يهتم أصلاً ليفكر في الأمر، لقد كان لديه شيء أكثر قيمة وقتها.

ما أن قفز واقترب يوسف من سيزار حتى هب صديقه القديم والمفاد وقف بانتباه شديد محركاً ذيله يميناً ويساراً، تقدم يوسف ناحية حافة الرصيف بفرحة وسرعه، مبتسماً في وجه سيزار الذي ركض ثلاث خطوات للأمام بدوره، فتح يوسف ذراعيه منتظراً أن يهجم عليه صديقه الذي افتقده بشدة، انتظر حفاوة الاستقبال ومحاولات اللعق المستمثلة

لما لعود، حدث ما تخيله يوسف، ركض سيزار ناحيته وهجم عليه، لئلاها لم تكن أبداً هجمة صديق فرح، كانت هجمة كلب مفترس يريد أن يبلعه بعدو، تراجع يوسف نصف خطوة للوراء عندما صدمته نبحة قوية من سيزار دوت في المكان كالإنذار، وعاد صدي الصوت بلا رحمة يهز كل علية في جسده بعنف.

مرت ثانيتان صرخ بعدهما يوسف:

«سيزار!»

لكن كلمته لم تغير شيئاً سوى مزيد من التحفز، اتسعت عيناه عن أحدهما عندما رأى أنياب سيزار لأول مرة تخرج ضده، بل وأصدر «هجرة قوية إضافية تكفي أن ترغم «تشاك نورس» على أن يغير بنطاله بأخر أكثر جفافاً، بدا يوسف، مصدوماً، عاجزاً عن التفكير، متجمداً في مكانه، أمام وحش صغير لا يعرفه، وحش يقترب منه رويداً ويطلق نباحه رويداً، جاهز للانقضاض عليه، بل جاهز للفتك به.

أبت الصدمة أن تنتهي عند هذا الحد، ما زاد الأمر تعقيداً كان ذلك الشاب الصامت، الذي دار بوجهه ناحية الحدث مثله مثل الزوجين وموظف شبك التذاكر الذي قام من مكانه ليشاهد ما يحدث، تحرك الشاب بهدوء ناحية الموقف المشتعل، كانت المسافة بينهما عشرة أقدام تقريباً، نزل على ركبتيه اليسرى ونظر ليوسف النصف متجمد، مسح يده على الكلب الهائج مرتين ليتحول في ثانيتين لقط وديع، ارتخت أذناه في حركة لا إرادية وأخرج صغيراً لا يكاد يسمعه أحد غير ذلك الشاب

ويوسف، تجمدت الكلمات على لسان يوسف، درسه الشاب بنظر هادئة ويده لا تزال على الكلب الذي حرك ذيله فرحاً ثم قال:

- ينفع تخوف صاحبك؟!

- عرفت إزاي انه صاحبي؟!

- انت ناديت به باسمه.. يبقى صاحبك.

قالها ووقف على قدميه مجدداً لتظهر بعض ملامحه الدقيقة.

رد عليه يوسف بوجه حاد:

- انت اللي اشتريته من عبد النعيم؟

- الحاجات اللي ماينفعش تتباع.. أنا بشتريها.

- يعني عارف انه ماكانش للبيع؟!

- تفكر تفرق مع واحد زبي؟

- انت مين..؟

- أنا راجل من كتر عشقه للتفاصيل، نسي إن الشيطان عايش فيها.

قالها مزيحاً عن رأسه غطاءها، ليظهر من تحته وجه به الكثير من الوسامة القاسية، وعينان قاتمتان قسمهما الوشم لنصفين، وشعر أسود ناعم يشبه كثيراً شعر النساء، يسقط على عينه اليمنى، بينما تعهدت «توكه» سوداء بالباقي من شعره خلف رأسه، ليشبه كثيراً جون ترافولتا في «Pulp Fiction».

خذله لسانه ورفض الكلام.. نظر بعيني الصدمة الضيقتين ليرى كأنه مريض في اختبار نظر، طابقة بذلك الشخص في الصورة التي حصل

عليها مؤمن من المخرج.. وكان التطابق يكفي ليحفز غدته الكظرية اروي دمائه بالأدرنالين، أراد أن يتفوه بشيئاً لكن لم يستطع، نظر لسيزار المتحفز ثم أردف موجهاً حديثه للغامض:

لقيتني إزاي؟

قدردنا نلاقي بعض يا دكتور، ومانتساش إن انت اللي لقيتني.. انت اللي دعكت المصباح!

قالها وأدار رأسه بتعجب، ثم أوماً برأسه.

عملت إيه في سيزار؟!

فيه هو بس..؟؟، قولي!، إيه رأيك في خنجر الستة إنش اللي استخدمته؟ عبقري هه؟! لعلمك!.. الخنجر الواحد بياخد مني يومين شغل، ماحدش بيتقاني في شغله للدرجة دي اليومين دول.

وليد والمجند.. قتلتهم ليه؟

غلط!.. ماحدش بيسأل الأسد «بتصطاد الغزالة ليه؟ لأن ده الطبيعي.. ممكن تعتبرني.. ممم.. حد قرر يشق طريقه في السلسلة الغذائية مثلاً، اللي مش طبيعي بقى.. إن الغزالة تستهدف الأسد.

- العسكري اللي قتلته كان عنده أم بيصرف عليها، وليد كمان كان بيصرف على أهله.

- والغزالة برده عندها أم.. وأهل.. صح؟

- انت مريض نفسي!

قالها يوسف بغضب.

- كفاية مدح أرجوك!

رد الأسود متأثراً بسخرية.

- دي حقيقة.

حرك الأسود رأسه متعجباً ثم أردف:

- معظم البشر مرضى نفسيين بدرجة أو بأخرى.. شخصياتهم تشبه القماش.. عند الاقتراب منها.. تظهر الفراغات أوضح.. خيوط ودلائل - 2009 / 7 / 12.

- كان عندك فرصتين تقتلني.

قالها لامساً جيب معطفه الأيسر يسراه مطمئناً لوجود مسدسه في مكانه.

- يوسف! ماتكلمنيش كده! أنا راجل طيب جداً على فكرة، الأفلام بس إدت الناس فكرة وحشة قوي عن السفاحين.. أنا مش عايز أقتلك.. حد ثاني عايز.. أنا مجرد وسيط.

رد الأسود مستخدماً يده في شرح الأمر، ثم أومأ برأسه واستدار مواجهاً الرصيف ومعطياً ظهره ليوسف ليتابع الأخير مستنكراً:  
- الدم مش متعة.. إيه اللي عاجبك في اللي انت بتعمله؟  
استدار الأسود برأسه ورد بعدما أعطى يده لسيزار ليلعقها:

مورك سألت نفسك إيه اللي هيحصل لو الساحر غلط ورمى الخنجر..  
وقتل البنت الجميلة؟ أو.. لو قطعها 3 حثت وما عرفش يرجعها ثاني؟  
أنا فكرت.. وعجبتي النتيجة.

ربت علي سيزار مكافئة علي لعاقه ثم أردف:

عموماً.. أنا دلوقتي مستني المترو.. مش هأذك، لسه شوية على دورك في الليستة.

عاد بوجهه للأمام منتظراً القطار التالي، ساعتها علم يوسف أنها المحطة الحاسمة، دس يده في جيبه يهدوء شديد مستغلاً انشغال «الأسود» الذي ظل يبحث عن بوادر قطار المترو من دون أن ينظر ناحية يوسف مجدداً.

في عالم موازي، كنت هتفكر قبل ما تقتل الغلابة.

قالها محاولاً مجازاة الحديث كي لا يلتفت الأسود تجاهه.

- وانت كنت هتفكر قبل ما تكتب المقالة.

رد بفنور محرّكاً رأسه نافياً في أسف:

Ciao

أشار مودعاً بظهر يده متابِعاً بحثه عن القطار، في اللحظة نفسها التي اتخذ فيها يوسف قراره بالفعل، أخرج المسدس بخفة شديدة، ظلت يده ترتعش رعشتها المعهودة بالرغم من أنها لا تزال بجانبه.  
- هتقدر تشيله!؟

قالها الأسود من دون أن يلتفت ليوسف الذي وقف مواجهًا له  
واضعا فوهة المسدس في مواجهة الأرض، صرخت السيدة الواظقة  
مع زوجها على يمين الرصيف صرخة بسيطة عندما لمع لهما المسدس  
الفضي، طمأنها زوجها وابتعدا في الحال، رد يوسف:  
- بتتكلم عن إيه؟

- استدار بوجهه ناحية اليمين، تجاه المرأة المذعورة وزوجها، ممددا  
في أرضية الرصيف، ورسم نصف ابتسامة على وجهه وأضاف:  
- حاسس انه تقيل عليك... هتقدر تشيله؟  
ظل سيزار ساكنا لأول مرة، ليرد يوسف:  
- و أقدر أقتلك كمان! آآه!

تأوه يوسف حينما هم برفع ذراعه ليصوب ناحيته، شعر بألم شديد  
كأنه يحاول اقتلاع شجرة معمرة يصل طولها لثلاثين مترا بإحدى يديه، كما  
يخلع ذراعه اليسرى من كتفه، استسلم للألم، سقط المسدس من يده  
أرضًا، أمسك بعدها بذراعه في ذعر، ثم رمق الشيطان الذي أمامه بنظرة  
غضب لم تحرقه حيًا.

- بص حوايك! الدنيا مليانة خنازير، (لوكي) يقول إن الخنازير احتلت  
البلد، «التع...» بقى جزء من حياتنا.  
قالها من دون أن يلتفت.  
- مين لوكي؟

.. الراعي الرسمي للدوري اللي بنلعبه.

حرك يوسف رأسه مستنكرا بعدما أطلق زفيرا عميقا من أنفه:  
..هايتكم المشنقة.

انت فعلا متخيل اني هقبل على نفسي موته كلاسيكية زي دي؟  
قالها ثم استدار متعجبا.

..الناس اللي قتلهم ما كانوا خنازير، لو عاوز تشوف الخنازير بجد  
اطلع على مجلس الوزراء، أو مجلس الشعب، أو حتى اطلع على  
القصر... انت بتقتل الغلابة عشان سهل توصلهم.. ماتحاولش تبقى  
ذكي!

أي حد يقبل يعيش بين الزبالة والفضلات وياكل منها.. بياخد اللقب،  
أنا ماقدردش أقتل الخنازير كلها.. ما عنديش سكاكين كفاية.

قالها وأخرج من كفه اليمنى لفافة بها بضعة ورود حمراء برية نضرة  
بعد أن حكه بكفه اليسرى كخدعة سحرية.. أمسك بواحدة من الورد  
البرية وشمها مضيقا:

..اللي بعمله ده (ديمو).. يمكن يعجب حد وهيشري المنتج.

ثم حك كفيه مجددا لتختفي الورد الحمراء ماعادا الواحدة التي  
احتفظ بها.

عدل من وضع خصلة من شعره الداكن خلف أذنه بخنصره وأضاف  
بعدما أعطى ظهره ليوسف مجددا:



- أوعذك! في يوم من الأيام هتفههم قصدي.

قالها وتنفس من الوردة بعمق ليرد يوسف:

- ماحدش هيكمل بعدك! ماحدش هيفتكرك!

- عارف يا يوسف! انت بتفكرني بمدرس الرسم بتاعي.. كان محبط جدًا

لدرجة إني اضطريت أعزمه على شاي بالسلم!

بدأ القطار بالظهور حينما أضاف يوسف ممسكًا بذراعه اليسرى:

- انت عايز إيه؟

دار الأسود بجسده مجددًا ناحية يوسف الذي بدا متألمًا للغاية من ذراعه قائلاً:

- الوقت بيهاجمك أنا عايزك تدور عليا قبل ما دورك ييجي.

قالها بوجه متحمس للغاية ثم أضاف:

- أو تسبب إيدك وتفرج، انت هتموت يا يوسف.

بلع يوسف ريقه برعب بعدما تحررت يده نسيبًا، إلى أن استنطق أخيرًا بنبرة مترددة:

- لو أنا نهايتي الموت.. انت نهايتك جهنم!

ثم رمق المسدس الملقى على الأرض بنظرة رجاء وغضب.

- يوسف!.. لأ! خلي رؤيتك أعمق من كده.

.. ركز!

أشار بسبابته مجددًا وأردف:

أنا وانت فتحنا أبواب جهنم مع بعض.

قالها رافعا يده في حركة استعراضية لتنتفح وراء أبواب القطار شبه العارضة ثم أضاف:

وهندخلها مع بعض.

دخل سيزار مسرعًا من خلال الباب المفتوح وسط صرخة بنت راهقة صدمها وجوده، وهلع شاب أخذ خطوة احترازية للوراء وسيدة قهيرة في السن.

سيزار.

نادى يوسف صديقه الجاحد بقوة ثم تذكر أن أمامه حاجزًا لا يستطيع المرور منه، لمح زجاجة عصير فارغة ملقاة على الأرض، ترك ذراعه والنقطة يمينه وكسر قاعدتها في الأرض بسرعة ووجهها ناحية الأسود الذي رفع بدوره وردته البرية لمستوى وجه يوسف والتي أصبحت -في لحظة ما- خنجرًا ذا نقوش، تحرك يوسف بظهره ببطء ناحية الباب الذي قارب على الإغلاق وذراعه اليسرى لاتزال نصف معطلة عن العمل، لم يعلم ساعتها إن كان الأسود قد غير الوردة بحركة خادعة أم أن الأمر أبعد من ذلك.

- خلينا نروح بيوتنا من غير ما نجرح مشاعر بعض.

قالها الأسود ساخراً.

- لو اتحركت هقتلك!

قالها يوسف.

- هل تعرف؟!

- هل تعرف أوصلك!

كانت رد يوسف وصمت بعدها الاثنان، أنزل الأسود يده لجانبيه لم  
أضاف:  
- أكيد.

قالها مبتسمًا ومحرّكًا رأسه إيجابًا، ثم تغيرت ملامح وجهه لوجه  
أكثر عنفًا، رجع بيده للخلف في حركة استعدادية لقذف الخنجر، ثم  
قذفه ناحية رقبه يوسف والباب يغلق نفسه أوتوماتيكيًا، حاول يوسف  
أن يحمي وجهه بحركة غريزية، أطلقت السيدة صريخًا واضحة يدها على  
عيني مراهقتها الصغيرة، رآه يوسف يطير في اتجاهه كالسهم، يخترق  
الهواء بصله العريض، وتلك النقوشات الغريبة، يعلمه جيدًا من الصور  
يعلم أنه قد أنهى حياة الكثيرين من قبله، توقف الزمن للحظات، رأى فيها  
يوسف كثيرًا من الاحتمالات المؤلمة، لم يكن هناك أي حل آخر سوى  
انتظاره، ليخترق ما شاء من رقبته، كانت النهاية كما تبدو، وجاءت أسرع  
مما يتوقع.

\* \* \*

(29)

أسهبت مذبة الأخبار في غرفة يارا قاسم في فجر اليوم التالي، كان  
من الواضح أن «مونولوج» التلفاز هو الشيء الوحيد الحي داخل غرفتها  
الكبيرة، تجمدت وجبة من الساندوتشات بجانب كوب لبن كبير وضع  
منذ فترة على منضدة صغيرة.

- إيه يا بنتي السقعة دي حرام عليك!

قالت راندا وهمت بإغلاق النافذة الزجاجية بسرعة.

كانت يارا تجلس كما هي منذ وصولها، تضم ساقها كأم تحمي  
طفلتها من الموت، يسكن يدها اليمنى «ريموت كنترول» أصبح جزءًا  
منها لا إراديًا، كانت عيناه مفتوحتين كالموتى، تابعت راندا كأن شيئًا لم  
يكن، جيبته الأيس كريم اللي بتحبيه وكيسين شيسسي عشان نبوظ أم  
الدايت ونسهر نتفرج على ال (TV) كيف ما بدنا.

- أجابها الصمت لتتابع:

- حبيبتي، يورا.. مالك؟!

قالتها مقتربة من يارا لتضمها، في حين ظلت يارا متجمدة كأنها  
لا تريد الانكسار، مرت بضغ ثوان إلى أن ردت بالحزم نفسه:  
- سامي قالك؟

أنهت راندا وضع الأم الحنونة ورجعت برأسها للوراء لتتظار في عيني يارا بدهشة كأنها لم تتوقع سماع هذا السؤال الآن.

- حبيبتى انت عنيكي وارمة قوي، كنتي بتعيطي؟

- قالك؟

قالتها بثقة وهدوء.

- حبيبتى، ده موقف ممكن يحصل لأي حد يعني، إنسي كرمالي بلير! هزأت يارا رأسها إيجاباً لراندا التي تركتها وهمت بفتح الباب الذي ترتديه، ثم جلست بجانب الكيس البلاستيكي الضخم وأخرجت منه علبتي أيس كريم كبيرتين.

- سامي صور اللي حصل... أنا شوفته.

قالتها يارا بشروء.

- صور شو؟!

- انتي عارفة كويس أنا بتكلم عن إيه.

ردت يارا بحزم.

- إبن المرة «...»، والله لأوريله الحيوان هاد، حبيبتى البلد كلها تحرش وكبت جنسي، وأي واحدة معرضة للي حصل ده وكله بيهون مع الوقت، يعني أنا عمري ما حصلي حاجة وحشه؟ دانا مرة... قاطعتها يارا متحدثة لنفسها في حسرة لم تخل من الغضب:

هاتيلي فضيحة.

أرد عليها راندا بكل حزم:

لا لا، بعد الشر، إنسي الوهم ده! ثانية واحدة.

أخرجت راندا هاتفها النقال بسرعة وغضب وهمت بالاتصال سامي:

هطلع ميتين أمه الحيوان ده، لو راجل يعطي اللي صوره لحد.

بعد أقل من دقيقة رد عليها سامي بصوت نائم للغاية:

إيه يا ريري!

أنت عملت شو النهارده في الحسين؟!

قالتها بلهجة وعيد جعلتها تهز قدمها اليمنى بعصبية.

بتتكلمي عن إيه بالظبط؟! هو الساعة كام أصلاً؟

هتستعبط يا سامي؟! انت عارف أنا بتكلم على إيه كويس يا حقير!

عملت شو بالفيديو؟

صرخت بصوت أعلى.

أنا... عملت ده لمصلحتها، عشان لو حبت تعمل محضر تعرف تجيب حقها.

مصلحتها إيه يابو مصلحتها انت! ده بدل ماتساعدنا؟! تقوم حالاً وتفتح الكاميرا، هستنى تدقلي أو تبعتلي رسالة إنك مسحتة، القيامة بلشت خلاص ولا شو؟! ماعادش فيه أباضايات ولا رجالة خلاص؟

معمم تقبرني! عارفة يا يارا! متهيألي ماحدش مجنون غيرنا ممكن  
ياكل آيس كريم في عز البرد غير عمرو ديبا...  
ثم رن هاتفها النقال رنة قصيرة ليعلن عن وصول رسالة قصيرة من  
سامي، ابتسمت راندا بعدها نصف ابتسامة وقالت بسخرية:  
وأدي يا ستي الفيديو راح كمان، إيسطيها بقى منشان الله!  
أنا كويسة.  
ادت يارا أخيرًا وهي تجفف وجهها من الماء في حين سرحت راندا  
في الرسالة التي قالت:  
أي خدمة... نزل على اليوتيوب وانتشر على التلفونات وانت كمان.  
ثم أغلقت الهاتف واستطردت بعدما ساد الارتياح على وجهها:  
يدوم حبيتي.

\* \* \*

- رجالة إيه بس انتي مجنونة! دول كانوا بتاع 100 واحد.

- ماليش فيه.. الفيديو ده يتمسح حالًا من على الكاميرا، انت نزلته على  
الكمبيوتر؟

- لسه ما فتحتش الكاميرا أساسًا.

- تفوقم النوم وتتصل بيه أو تبعتلي رسالة بعد ماتمسحه، ووالله يا  
سامي لو عرفت إنك خبيت منه حتى نسخة، لآخرب بيتك وأسجلك  
وأبهلك، فهمت علي؟

- هدي أعصابك يا راندا يطلقك عرق ولا حاجة.

قالها ساخرًا كأنه توقع تلك المكالمات.

- أما نشوف.

أغلقت الخط، ثم نظرت ليارا المهمة بالحوار وقالت مبتسمة:

- خلاص الموضوع خلص، سامي جبان ومش هيعمل حاجة.

هزت يارا رأسها إيجابًا وسادت دقيقة من الصمت ألقت فيها راندا  
بجسدها على الأريكة، ثم فتحت علبة المثلجات الخاصة بها قائلة:

- يلا إغسلي وشك وتعالى ننم شوية! أنا هنسيكي اللي حصل ده في  
3 دقائق.

اتجهت يارا للحمام الصغير في أقصى يمين الغرفة مثل الطفل الملعوب،  
في حين غرست راندا إصبعها السبابة في الآيس كريم نصف المتماسله  
ووضعت في فمها مستمتعة بطعم الشيكولاته المفضل لديها:

## بالعودة للمترو

اتجه قطار الأنفاق بسرعة المعهودة مختفياً الظلام والصداء،  
تعلقت يد يوسف اليسرى في مقبض لتفادي السقوط، لم يعلم بماذا  
يشعر بعدما رأى الموت بعينه، لم يتخيل أن يتحول ذلك الخنجر الطائر  
لبضعة خفافيش طارت أمام وجهه ثم اصطدمت بباب القطار عندما أهمل  
تلقائياً، ثم وجدت طريقها لسقف المحطة المظلم.

ظل يتذكر كيف ابتسم ذلك الشيطان المجنون عندما رأى رد فعله  
بعدما رمى الخنجر، ظلت عيناه مفتوحتين عن آخرهما تشاهدان الحوادث  
تركض خوفاً من أمام القطار، يشعر بعلو صوت دقات قلبه يزداد سرعة  
وضجيجاً مع كل ثانية، تلك الفوبيا اللعينة.. لا تنتهي أبداً.

اقترب خطوة أخرى من الباب على أمل تنتهي هذه المأساة ويفتح  
ذلك الباب المشووم، لعن بداخله الحالة المملة التي تصنع منه طفلاً  
كبيراً كلما أغلق عليه باب، نظر جانبه ليرى تلك السيدة تحتضن حفيدتها  
وعيناها موجعتان ناحيته في ترقب وذعر، استند برأسه على الباب،  
جاهد ليتنفس بصعوبة بالغة، تذكر كيف خرج سيزار من الباب الآخر  
للعربة في اللحظة الأخيرة، شعر بالرعب يتخلل كل خلية في جسده، إنها  
الآن تسيطر عليه.. فليحرق الله كل الأماكن المغلقة.

«مش قادر أتففس هنا» همس بها يوسف لنفسه وأفلت يده اليسرى،  
وأخرج هاتفه النقال من جيبه بصعوبة، ضغط على اسم مؤمن، وضع  
الهاتف على أذنه، أغمض عينيه التي قاربت على الالتصاق بزجاج الباب  
أعني طفل يشاهد العالم من خلف زجاج حافله المدرسية، خبط برأسه  
مرتين على الباب متمتماً لنفسه ومخاطباً الباب:

«فتح! أرجوك!

رن هاتف مؤمن لمرتين ثم أجاب مؤمن في الثالثة:

مؤمن:

«انت جاي مشي بقي مش بتاكسي!

«أنا قابلته يا مؤمن.. دي مؤامرة.. كلهم مشتركين فيها.. كلهم.

«انت فين بالطبط؟»

«أنا ركبت المترو اللي طالع من محطة السادات ماعرفش رايح.. ألو!..

ألو! مؤمن!

نظر إلى هاتفه النقال بعينين غاضبتين للغاية، لقد كان شيئاً أبعد مما  
يُصور أن يخسر الخط لا لأن الشبكة سيئة، بل لأن البطارية نفدت.

استقر القطار في محطته التالية ولم ينزل أحد أو يركب القطار أي  
شخص، ثم استقر في التي تليها.

فتح البابان الإلكترونيان ومن خلفهما يوسف الذي بدا وكأنه ينظر  
لانعكاس صورته على زجاج أحدهما، بدا أكثر هدوءاً على الرغم من

شكله المزري، بدت المحطة فارغة تمامًا إلا من بعض الأشخاص،  
وبائع مناديل يجلس على الأرض الباردة وأمام رأسه بين ركبتيه وأمامه  
«فرشة» بها كثير من المناديل والولاعات، لم يظهر منه إلا رأسه المنحرف  
ذات الشعر الأبيض القصير، استقر يوسف على الرصيف بينما كان  
ركاب العرب طريquem للصعود، تنفس يوسف قليلًا ثم نظر حوله في  
ترقب، تفحص ساعته مرة أخرى والتي أشارت لقرب الواحدة صباحًا  
ثم اتجه ناحية سلم الصعود لمحطته المبتغاة، تابع التنفس بعدد لم  
مسح بضع قطرات العرق من فوق هامته، تحركت أقدامه المنهكة برفق  
وخوف، اختلس النظر حوله ليتأكد أن أحدًا لا يراقبه، ثم تابع مشيته لـ  
السلم، قبل أن يأخذ خطواته الأولى على السلم الذي نظر لنهايته ولم ير  
أحدًا عند قمته، وضع يده اليمنى على «ضرابزين» السلم البارد وأكمل  
خطواته الأولى.. ثم الثانية والثالثة، تابع الصعود ثم نظر مرة أخرى لنهاية  
السلم عندما اقترب من المنتصف، صدمه شيء رآه جعل تشعيرة باردة  
تبقية في مكانه..

كان مستقرًا في نهاية السلم يرمقه بنظرة بها الكثير من التحدي،  
يضحك برعشة واضحة ويتجهج وجهه مجدداً.. وجهته مغطاة بعرق  
غزير وأصابع يده اليسرى ترتجف بشدة، طقطقتها بعنف مستخدمًا يده  
اليمنى ثم حك بها فروة رأسه ذات الخصال المموجة، ترسم على وجهه  
ابتسامة متوترة، كان ينتظره، لم يصدم يوسف كل هذا، فقد قرر أن يصعد  
سلمة أخرى، لكن شيئًا ما طبع في ذاكرته بعدما نظر للأرض مجدداً،  
شيئًا داكًا تحمله يده اليمنى، شيئًا مصمم للقتل.

بل أن يشهر المجهول مسدسه في وجه يوسف، توقف يوسف مرة  
أخرى لكنه لم يرفع عينيه في تجاهه، تجمد لثانية كأنه ينظر إلى شيء ما  
في حداته ثم..

فلز.. أمر قدميه أن تدفعا جسده كله للوراء، طار كالبهلوان المحترف  
الطلف، سمع صوت الطلقات تمر بجانبه بقسوة، تذكر أنه ليس بهلوان  
ولا محترف، لقد كان رد فعل سريعًا لكنه لم يفكر بعواقبه.. لحظة  
استلذامه بالأرض.. وقد حان وقت التفكير.

كانت خبطة عنيفة كادت تختلج كتفه اليمنى من مكانها.. تلك التي  
لعب بها عندما صدمته الأرضية القاسية، تلاها صفة أخرى لمؤخرة رأسه  
«علته» يشعر أن المكان قد بدأ في الدوران به كلعبة ملاهي مجنونة، دار  
دوران فوق الأرض حتى وصل إلى حافة الحائط، استخدم ذراعه اليمنى  
ليحجز بقية جسده خلفه ويختفي عن أنظار ذلك المضطرب للحظات.

تعالأت أصوات شقيقه وزفيره المتقطعين ثم بلع ريقه مرة أخرى  
محركًا رأسه للوراء في ألم بالغ، أمسك بكتفه اليمنى شبه المدمرة ثم  
نظر على يمينه ليرى أحد الأشخاص يختبئ تحت كرسي انتظار وبجانبه  
ذلك المشرذ المكتئب، الغريب أن المشرذ لم يتحرك بعدما سمع الجميع  
صوت ضرب النار، بل ظل كما هو، يحضن ركبتيه وبداخلهما رأسه،  
مثل طفل يبكي أباه المتوفى، أو مثل رجل ضارب بماله في البورصة  
وخسره في ضربة واحدة.

ثل أحد رجال الأسود، ينتظر لحظته المتفق عليها ليهجم على  
 وجهه المزين ببضع علامات الـ«شقاء» من آثار المطاوعة  
 «مبتسماً» أيضاً، قام من مكانه بخفه، مخرجاً من جيبه شفرة كالم  
 يدها الحلاق وقام بتقليبها بمهارة بين أصابعه في طريقة ليوسف  
 أنبعت عيناه عن آخرهما، ضغط على قدميه وقام من مكانه  
 بأجد نفسه بين شقي الرحي، قام بصعوبة ممسكاً بكتفه المصاب  
 بصعوبة بعدما اكتشف أنه جرح ركبته اليمنى، يلهث من الخوف  
 والحد، جرى بصعوبة بالغة ناحية سلة مهملات لعله يجد شيئاً يدا  
 بالإنه، تذكر أنه لم يرم عنق الزجاجة التي كسرها وأنها لا تزال  
 بهطفه، أخرجها ليجدها تهشمت تماماً، ألغها في وجه الأشعث  
 واللمل تقدمه ناحيته بدون تردد وتلك الابتسامة المخيفة لا تزال  
 عليه.

ثل الشقي اقتربه غير آبه حتى مرر مطاوعة على صدر يوسف بهطفه  
 والنديدة وتابع مشيه كأنه لا يرى يوسف، ثم توقف عن الهرولة  
 وآبه يوسف مجدداً، نظر إليه يوسف مرتعداً ثم إلى صدره الذي  
 به بعض الصقيع والالهم به، كان ذلك الصقيع سببه أن الهواء البارد  
 قلميصه عن طريق الفتحة الكبيرة التي صنعها الشقي، والالهم  
 مقطوع العريض أيضاً الذي تكون في صدره، وضع يوسف يده  
 عليه غير مصدق لما يحدث، ثم نظر لكف يده ليرى الدماء في  
 رانه نظر إلى الشقي مجدداً في دعر قائلاً:

هو له لازم بالطريقة اللي بكرهها؟

قالها ثم تحسن قصافة أطافر رخيصة أخرجها من جيب بنطاله  
 الخلفي، وبها سكين صغير يكفي ليقنتل به زوج من الفئران بدون  
 إصابات بالغة.

عاد الشقي ليعيد الكرة مرة أخرى وفي طريق عودته قذفه يوسف  
 بسكين القصافة بعنف ويأس، كان القدر رحيماً به قاسماً على الأشعث،  
 فلم يكن يتوقع أن يستقر سلاحه المزري في أسفل عنقه أعلى عظمة  
 الرقوة ويسقط، لكن الأخير توقف ونظر للقطع بعدما تلطخت يده  
 بدمائه متعجباً، ثم ركل القصافة بحذائه بعيداً غير مهتم بالدماء التي  
 خرجت من أسفل رقبته.

تراجع بدوره للخلف ناحية الرصيف الفارغ من القطار مبرراً:

«أأوكيه!.. ماكتش عارف إنها هترشق!

غضب الأشعث وهم بالركض ناحيته، شعر يوسف ألا سبيل للترجع،  
 إلا أن يقذف بنفسه مجدداً، ولكن لقضبان المترو تلك المرة.

ركض ناحيته الأشعث بأقصى سرعة بغية أن يأخذه ويهبط به على  
 القضبان الحديدية، قفز يوسف بجسده ناحية اليمين في آخر لحظة تاركاً  
 الأشعث الغاضب يسقط وحيداً، سقط يوسف على الأرض مجدداً ثم  
 نظر ناحية الشقي الذي بدا مصاباً من هول القفزة، لكنه شعر أن شخصاً  
 آخر يشاهد ما يحدث.



كان هو، ذلك الضاحك المرتعد، يشاهد كل شيء بعدما نزل من فوق السلم لأسفله، يضحك ضحكته المكتومة الغريبة، يرتعد كأنه هو الخائف، ثم رفع يده اليمنى مجدداً مصوباً مسدسه ناحية يوسف المستلقي على الأرض منهكاً كلياً، نظر إليه يوسف باستهتار، وقد علم أن تلك هي النهاية، أخذ يتنفس بنفس الصعوبة البالغة، منتظراً أن يطلق رصاصة الرحمة عليه، كانت أطول لحظة، أصعب من الرصاصة نفسها. انتظر يوسف النهاية، وانطلقت الرصاصة، لكن الغريب أن ذلك المعقد لم يطلق رصاصه بعد؛ لأن رصاصة أخرى اخترقت فخذه اليسرى من الخلف، رصاصة أرغمته على السقوط على الأرض أمام يوسف، أمسك بفخذه وصرخ ثم واصل الضحك الهستيري المكتوم، كان شيئاً غريباً ليوسف أن يرى رد فعل كهذا، تملكته الصدمة عندما أكمل المعقد ضحكاته وأخذ يطلق الرصاص ناحية السلم، يطلقه ضد رجل من النوع الذي لا يخشي أحداً.

.. كان مؤمن.

قفز الشقي من فوق رصيف المترو ممسكاً بفخذه اليمنى بعدما أيقن أنه الطرف الخاسر في تلك المباراة، كانت لاتزال تلك الضحكة على وجهه، تلقاه صديقه الأشعث المصاب حتى لا يسقط مثله بدون مساعده، تابع التصويب ناحية الشرطي الثائر، والذي تابع بدوره إطلاق النار ناحيته وسط صمت تام وترقب ممن في المحطة، اخترقت رصاصة من مسدس مؤمن حافة الحائط الفاصلة بينه وبين الشقي المجهول، تابع

مؤمن التقدم والتصويب بعدما وجد زاوية تصويب أفضل وتابع الشقيان راجعاً مع تقدم مؤمن، واصل التراجع خلف غطاء من الطلقات المتتالية حتى اختفيا في نفق المترو المظلم، مستندين على بعضهما البعض في معركة استعيطا من نومهما على مشهد مروع، توقف مؤمن عن إطلاق الرصاص واقفاً على قدميه، موجهاً يده اليمنى الحاملة للمسدس بكل حزم ناحية البقعة السوداء التي ابتلعت المجهولين، بجانبه كان يوسف الملقى على الأرض مثل الجثة الهامدة، ظل مؤمن منجمداً بنفس الطريقة كلاعب رماية أولمبي ينتظر اللحظة الحاسمة ليعلق فيها رصاصته المحظوظة، كثرة اختبار لمصادقية هروب الاثنين، وضع مسدسه جانباً بعدما تأكد أن التفق قد ابتلعهما تماماً، نظر ليوسف الملقى أرضاً، ثم نظر لسقف المحطة بعينين غير مستقرتين، يسعل قليلاً ثم يهدأ، جلس مؤمن على ركبتيه بجانبه، رافقاً التفق المظلم بنظرة بارية، ثم أخرج من ظهره جهاز لاسلكي، ضغط على زر فيه وتحدث فيه بثقة وهدوء، بالرغم من الدماء التي تساقطت من صدر يوسف ومنها إلى أرضية المحطة، لم يتفوه يوسف بأي شيء، لكنه ظل ينظر للسقف كطفل يشاهد الحياة لأول مره، ثم رمق مؤمن الذي بدوره أمسك بكفة الملطخ بالدماء، وفقد الوعي.

شق شعاع شمسي رفيع طريقه لينير زجاجة عطر ماركة «جيرلين» موضوعة على منضدة خشبية قيمة، مستديرة في حجم كرة التنس أو أكبر قليلاً، أضاءت الزجاجة مثل حجر سحري في قصة خرافية قديمة،



استيقظت على صوتها بعد نصف ساعة فقط من النوم، كانت أطول مدة تنام فيها منذ الحادثة الكثيرة، كانت الساعة قد قاربت على الثامنة صباحاً، كانت غرفتها كغرفة مراهقة مستتره، علب سجائر فارغة وطفائف بها الكثير من أعقاب السجائر البيضاء من النوع المفضل لدى راندا، علبتين فارغتين من المثلجات الفاخرة وضع الأكياس النصف مملوئة بالمقرمشات المستوردة بينما سقط بعض منها على الأرض، تفلز مفتوح بصوت عال، وجهاز تحكم عن بعد قارب على السقوط من يدها الصغيرة، كانت قناة أغاني شهيرة تعرض أحدث الفيديوها، بينما تكتب في شريط الأخبار أسفلها بعض النيمية عن نجوم الفن والمجتمع، أمسكت بزجاجة العطر، رشت منها قليلاً في الهواء للتنفّس منها، نظرت على سريرها للتأكد أن صديقها لم تعد نائمة، كانت راندا قد رحلت بالفعل منذ قليل، قامت وسط حطام الليلة السابقة، وضعت بعض الفوارغ والرماد في كيس بلاستيكي كبير وجدته، بينما هي تنظف قليلاً من الفوضى وجدت سيجارة ملفوفة فوق المنضدة، بدا كأن صديقها تركتها لها عن عمد، وضعتها ياراً بين شفتيها المكتظتين وهمت بإشعالها، لكنها تركت الولاة مشتعلة أمام عينها لثانية، تنظر إليها كأنها لم ترَ نازاً من قبل، صممت لثانيتين ثم تركت زر الغاز ليرفع مرة أخرى في ولاة راندا الفضية.

«الكل يتحدث عن فيديو التحرش للمديعة الشهيرة في الحسين... هل حد سمع تعليق من يويو؟... ولا ربنا ما (قسمش)...!!»

سقط جهاز التحكم من يدها أرضاً، امتلأت عينها بالدموع، سقطت دعة عندما أغلقت عينها في ألم كأنها لا تريد أن ترى شيئاً، قامت من مجلسها ووقعت على الأرض بعدما ثعرت في سجادة طوت نفسها لتسقطها، انهارت، ذرفت دموعها، وضربت الأرض بقبضتها مراراً وتكراراً فاغرة فاهاً من شدة البكاء.

غابت عن الوعي لنصف ساعة فوق أرضية غرفتها الباردة، قامت في حزم بعدما جففت دموعها، تنظر حولها كالثائفة، أيقنت أنه لم يكن حلماً شيئاً، ارتدت بنظراً من الجيزن وبلوزة زرقاء قاتمة وفوقها معطفاً أسود، اختارت أكبر نظارات الشمس حجماً، ثم ارتدت «بنية» رمادي فاتح فوق شعرها، لحفت كوفية حول رقبتها الرقيقة، وألقت ذراع شنطة «كروس» رمادية على كتفها اليمنى، بينما استقر جسد الشنطة على يسار خصرها،

استيقظت على صوتها بعد نصف ساعة فقط من النوم، كانت أطول مدة تنام فيها منذ الحادثة الكثيرة، كانت الساعة قد قاربت على الثامنة صباحاً، كانت غرفتها كغرفة مراهقة مستتره، علب سجائر فارغة وطفائف بها الكثير من أعقاب السجائر البيضاء من النوع المفضل لدى راندا، علبتين فارغتين من المثلجات الفاخرة وضع الأكياس النصف مملوئة بالمقرمشات المستوردة بينما سقط بعض منها على الأرض، تفلز مفتوح بصوت عال، وجهاز تحكم عن بعد قارب على السقوط من يدها الصغيرة، كانت قناة أغاني شهيرة تعرض أحدث الفيديوها، بينما تكتب في شريط الأخبار أسفلها بعض النيمية عن نجوم الفن والمجتمع، أمسكت بزجاجة العطر، رشت منها قليلاً في الهواء للتنفّس منها، نظرت على سريرها للتأكد أن صديقها لم تعد نائمة، كانت راندا قد رحلت بالفعل منذ قليل، قامت وسط حطام الليلة السابقة، وضعت بعض الفوارغ والرماد في كيس بلاستيكي كبير وجدته، بينما هي تنظف قليلاً من الفوضى وجدت سيجارة ملفوفة فوق المنضدة، بدا كأن صديقها تركتها لها عن عمد، وضعتها ياراً بين شفتيها المكتظتين وهمت بإشعالها، لكنها تركت الولاة مشتعلة أمام عينها لثانية، تنظر إليها كأنها لم ترَ نازاً من قبل، صممت لثانيتين ثم تركت زر الغاز ليرفع مرة أخرى في ولاة راندا الفضية.

حركت رأسها رفضاً وألقت بالسيجارة ذات الشكل المخروطي المغربي في الكيس البلاستيكي ثم وضعت الكيس في سلة المهملات، صدمت وجهها بماء ساخن في الحمام الخاص بغرفتها وجففتها سريعاً

رفعت نظارتها ومسحت بظهر يدها أسفل عينيها بسرعة، استلقت  
بصعوبة خلال أنفها المزمزم، ثم نظرت لسكين رفيع موضوع في طريق  
به بقايا طعام وشوكة، أمسكت السكين ووضعتها في شنتها بعصبية، لم  
توقف للحظة، وألقت نظرة متمعنة على الجاكيت الخاص بيوسف  
وأطلقت زفيراً غاضباً.

\*\*\*

### (31)

«هل لنا له الجرح... هبقى كويس» كلمات ظلت تتردد في عقل مؤمن  
البحيري.

فالها الطبيب المشرف على حالة يوسف، ظل يشاهده ويتذكر كيف  
يحول صديقه الجديد إلى شخص آخر، تلك الرعدة التي تملكته يده  
عند بلاط المترو البارد بعدما أنقذه، لقد كان شهراً صعباً بالفعل، بل  
الأصعب في حياته.

بعد ثوان عاد الطبيب مسرعاً يتحدث بحدة مع شخص من خلال  
سماعة هاتف محمول لاسلكي تطلق وميضاً أزرق ساطعاً، سأل مؤمن  
رامحاً يوسف بأسف:

«ما فيش أمل يلحق طيارته بكرة؟»

رد الطبيب بعدما تحقق من شيء في هاتف كبير الحجم في يده:

«هو ممكن سعادتك بس صعب شوية.. لأنه نرف دم كثير جداً ده غير  
الارتجاج اللي جاله والكدمات اللي خدها.  
تمام.»

أوما مؤمن خائب الظن واختفى.

بعدها بساعة..

الفجر.. مؤمن قالي إنك ممكن تلحق الطيارة.

مايش هسافر.. في حاجة لازم أخلصها قبل ما أسافر.

قالها بصعوبة شديدة واضعًا كف يده فوق عينه مقاومًا الضوء الشديد.

كفاية مخاطرة.. انت دلوقتي مش في أحسن حالاتك.

مايش مخاطرة.

لا فيه، وفي كل مرة هتخاطر ممكن جدًا تدفع الثمن، افكر اللي حصل في إشارة المرور، سفاح مصنع الكيماويات، ودلوقتي قاتل متسلسل..

مايش حد هيلعب ملك وكتابة 3 مرات وبتتظر نتيجة واحدة.

كل حاجة ماشية كويس يا دكتور.. أنا كويس ماتقلقش - آآه.

قالها محاولًا الاعتدال.

ليرد عليه عبد الرؤوف:

متأكد؟، مؤمن قالي كل حاجة.. الأسود.

قابله في المترو..

دي حرب يا يوسف.. انت رميت نفسك وسط حرب.

حرب ماخترتهاش.. المقال.. أنا ليه كتبتة؟!

اعتدل الدكتور رؤوف وهَمَّ قائمًا مستخدمًا عكازه، اتجه ناحية طاولة

وتجرع قليلًا من الماء في كوب زجاجي ثم استطرد:

استيقظ فجأة قلب عاد للحياة بصدمة كهربية، لم يقدر على فتح عينيه عن آخرهما لشدة الضوء، صوت جهاز القلب وقسطرة موصلة بظهر يده وبضعة أسلاك على صدره المصاب نصف العاري، كانوا كل ما أدركه.

تلاقى عالمه مع الواقع، واستغرق الأمر ربع ساعة كاملة ليعلم ما يحدث وأين هو، تذكر أن مؤمن قد وصل به لهذا، تلك المستشفيات الباردة، شعر أن جسده كله مبعثر على ذلك السرير الأبيض، تسرب الألم رويدًا لكل خلايا جسده مثلما يخترق الحبر جزئيات الماء، شعر أنه يستيقظ من موت لا من نوم.

- افكرتك هتنام أكثر من كده.

قالها صوت يعلمه جيدًا، صوت كان يجعله يشعر بالحياة سابقًا.

- دكتور رؤوف!

رد يوسف ثم تلاها بزفير عميق يعبر عن مدي الارتياح الذي شعر به لأنه رآه.

- حمد الله على سلامتلك!

- حاسس بصداع جامد.

- بالنسبة لواحد خبط أرضية المترو بالروسية.. الصداق إنجاز.

- الساعة كام؟

- لما كنت في ألمانيا، جاري.. - دكتور جامعة - حكاية مرة عن لعمري غريبة يبعملها كل سنة، كان يسيب ساعته ومحفظته وتليفونه، حتى عربيته.. ويسافر أبعد مسافة ممكنة، كل مرة مكان مختلف، يشوف ناس مختلفة، لا يعرفهم ولا يعرفوه، ساعات يجوع، ساعات ينام في الشارع، ساعات بيشتغل كناس أو بيغسل صحنون.

- والسبب!

- السبب غريب.. في الأول قولت عليه مجنون، بعد كده فهمت.. عرفنا إن في راجل ممكن يعمل حاجات كتير أوي عشان يكسر روتين حياته، عشان يجاوب على سؤال بيسأله الملل (لو حياتي اتغيرت، هباني مين؟).

- هو جاوب على السؤال ده كتير، كان بيراهن دايماً على قدرته انه يتحمل أي ظرف، ودائماً كان يكسب الرهان.. ويرجع لبيته فخور انه في أي نهاية، كان بردو راجل ناجح.

- وافرض اتقتل في مرة من المرات.. أو حصله حاجة.

- ممكن طبعا.. بس الواحد لما بيتملكه الملل، مايفكرش في التهجئة، أي راجل مؤمن بالجنة - ممكن - في لحظة من لحظات حياته يتمنى يروح للنار ويشوف شكلها، اعتبره نوع من أنواع الفضول، ده طبيعي، بس الأكيد بعد ما يروي فضوله، هيتمنى انه يرجع ثاني.. انت كتبت المقالة وانت عارف انها مخاطرة..

قالها شاردًا لنفسه ثم استدار موجهًا كلامه ليوسف:

قبل ما تبدأ رحلتك لجهنم، كان لازم تتأكد إن تذكرتك ذهاب رعوته.

ثم أشار بسبابه ليوسف مضيئًا:

استغل الفرصة اللي قدامك! حل القضية.

محلها.. أوعدك!

كويس.. بس قبل ما تتحمس لازم تعرف كويس مين هو.

لما قابلته اتأكدت من كلامي، شيطان مريض، إنسان بيعشق الشرزي ما غيره بيعشق الحياة.

مش صح.. بص للصورة الكاملة! إحنا مش الخير، والشر مش جبهة معادية هتقف نتفرج عليها وإحنا عارفين إننا مش منها، كل إنسان في الدنيا دي عنده سبب للي بيعمله، حتى لو مش واضح.

قالها ثم ناول يوسف كوب من الماء شرب منه يوسف شربة واحدة ليكمل:

الأسود مجرد شخص عادي، عشان تعرف توصله، لازم تعرف هو ليه وصل للمرحلة دي.

ثم تابع:

المهم دلوقتي إنك تستريح.

ربت الدكتور رؤوف على كتف يوسف، استند يوسف بيديه فوق حافتي السرير وتلامست قدماه مع بلاط الأرضية الباردة في استعداد

واضح للقيام، مرت بعدها بضع ثوان من الصمت أضاف بعدها عبد الرؤوف متفحصاً ساعته:

- أنا عارف إنك هترجع، المهم إنك تفتكر إن الحل دايماً.. هنا..

قالها مشيراً على رأس يوسف بإصبعه السبابه، حرك يوسف رأسه موافقاً ثم أضاف عبد الرؤوف متابعاً:

- في موضوع كده.. وأنا لازم أعرفك انت أول واحد.. أنا احتمال أسافر الخليج قريب لأخويه، هقعده عنده شهرين، ممكن تيجي معايا هناك لحد ما الدنيا تهدى شوية.

- الوقت إتأخر للحل ده، في ناس بتأذى بسببي.

تابع عبد الرؤوف مازحاً:

- محاول أقابلك تاني قبل ما سافر.. لحد ما يحصل،، حاول ماتخلصش على نفسك.

ابتسم يوسف، بعدها مرت دقيقة من الصمت ظهر فيها على وجهه مزيداً من الإصرار.

مرت نصف ساعة، جاءت بعدها الممرضة محملة بحقنة، تحدثت مع طبيب الدوام صغير السن عن «كولون» ابتهاج الذي «نشبه» مسمار في تخته المدرسة وكيف تعاركت مع مدير المدرسة بكل أنواع السبابه والفنون القتالية من أجل هذا «الكولون» المقدس الذي يساوي 35 جنيهًا، لكنها تجمدت عند باب الغرفة، كمن رأت عفريتًا لتوها، سألها الطبيب

في إيه؟!

لجمد بجانبها عندما وجد السرير بلا مريض فوقه، خاليًا إلا من بضعة أسلاك وملاءة ملقاة على الأرض، بدا كأن المريض قد عاد للحياة بعداً، بعدما وجد قميصه الأبيض وإرتدأة ومن فوقه المعطف الخاص به، ورحل.

نامت قطة تعبت في صندوق قمامة بحثًا عن منيو الإفطار، ذلك عندما سمعت صوت أقدام يقترب بانتظام كما اقتربت الشمس من الإشراق، كانت أقدام تمشي بهدوء وثقة، تضغط الأسفلت كأنها تريد أن يعرفه، توقفت قدماء السوداوتان بجانب الصندوق نصف المفرغ دون أن يلتفت، نظرت إليه القطة وأطلقت مواءً ناعماً، أكمل طريقه بينما تبعته القطة، مشيت بجانب ذيل معطفه الداكن، مشيت بجانبه كأنها هو، تملأها الثقة كأنها تعرف أين تذهب، لم تنظر بجانبها، لكنها قفزت فوق ظهر سيارة ومن ثم إلى كتفه اليمنى، لم يتأثر بالمرءة، بل تابع السير، تابع حتى وصل لمبتغاه عند جانب الطريق، توقف هناك يتنفس الفجر الجليدي، كان صباحًا لم يكتمل بعد، أشارت الساعة إلى الخامسة صباحًا.

صديق جديد؟!

همس بها رجل غامض قاصداً تلك القطة المتحفزة، صوته يبدو كهو رجل في الخمسينيات، يرتدي طاقية رياضية زرقاء داكنة، من تحتها جاكيت محكم الغلق، واضعاً يديه في جيبي المعطف.

- عسكري جديد.

رد حاتم الأسود مبتسمًا، كان يبدو عليه أنه قد طمس وشمه بالجلد ولملم شعره بالكامل للخلف.

- بتعرف تجند كويس.

قالها الغامض، ليرد عليه الأسود:

- كل دي حاجات بسيطة، ما بتدخنش ليه؟

ظهرت من العدم يده اليمنى سيجارة وضعها في فم الغامض، ثم يسراه ليظهر عود كبريت مشعل بين أنامله، تنفس الغامض من سيجارته بتلذذ ليتابع الغامض:

- سمعت إنك عملت تغيير في الخطة.

- تغيير درامي شوية.. بس عبقرى.. سادى..

قالها قابضًا أصابعه ومكشّرًا عن أنيابه لتكشف القطة عن أسنانها ملله بغضب بدون أن تصدر أي مواء.

- مافيش مشكلة.. هو يستحق الموت.. المهم يموت في الترتيب الصح.

- المتعة ابتدت.. خلي عندك ثقة فيا!

- عقارب الساعة بتدور أسرع، المباحث عرفت حاجات كثير.

- إحنا أسرع.

- الخبطة الجاية فين؟!

لو قولتلك، يضع عنصر المفاجأة.

مافيش هيصيح.. لو أنا عرفت ماحدش هيعرف.

مافيش إيه لازمة إنك تعرف؟

المهم إنك تنفذ صح.

عندك شك؟!

لا.. بس عندي مشكلة مع الفشل.

مافيش ما عندكش مشكلة معايا.

قالها الأسود بتحد واضح، لتترك القطة تنظيف مخالبيها وتنتبه.

خلص الليسته قبل ما الدنيا تولع أكثر.

هههه.. تولع أكثر.. حلوه.. تولع.. أكثر.

تغيرت معالم وجهه بطريقة درامية، استطرد بصوت مخيف:

ده منظر راجل هيخاف لو الدنيا ولعت أكثر؟

قالها ممسكًا بياقي الغامض لتزجر القطة في شراسة.

لا.. بس لو غلطت، هتولع انت كمان.

لمعت عينا حاتم الأسود وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة،

فاملعها صوت أتى من قريب لشخص ثالث.

بطايقكوا يا بهوات.

قالها مخبر، أقصر قليلًا من الاثنين، أسمر البشرة يرتدي جاكيت

واسعًا عليه وبظلمة قماشًا، حلق الرأس وله عينا بنيتان بارزتان.

تفحصه حاتم الأسود بينما نظر الرجل الغامض للأرض مخفياً عينيه في هدوء تحت الطاقية، بدا أن شخصاً آخر ينتظر على بعد ستة أقدام من ثلاثتهم، كان مخبراً آخر يتأهب للهجوم في حالة تعرض صديقه للخطر.

- أوه انت بتكلمنا! ملعلش ماركزنناش عشان كنا بنخطط لمؤامرة شريفة  
قالها الأسود بسخرية ثم أضاف مضيقاً عيناه:

- ممكن تعيد الجملة دي؟!

- إيه! مابتسمعش يا روح أمك، طلع بطاقتك انت وهو!

نظر إليه الأسود بتعجب كأنه يرى كائناً فضائياً، كذلك القطة السوداء الساكنة فوق كتفه اليمنى التي مالت برأسها اندهاشاً، اقترب بوجهه منه قليلاً ثم قالها بسخرية:

- مياوو.

لم تكن مجرد كلمة قالها الأسود بوجه متجمد، لكنها كانت إشارة للهجوم:

- ميخاوووو!!

صرخت بها القطة ثم طارت على رأسه لتستقر بمخالبها في وجه المخبر كالخفاش، تصرخ بكل قوة كأن مسها سحر، بينما يصرخ هو ويتراقص كالمجنون، يحاول إبعادها عنه بأي طريقة ممكنة، تدخل

المخبر الآخر، ركض بسرعة ناحية صديقه لينقذه، في تلك اللحظة انتهى الرجل الغامض كأنه لم يوجد.

بمجرد أن اقترب المخبر من صديقه، طارت القطة مجدداً ناحيته، ولم أرضاً محاولاً تفادي ذلك الوحش المجنون، قفزت القطة بعيداً وأبعت الركض حتى اختفت، نظر مرة أخرى لصديقه ليجد وجهه مغلي تماماً بالدماء والجروح، مشوهاً لا يكاد يظهر منه شيء، لم تكن تلك المشكلة فقط، كانت المشكلة الأكبر أن خنجرًا ظل ينصله الحجري على رقبته المغطاة بالدماء، خنجرًا يحمله حاتم الأسود، والذي وقف خلف المخبر المصاب يحتضنه حاملاً خنجره يتمكن، متأهباً لذبحه في أي لحظة، ظل المخبر المصدوم في مكانه على الأرض، غير مصدق لما يرى، يشاهد صديقه المترنح يلاقي حتفه المؤكد.

سيبيه يا باشا! حقت علينا! سيبيه وإمشي وماحدث هيكملك.

قالها المخبر محاولاً القيام من على الأرض، مشيراً بكفه في حركة دفاعية.

نظر إليه حاتم بتعجب ثم إلى الضحية التي بين يديه، ثم قالها بسخرية:

- بطايقكوا يا بهوات..!

أخرج المخبر الحرحافظته ورمى منها بطاقته على الأرض، ثم أخرج الأسود حافظة المخبر المشوه بيده الأخرى، ورماها بجانب البطاقة الملقاة على الأرض بعدما قرأ اسمه وقال:

- أنفع مخبر؟!

ظل الرجل المشوه رافقاً رأساً عالياً في دعر، منتظراً نهايته المحسومة،  
ليرد المخبر الآخر:

- تنفع يا باشا.. تنفع ونص.. بس سيبه الله يكرمك!

ضحك حاتم ضحكته المعهودة ثم تغيرت ملامح وجهه بعدما  
أخرج من معطفه طوقاً أشبه بطوق الكلاب لكنه معدني، ضغط على زر  
به فانفتح، لوح به أمامه قائلاً:

- دلوقتي مع فقرة الساحر.. مبروك، صالح أول واحد هيجرب طوق  
السعادة.. الطوق اللي لو شيلته هتחס فعلاً بسعادة!

وضع الطوق حول عنق المخبر الذي حاول المقاومة، أغلق الطوق  
ميكانيكياً لتظهر عليه ساعة رقمية صغيرة، سيطر الأسود مجدداً على  
ضحيته بالخنجر، ثم قال جملمته الأخير:

- مع مراعاة الشروط والأحكام!

قالها وزام ثم ابتسم فجأة لدرجة أن أسنانه ظهرت لامعة، ثم دفع  
«المخبر» بعنف تجاه صديقه، تلقاه المخبر الآخر ثم تفقد الطوق المعدني  
الغريب بذعر، بدأت الثواني في العد التنازلي، اختفى حاتم مهرولاً في  
الشارع الجانبى من دون أن ينظر وراه، يغني في هيسيريا:

- نار في جليبي يامه نار.. نار نار يامه.

نار حريجة يامه نار.

قالها ثم نظر في ساعته ثم أكمل بنفس اللحن ولكن بصورة أبطل:

«نار... نار... يامه...» مشيراً بإصبعه السبابة كأنه مايسترو يعزف.

دوى انفجار كبير وراه مصحوباً بصريخ الصديقين، وسارينة بضع  
«بارات تكسرت زجاجها، تصرخ بدورها لتنبيه أصحابها، أو لتنعي  
الغيبدين.

\* \* \*



أشارت الساعة إلى الحادية عشرة صباحًا عندما ضغط مؤمن على الاتصال مجدّدًا، ظل اسم معاذ واضحًا على شاشة هاتفه، لكن الرقعة كانت واحدًا من تلك السيدة التي لم تتزحزح عن رأيها «الهاتف الذي لم يكن غير متاح حاليًا...» لعنه أكثر من مرة ولعن كسله المفرط، تساءل بصوت غير عال عن نهاية استهتاره حتى في هذا التوقيت الحرج، تفحص مظهره ما في يده ورقي أصفر اللون، وضع الهاتف في جيبه وطرق الباب مرة واحدة ثم سمح لنفسه بالدخول.

Good God!... الجو تلج يا مؤمن، انت كده هتتجمد.

قالتها جاكلين متفحصة مؤمن الذي ارتدى قميصًا أبيض فقطع على بظلاله الأسود.

- وصلنا فين؟

- آها.. ده أحسن سؤال يتسئل النهارده بصراحة.

تأهب رامي للإلقاء السلام عليه بدوره تاركًا ميكروسكوب كان ينظر فيه.

- إزيك يا كابتن؟ أمال.. فين يوسف؟

- في المستشفى، محتاج وقت عشان يعوض الدم اللي خسره.

أطلقت جاكلين زفيرًا طويلًا به كثيرًا من خيبة الأمل والصدمة، راحت بنظرها للسماء واضحة كفيها أمام وجهها كأنها ستصلي، سلبت منها الصدمة حتى القدرة على الكلام، تابع مؤمن موضحًا:

الأسود ورجاله طلعوا عليه في المترو إمبارح، أنا عايز قهوه.

الوجه مؤمن لنافذة المكتب متفحصًا شيئًا ما، كأنه يخشى أن يراقبهم أحدًا ثم جلس أمامها.

تجمدت جاكلين لكن طمأنها ثبات مؤمن الانفعالي على حياة يوسف لنفسه:

أنا حاسة أنك مطمئن.

لم يرد عليها مؤمن منشغلًا بإشغال سيجارته الجديدة.

لحقته في الوقت الصح.

وال.. الأسود؟

قالها رامي بتوترة المعهود.

لما وصلت مالفيتش غير رجائه، المهم إن يوسف كويس، الدكاترة يقولوا أسبوع بالكثير ويخرج.

هو حالته صعبة؟

تساءل رامي ملامسًا نظارته الطبية.

- ارتجاج في المخ وجرح قطعي في الصدر.

نفخ مؤمن نافحًا دخان سيجارته بإستهتار يشوبة اليأس، لتعال  
جاككين بصدمة.

- My God..!

الوقت مش في صالحنا يا مؤمن! أنا محتاجة مساعدة أكثر عشاق  
أقدر أفيدك.

- وأنا مش مقصر.

قالها ملوحًا بالملف ذي الغلاف الأصفر ثم استطرد:

- ده تقرير عنه، من أول ماليس بامبرز.. لحد ماليس أسود، لو فيه تقصير  
بيحصل في القضية دي يبقى منكوا انتوا.

- That's something

تمتمت بها لنفسها بعد نفس عميق ثم أمسكت بالملف محرقة إيهامها  
فوقه بهدوء كأنها تداعبه نظرت لمؤمن مجددًا مضيق:

- لفت نظرك أي ملاحظات مش طبيعية؟!

صمت لثانيتين سيطر فيهما على أفكاره ثم أضاف:

- بغض النظر عن إنه دبح أمه واتورط في حفلات عبدة الشيطان والعاهة  
المستديمة اللي عملها لعل وهو لسه عنده تسع سنين، لأ.. تقدرني  
تقولي طبيعي.

قالها مؤمن ببرود ثم حرك رأسه يمينًا ويسارًا مرة واحدة مستنكرًا.

- ماخيتش ظني.

علقت جاككين وهي تفض الملف بسكين، ليرد مؤمن بغضب  
والهجم:

بس انتوا خيتتوا ظني.

أها.. من حيث الجثة اللي اتخللت عندكوا ومافيش أي جديد.

للأسف وصلنا.. ل.. معلومات قليلة.

قالها رامي ليصدمه مؤمن بعاصفة ترابية غاضبة:

مش فاهم يعني إيه معلومات قليلة؟! حبة بـ5 جنيه مثلاً!!!

أهدى بالشكل ده المستشفى هتزيد واحد.

فالتها جاككين بهدوء غير معتاد.

جاككين! انتي عارفة إن مافيش وقت نضيعه في كلام مالوش لازمة،

إمبارح بالليل..

لاحظ علو صوته فترجع قليلًا في نبرته مضيقًا:

إمبارح بالليل يوسف كان هيتدبح قدام عيني، ودلوقتي رامي يقولني

معلومات قليلة، أنا محتاج إجابة سهلة على سؤال سهل: وصلتوا..

لحاجة.. في.. الجثة؟!

- عرف كلمة «حاجة»!

ردت جاككين محرقة قدمها بتوتر.

- حاجة يعني خيط، دليل، أي حاجة.

- للأسف لأ.

قالها رامي.

- شكرًا !!

رد مؤمن بصوت عال مشيرًا لرامي بيده بكثير من العصبية.

- سبب التقرير وأوعذك ان هيبقى فيه جديد.. روح ريح شوية، أعصابك تعبانة.

- أعصابي كويسة وفي حاجة لازم تعرفيها، الواد ده مش غبي.

- بمعنى؟

- قبل ما يهرب كان في هندسة، هندسة اتصالات، واضح من درجته في الجامعة انه ذكي جدًا، مش بس كده، من التحريات بتاعتنا عرفنا ان عصابة الأسود مشهورة بحاجة واحدة.

- اللي هي؟

تساءلت جاكلين بعدما أشعلت سيجارة.

- صناعة الأسلحة، الأسود.. بيصمم أسلحة.

مرت دقيقة كاملة كان الصمت القاتل عنوانها.

- أنا ابتديت اتشائم.

تمتمت جاكلين بوجه عابس لنفسها، بدا مؤمن شاردًا واضحًا شلله السفلية بين أسنانه بواسطة إبهامه، كان يقرضها باستمرار بعصبية، فاطم صمته ليرد عليها:

- مش انتي لوحذك، أنا حاسس اننا بنلف في دائرة مفيهاش جديد.

ولا هيبقى فيه!

جاءت كالصاعقة على ثلاثتهم، جاءت من شخص يقف عند باب المكتب.

أكيده بتهرج!

قالها جاكلين بصدمة شديدة لصاحب الجملة، ليتابع مؤمن بدوره:

انت اتجننت! إزاي سابوك تمشي من المستشفى؟!

مستحيل توصل للخيط وانت بتدور في الطريق الغلط.

قالها يوسف متجاهلاً دهشتهم.

لغصده إيه؟!

الأسود خريج هندسة اتصالات.

So..?

لو هيكتب رسالة، مش شرط يخبيها في اللحم والدم.

الموبايل!

قالها مؤمن بذهول.

مستحيل!

علقت جاكلين.

مش مستحيل.

كان رد يوسف عليها.

- بس إنا شيكنا على الموبایل، ومالقينا ش حاجه.

قالها رامي، ليردف مؤمن مشيرًا بسبابته:

- ممكن جدًا يكون في حاجة ماشفتهاش.

- ده مجرد موبایل يا جماعة.

علق رامي ضاغطًا على نظارته الذهبية لتعود مرة أخرى لمكانها أمام عينيه الصغيرتين.

- وافرض انه مش مجرد موبایل؟!!

قالتها جاكلين ثم قامت من مقعدها بحماس شديد. صائحة:

- ناديلي مختار وخليه يحصلنا على المعمل!

حرك رامي رأسه إيجابًا وهول سريعًا ناحية الباب، ليضيف يوسف رغم إعيائه:

- الحفلة بدأت.

\*\*\*

### (33)

مأنت الحياة في قلبها كما يتجمد نهر مياس شرق جبال الأورال في نوفمبر القاسي، كان ذلك شعورها عندما شاهدته يتجه ناحية مكتب طبع عليه كلمة «المخرج» ضاحكًا ويده هاتفه النقال، يتحدث مبتهيجًا دون أن يلحظها، كانت تنتظره قرب الحمام، مختفية وراء مبرد المياه المعدني ولياسها غير المعتاد، تسلفت يدها إلى شنطتها بهدوء، أخرجت السكين وهبائه تحت كم القميص، انتظرت بدون تردد، كصائد غزلان يعرف أن فرسته ستأتي للنهر لتشرب في أي وقت، لم تخشى أن يعرفها أحد، لم تلعش أي شيء.

تتعرف لما أجيلك!

قالها في طريقه خارجًا من غرفة سميير الشوريبي الفخمة ثم ألقى سيجارة في فمه وأشعلها ووضعها بين إصبعيه، تذكر أنه يريد أن يفرغ مئانته الثقيلة، اتجه إلى الحمام ليجدده فارغًا من الزوار، وضع سيجارته في فمه وأخرج بضاعته، أطلق زفير ارتياح مخلوطًا بدخان سيجارته، نظر على يمينه كأنه شعر بشيء ما، تأكد أنه لا شيء ثم نظر أمامه مجددًا، الذي حملة ثم أغلق سوستة بنطاله وأمسك بسيجارته، اتجه مباشرًا ناحية الباب لتتدفق به المفاجأة للخلف، لم تكن المفاجأة سوى طفافة السجائر المعدنية احتضنت وجهه حاملة توقيع يارا قاسم، جعلته يأكل

نصف السيجارة مع يضع من أسنانه وكثير من الدماء، وقع أرضاً كالنور المسكوب، ترنح لثائيتين حتى استوعب ما حدث له، تحسس وجهه وألم المصاب ثم نظر لكفه الدامية المرتعشة في دعر، نظر ناحية الباب ليعدها واقفة بكل ثقة، تنظر إليه من خلف نظارتها الشمسية بترقب، تلمع في يدها سكينه صغيرة خرجت من تحت كمها في صمت، ويدها الأخرى طفءة ثقيلة تركتها لتستقر.

- كان لازم تغسل إديك!

قالتها بهدوء شديد، ليرد عليها، مشيراً بكفه في حركة دفاعية.

- يارا! الموضوع مش زي مانتي فاهمة، أنا.. كنت همسح الفيديو لعل لكن.. غصب عني.. غصب عني حاجة حصلت.

- وأنا برودو غصب عني.

تقدمت في حركة هجومية، تحرك للخلف ماسحاً بلاط الحمام بملابسه بسرعة قاتلاً في توسل ودعر:

- راندا هي اللي دفعتلي.. دفعتلي فلوس.

تجمدت، كانت جملة قاسية، حادة كرصاصة في القلب، تنفسا مرتين بصعوبة وألقتهما بحزم:

- ماتجيش سيرتها على لسانك الوسخ!

- والنعمة!.. وحياة بتي اللي في المستشفى هي اللي دفعتلي الفلوس لما قولتها همسحه، قالتلي خد الفلوس دي عشان علاج مريم بس وزع الفيديو.

حروان كذاب!.. راندا مستحيل...

لا مش مستحيل، راندا بتغير منك من زمان وكلنا عارفين، انت الوحيدة اللي مش عارفة، أبوس إديكي أنا عايز أربي بتي، أرجوكي!

تابعت يارا التنفس محاولة التأكد من أنها في حقيقة أم كابوس، نظرت إليه نظرة إخترقته بها كثير من الغثيان والقرف، همت بالرحيل لاركة سامي بوجه مغطى بالدماء.

أنا أسف.

قالها ليارا التي توقفت في طريقها للخروج، ثم نظرت إلى يسارها لئلا ولم تلتفت، وتابعت المشي.. لا تعلم لأين.. لكن تملكها رغبة لهدية في الخروج من ذلك المكان.. كأنه يخلو من الهواء.

\*\*\*

نظر يوسف ناحية رامي الذي بدا متوترًا كالطفل الذي فقد أبويه، قائلاً

بهذه:

لسة معاك الجيل الأول؟!

الجيل الأول؟!

مويايلك! الجيل الأولاني.

تحس رامي مويابله الذي وضعه في جيبه، ثم أخرجه بسرعة ليجد أن هاتفه قد استلم رسالة نصية، فيما بدأ صوت شفرة موريس في العلو ليرجئًا من الصوت الخافت للصوت المتوسط، بدا وأن يوسف قد سمع صوت شفرة موريس منذ بدايتها وأيقن نوع هاتف، برر رامي:

أه... أنا... مابحش التليفونات الجديدة قوي.

كويس إنك محافظ عليه.

كويس إن الحادثة ما أثرتش على ودانك.

قالها مؤمن معجبًا بحاسة السمع الحادة عند يوسف، ليرد ببطء:

المهم ماتأثرش على دماغي.

أضافت لتضيف جاكليين:

اللي هيأثر على دماغك هو الإرهاق وعدم النوم، انت آخر مرة بصيت

في المراية إمتى؟

في إزاز المترو... بالمناسبة، فيه شرح صغير في العدسة اليمين، عند

الساعة خمسة.

(34)

حامت تعويذة الصمت فوق المعمل القديم في مصلحة العلي الشرعي، كان أبعد ما يكون عن معمل، زجاج مكسور وأجهزة نصف معطلة، كان أشبه بمعمل فيزياء في مدرسة حكومية مهجورة.

استقر مختار على «بنش» المعمل وأمامه «فولتاميتر» وهاتف نقال مفكك لأكثر من ثماني قطع، وجهاز به شاشة خرج منها سلكان انصلا بالـ «بوردة» الخاصة بالجهاز كأخطبوط يمسك بفريسته الممزقة، سمع نفسه متقطعًا ينم عن إصابته ببرد شديد، ثم نظر ناحية جاكليين قائلاً:

- ولا حاجة.

- متأكد؟

- زي مانا متأكد من إسمي.

- والذاكرة بتاعة المويابيل؟

- ماعليهاش غير الأغنية بس.

- «مخ» بليز! دؤر! أكيد هتلاقي حاجة تفيدنا.

- مافيش، حاولت والله بكل الطرق.

- أنا اتخفقت.

قالها مؤمن متحركًا بعدما أطلق زفيرًا عميقًا للغاية شاردًا ببصره بعيدًا.

أشار يوسف لنظارة جاكليين الطبية لتنزعها جاكليين عن وجهها ولتأجيلها  
بوجود شرخ صغير للغاية، عقببت بسخرية:

- Oh Crap.. الولد كويس!

- أنا كده خلصت.

- تمام يا «مخ».. Thanks!

هم مختار بالخروج بعدما لملم كل ما أحضره للمعمل.

تشابكت أصابع جاكليين ثم ضغطت عليهم ليخرج صوت «لفلفلف»  
قوي، حركت رأسها يمينًا ويسارًا قائلة:

- طيب بما إننا مالفيناش حاجة، كلمنا بقى عن اللي حاول يقتلك  
الأسود، شكلة عامل إزاي..

-.. زي ما بتتخيله في أحلام اليقظة.

قالها وفتح جزءًا من قميصه متممًا على جرحه الغائر.

- مؤمن قال إنه مكاكش لوحده.

- اتنين من رجالته، مافيش حاجة فيهم مميزة، بس الـ..

- بس إيه!

قالتها أثناء نصبها لحاسبها النقال ثم همت بكتابة شيء ما.

- اللي لاحظته إن كان فيهم واحد بترعش بطريقة غريبة، وبيضه  
بهيستيريا، حتى بعد ما مؤمن ضربه بالنار.

- كويس إن كان عندك وقت تلاحظ.

«علق مؤمن بسخرية لم تخلُ من الإعجاب، لتردف جاكليين:

- Inappropriate psychological response.

«وه اللي عايز أقوله!

«لغصد انه سكيذ وفرينك.

قالتها بعدما تجمدت أمام اللاتوب الخاص بها.

«مخدرات وعزلة.. ممكن جدًا.

رد يوسف محاولاً عدم التركيز في تفاصيل المعمل لكن عينيه خانتاه  
«العادة وأخذت مئات الخطوط التخيلية تخرج أمامه وفي نهايتها كتبت  
«ملاحظات من نوعية «لمبة مكسرة، فطر في جانب الحوض وغيرها»،  
«علق مؤمن ساخراً:

«آه.. شيزوفرينيا بقى والهلك بتاع الأمراض النفسية ده.. صح؟!

«لاحظت عرق في وشه أو على ظهر إيده مثلاً؟

قالتها جاكليين متجاهلة مؤمن، ليرد يوسف:

«مالحقتش.. مش متأكد.

«العيال دي عايشة عالحقن والبودره، أقطع دراعي السواد ده

سكيذوفرينك.

«عادت جاكليين ببصرها لحاسبها النقال مرة أخرى ليتابع مؤمن  
بنافذ:

«يا دكتوراه الله يكرمك، الكلام اللي حضرتك بتقوله ده صعب أوي،

دي عيال كلها شمال ومسجلين خطر، لو إتمسكوا والصحافة سمعت

قالها يوسف لتضيف له جاكليين:

المخددرات.

ثانية واحدة.. أمال إيه اللي واجعين دماغنا بيه في الأفلام ده؟

لساءل مؤمن بتعجب، ليضيف يوسف:

بالطبط، في الأفلام والروايات بيظهر مريض انفصام الشخصية العددي اللي تقصده، واللي هو حاجة ثانية خالص، في نظرية بتقول انه خيال وانه غير موجود، وأنا بميل ليها.. مع إن الـ «APA» اعترفت بوجوده رسميًا.

أردفت جاكليين:

الأمريكان اعترفوا بوجوده فعلاً.. وللإنصاف! في ذكارة كثير بتقول انه مرض حقيقي، وأنه غالبًا بيكون شخص طبيعى مر بتجربة صعبة وهو طفل، اغصاب، ضرب مبرح مثلاً، ويهبر من الكلام ده بتعدد الشخصية.. مانساش إن في عيلة كل حد فينا على الأقل واحد بيتكلم وهو نايم.. ده في حد ذاته صورة من صور تعدد الشخصية.

أعرف واحد كان يمشي وهو نايم..

قالها رامي منظرًا نظارته

المشي أثناء النوم مش دليل قاطع، حتى لو تطور، لكن.. خيلنا مانساش إن في كثير من حالات مرض الصرع يقوم المريض بعمل أشياء غير طبيعية بعد النوبة الصرعية من غير ما يعرف، فيه تصرفات عجيبة جدًا

الكلمة دي، ثاني يوم هيروحوا على مستشفيات الصحة يكتالوا في الفراخ وبعدين هينزلوا الشارع ثاني ويركبونا، وبعدين.. مافهم حاجة اسمها انفصام في الشخصية - مع احترامي - العيال دي عارفين هي بتعمل إيه كويس.

- وبين قالك إن الشيزوفرينيا انفصام في الشخصية؟! إنسى السهولة الشيزوفرينيا مرض مصاب بيه أكثر من نص المرضى العقليين، في إحصائية بتقول إن 1٪ من البشر بيعانونا منه بشكل أو بآخر.

قالتها جاكليين، ليرد يوسف:

- الفصام.

- بالطبط، بالعربي اسمه الفصام، ذكارة كثير بترشح المخدرات كسبب رئيسي للإصابة بيه، مريض الفصام أو الشيزوفرينيا بيكون مهزوز ومضطرب، مايقدرش يتعامل مع العالم الخارجي بسهولة، دايماً بيميل للعزلة أو الخوف، غالبًا بيسمع أصوات لناس مش موجودة في خياله مثلاً ساعات ممكن يضحك من غير سبب مقنع، أو يهبط في مواقف المفروض يضحك فيها، يعني تقدر تقول نوع من الجنون مش أكثر.

قالتها جاكليين ماطة شفتيها متجهة بنظرها لرامي الذي شاركو متعجبًا:

- بس.. الأسود.. هيسفيد إيه لو اختار رجالته من المرضى؟

- مريض الفصام سهل إنك تقوده، عشان دايماً تابع، وممكن السيطرة عليه.. بالخوف، وال... .



إنسجلت، زي ناس قلعت هدموها وقطعتها، ناس تانية سرقوها أو قتلت.. ويتصحى مش فاكدة أي حاجة..

قالها يوسف، ليرد مؤمن باستنكار:

- كل ده ماياكلش معايا.. اللي أعرفه عن علم النفس إن العالم شعاع الشخصية والدين يعبروا عن الضغط اللي عليهم بالجريمة، بس.. كده كلام مايجيش تمنه.

- وليه ماتقولش إن زي ما في حد ممكن يعبر عن الضغط بتحوله لخال واحد تاني ممكن يفصل نفسه عن ذكرياته بشخصية جديدة لها أهدافها وحياتها؟

قالتها جاكلين، تساءل رامي:

- يعني.. إيه ليها حياتها؟!

فسر يوسف:

- علماء النفس يقولوا إن أي شخصية مختلفة بتكون مستقلة، يعني كل شخصية جديدة ليها تفاصيلها، حتى في نبرة صوتها وضغط الدم. عموماً العلم لسه في جدال عن المرض ده، وذكاترة نفسيين كبار بياكدوا انه مش موجود.. Medical Hoax.

- طبعا مهجس.. ما فيش تعدد شخصية.. جسم النبي آدم مش لو كاندا عايش فيها 600 شخصية، لو على كلامكم يبقى الفصام بس هو اللي ممكن يكون حقيقي.

قالها مؤمن وأشعل سيجارته ثم توجه للنافذة مضيقاً:

عموماً.. أنا حقول لنوح يدور في ملفات المستشفيات النفسية في مصر من باب الاحتياط، يمكن يلاقي حاجة عن العيال دي..

أسك بهاتفه النقال ليختار كلمة «سكانيا» من قائمة الاتصال السريع.

ليه الخطوة الجاية؟

فكر..

قالها يوسف، أشار له مؤمن بهاتفه:

انت لازم تسافر.. هجييلك تذكرة جديدة.

وفر فلوسك.. أنا وانت عارفين إيه اللي هيحصل.

كانت رد يوسف، ليثور مؤمن أمامه مشيراً بسبابته:

انت.. أكيد بتهزر.. أكيد.. بتهزر!

طيب، إيه رأيكو نشغل حاجة تساعدنا على التفكير، وأهو بالمرة شوية الهام.

قالتها ضاغطة على زر في اللايتوب الخاص بها لتبدأ نجاة الصغيرة لي إضافة جو من الهدوء، والرعب.

«بحلم معاك بسفينة، وبموجه ترسينا.. ونبحر تاني..».

نظر مؤمن بعينين مصدومتين ليوسف الذي شعر بقشعريرة في كل جسده، ثم لجاكلين مجدداً، تابع بعدها مؤمن مكالمته مع نوح، في حين سأله يوسف.

- دي من الشريط اللي بتعتلي؟

- لا.. من الموبايل.. «متح» نزلها على اللاب.

قالتها جاكليين.

حرك يوسف رأسه إيجاباً ثم أضاف:

- في حاجة في الأغنية دي.

- ولا أي حاجة.. إسمع إسمع!

مرت دقيقتان، قام فيهما يوسف بتركيب كل الكلمات المذكورة في الأغنية في كل الاتجاهات الممكنة كلعبة الميكانو، حاسباً عدد الحروف والكلمات، لعله يجد شيئاً مكرراً أو مميزاً، لكن لا شيء، جلس على الكرسي المجاور لجاكليين في هدوء. في حين بدا رامي مشغولاً بمسح نظارته، وانتهت الأغنية.

راقب يوسف مؤمن المشغول بهاتفه بعيداً عنهم عند شبك المعمل ثم نظر لرامي مجدداً واستطرد:

- رسالة يا رامي.. موبايلك!

- بتسمعا إزاي قبل ما نسمعا إحنا؟

- قوة ملاحظة.

قالها رامي مبتسماً محاولاً إخراج هاتفه القديم متفحصاً إياه في عجلته في حين قالت جاكليين ساخرة ليوسف:

- مش مطمئة أنا للرسائل دي، رامي شكله بقى روميو.

أضاف رامي مندهشاً:

«المش رسائل».

نظر يوسف أمامه مجدداً محرراً رأسه متفهماً في حين أضافت

«جاكليين»:

«أوت دي يا دوك!»

نظر إليها يوسف رافعاً حاجبه الأيسر ومحرراً رأسه إيجاباً مجدداً

قائله يريد أن يقول «هذا يحدث بعض الأوقات»، ثم تجمد للحظة كأنه

الذكر شيئاً واتسعت عيناه عن آخرهما في حين فعلت جاكليين نفس رد

الفعل لتضيف بذهول:

«مستحيل».

«لا مش مستحيل».

نظرا بسرعة لشاشة اللابتوب على مشغل الأغاني الذي اقترب من

الصفر بعد انتهاء الأغنية ثم أمسكت فارة التحكم وأعادت آخر 8 ثوان

في الأغنية وضغطت على زر في لوحة المفاتيح ليصبح صوت الأغنية في

أعلى مستوى ممكن، واقترب الاثنان من الكومبيوتر، كطفلين يسترقان

السمع من باب حجرتهما.

أغلق مؤمن هاتفه بعدما قال «هكلمك ثاني..» ثم اتجه ناحيتهما

مندهشاً، رجعت جاكليين برأسها للوراء ونظرت لمؤمن بدهشة بالغة

قائلة:

- شفرة موريث!

- هنتحتاج «مخ».

- شفرة موريث؟!

- الخيط كان في الأغنية.

- أهلاً وسهلاً...

قالها مؤمن في صدمة.

مرت نصف ساعة كاملة، حاول فيها مختار تكبير الرسالة المراد مستخدماً برامج صوتية محترفة على الحاسب الشخصي الخاص به فيما استندت جاكليين بكوعها على الـ«بنش» وفي يدها سيجارة تعمر في - أنا برنس!

قالها مختار مبتسماً بعدما رفع السماعتين عن أذنيه.

- «مخ»! Come on، ده الطبعي بتاعك، قولي إنك ترجمتها Please

- «مخ» في الخدمة دائماً، لبنان.. (15).. (2).

- لا يا راجل؟!

تابع مختار بلهجة دفاعية.

- لا والله، فعلاً هو ده المكتوب.

لوح مؤمن بعصبية قائلاً:

- داحتنا بنلعب بقي؟!

شردت جاكليين قائلة:

بالله! إيه؟!

أي حاجة، ممكن يكون الضحية الجاية لبناني مثلاً.

إيه 15 دي بقى؟ سنة مثلاً؟.. بالله عليك قولي كلام أصدقه!

قالها مؤمن مطلقاً زفيراً عميقاً للغاية، ثم مسح بكفيه عن وجهه في بأس واضح.

مش.. يمكن يكون.. «إحم».. عنوان.

صح!!، يابن الصايعه! Oh..Sorry!.. أسفة.

15 ميدان لبنان.. عمارة رقم 15، شقة اتنين!

قالها يوسف بتشكك، ثم حلق مؤمن في وجه رامي الذي ازداد حمرة لهرس في ليلة زفافها ثم قال بثقة:

لو طلع الكلام ده صح..

لم يكملها، أمسك بجهاز اللاسلكي متجهماً بسرعة للباب بعدما بدأ إشارته، تبعه يوسف وجاكليين في عجلة.

الآن أصبح لديهم جميعاً شيء..

\*\*\*

(35)

تراصت سيارات الشرطة بأشكالها المختلفة كقطع حلوى في الفانيليا عرض، تتوسطهم سيارة إسعاف واحدة، بدت بجانبهم قطعة قفزت من فوق عمود إنارة فوجدت نفسها في سيارة مليئة بكلاب صيد مدربة، كان ذلك أسفل عقار رقم 15 في منطقة ميدان لبنان المزدهمة دائماً، وهي مؤمن سيجارته إلى حنفها مراقباً المكان من خلف نظارته السوداء، في حين أشار عبد الجليل لضابط قوات خاصة يرتدي زياً مميزاً أسود اللون، تغطي عينيه نظارة قاتمة، يرتدي «طاقية» رياضية داكنة عليها علامة القوات الخاصة، أو ما برأسه متفهماً، ثم ضغط بدوره على زر في جهاز صغير معلق ناحية كتفه وتمتم بشيء ما بكل ثقه، لحظة وانفتح ظهر سيارة شرطة سوداء اللون في حجم الأتوبيس الصغير تقريباً، خرج منها خمسة رجال يشبهونه لكن بعتاد أكبر وخوذة حديثة بها مصباح كهربائي صغير معلقاً. كان اثنان منهما يحملان قطعة إسطوانية كبيرة من المعدن.

- أزرق؟

قالها القائد مبتسماً في ثقة يلوك علكته الكبيرة بتلذذ، لينظر إليه الفريق محرّكاً كل منهم رأسه إيجاباً بثقة.

أخرج سلاحه وشد جزءه ليحذو الباقي حذوه، ثم اتجهوا لمقصدهم جميعاً وفي مقدمتهم القائد، صعدوا السلالم للدور الأول في اتجاه

اللغة الثانية، الشقة الوحيدة التي لا يعلم أحد في العمارة من يقطنها، في الطريق للعقار قامت تحريرات سريعة طلبها مؤمن جاءت بنتيجة مرضية، العمارة بالكامل مؤجرة لمدد طويلة ماعدا شقتين، واحدة تخص المالك إضافة إلى الشقة المجاورة التي يفضل إيجارها لمدد قصيرة الشقة مفروشة، كان الأكيد في الأمر والمثير للريبة أيضاً أن شخصاً بنفس المميزات الأسود قد استأجرها لأسبوعين، بل وطلب منه أن يحصل على البندوم كمخزن لشركة منسوجات مستقبلاً فوافق صاحب العقار على الفور.

نزل يوسف من سيارة مؤمن محاولاً أن يرى ما يحدث بوضوح ونزلت معه جاكليين، كان المكان مزدحماً للغاية، توقف المارة في فصول ليشاهدوا الفيلم «الكشن» الحي الذي يحدث في المنطقة، أصبحت السيارات تمر بصعوبة خلال الشارع المقابل.

توقف القائد أمام الباب ثم خلع نظارته عن عينيه ووضعها في جيب بطنه، أشار بمسدسه ناحية الباب في صمت، تمرركز صاحباً القطعة الاسطوانية أمام الباب ومن خلفهم قائدهم، بدت ثقيلة للغاية، تراجع بقية أفراد الفريق الثلاثة بعيداً عن الباب خشية أن يكون هناك فخ ما، وجه القائد فوهة مسدسه للباب في حين نظر إليه الاثنان بهدوء تام كأنهم لا يستطيعون الكلام، حرك رأسه إيجاباً لينظر الاثنان أمامهما في حزم، حركاً معاً الاسطوانة الحديدية للخلف مرتين وفي الثالثة صدموا الباب بكل عنف، كسر الباب وبقي جزء من الخشب عالقاً في «الكالون» الذي

ولاب قديم مفتوح على مصراعيه ولا يوجد به شيء، تأكدا أن الغرفة هادئة ثم قالها الرئيس مجدداً من خلال اللاسلكي:

أزرق.. ما فيش أي أثر.

تجمع كل منهم في الممر الفاصل بين الغرف كطلاب جامعة ينوون الذهاب للكافيتيريا بعد محاضرة طويلة مملة، خلع اثنان منهم خوذتهما وقال أحدهم:

عبد الجليل ده هيتحط عليه جامد، قلق الداخلية كلها على الفاضي.

رد الآخر مازحاً:

مش كان زمانا بنكمل ماتش مانيسستر دلوقتي يا كابتن؟

نظر القائد لحذائه متجاهلاً كلماتهم البائسة، سرح قليلاً لثانيتين، تتبع أحداً رفيقاً من المياه قادماً من غرفة بعيدة مغلقة على أقصى اليمين، ثم نظر لهم قائلاً بغضب شديد:

مين اللي شيك على الحمام..؟!

نظروا جميعاً لبعضهم البعض بعدما اكتشفوا أن كل فريق اعتقد أن الآخر قد ذهب هناك.

- أووف!

صاح بها أحدهم لائماً على نفسه مرتدياً الخوذة مرة أخرى، ثم تقدم هو وزميله في محاولة لتعويض عقدة الذنب على هذا الخطأ الكارثي، كان الباب مغلقاً، تقدم الاثنان ومن خلفهما القائد الغاضب في حين

لم يتأثر، مرت ثانية طوية انتظر فيها ثلاثتهم أي مفاجأة غير سارة، في حين تحفز قائدهم موجهاً سلاحه يميناً ويساراً مترقباً أي حركة، كانت الهدوء هادئة تماماً وشبه خالية إلا من بضعة كراسي قديمة وكنبة تحضّر، كان المطبخ أمامهم خاوياً إلا من بوتجاز فوقه بضع أكواب فارغة، وصلوا تنزل منه نقاط متتابعة حتى فاض الحوض أسفل.

- ألفا.. تعامل!

قالها القائد للثلاثة المتراجعين ليتدخل أحدهم ويلقي قبلة صومالية صغيرة، دوى انفجار بسيط ناتج عن القبلة، تدخل اثنان من الثلاثة منهم صوب سلاحه في اتجاه عمودي على الآخر، انتظروا قليلاً ثم قال أحدهم:

- أزرق!

تقدم الاثنان الآخران واستندا على مدخل باب الغرفة الأولى، ألهم أحدهم قبلة صوتية أخرى بالدخول من دون أن يرى شيئاً، انفجرت القبلة ثم دخلا بعدها بخمس ثوان كاملة ليжда مزيداً من الفراغ، لا شيء سوى غرفة فارغة، أعادها أحدهم في اللاسلكي المعلق قرب صدره:

- أزرق!

تدخل القائد يمضغ علكته بعنف ومن بعده الوحيد غير المرتبط من الفريق الذي تقسم فجأة لفرق صغيرة ثنائية العناصر، تقدما ناحية الغرفة الثانية ليجدها مثل الأولى، لكن توسطها سرير يفتقد كل شيء إلا المال،

نظر القائد للأرض السيراميكية المطلية بلون أحمر داكن لم ترح منه المياه الكثير، كانت أربع بلاطات كاملة مغطاة، ترتيبها جميعاً أفقي تشبه حرف الألف لكن بدون همزة.

حرك القائد المذهول رأسه إيجاباً، ثم انحنى مساعده الآخر والتقط شيئاً من فوق الأرض.

- بطاقة!

ناولها للقائد ثم خلع خوذته بدوره مثل زميله، ضغط القائد على زي اللاسلكي في بدلته ثم قال بذهول شديد كأنه فقد النطق:

- عمليات خاصة!

جاء الرد في أذنه اليسرى خلال سماعة دقيقة ليستطرد:

- تم السيطرة على الموقع بنجاح، لا سلبيات للفريق، تم اكتشاف جثة شاب ملقاة داخل بانويو.. الجثة... مشوهة، بها طعنة نافذة بالصدر، و...-و... مصفأة.. من الدم...

قالها ثم بلع ريقه بصعوبة وأضاف:

- توجد آثار دماء على أرضية الحمام، وتوجد بطاقة شخصية تخص الضحية، الاسم:....

حاول التركيز لقراءة الاسم في الحمام المظلم، في اللحظة نفسها تقدم الثلاثة الآخرون في اتجاه الحمام ببطء بعدما شعروا بتأخر الفريق.

انتظر الثلاثة الآخرون، نظرا لبعضهما البعض وذلك الصوت يسيل على المكان، صوت شبيه لصنبور المطبخ، نقاط متتابعة متساقطة من صنبور ما بالداخل، نظر أحد أفراد الفريق الثاني لصديقه ليحرك صديقه رأسه تفهماً، ثم للقائد المتأهب.. أشار بأصابعه: «1»، «2»، «3» ثم حرك الباب فجأة، كان المكان مظلماً للغاية على الرغم أن النهار لا يزال في أشده، بدا أن صنبور البانيو يسرب نقاطاً من الماء، والغريب أن البانيو ممتلئ عن آخره، الأغرب كان ذلك الثلج الكثيف المغطي للبانيو، قطع متوسطاً من الثلج بدا أن شخص ما قد وضعها منذ وقت قريب لا يزيد على بضع ساعات، لكن هذا لم يكن كل شيء.

- إيه ده!

قالها أول شخص في الفريق بغثيان شديد عندما وجد أن هناك جثة ما تحت الثلج والماء البارد.

وضع القائد يده في الماء غير الممتزج بالدم، وأمسك الضحية من كتفها مخرجاً رأس الجثة للهواء.

- القلق ماطلعش على الفاضي.

كانت جثة شاب في بداية الثلاثينيات، قصير القامة، عاري الصدر، عيناه مغلقتان بنفس الطريقة الدموية، نفس الخيط اللعين، محفور رافم على كلا خديه، وخنجرًا يختبئ بداخل صدره.

- كابتن.. الأرض!



لم تعلق جاكولين واكتفت بإيماءة من رأسها، كان يبدو أنها تتجاهل المتحدث مع مؤمن لسبب ما، تابعت فحص الدم الموجود على الأرض، رشت من سائل موجود في زجاجة بلاستيكية صغيرة على الدم، ثم أخذت عيتين عن طريق عصاتين صغيرتين في آخرهما قطنة صغيرة تشبه تلك الخاصة بتنظيف الأذن، تابع رامي بدوره تسديدة بضعة لفات للجلطة المتفحمة داخل البانيو، في حين بدا لون الماء داكن ومعكر، وبدأ أن الثلج كله قد اختفى.

- إزاي 2 ماتوا وأنا شايف جثتين لسه طالعين حالاً من هنا؟ وأدي الدالة أهي.

قالها مؤمن مشيراً برأسه للجلطة المتفحمة لتزيح جاكولين الكمامة قائلة:

- «الكاديفر» دي كانت هنا من الأول..

توجه مؤمن للداخل بسرعة من دون إذن للدخول، حاول النظر للجلطة المتفحمة في البانيو، صدمه المنظر فأشاح بوجهه بعيداً كان شخصاً قد لطمه فجأة، وضع منديلاً على أنفه وحاول التقرب مجدداً قائلاً بصعوبة:

- مين هو؟

نظر رامي لجاكولين كأنه يخجل أن يقول شيئاً، ثم نظر مرة أخرى لمؤمن الذي جاهد لينظر مجدداً، أشارت له جاكولين أن يطلعه على السر بإيماءة من رأسها.

الينا دي في إيد... في إيد كابتن الفرقة.

قالها مخرجاً كيساً بلاستيكيّاً صغيراً من جيبه به بطاقة صغيرة نصف المفحمة كتب عليها:

«معاذ السيد محمد خطاب»، وعليها صورة لشخص يعرفه جيداً، الشخص يعرفه منذ أمد.

استغرق الأمر نصف دقيقة من التدقيق، كأنه يريد أن يتأكد أنه لا يحلم، ظل المندبل على أنفه وفمه فيما رقرقت عيناه بضع دمعات سقطت على الكيس، بدا كأنه على شفا انهيار عصبي، ينظر إلى جاكولين تارة وتارة للمطابقة غير مصدق، قال بذعر:

لا.

البقية في حياتك!

ردت جاكولين، ثم أعادت الكمامة مرة أخرى في توتر وحزن متابعه عملها.

تجمد رامي بالكاميرا غير مدرك لما يجب فعله، في حين شعر مؤمن كأن شيئاً ما يقف خلفه، لم يكن شيئاً، كان يوسف، يقف متجمداً كالثلج، وعلى خدة الأيسر دمعة صامتة تكاد تتجمد، كان وجهه متماسكاً للغايه، ليس غاضباً.

أو حزيناً، تلك النظرة التي يعرفها مؤمن جيداً، لقد توصل لشيء أو فرار ما، قد يكون جيداً، أو في تلك المرحلة، دموياً.



- معاذ مات يا يوسف.

قالها مؤمن غير مصدق ثم أكمل:

- قتله..

ظل يوسف متحجراً كأنه لا يسمع أي شيء، أخافهم صمته، نظر إليهم يوسف نظرة بها كثير من الغموض، ثم هم بالرحيل مسرعاً.

- إلحقه بسرعة يا مؤمن! هيعمل في نفسه حاجة.

قالها جاكين لمؤمن المصدوم من رد فعل يوسف، صمت مؤمن لثانيتين ثم هم بالركض خلف يوسف.

مشى يوسف بسرعة في الشارع بوجه صارم ويدين مخبأتين في جيبي معطفه، تتساقط دموعه فوق وجهه المجهد الحاد، ابتعد لمائة متر تقريباً حينما ظهر مؤمن من ورائه يناديه:

- يوسف!

- يوسف! أقف بقولك!

هرول ليسبق يوسف ويدفعه لحائط عمارة سكنية بجانب الرصيف من صدره.

- عايز تروح فين؟! عايز تنتحر؟! هتهرب زي الجبان، هو ده اللي انت عايزه؟! هو ده؟!!

نظر له يوسف بعينين محدقتين وعجز عن النطق.

- إمبراح وليد، النهارده معاذ، كل ما نستسلم كل ما هو يكسب.. فكر بقی.. كفاية سلبية!

قالها ممسكاً بمعطف يوسف بقبضته كأنه يعاركه.

تابع:

فكرت لو انت مت كل ده هينتهي؟ بالعكس! هيكمل بردو، وأنا اللي

هبقى بعدك.. إسمع كلامي يا يوسف! فكر! أرجوك!

قالها ثم ترك ياقتي الجاكيت ومضيئاً في حسرة.

أنا مش هقدر أكمل ده لوحدي.

استند بظهره على الحائط بجانب يوسف، ومرت بضعة لحظات من

الصمت:

الوقت أسرع مني.

قالها يوسف كأنه يناجي نفسه:

ثم نظر لمؤمن نصف المنهار، وتابع بعدها طريقه بخطوات ثقيلة.

..لم يلحق به مؤمن في تلك المرة.

\*\*\*

- مافيش حاجة اسمها نلغي، يارا هتيجي حالًا، يا هطريق أم الاستوديو ده عاللي فيه!

قالها المخرج نائزًا بأعلى صوت، في حين ارتعد كل من في الاستوديو من وجهه الذي أصبح في قمة الاحمرار، حاولت رائدا تهدئته لكنه رفض كل المحاولات، أخذ يسب ويلعن ذلك الحقيير «سامي» الذي تسبب في كل ما يحدث له وللمنتج بل وللقناة أيضًا، فشلت كل محاولات رائدا في إقناعه بتأجيل الحلقة لحين إيجادها أو التعاقد مع بديل.

في نفس اللحظة، وفي الحمام الخاص بالدور الثاني الواقع به الاستوديو، وقف شاب يصنف شعره الأسود الطويل أمام مرآة الحمام، يرتدي قميصًا أبيض اللون وينطالًا أسود قاتم ضيق، أمسك بفرشاة تشبه تلك التي تستخدمها السيدات في عملية التبرج ومسح بها حول عينه ووجهه كأنه يرسم شيئًا ما، لم يكن سوى حاتم الأسود يطمس وشعه بمسحوق له نفس لون الجلد.

ما أن انتهى إلا وسمع شيئًا ما من خلال السماعاة الدقيقة المثبتة في أذنه اليسرى، ابتسم قليلًا ثم خرج من الحمام، وقف أمام الزجاج الغامق الفاصل بين الطرقة والاستوديو، يشاهدهم يهلعون ويتحركون في كل

الاتجاهات كالحمقى، يتحاورون ويثرون بدون صوت، كأنه فيلم أمريكي صامت قديم.

10 دقائق على الهوا!

قالها شاب يرتدي سماعة متصلة بميكروفون ويده بضعة أوراق متوترا.

نظر المخرج لسقف الاستوديو مصدومًا ثم مسح بكفه على وجهه، أخذ يسب ويلعن سامي مجددًا ثم نظر للشباب صاحب التصريح الأخير قائلاً:

- هشام! إتصلي بمدحت بيه، قوله محتاجين تأخر البرنامج ساعة كمان، قوله عملت حادثة وبعتنا حد يجيبها، قوله أي حاجة، المهم الهوا يتأجل.

- مافيش هوا هيتأجل.

قالتها متألق بصورة غير طبيعية، في طريقها للكرسي الفارغ أمام الكاميرات، تركض بجانبها «ماكيه» تحاول بشنى الطرق الوصول لوجهها بفرشاة قاتمة لتكمل عملها، جذبت الورق من يد هشام في طريقها مبتسمة، ثم علقت على قصة شعره الجديدة وسط ذهول كل من في المكان، واصل المخرج فتحه لفيه في حركة لا إرادية، ثم لاحظ أنه الوحيد الذي أخذ الذهول لذلك الحد فبلغ ريقه وخفتت ضربات قلبه المتسارعة، وتقدم ناحيتها يشاهدها جالسة كملكة فوق عرشها ومن حولها تجمع المساعدون.

- يارا!! أنا.. أنت.. حمد الله على السلامة.. حاولنا نتصل.

قالها بذهول شديد.

- معلش.. تليفوني ضاع مني ماعرفتش أستقبل مكالمات.

- يارا!! لو ماکتنيش جيتي كنا هنروح في 60 داهية.. الشغل..

- أنا موجودة.. ده المهم، بمناسبة الشغل، محتاجة شوية تعديل في فريق الإعداد.

- ما.. فيش مشكلة يعني، بعد الحلقة نتكلم زي ما حنا..

- لا.. دلوقتي.. دلوقتي نتكلم.

قالتها مناوله إياه ورقة، أمسك بها وقرأها سريعًا بعدما رمقها بنظرها بها كثير من الدهشة، عقد حاجبيه بشدة ثم نظر إلى راندا التي وقفت بعيدًا تحرك قدمها بعصبية وتنتظر بتحد.

بعدها بدقيقة.. كان هو خلف الكواليس.. واقفًا يشاهدهم جميعًا فاردًا يديه أمام خصره لكن قبضتيه كانتا ململمتين، اقترب قليلًا من الزجاج الغامق ليشاهدها عن قرب، كانت تجلس أمام عينه مباشرة على بعد أحد عشر مترًا فقط، تجلس على ذلك الكرسي الفاخرة بثقة وزهو، واضحة قدمها اليمنى فوق اليسرى، وأمامها سمير الشوربجي يقفز مثل الضفدع في أوج غضبه.

اقترب أكثر حتى اقتربت شفاهه من تقبيل الزجاج، وأخرج نفسه ساخنًا من فمه الضيق، ثم رسم بسبابته شيئًا، ثم ابتسم.. نظر في ساعته

لم فرد ذراعيه كعادته رافعًا وجهه للسماء في تعبير عن السعادة اعتاد عليه، وهم بالرحيل تاركًا يارا قاسم جالسة في زهو، وفوق رأسها تاج رسوم بحرفية شديدة، أخذ يخفت لونه.. حتى انتهى.

العقد ده بجد؟

قالها سمير الشوربجي مندهشًا.

3 دقائق هوا.

صاح صوت عال.

معاك قلم تمضي؟

يارا!!.. انت بتحطيني في موقف صعب.. This is Deep shit!

كل الاختيارات قدامك.

ولو صممت تأجل الكلام ده؟

يبقى هي تيجي تقعد مكاني.

قالتها بابتسامة وثقة ثم نظرت ناحية الكاميرا.

3 دقائق.. جاهزة يا آسة يارا؟

حركت رأسها إيجابًا، ليصبح سمير في كل من حوله.

كله يمشي!

يارا بليز!!.. لازم نتكلم قبل قرار زي ده.. دي.. دي صاحبك قبل

مانا حتى أعرفها.. إزاي؟!

- بص كويس لعيني وأنا بتكلم يا سمير!، ويعدين أسأل نفسك، ده شكل واحدة تبص صاحبيتها ببلاش؟! ويعدين بصلي واسأل نفسك تاني... ده شكل واحدة جاية تتفاوض!؟

- مش مصدق اللي بيحصلني النهارده بجد... أنا اصطبحت بوش النهارده!

حرك رأسه مستنكرًا لتضيف يارا بحدّة وثقة:

- إمضي! أو وسع من قدامي.

نظر إليها متعجبًا من جرأتها وإصرارها، ثم أخرج قلمًا من جيبه بظالاه وانتظر لثانية.. ثم وقع.

- دقيقتين.

- أنا مش مصدق إنك عملتي كده.

قالها معيدًا القلم لجيبه مرة أخرى.

- في حاجات كتير مش هتصدقها الفترة الجاية.

قالتها مبتسمة للكاميرا حتى لا تلفت النظر لها من قبل الحضور.

التفت سمير ليجد راندا تنظر إليه بكثير من الغضب المكتوم، تحرك قدمها بنفس العصبية، عجز عن النطق لثانية، حاول التقدم ناحيتها لكنها ألقت زجاجة مياه كانت في يدها على الأرض بعنف وهمت بالرحيل بسرعة وثورة، بعدما علمت كل شيء بدون شرح.

..Three.. Two -

صاح بها رجل ثم أشار بأصبعه ليارا التي قالت بثقة.

- أهلاً بكم.

هرولت راندا بسرعة الضوء، لم يستطع أحد اللحاق بها، اتجهت ناحية السلم ولم تنتظر المصعد، نزلت تسب وتلعن كل الملل الممكنة، لا طمته واقفًا أمام المبنى الواقع به الاستوديو.. لفت نظرها شعره الأسود الطويل وتصفيفة شعره المميزة، تناست غضبها وقالت:

- يا الله!

تمتمت بها لنفسها بصوت يمكن سماعه، كان مستقرًا خارج المبنى جامدًا في مكانه كالتمثال كأنه ينتظر شخصًا ما، اقتربت منه محاولة رؤية وجهه.

- دخيلك، معاك كبريت أو ولاعة، هطق.

أخرجت سيجارة من علبة السجائر وأخفت الولاة داخل شتطة يدها.

نظر لها من دون أن ينطق كلمة واحدة، ثم نظر أمامه مجددًا في نفي مباشر.

- يلا هي جت عليك يا زلمة!

قالتها بخيبة أمل لكنه ظل جامدًا في مكانه، لم ينظر ناحيتها مجددًا، انتظرت لنصف دقيقة كاملة انتصرت فيها الرغبة على الكرامة حينما قالت:

- ماكتش أتصور زلمة شيك وستايل متلك سيسب ماجموزيل متعصبه  
واقفة كده لوحدها في الشارع ومايردش حتى عليها؟!!

نظر لها مجدداً لكن بدون أن يتنسم، كأنه تذكر شيئاً ما، ثم نظر لساعته  
مجدداً، في نفس الوقت الذي كادت تدخل فيه راندا في غيبوبة أو سكونه  
قلبية من كثرة رغبته في الذهاب معه لأي مكان.

- يا أغنيّا..! إيش لونك؟

توقفت سيارة هيونداي كبيرة الحجم حمراء اللون، وبدخلها فتاة  
يتدلى شعرها الأحمر الطويل على كتفيها الرقيق، نظرت له بمزيج من  
الثقة والإعجاب، فتاة يعرفها جيداً، لكنه عاد بنظرة للعب الغاضبة،  
تسللت أصابعه إلى باطن كفها اليسرى ليمسك بيدها ويقربها من شفثيه،  
فَبَل باطن يدها الناعمة ثم قال بصوت هادئ للغاية:

- أسود.

ترك يدها وهم بالرحيل للسيارة، ومازالت الفتاة بدخلها تنظر لها  
بكثير من الغموض.

تجمدت راندا في مكانها، غير مصدقة لما حدث، شعرت كأن روحها  
كادت تخرج من جسدها لثانية، شعرت أن شيئاً بداخل كف يدها، نظرت  
لتجد مشط كبريت فضي اللون، لم تستهلك آيّا من أعواده، نظرت مرة  
أخرى للسيارة، لتجدها قد رحلت.

كانت الخامسة إلا قليلاً، تراخت أعين الشمس قبل سبات عميق،  
وقف حينما وقف يوسف محدقاً بحائط بطولاته المخضب بجميع

المقالات والصور التي لها علاقة بحادثة المرح ومن تبعها، تعلو  
أصوات الأفكار المتشابكة داخل عقله كأنها تتعارك، وترسم الخطوط  
الوهمية والدوائر التخيلية أمام عينه، دائرة على كلمة في مقالة وسهم  
يخرج من خنجر حجري مميز بداخل صورة باهتة تصف التضحية في  
«فسارة المايا، دقيقتين لم يتحرك فيهما كأنه شل تماماً أمام ذلك الجدار  
المشثوم.. تعالت أصوات الأفكار وكلمات مؤمن وجاكليين في ذاكرته  
على النحو الذي أرغمه على أن يغمض عينيه تدريجياً، كان يريد أن  
يستخلص صوتاً واحداً أو فكرة واحدة، أشار بعدها بكف يده ناحية  
الحائط ليصمت.. كأنه كان يسمعه..

فتحت عيناه بغتة، تفحص كف يده المرتعشة ثم اتجه مسرعاً لزجاج  
النافذة بعد أن تذكر شيئاً ما أراد أن يخطه.. قاطع رسوماته التي خطها  
على زجاج الشباك بقلم «ماركر» عندما سمع صوتاً ما أتي من الخارج..

صانحاً:

- مين؟!!

ترك رسوماته التي تعبر عن أشكال البلاطات الملونة في كل حادثة قتل  
شهدها وصمت مستمعاً لصوت الأمواج المتناحرة ودقات الساعة، لكنه  
أفسم أنه سمع صوتاً ما.. ألقى القلم وخرج باحثاً عن مصدر الصوت،  
خرج من الباب بحذر ونظر يميناً ويساراً، ليجده واقفاً عند ذلك اللسان  
القريب من الشاطئ، يتركز على عكازه الداكن بجانب صخرة متوسطة  
الحجم مربعة الشكل يخرج منها جزء معدني يبدو أنه صمم لتحمل منه،

يطير زيل معطفه الصوفي مع الهواء البارد، ينظر إلى الأمواج الزرقاء القاتمة كأنه يرسمها في ذاكرته بعناية، يودع محبوبته الذي سيوارىها الدهر بعد الرحيل، وقف بجانيه يوسف بعدما خطي بهدوء على اللسان الخشبي، كأنه كان يعلم بقدومه.

- كنت فارك سافرت.

هز عبد الرؤوف رأسه قليلاً متفهماً من دون أن يلتفت، ثم قال بهدوء:

- أنا بحب الإسكندرية أوي يا يوسف.

اتجه بنظره لأول مرة ليوسف وأضاف:

- مالك؟

- قتل معاذ..

- عرف الأخبار.. البقية في حياتك..

- ده مش كل حاجة، 2 كمان ماتوا بسببي، من الشرطة.

- حاسس بندم؟

قالها عبد الرؤوف ليمسك يوسف بحجر ويلقيه في البحر مضيقاً:

- هي دي اللحظة اللي كنت بتكلم عنها.. مكسب وخسارة.. وما بينهم أنا.. حاسس بالموت.

- يبقى اختارت تخسر.

أنا ما اخترتش أي حاجة..

صح! بس افكر دايماً إن الحرب بين الحق والباطل - للأسف - مايفتش اختيارية.. السؤال هو: مين هو الحق.. ومين هو الباطل؟  
الخير هو الحق.. والشر هو الباطل.

زمان قريت قصة عن راجل فضل يحارب قوي الظلام طول عمره، لحد ما اكتشف إنه أعمى، والحقيقة إن الضلمة اللي كان بيحاربها، كانت حياته، كان عايش جواها.

إزاي ماخذش باله؟!

لأنه افكر نفسه صح، لأنه في وسط المعركة الواحد صعب يلاقي وقت يتأكد من مكانه..

زمان قولتلك بس ما فهمتنيش.. الضلمة مش جبهة معادية، ساعات ناس كتير بتموت عشان قضية مالهاش وجود.. ساعات الحق والباطل مايفصلش بينهم خط واضح.. ووقتها.. كل الألوان بتتشابه.. فكر!.. لسه لقدامك وقت عشان توصل.. عشان تحل الأزمة.

الحل صعب.. الطريق اللي مشيته كان غلط من الأول.. حتى الاستنتاجات اللي كنت متأكد منها كانت سراب مش أكثر.

الطريق اللي مافيهوش سراب مش حقيقي.. كمل!.. مافيش شيء صعب.

لا في! الصعب إنني أستني دوري!! أنا مش هستنى لما يعمل في زي ما عمل فيهم.

- يبقى أوصل للحل..!

- محلها بطريقي..

قالها متفقدًا الحجر بعينه ليتفحصه عبد الرؤوف مثله ثم حول نظرها ليوسف مرة أخرى قائلاً.

- إيه؟ خلاص تخيب ظني؟!

- انتظار الموت أصعب من الموت نفسه، لو أنا مش موجود، الكابوس هيخلص، كل واحد بعد كده هيصحى ويكمل حياته، ماحدش هيفكرني.

ثم صمت لثانية مضيئاً:

- وماحدش هيموت بسببي.

- وانت خدت ضمانات من الشيطان إمتى؟! مش يمكن تموت ويكمل؟!

مش يمكن وجودك يمنع كابوس أكبر.

- كابوس أكبر؟! فكر لثانية واحدة! أنا كل يوم زيادة بدفن فيه حد يعرفني، مستحيل أستنى أكثر من كده، مش هلعب قمار على حياتك أو - أو - على حياة مؤمن.. لو أنا مت اللعبة هنتهي.. فاهمني!. تنتهي.

- يا خسارة.

قالها ثم واصل طريقه لخارج اللسان معتكراً على عصاه، تاركاً ما تبقى من يوسف خلفه في ذلك المكان الخالي من الحياة.

أخرج يوسف مفكرته وخط بها:

لم أعد أحتمل رؤية نفسي في هذا الحلم المميت الذي علقت به،  
لم أعد أحتمل أن أخسر شيئاً جديداً، لقد أصبحت لعنة على كل شيء  
يعرفني، يتحول كل ما ألمسه لرماد هش.

أما هو.. فقد أصاب حينما قال إن الأمر كله كان اختياراً بحثاً، مجازفة  
ميتة - رسمها قلبي - أَلقت بحياتي الباردة في قلب الجحيم.. نحن  
نبحث عن الجنة في الأرض.. وفي الجنة سنبحث عن الأرض.

والآن، سأحيا فقط لأرى ذلك اليوم مراراً وتكراراً، اليوم الذي أقاتل  
فيه مع الوقت جنباً لجنب، ثم أنقاتل معه، اليوم الذي أصبح فيه أعمق  
ومخاوفني أن أنسى ما حدث لمن أحببت، أو ألا أتذكرهم، أو أن يمر  
اليوم.

#### بعدها بخمسة أيام

وبعدين لقتلك 4 سنوان بجلاليب سودة طالعين من الجيب وابن  
الجذمة فضل قدام ماتحركش، روحت أشوفه لقيته وشه محمر ومزهر  
آخر الشارع.. هاء هاء هاء.. قولته بتعمل إيه هنا ياد يابن المره؟ بقولك  
إيه! ماعرفش ينطق.. كانت تلك إحدى قصص أحمد نوح الخيالية عن  
مغامرة مثيرة من مذكراته كشرطي لا يقابل في طريقه سوى الشواذ  
والعاهرات وأصحاب الجنس الثالث، نظر إليه مؤمن مندهشاً، لا من  
تلك القصص التي تشبه كتب الجنس التي انتشرت في ثمانينيات القرن  
السابق، ولكن من قدرته على الضحك والكلام بعد ما مروا به جميعاً

منذ أقل من 24 ساعة في تجربة ميدان لبنان الدموية، أطفأ محرك سيارته عندما وصل للعنوان المنشود في منتصف حي السيدة زينب ثم سأل بصوت فاتر:

- وصلت لحاجة في موضوع الأرقام؟

تغيرت ضحكة نوح المستفزة، وتحول وجهه دراماتيكيًا لوجه صارم نظر أمامه مستطردًا:

- وديتها المركز، في الأول افكروها كود لجملة أو رسالة، وبعد تاريخ.. شوية بهايهم مايفهموش حاجة، عمومًا اللي يريد رينا هيكو يا عم.. ماتحرقش دمك!

- قدامك 48 ساعة يا سكانيا، يا تقولي الأرقام دي بتحكي في إيه يا هتكلم مع عبد الجليل وهخليه يجيب حد يقولي، وماتحرقش دمك!

تفحص الدور الثاني من بيت قديم زين الدور الأول منه بالطلوب الأحمر فقط بدون أي طلاء، علقت قرب بابه لافتة صغيرة كتب عليها منزل قدر العطار.

شد أجزاء سلاحه ودسه في ظهر بنطاله وتأكد من أن الجاكيت لا يظهره، وهم بالنزول من السيارة، ليتمم نوح بغضب:

- يا دين أمي على الكلام عالمسا.

لزل بدوره من السيارة بوجه عابس، تجاهله مؤمن ثم تحدث من دون أن لزل مقلتيه من على الدور الثاني من تلك البناية المشبوهة قائلاً:

مش عايز قرارات فردية، مهما يحصل ماتعاملش مع حد فوق.. إلا لو أنا أتعاملت الأول.. أمين؟!

تمام يا باشا أوامر..

قالها نوح بلهجة رسمية مشيخًا بوجهه بعيدًا في غضب ليرد عليه مؤمن بلهجة أكثر سلاسة.

سكانيا، نركن مشاكلنا على جنب دلوقتي ونخلص المصلحة دي صح، إحنا معناش أمر تفتيش ولا دياولو، لو قدورة شك لحظة ورجالته سخنت هتتخرتأ..

تمام يا باشا بس...

مابش، نخلص المصلحة دي وبعدين نعض في بعض براحتنا.

قالها ثم استطرد:

لو اللي في بالي تم، هنطلع من هنا ملوك.

ولو ماتمش؟

قالها نوح باستهتار.

يبقى مافيش حاجة خسارة في دم معاذ.

وصلا للباب الخشبي القديم، أحاطتهم رائحة ننتة للغاية بدت لعلامة مميزة للحى كله، ضغط مؤمن على جهاز «إنتركم» رسمت



بجانبه - بطريقة سيئة - علامة تشبه جمجمة صغيرة ترتدي نظارة قاتمة وعظمتين تعامدا أمامها، كان الجهاز مخفياً بجانب الباب غير المتناسل مع الجو العام للمنطقة الشعبية، انتظروا قليلاً ثم جاءه الرد من صوته شاب به كثير من الحيوية والترقب يسأله عن كينونته، اقتربت شفنا مؤمن من جهاز الإنتركم كأنه سيقبله ثم تمت بكلمة واحدة، انفتح بعدها قفل الباب أو توماتيكياً في مشهد يشبه علي بابا والمغارة، نظر ملياً لنوح كأنه يريد أن يقول له شيئاً ثم صعدا.

لم يكن وصف «مغارة علي بابا» بشيء بعيد عما رآه الغاضبان، فقد كان السلم أشبه كثيراً بسلم قصر لا منزل متواضع، مظلم للغاية لكنه صمم بعناية وبذخ، تعالت أصوات الموسيقى الشعبية واختلط الهواء برائحة الدخان والجنس، توقف الاثنان عند جلاباب «بلدي» أنثوي فنان، ومسدس أمسكت به الفاتنة ذات مساحيق التجميل المبالغ فيها وعلكة تلوكها بروتينية شديدة، تفقدت الاثنان بفتور، ثم رمقت مؤمن بنظرة معناها «مش بطل»، وفتحت الباب من ورائها ليخرج ضوء شديد كاد يصيب الاثنين بالعمى.

في الداخل كان عالم آخر بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، رائحة الحشيش والخمر المعتق تعانق عقب العاهرات وضحكات السكارى، حاو مغربي يفتش الأرض يلهو بثعبان كوبرا أمام أساطرة المخدرات في مصر القديمة، يتكى كل منهم على فتاة أو اثنتين، يمر بجانبهم مؤمن وصديقه ليشعر الجميع بهما، كأن لهم رائحة مختلفة جذبت أنوفهم كما

يجذب الدم القروش البيضاء، هي رائحة المباحث، أكثر منها رائحة الاختلاف.

في طريقهم لهدفهم المنشود تعالت ضحكات غير بريئة لكنهما مرا لأهلهما لم يسمعا شيئاً، كان الجميع منزوع السلاح إلا الأطفال فقط، يحتفظ كل منهم بمسدس أو اثنين، ومنهم من يحتفظ بما هو أكثر من ذلك، كانت أعينهم أقدم عمراً من جثة فرعون، وأكثر عمقاً من البحر الذي أبلعه، الجميع يرمقهم بترقب لم يغيره نظرة مؤمن الممتزعة، في الطريق لمحضنتهما مقتلنا شاب أسمر مفتول العضلات يقوم بتقسيم كميات من البودرة على ميزان صغير بالتساوي، كانت أمامه منضدة جلست بجانبها طفلة صغيرة تناوله بضعة أكياس، وتناولوهما نفس النظرة التي أعطاهما كل من مروا به منذ دخولهما، نظرة تقول: «غير مرحب بكما».

قريب النهاية بضعة أمتار، شاهدا مراقبة نصف مكتملة الأنوثة تطوف ويدها الخمر لتملا كؤوسهم سحراً، لقد كان عالماً يحكمه كل من ابتعد عن القبر.

استقرا أخيراً أمام منضدة جلس عليها أربعة لاعبين، تشابهت أخصائهم غير المريحة للعين إلا واحداً، بدا مختلفاً عنهم جميعاً، حتى الكرسي الذي يجلس عليه كان أشبه بكرسي العرش، يرتدي نظارة شمس فاتمة اللون لا يعكس زجاجها أي صورة، على يساره مالت الحساء التي قابلاها واضعة رسغها على كتفه النحيلة، كان غليظ الوجه مع أنه هزيل الجسد، حليق الرأس وأسمر اللون، تمسك أنامله المغلفة بعقيق الخواتم

بضع ورقات كوتشينة لامعة، بدا أن الحساء قررت أن تشاركه ورق  
الورق كأنها تلعب معه ضد الثلاثة، امتلات المنضدة بالنقود بأشكالها  
وألوانها، همست الحساء بشيء في أذنه، وضع الكروت أمامه ثم قالها  
بصوت مبحوح:

- انبسطوا شوية يا معلمين! فاصل ونرجع.

قالها لأصحابه الذين رمقوا الثاني بنظرة غير مريحة بعدما هدم للدهم  
في منتصفها، تحرك الجميع بعيداً ليخلو المكان من الجميع إلا كبيرهم  
وفتاته التي اعتدلت ليقول ذو النظارة القاتمة:

- البحيري باشا بنفسه؟!

- إيه يا قدورة الحلاوة دي؟ ولا ألف ليلة..

- هذا من فضل ربي..

- الإزاز ده عازل يا قدورة؟!

قالها متفحصاً زجاجاً قائماً مبطناً للشقة الكبيرة التي احتلت الدور  
الثاني كاملاً، دار قدورة بوجهه ناحية نوح متفحصاً إياه بصمت، ثم توجه  
مرة أخرى لمؤمن قائلاً:

- مين الكوكو؟!

ليستطرد مؤمن محاولاً إنقاذ الموقف قبل اشتعاله:

- الباشا اسمه نوح.

- أنا مش هرد احتراماً بس لبحيري باشا لكن...

والكنش! أقعد عشان نعرف نتكلم يا نوح باشا، ماتزعلش! استريحوا  
يا بهوات!

فاملعه قدورة مبتسماً، وامتنص غضبه الذي قارب الانفجار بحكمة  
الدخول الفاتنة قبل أن يجلس الاثنان أمامه.

البحيري يا بشوات!

فالتها قاصدة أسلحة الاثنتين، رمقها مؤمن بنظرة حادة ثم استطرد  
بوجهها حديثه لـ «قدورة»:

- بنفع الكلام ده يا قدورة؟!

كانت بلهجة تحذيرية أكثر من أنها تساؤل، لبشير الأخير بيده لفتاته  
بحركة بسيطة جعلتها تغير من وضعها الهجومي لآخر أكثر تساهلاً،  
فمحضها نوح بشغف مبتسماً لترمقه بنظرة بها كثير من الغثيان وتساءله:

- بنبص على إيه يا كوكو؟!

رد عليها نوح بكثير من الغضب كأنه وجد شخصاً يمكنه النجاح في  
وجهه أخيراً بدون خسائر:

- أبص براحتي، ولو ماتلمتش، هقطعك شرايح زي الطمطماية  
وأمضغك وبعدين أتفك.

لم يعلم من أين خرج ذلك المسدس بسرعة الضوء، لم يكن واضحاً  
خروجه من فتحة جلبابها أو أسفل المنضدة، لكنه خرج متجهاً بقوة صوب  
رأس نوح الضخمة، منتظراً ضغطة بسيطة من سبابتها على الزناد ليفجره

أشلاء، أخرج مؤمن سلاحه في حركة غريزية موجهة فوهته تجاهها لتتساقط الأرض عن طفلتين أخرتين بمسدساتهما الصغيرة، توأمان ذوات عيني خضراوتين لامعتين حليقتي الرأس، جذبتا أجزاء أسلحتهم لمؤمن وصديقه لتستطرد الفاتنة الغاضبة:

- وهتمضغني إزاي يا كوكو من غير رأس؟!

تحفز مؤمن ملوحًا بسلاحه الذي شتت فوهته طفلتا «الفالكير» المتهيبتين للفنك بهما، في حين صمت نوح كالسمكة، منتظرًا رصاص الرحمة من ملاك الموت.

تجمدت الثواني وحقق الجميع في الضحيتين المحتملتين بينما لم تتجمد الموسيقى الهابطة.

- الكلام معايا أنا يا ست البنات.

قالها مؤمن لتوجه الفاتنة سلاحها صوبه، ثم أضاف موجهًا حديثه لقدورة:

- الناس اللي تحت لو زعلوا هتقلب بغم.. وإحنا مش عايزين نزعل.. إحنا هنحكي في مصلحة وهنمشي علطول.

- مصلحتك حاجة يا باشا والكوكو حاجة تانية، ده خلاص كده، إن شاء راح فدا الوطن.

قالتها الساحرة موجهة سلاحها مجدداً لنوح الذي وضع يده ببطء على سلاحه محاولاً إخراجه لترد إحدى التوأمين:

الصبحة.. ماتحاولش.

رفع نوح يده عالياً في وضع استسلامي، بينما واصل مؤمن تشتت بين صراخات الفالكير - النسخة الشعبية - أضاف قدورة بهدوء وثقة:

صاحبك داس على الخط يا باشا.

وأن اللي كنت جاي عشان أفيدك يا قدورة!! هو ده الواجب اللي

أحدثه...؟ ينفع؟!

قالها مؤمن مشتتاً بسلاحه بين الغاضبات.

إطلع انت منها يا باشا ماحدث هيمسك، بس سيبيلنا الكوكو.

حاول مؤمن مرة أخرى مع الفاتنة المهانة محاولاً إنهاء الأزمة:

أنا أعرف إن الضيف مهمما كان ليه واجب.

أمين! بس إحنا لينا حق يا باشا، ومنطقتنا هنا بره دايرتك.

ردت الفاتنة.

صح، انتي صح يا ست البنات.

رد مؤمن وتجمد لثوان بدا كأنه اتخذ خلالها قراراً ما، ثم وضع

سلاحه على المنضدة مستطرداً:

- والحق عندي.

وجهت مسدسها ناحيته ورمقته بنظرة اندهاش يمزجها الإعجاب، ثم

نظرت لـ «قدورة» الذي لم يندش من جرأته مضيقاً:

- البحيري باشا اعتذر بنفسه يا شهد، وارتفع عليه سلاح في بيتي..  
من كده مايصحش.

صممت لثانيتين، ثم هبطت ذراعها بجانبها رافعة حاجبها الأيسر  
لتتغير معالم الهجوم في وجهها وتعود عضلات وجهها للحياة، ثم  
تخفي من عينيها تلك النظرة الشهوانية التي اخترقت جسد مؤمن بهبط  
شديد، دبت الحياة مرة أخرى للجنة السوداء، وانفض المولد وهبط  
مؤمن بجانب نوح المذهول، رمقه بنظرة كفيفة لتصيب بنطاله ببيل، ثم  
توجه بعينه لـ «قدورة» الذي أردف:

- مصلحة إيه يا باشا اللي تعبت نفسك وجيت عشانها؟

- حلمت حلم غريب يا قدورة وماحدث هيقسره غيرك.

- حلم؟!.. وماله؟!.. خير يا باشا.

- خير يا قدورة، في الحلم كنت ماشي في أمان الله بحفر في الأرض  
بدور على حاجة ضايعة مني، وقابلت خفاش جاي من بعيد، وفام  
عاضضني في صباغي، وانت عارف، صباغي غالي عليه جدًا.

- كمل!

- وبعدين ببص على يميني لقيت نهر أبيض زي اللبن.. وانت بتحارب  
عشان تعوم وما تغرقش.. بس.. فمدت إيدي عشان الحقك.. وبعد  
ما لحتك بصيت انت في كف إيدك لقيت الدم.. قومت قايما..  
ما تزعش يا باشا.. أنا هجيبك الخفاش.

- طاب يا باشا.. ماجريتش تتصل بخط تفسير الكواييس.. 19840.

- طاب ماتيجي معايا تتصل بيه مع بعض من المباحث؟

وهناخذني إزاي يا باشا؟!!

هيب يا ملك الأبيض، تفكر تفوتني؟

فالمها ووضع ورقة مطوية في حجم الكارت تقريبًا على الطاولة، رمقها  
لدورة بتمعن، ثم حرك رأسه موافقًا بعد لحظات من التفكير، أضاف:

ماشى، تفسير الحلم عندي.. بس اللي أوله شرط آخره أمين، أنا  
هشوف الورقة دي.. لو أمر نيابة والنية صافية وجاي تعمل مع قدورة  
واجب وتحذره، نبقى حباب، وهخلصك المصلحة وقتي، طلعت  
فاضية لا سمح الله، يبقى ليا عندك حق، وحق كبير قوي.. وهيخلص  
بردو وقتي.

همت يده بالوصول للورقة، لامست أنامله نصف الورقة ليضع مؤمن  
أنامله بدوره على النصف الآخر مانتًا إياها من الوقوع في يده، عادت  
الحسنة مرة أخرى يكوب واحد من الشراب لتضعه أمام مؤمن، متجاهلة  
لنوح الذي أخذ مقعد المشاهد مما يحدث.

- إيه يا «درة»؟!.. هو انا ماليش نفس ولا إيه!. طالما مافيش أمان يبقى  
نلعب بقى على الورقة.

أخرج جهازه اللاسلكي ووضع بجانب سلاحه والورقة مستطردًا:

- لو الورقة فيها أمر تفتيش، هعمل زي ما الكتاب بيقول، ونبتع بقى  
نجيب بقية الدبابير ونقلها باللو، مافيهش، يبقى ليك عندي حق،  
كلامك!؟

صمت قدورة لثانيتين بينما لا تزال أنامله معلقة بين قبول الرهان أو الرفض، تعالت ضربات قلب مؤمن الذي يعلم جيدًا أن ذلك الهادي قد يتحول لسفاح عديم القلب في ثانية بمجرد فتحه للورقة، يعلم جيدًا أن مراهاقات الفالكيير سوف يلتهمونهما بدون رحمة في تلك المدينة التي جرد فيها الرجال من أسلحتهم، يعلم أن أصدقاء «قدورة» من أصحاب الباع الكبير في تجارة الصنف يحملون أطنانًا من السلاح تم تحريرها بمجرد دخولهم منطقة نفوذ قدورة، لكنهم قد يستعيدونها في ثانية بصوت صغير قد يصدر من احتكاك إصبعي الوسطى والإبهام الخاصين به، فقدورة ليس بمجرد تاجر المخدرات عديم الرحمة، بل هو أكثر من ذلك.. في عرف السوق هو العراب.. الأب الروحي.. القائد وكاتب كل دساتير مواطني الجريمة.. هو من يحدد من يقتل ومن يدفع الثمن ومن يغفر له.. هو الذي يضع القوانين والتي تسري على الشرطة قبل رواه نادي الإجرام.. كان بالنسبة لهم مثل جيفارا للثوار.. والفيس للمطربين، كان آخر شيء يريد مؤمن تخيله ما سيحدث له ورفيقه عندما يكتشف قدورة أن أحدًا قد استغفله وقطع عليه لذته ملوَّحًا بورقة ملخص محتواها:

- عرض ADSL.. بالإضافة لراوتر مجاني.

تعالت ضربات قلبه مجددًا في حين تفضصهما نوح بترقب، مرت ثانيتان أخريان حافظ فيهما مؤمن على ابتسامته الواثقة، تغيرت ملامح

الغائنة وقبضت بهدوء على سلاحها مجددًا في انتظار إشارة جديدة، شعر مؤمن بتأهب الكثير من ورائه لالتهامه، حافظ على هدوئه وثقته، نظر قدورة إلى الغائنة ثم مرة أخرى إلى مؤمن، ثم تحررت الورقة المطوية من أنامله الغامقة الدقيقة، وعاد بظهره للوراء مجددًا وأخرج سيجارة ملفوفة من علبة صغيرة بنية اللون بجانبه ووضعها في فمه لتشعلها له الغائنة بسرعة، التهم نفسًا عميقًا اختلط مع الشك في خملات صدره، لم أطلقه مضيقًا:

- ما عاش ولا كان اللي يشك في الباشا.

قابلها مؤمن بابتسامة ثقة تاركًا الورقة ملقاة على الطاولة، تصرخ طلبًا أن يفتحها أحد ما ليرى الخديعة، لكن أحدًا لم يجرو، عاد مؤمن بدوره للوراء ثم ألقى سيجارة في فمه، هم بإشعالها ليجد عبثًا قوبًا من الياسمين يهترق حيزه، كان يخص الغائنة التي مالت لتشعل السيجارة بنفسها.. تشعلها للرجل الذي يملك من الجرأة أكثر مما يملك فريد شوقي في ألام الأبيض وأسود، رجل تسري ثقته بنفسه بين شرايينه كالدماء حرك رأسه مبتسمًا في مجاملة للغائنة التي صرحت له مباشرة برغبتها، ثم توجه بحديثه لقدورة مجددًا:

- غني يا منير!

ابتسم قدورة وأخرج نفسًا عميقًا آخر ثم قال بعدما رجع برأسه للوراء كأنه يتذكر موقفًا من ذكريات الطفولة مستطردًا:

- الخفاش اللي انت عايزه مش تبعنا، لما عرفنا اللي حصل للبيه الكبير وبعددها صاحبك أبو دبورَة صفرا - الله يرحمه بقى - استغربنا من الطريقة، إطلقنا عشان نعرف مين اللي عملها، في الأول وصلنا لمعاره سد، بيني وبين نفسي قولت.. مين اللي شايل من الباشا قوي كده؟ اللي جابلي أرتيكاريا الطريقة.. التبية نفسها مش بتاعتنا، ولا حتى بتاعه حد نعرفه، لأن حتى لو حد شايل من البحيري باشا الصغير لازم يعللي عليا الأول عشان ياخذ الكارثة، وأنا مايرضنيش إن حاجة تحصل من ورايا.. انت عارف.. ماعتديش زوار في الطرطشة.

حينها أضاف مؤمن:

- الطرطشة وصلت لأبويه وصاحب.

- وده أول خط عداه اللي وصل للبيه الكبير، لأن مافيش طرطشة على الأهل، القانون يقول.. اللي يخش البريتة يخرج بطوله، يا إما مايخرجش.. أي حد عندنا بيعور أم أو أخت أو أخ أو حتى كلبه حد في البريتة.. بيدفع الغرامة.

- تعرفه ولا ماتعرفوش يا قدورة؟!

- عيب يا باشا... انت عارف قدورة، لو قدورة مايعرفش يبقى مين اللي يعرف؟!

قالها ثم أطلق سحابة أخرى من الحشيش وأكمل حديثه:

- الرجل بتاعنا في النيابة جاب الصور وعرفناه حد من بره الدائرة، واد ييلعب مع نفسه، عامل نفسه معلم على شوية عيال معاتيه.

لسمع عن الأسود؟

قالها مؤمن بحزم.

لسمع عن الأشكيف؟

للدرجادي مشهور؟

مش قصة مشهور، قصة أصلي ولا من وحي الخيال.. إحنا كنا زيك يا باشا.. كان كل اللي عندنا إسم، دا حنا حتى كنا فاكرينه مش موجود أصلاً، سمعنا عنه قصص وحكاوي زي حكايات أمنا الغولة وأكثر، افكرنا التجار الصغيرين عاملينه خيال مائة عشان يخوفوا بعض.. بس طلع حقيقي.. وإديه متعاصة ومش فارق معاه أي حاجه.. ده غير إن ناس كتير بتحلف انه مخاوي.

أصطاده متين؟

حلو السؤال، شوف يا باشا! من بيجي 3 شهور الواد حسن برغوت كان مدنجل في أرافة من بتاعة الأكابر، شاف «هربانة» ورجالته ماشيين في عز الليل، عرفهم من لبسهم، ماحدش في الكار يغلط فيه، أهو.. ياما قولتله غير أم ليس الأبيض وأسود ده.. المهم...

وده إيه علاقته؟

- سألتني، أجابك أنا بقى، برغوت حكاوي قصة صعب تصدق، بس حاول تشتري من قدورة يا باشا.. أبيض؟

- كمل!

- الليلة كانت زي أفلام السيما، ولولا إن برغوت حلف 100 يمين كلفه  
دبحت أمه - بس الواد - شهادة لله عليه فعلاً كانت بتشر رعب.. وفي  
أول مرة أشوفه كده.

- شاف إيه؟

- شاف سواد يا باشا.. شاف «هربانة» ببديح هو رجالته زي الفراخ  
شاف الخفاش وهو بيمصمص في دمه.. شافه وهو بيطلع من الهوا  
زي العقاريت، بس الغريبة.. إنه ماكانش لوحده.

- تقصد إيه؟

- برغوت يقول إن كان فيه راجل مستخفي ورا شجرة بعيدة عن الشكلة،  
أول ما الرز استوى وخلاص رجالته «هربانة» هتعض في كلاب الأسود  
فردنبلة من بتاعة الأولمبيكات، وضرب السهم زي الطلقة، كل سهم  
براجل، وماجلاش ولا مرة، زي مايكون طول عمره بيعملها، كان بيته  
وبين برغوت - مافيش - 5 ولا 6 متر بكتيره، برغوت خاف لا يشوفه  
يقوم نشه زغروف في دماغه، برغوته كان مستخفي ورا قبر، اتسحب  
ومسك جزع شجرة وخبطه واحدة وطلع يجري، وفعلًا، في اليوم  
اللي بعده عرفنا إن اللي فاضل من «هربانة» ورجالته.. هو طقم الأبيض  
وأسود.

- فين الأرافة دي؟

فين الواجب بتاعنا؟!

فالها لمؤمن الذي أمسك بالورقة وقطعها لمئات القطع بثقة قائلاً:

بعد التفتيش في مقر المشتبه به، لم نجد أي حرز مخالفًا للقانون، وبعد  
الاطلاع على بعض المعلومات من مصادر موثوقة، علمنا أن المشتبه  
به قد لقي حتفه في عراك حدث مؤخرًا بمنطقة السيدة نفيسة.. وجار  
البحث عن الجثة.

ثم استطرد:

أمين يا ملك؟!

أبيض.

فالها ثم أكمل:

خفاشك في قرافة مصر الجديدة، بس ماتساش، ممكن يعمل كثير،  
خلي بالك!

- ماتلقش! المهم - مش هوصيك - إحنا ماشوفناش بعض في الحلم.

فالها واضعًا سلاحه في ظهر بنطاله مجددًا بعدما هم بالوقوف، ليميل  
قدورة بجسده ناحيته، ويزيل عن عينه نظارته القاتمة كاشفًا عن عينين  
أقل ما يقال عن لون مقلتيهما «الأبيض الناصع» مستطردًا:

- ولا أكني شوفت حاجة.



ليقاوم نوح رغبة عارمة في فتح قمه من الصدمة، ويحاول جاهداً عدم إظهار صدمته وتوتره، إلا مؤمن، الذي هز رأسه متفهماً، كأنه كان يعلم أنه سيري رد الفعل هذا، بل كأنه تأكد من حدوثه.

\* \* \*

(37)

ألقي تمثال سعد زغلول لعنته على مشاة الميدان المسمى باسمه بهروس المتوسط، أتبعها بصقة من رجل عابس استقرت على الأسفلت بجانب جملة «مافيش فايدة» والتي تكفل مراهق برسمها في وقت سابق للذكرى، استقرت سيارة يارا قاسم «الفولكس فاجن» في تمام الساعة الثالثة عصرًا، محاولة الاتصال بهاتف يوسف الذي تركه بدون شحن كالعادة، لعنت حظها ثم أجرت اتصالاً آخر بمؤمن، والذي شرح لها مكان الشاليه الخاص به تفصيلًا، مترجياً إياها أن تهتم به بعدما فقد الأمل في خروجه من شرفته، توجهت يارا بسيارتها للمكان المنشود، أطفأت محرك السيارة وتأكدت أنها أمام الشاليه الصحيح، طرقت مرتين على الباب، لم تسمع سوى صوت الأمواج المتصاعدة، حاولت السيطرة على شعرها المتطاير كفرشات المساء، ثم أحكمت حول جسدها معطفها الوثير، تنفست قليلاً من رائحة البحر وطرقت مرة أخرى لتكتشف أن الباب غير مغلق، دفعته بهدوء وسمحت لنفسها بالدخول.

كان هو.. لم يكن مذبوحاً أو ميتاً، لم يكن شبحاً.. كان هو، لكن وجهه الشاحب كان شيئاً ملفتاً، نمت لحيته البنية الناعمة بشكل واضح، وازرقت شفتاه كثيراً، بدا كأنه لا يتنفس، فقدانه المزيد من الوزن جعله أشبه بهيكل العظمي، دب مزيد الرعب في قلبها، حاولت تحريكه كي



من الصبور وسمحت لنفسها بخلع معطفه وفتح قميصه، برزت عظام صدره النحيف، بدأت بتنظيفه من بقايا الشعر واليابس، تمحو عن عينيه المجهدتين ألوان الرعب وصبغات الندم، لكنه لم يتحرك، لم تنطق شفاته بكلمة واحدة، ظل كما هو، ينظر للمرأة بفم نصف مفتوح وعينين نصف مستيقظتين، لقد مرت أسابيع منذ أن رأى نفسه في المرأة، وما هو، ينظر لشبحه، شبيه الذي تكفل ملاكه الخاص بتحويله لأقرب صورة ممكنة من صورته الأدمية، نظفته وأنت بزجاجة عطر تركها مؤمن في المكان سابقاً، تنفست لتتأكد من أنها مناسبة ثم رشت على جسده نصف المبلل، وهو لا يزال يتعرف على شكله الجديد في المرأة، جفت بطرف المنشفة الآخر جسده ثم زورت قميصه مجدداً، ساعدته على القيام ووضعه على أريكة ثم غمرت به لحاف وجدته بالقرب، إلا أنه لم ينم، لم يستلق ليفرد ظهره بأي حال، ظل جالساً كما هو يقسم لنفسه أنه لا يحلم، يقسم أنه راها، يقسم أنها هي، اختفت من أمامه، ثم عادت لتجلس بجانبه، تسقيه عصيراً ليقاوم الجفاف الذي اجتبي كل خلية في جسده، استجاب لها ليكتشف أنه لم يشرب منذ أمد، كل ما يتذكر أنها قالت بضع كلمات كان آخرها أنها تثق به، ثم تركت له بعض الطعام كان حصيلة ما وجدته في ثلاثة الشاليه شبه الخاوية، ثم رحلت، رحلت كما ترحل الأحلام، تاركة طعمًا مرًا من الوحدة.

إنها تثق به..

عاد يجرد أكياساً من الرمل والوهن، استقر في مطبخ كهفه البائس المقابل للأمواج المتسارعة واضعاً راحله، كان يحمل شظية ظهر سوداء

يستيقظ، بدا كأنه لا يستجيب، نادته أكثر من مرة، هزته بعنف، نادته برعب، استفاق فجأة، فتح عينيه عن آخرهما كأنه شعر بزلزال يقذفه من قمة يأسه لأعمق مخاوفه، أمسك بذراعها كأنه يعاركها، تجمدت يارا من الصدمة، منحته ثانيتين ليتيقن فيهما أنه لا يحلم، كررت جملتها ليتأكد - أنا يارا يا يوسف.. أنا يارا!

أيقن خيراً أنه لا يحلم، تمسك بذراعها أكثر، ثم ردها ببراءة لطفل بصعوبة:

- أنا قريت.. جدًا.. صدقيني!، المشكلة.. بس..

تمعت في عينيه الدامعتين، وحركت رأسها محاولة إيهامه بتصديقه، سقطت من عينيه دمعان أبنا أن تركا كحلها كما هو، تابع سرده لنظره بعدما حاول الوقوف مرتين:

- في حاجة بتجمع برقم «6» وبينهم كلهم - بصي!، بصي هنا!، الضحايا كلهم اتقتلوا بنفس الطريقة، دي معناها إن عندهم نفس السبب اللي خلى الأسود يقتلهم، حتى لو مالتيش أي تماثيل بين التلات ضحايا في العمر أو أسلوب حياتهم.. ولا حتى الأسامي، يبقى مش فاضلي غير الأرقام اللي...

- هتوصل.. أنا عارفة إنك هتوصل.. أنا عايزاك تهدى شوية.

قاطعته ثم قامت وجلبته من يده كطفل يرفض الاستحمام، ثم استقرت به في الحمام وأحضرت مقضاً وقصت أطراف شعره الذي قارب كتفه، خفت من ذقنه ثم أحضرت منشفة وبللتها بمياه ساخنة

اللون وضعها برفق شديد، ثم أخرج منها أشياء بدت ليس لها أدنى علاقة بمأساته، ففي النصف الأول الخارجي من الشنطة أخرج سلسلة ملولها ثلاثة أمتار تقريباً، تنتهي بشيء يشبه المخلب المعقوف، كالذي يدها القراصن في يده الخشبية في أفلام هوليود، ثم أخرج شيئاً أشبه بالأسلحة معلقاً بها مفتاح، حرك المفتاح للتأكد من عمله ثم أخرج النسخة الإضافية ووضعها فوق منضدة خشبية بجانبه، بدت عيناه الزائغة تعرف جيداً ما تفعل، سمع صوتاً ما وذهب ليتفقد مصدره بعد أن تأكد من إغلاقه للباب هذه المرة، وصل ليجده ينظر حوله في دهشة:

- واضح إنك أنشط من اللي كنت فاكرو.

قالها متفحصاً الحائط بدهشة.

- مؤمن! أرجوك الموضوع مش محتاج رعب أكثر.

رد يوسف بعدما تنفس الصعداء.

- أنا خبطت بس يمكن انت ماسمعتش.

- الحاج كويس؟

- بدأ يمشي.

- والحماية؟

- 24 ساعة، يوسف انت آخر مرة بصيت فيها في المراية إمتى؟

- انت جاي عشان تسألني عن شكلي؟

- لا.. جاي أعزمك على رحلة.

قالها لتبدو كأى شيء غير مزحة ليوسف الذي عقد حاجبيه ليضيف بعدها مؤمن بثقة:

«رحلة صيد»

أطلق الصمت أذعره حولهما، وتجمدت عيناهما، ثم حرك يوسف رأسه متفهماً.

في الطريق للقاهرة تابع مؤمن:

- لو معلوماتنا صح، يبقى كل حاجة تهمشي كويس. وصلت لحاجة؟

- مش كثير، كل شغلي للفترة اللي فاتت كان على الخنجر.

- ناني هيقولي الخنجر!، تفرق في إيه يعني خنجر أثري من خنجر بيتباع

في سوق السلاح؟ مش ده بيقتل وده بيقتل؟

- خنجر المايا كان بيستخدم في التضحية، الأسود بيضحي عشان سبب

معين..

- سبب ديني مثلاً؟

- مش عارف.. بس اللي متأكد منه إن طول الخنجر ليه علاقة بالموضوع،

أنا كلمت جاكليين، توقعاتي كانت صح، طول النصل في الـ 3 جرايم

كان واحد.. حوالي 15 سم.. بقياس الأسود 6 إنش.

- دماغك رايحة بعيد أوي يا يوسف.. تفرق إيه 6 إنش من ثمانية!!؟

- إيه احتمالية إنك تصطاد عشر سمكات نفس الطول والوزن؟

«مبحان الله - بقولك إيه! - كنت لسه هكلمك، انت مكشوف عنك الحجاب يا باشا.

قالها نوح بصوت عال كعادته، ثم هم واقفًا في مكتبه متجهًا لملف وضعه بجانب التلفاز الذي يعمل على الوضع الصامت، جذبه واضعًا الهاتف بين أذنه اليمنى ورقبته واتجه خارجًا من مكتبه في عجلة، لم يلاحظ تلك الورقة التي سقطت من الملف المكتظ، ورقة وقعت أرضًا ألقى عليها باب المكتب لتسكن في صمت، ليرد مؤمن:

«غني يا نوح!

«العيال بتوع مركز المعلومات هم اللي -بقولك إيه- غنوا علينا، شوف بقالهم قد إيه وفي الآخر بيقولوا مش عارفين الأرقام دي ملتها إيه، بيقولوا غالبًا تواريخ.

«ولاد الكلب الأغبية! بعد العطلة دي كلها! عباقرة بروح امهم! ده أي عيل صغير كان ممكن يقول انه تاريخ يعني، طب وصلت لأي حاجة مهمة حصلت في التاريخ ده؟ ماتقوليش ماخدتش ورق؟!!

«لا يا باشا خدت ورق طبقًا، الدوسية معايا أهو بقلب فيه، كان شهر شمال بصراحة مليون حوادث.

«وبالنسبة لليوم..؟!!

«اليوم لسه طبقًا، لو الكلام صح يبقى الأرقام كانت أرقام سنة وشهر.. اليوم بقى المفروض هيتكتب على...

«الجثة الجديدة.

هي نفس احتمالية إنه ينحت أكثر من خنجر فيطلعوا نفس الطول بالملي.. فكر يا مؤمن معايا.. نفس الطول بالملي!

أطلق مؤمن زفيرًا عميقًا ثم تساهل:

«إزاي لاحظتها؟

«مالحظتهاش.. هو قالي في الميترو، واحد بيقيس بالإنش في اليد بتقيس بالسنتيمتر، وكل خنجر بيعمله نفس الطول.. لا معلش.. مايفيش صدقة مع راجل بيعشق التفاصيل..

«الشیطان يكمن في التفاصيل..

أنا دورت في التت والكتب، شفت كل أشكال خناجر التضحية في حضارة المايا وأطولهم، محدش قال نصف كلمة عند طول محدش مايفيش 6 إنش.

«إحنا في دائرة مقفولة..

مؤمن وغاب كلاهما عن الحديث لما يقرب من عشر دقائق، تابع يوسف شروده عند مدخل القاهرة، يتخلل الهواء أصابع يده التي سيبحث في الهواء كالطير، تلك الحركة التي أدمنها كما تدمن الطيور التحليق في الفراغ.

أشار مؤمن للزجاج، حرك يوسف رأسه إيجابًا ثم أدخل يده داخل السيارة مرة أخرى، أغلقه مؤمن زجاج السيارة محاولًا تفادي صوت الهواء بعدما فكر في عمل مكالمة هاتفية مهمة، أوصل هاتفه بسماعات السيارة ليرد عليه صوت يعرفه جيدًا هو ويوسف:

قالها بصوت خافت ليسمعها مؤمن الذي بادلة بنظرة شرود.

- كمل يا نوح!

- الشهر ده مليون حوادث نفس يعني، قتل على اغتصاب على انتحار

- بقولك إيه! - فيلم رعب، أهو.. مكتوب حتى قدامي (في شهر

ديسمبر سنة 88 حدثت 20 حادثة نفس تتنوع بين القتل والانتحار

والاعتداء الجنسي).

- ابدأ بالأغرب!

قالها مؤمن ليبدأ نوح من الجزء المفضل له:

- مكتوب يا باشا، في 11 ديسمبر سنة 88 تعاونت فتاة مع عشيقها لخنق

والدها ليلاً وذلك لشكه في سلوكها المشين في جريمة بشعة حدثت

في الجيزة.

- غيره.

- وفي 13 منه قامت مطلقة في القليوبية بتمزيق جسد طليقها المحامي

بعدما طلب منها تسديد إيصالات أمانة غير حقيقية، استدرجته لبيت

عمتها ووضع له منوماً في الشاي...

- يا نوح بقولك حاجة غريبة.. حادثة غريبة!! ركز!

- حادثة غريبة!.. في عيل قتل صاحبه بعد المدرسة في أسبوط.. ودله

في الصحراء، وفي كمان عم اغتصب بنت أخوه في الشرقية وأخوه

قتله.

- الأيام والأسامي؟

قالها متجهاً بنظرة ليوسف الذي أخرج قلماً وبدأ يدون بالفعل.

العم اسمه.. وحيد عبد الحليم والأخ اللي قتله اسمه.. رأفت.. وده

كان يوم 18 منه، بالنسبة للعيل اللي قتل صاحبه، العيل اسمه راجي

أمين سعيد، والمجنني عليه اسمه أبانوب سامي عبد السيد والجريمة

تمت يوم 15 ديسمبر 88.

في حاجة تاني؟!

لا... ثواني.. آه.. مكتوب بردو في نهاية التقرير حاجة، سنة 88 في

حادثة حصلت في جمرک بورسعيد، عيل مهرب من القاهرة، إتمسك

في بورسعيد واتعكش لما جاب دم من كل حته.. العساكر ضربوه

بعصيان الأمن المركزي لما باظ يا عيني، شكلها اتمسك كام مرة قبل

كده وماحرمش.

- وبعدين؟..

- مش عارف، واضح إن التقرير ناقص، بس عموماً هو مات بعدها

بيومين في مستشفى في القاهرة، في كلام انه مات بنزيف داخلي، في

القصر العيني، لكن التقرير النهائي بتاع الطب الشرعي قال انه مات

نتيجة جرعة مخدرات زيادة.

- الاسم والتاريخ؟

- التاريخ مكتوب، 21 ديسمبر 88، لكن الاسم تصبر عليه سيكا كده أكلم

بتوع المعلومات تاني أشوف الواد ده إيه نظامه.. عموماً العيال دي

بتتعكش كل يوم في جمرک بورسعيد مافيش جديد يعني.

- طيب.. إتأكد إن مافيش حوادث ثانية وإبقى كلمني!

- أوامر يا باشا..

أغلق مؤمن الخط ونظر ليوسف الذي كان قد انتهى من كتابة الحوادث وتفاصيلها ليملق الأخير بصوت هادي:

- بالنسبانا اللي بيحصل نهاية العالم، بالنسبالة هو لوحة بيرسمها، هي دي المشكلة.. محتاجين تفسير للأرقام

- انت ليه مهتم بالأرقام؟، في حوارات وألغاز ثانية عاوزين نحلها، العيون المتخيلة، طريقة نحت الخنجر مثلاً، أنا سمعت إن عبد الرؤوف عنده هواية نحت عجيبة..

- لو حلينا الألغاز نعرف بقتل ليه.. لو حلينا الأرقام نعرف مين هو.. وماتحاولش!، ماتحاولش تلمح!

قال جملته الأخيرة بوجه أكثر صرامة، ليرد مؤمن:

- إيه اللي مخليك متأكد؟..

رمقه يوسف بنظرة نارية، وضع مؤمن سؤاله:

- بتكلم عن الأرقام..

عاد يوسف لهدوئه مستطردًا:

- القتل المتسلسلين - أو السيكيوباتيين - عمومًا بيعجوا الأرقام، في معظم الأوقات بيعيروا بيها عن أنفسهم - على الرغم من كل ده - مافيش شيء أكيد.. كل اللي بقوله مجرد احتمالات.

عمومًا، لو هي لوحة زي ما بتقول.. أوعذك إننا هنفهم تفسيرها النهارده.

إيه اللي مخليك متأكد؟

صمت مؤمن للحظة ثم رد بوجه به كثير من الثقة:

عشان بيكاسو هو اللي هيشرحهانا.

قالها وضغط على بدال الوقود لينطلق مسرعًا ناحية هدف انتظره كثيرًا، هدف لو لم يصل إليه في الوقت المناسب، سيدفع الجميع الثمن العالي.

\*\*\*

ركض مسرعاً وسط صمت القبور التي ملأت عالمه رعباً وخوفاً،  
يخترق الليل والذعر بقدميه الصغيرتين، يقع أرضاً فيلوث ثيابه الرائحة  
ثم يقوم فينظر وراءه في ترقب وذ هول، ثم يكمل مضماره اللانهاي  
ويتوقف واضعاً كفيه فوق ركبتيه الصغيرتين، يلهث وقد تملكه التعب،  
وسبح الإرهاق في دمه الفقير حتى وصل رثتيه، صوت أنفاسه المتقطعة  
تتعالى وقطة أطلقت مواءً هما كل ما سمع، لكنه نظر خلفه مجدداً بعيان  
خضراوتين تناقضت ما تحمله من أسى مع ثيابه المترفة وشعره الأشقر  
المهذب.

أشعل منظر القبور المتناثرة قلبه رعباً، وكاد يشتعل شعره شيئاً، قرر  
الركض مجدداً في العراء الداكن، لكنه اصطدم تلك المرة به، وجدّه  
أمامه، يخرج من العدم، ينظر إليه بعينين ثاقبتين، ينظر كتمر مبتسماً من  
كثرة الزهو، يعلم حتمية المصير المؤلم الذي سيلقاه ذلك الطفل لاحقاً،  
كغيره من الضحايا.

- وأنا اللي قولت إن البسين مافيهوش سمك؟!

قالها الأسود مبتسماً.

- انت مين؟!

أنا هنذك، ماتخافش! مين بييجري وراك؟!

أنا كنت مع بابا بنعزي ماما وبعدين، بابا - بابا - كان جنبي و.. و..

ماتخافش!. هتصل بيه دلوقتي وهنجيبه عشان يظمن عليك.

أنا خايف أوي، أنا حسيت إن فيه حد بييجري ورايا.

قالها بصوت أشبه للبكاء.

ماتعيطش! كل حاجة هتقي كويسة، صاحبي هيبجي دلوقتي وهناخد

موبايله عشان نكلم بابا قولي الأول!. نفسك في إيه؟

نفسى أشوف بابا..

ممم! ولحد ماتشوف بابا، مانفسكش في..ها..! إيه ده؟ مصاصة!

أخرجها من يديه الفارغتين في حركة استعراضية.

- عملتها إزاي؟!

- أنا ساحر..

- يعني إيه؟!

قالها الطفل بيراء ليتقدم نحوه الأسود خطوتين ويجلس القرفصاء

أمامه مبتسماً مضيقاً:

- أنا اللي كنت بتشوفه مع ماما في السيرك وبعدين تسألها، هو فعلاً عمل

كده؟!

قالها بمزيج من السخرية والبراءة مناوئاً الماصة للطفل.

- أنا خايف.

- وأنا هنسيك الخوف.

ابتسم ثم تراجع للخلف واقفاً وقالها بحرفية:

- إيه رأيك أعلمك خدعة يا... إسمك إيه؟!

- إسمي يوسف..

- اسم جميل، وأنا حاتم، هعلمك خدعة أنا بسميها خدعة الساعة المستخبية.. تحب تجربها؟!

مسح الطفل دموعه وابتسم متحفزاً ويده ماصة لم يأكلها بعد.

- بس أوعى تعلمها لبابا، لأن اللي هتشوفه دلوقتي سر بيني وبينك، إتفقنا؟

- إتفقنا..

قالها ببراءة.

- الساعة.. تمنها غالي ودايمًا ما ينساش ألبسها عشان الوقت مهم..

كشف كم معطفه الأسود الطويل مستعرضاً ساعته الثمينة ليغفل الساعة باطن كفه المفتوحة ويزيح كفه لتختفي الساعة حرفيًا.

- الساعة!.. woops!.. فين الساعة؟!

شمر عن ساعده محاولاً إيجادها لكنها قد اختفت تمامًا، لينظر ناحية يوسف «الصغير» في دهشة مضيقاً عينيه مستطردًا:

- واضح إن فيه حد خدها.. يا ترى مستخبية فين..؟.. فين..؟.. في جيب يوسف مثلاً؟!

- لا مش معايا..

- متأكد؟

ثم صمت متجهًا بنظره ناحية جيب بنطاله الواسع، ثم غمز له بعين والثقة وأضاف:

- ما تشوفها كده يا يوسف!

وضع الطفل يده اليمنى في جيبه ليجد شيئًا ثقيلًا بداخله، أخرجه ليجد ساعته ذات الزجاج اللامع في يده، نظر لها بدهشة جعلت فكه السفلي يسقط.

- إزاي؟!

- أنا السحرا يا حبيبي..

قالها بعدما اقترب من الطفل متكئًا على ركبته اليمنى ثم أضاف مبتسمًا:

- السحر اللي مافيهوش خدع سينمائية.

ثم فتح كف يده ليضع فيه الطفل الساعة مندهشًا.

- أنا عايز أروح.. عشان.. خايف.

- طيب نعمل آخر خدعة قبل ما نكلم بابا؟! مش هتندم.

خطا خطوتين بعيدًا عن الطفل البريء الذي لم يعلم أن الخدعة القادمة مؤلمة للغاية، ابتسم ابتسامة باردة عندما أعطى الطفل ظهره ثم استدار رافعًا يديه في استعراض:

- فقرة.. السهم فين.

قالها ليظهر جزء من نصل السهم بين باطن يده اليمنى وكم المعلق  
لبراه الطفل ويشير الطفل ببراءة ناحية يده اليمنى قائلاً:

- أهو!.. شوفته.

مال حاتم الأسود بكمه ناحية صدر الطفل البريء، تلك الحركة الدموية  
التي فعلها مسبقاً مع رجل يهوى الملابس سيئة الذوق، أضاف ميتسماً:

- كويس، ركز بقى معايا يا يوسف عشان ده الجزء الصعب، والمفضل  
عندي في نفس الوقت، ركز لأن في حاجة مهمة هتختفي... وأنا...

قالها فارداً أصابعه تجاه صدر الطفل.

طار أصبعها الخنصر والبصر من يده اليمنى بسرعة رهيبية، تناثر مع  
الدماء فوق وجه الأسود تزامناً مع صوت طلق ناري أطلق من قريب، لم  
يتأوه الأسود أو يترنح، بل ظل ينظر متعجباً ليداه المنفجرة، ثم لمصدر  
الطلقة، خرجت من الطفل صرخة صدمة جعلته يركض بعيداً، ليس  
إلى الفراغ، لكن إلى مطلق رصاصة الرحمة، مؤمن البحيري.. والذي  
أضاف:

- قصدك حاجتين!

قالها مقترباً منهم، واثق الخطى يمشي ملكاً، واضعاً سلاحه بجانبه.

- أي!

رد الأسود ساخراً عاقداً حاجبيه في دهشة، محرّكاً رأسه مستكراً،  
وممسكاً بيده التي انفجر منها الدم كزجاجة شامبانيا فاخرة.

كان لازم نتقابل من زمان..

علق مؤمن ليظهر من ورائه أربعة ضباط قوات خاصة موجهين أجهزة  
الليزر لقلب الساحر المصاب في انتظار أي حركة مفاجئة لصناعة لوحة  
مير يالية دموية من صدره.

- وانت كان لازم تتأخر شويه..

- لو كنت لمسته كنت دفتك بالحيا.

قالها ثم توجه نظره لصديقه الصغير:

- شكراً يا سيد! الهدوم دي بتاعتك، في هدوم ثانية ليك في العربية  
وظرف صغير، هتلاقي واحد من رجالي مستنيك هناك، هو هير ووح  
لحد البيت، هستنى منك تليفون تقولي إنك وصلت...

- ربنا ما يحرمنا منك يا باشا.

قالها بلهجته الطبيعية ثم نظر لحاتم الأسود الذي بادله ابتسامة إعجاب  
دبت في قلبه الصغير الرعب، ممسكاً بجرحة الدموي مستطرداً:

- عرفت إزاي؟!

- مكانك! لا دي حكاية سهلة أحكيها لك بعدين.

قالها مؤمن للأسود الذي تفحص بدوره الطفل الواشي بعينين كادا  
يخترقاه، نفى محرّكاً رأسه يميناً ويساراً وأضاف مصححاً:

- عرفت إزاي إني باكل العيال الصغيرة؟!



ابتسم ولم يحرك عينيه بعيداً عن الطفل.

- سيد! روح انت دلوقتي.

قالها مؤمن لسيد الذي نظر إليه برعب، لم يكن مصطنعاً هذه المرة، ثم توجه بحديثه للأسود بعدما شد أجزاء مسدسه موجه إياه لرأسه.

- إركع!

انشغل اثنان من القوات الخاصة بتفقد المكان، ليرد الأسود:

- هتقبض عليا يا باشا!

- هعد لـ 1..3..1

- قتل مشتببه به بدون مقاومة، قضية كبيرة يا باشا... مش خايف؟

2..

- هدي أعصابك! انت تكسب!

قالها واضعاً يديه وراء رأسه وراكعاً على ركبتيه مبتسمًا، ومن ورائه تقدم أحد الضباط، كبل يديه وقدميه، ثم تراجع مفسحاً الطريق لمؤمن الذي تقدم وراءه قائلاً:

- أهلا بيك يابن الو...!!

ثم دفعه بكل قوة بحذائه ليسقط على وجهه.

لم تتلاش منه الضحكة الساخرة... بل ظلت على وجهه حتى حينما لمح يوسف يقف بعيداً واضعاً يده في جيبي معطفه.

\*\*\*

(39)

مش مجنون.

قالها يوسف متمماً لنفسه، محرّكاً رأسه نفثاً، محدقاً في عدوه اللدود «أي البدلة الحمراء ذات الكم القصير، عاقداً ساعديه متحفّصاً ردود أفعاله من خلف ذلك الزجاج المميز، زجاج صمم ليظهر الجالس في غرفة الاستجواب ولكنه يبدو كمرآة من داخل الغرفة، حيث جلس الأسود على كرسي معدني مكبل اليدين بسلسلة طولها نصف متر بينما تكفلت أخرى بتكبييل قدميه ناصعة البياض، تدلى شعره الأسود المتفحم فوق عينه اليمنى، حركه بأصبعه الوسطى خلف أذنه متكئاً على المنضدة التي أمامه وكان واضحاً أن أحداً قد لصق شاشاً فوق جذور إصبعيه اللذين أصبحا في حكم التاريخ، في نهاية الطاولة وضع كرسي لا يشغله أحد، التفت مؤمن الذي بدا أقل إهتماماً بما يحدث لكلمات صاحبه قائلاً:

- ولا هيفرق معايا.

قالها بنفس نبرة الصوت الخافت على الرغم من وجودهما في غرفة عازلة للصوت.

- قبل ما تمسكه جاتني لحظة افكرت إن كل اللي بيحصل ده تهيات مش حقيقي، افكرت إن أنا اللي مريض.

- في شغلانتي مافيش حاجة اسمها تهينات يا دوك!، الحياة في المباحيل واضحة، أبيض لدرجة تصدمك، أو أسود لدرجة الاكتئاب..

قالها واضعًا جاكيت بدله على كرسي ليظهر قميصه الأبيض وفوقه حزام يحمل مسدسًا زين صدره، أضاف يوسف بصوت خافت أقرب للهمس:

- إمبارح وأنا في عربيتك، شفت قفلتين بيتخانقوا مع بعض، ركزت أكثر، لقيتهم كيسين فاضيين والهوا بيحركهم، الخط بين العقل والجنون مثل عريض زي ما انت فاك، عمرها ما كانت أبيض واسود.

- طبيعي إنك تقول كده لأنك ما بتنامش، ولا بتاكل ولا بتشرب، وكمان أعصابك تعبانة، كتر خير الدنيا إنك لسه ماسك نفسك، أي حد تاني كان زمانه انهار، انت عارف الكلام ده أكثر مني.

قالها مؤمن مستمتعًا معه برؤية الأسود مكبلًا على كرسيه كسمكة قرش حسيت في حطام سفينة شفاقة، رد يوسف مقلبًا عينيه في الأسود كأنه يدرسه:

- لازم تعرف مين اللي عليه الدور.

- هعرف، ولو ماقالش هدخل عليه اللي يخليه يقول، ولو نزلت عابزك تبقى معايا على خط تلفون مفتوح عشان لو وصلت لحاجة تقولي.

حرك يوسف رأسه إيجابًا، ليضيف مؤمن متعجبًا وهو يشاهد حاتم الأسود يتفحص يده المغطاة بالشاش بكل شغف، تساءل بهدشة:

- مين ده؟!

لم يرد عليه يوسف، بل ظل يراقب هدوءه وعينيه المتفحصتين لجنبات الغرفة الضيقة المحتجز بها، لم يبد عليه أي توتر، بل ظل يقلب عينيه كأنه يحاول تفسير معادلة كيميائية، حتى دخل مخبر مغلقًا الباب خلفه، وقف على بعد مترين ونصف منه من دون أن يفتح فاه بكلمة واحدة، وأقفًا متبهاً في انتظار سيدة ليدخل ويبدأ التحقيق، كان من الواضح أن وجوده في الغرفة فقط لزيادة عنصر الحماية.

انتهت دقيقتان من الصمت، تفحص فيها حاتم الأسود المخبر متبسمًا، حيث وقف الأخير انتباهًا قلم رصاص يقف بين أقرانه، تجمد محاولاً عدم النظر إليه مباشرة بعدما سمع عنه تلك القصص المخيفة، لكن خائنه عيناه أكثر من مرة ليرمق وجهه الغريب سريعًا ثم ينظر أمامه مجددًا، ليكسر الأسود فترة السكون متبسمًا:

- بتكره الوشم بتاعي؟.. استوحيت من حضارة المايا، افترضًا إنك تعرف حضارة المايا.

قالها محاولاً النظر للمخبر المتوتر بينما أزاح شعره عن نصف وجهه، رد عليه الصمت ليكمل:

- قالو لك ماتر دشر عليه؟! بتعاملوا الضيوف كده؟! همم!

ونظر أمامه بخيبة أمل ماطًا شفتيه، ثم تابع:

- انت مافيش منك vibration؟! ها..؟! مافيش!.. خسارة.

- أنا عارف انت زعلان ليه، عشان موقفينك حراسة من غير مسدس، مايبديوش المخبرين مسدسات.. صح؟.. معاملة عساكر شطرنج.

قالتا الأسود مستكراً محركاً رأسه يميناً ويساراً، ثم أضاف ماأنا شفتيه بأسف.

- صدقني العنصرية وصلت لكل حاجة - حتى أنا- زعلان إني أشوفها في الشرطة.

حرك خصلة من شعره خلف أذنه مجدداً بأصبعه الوسطى وأضاف حينما نظر له المخبر بمزيج من الرعب والغضب:

- أنا عمري ما بحس بالفخر لما بقتل مخبر، على فكرة أنا مش عديم الإحساس زي ما صاحبك قالوك، أنا مجرد.. راجل عنده حلم.

حرك يده اليسرى فوق اليمنى كساحر يقذف سحره، لتظهر يده اليمنى ملفوفة بشاشها الأبيض مفتقدة لأصبعيه وتابع:

- في زمن اختفت فيه الأحلام.

مرت دقيقة أخرى دعا فيها المخبر البائس الله في سره أن يصمت ذلك المختل، لكنه تحدث مجدداً:

- شايف!

قالها مداعباً نملة متوسطة الحجم عبرت فوق ذراعه اليسرى تمشي قليلاً ثم توقفت عن المشي، ثم أكملت طريقها، ظل يراقبها بعينه الواسعتين حتى دخلت إلى قبضته، ليقبض عليها دون أن يقتلها، مكمل حديثه مع صديقه الصامت:

- خيلنا نكسر التلج اللي بيئا، أنا هعلمك حركة سحرية هتعجبك، وبعد كده تقدر تعلمها لابنك، اسمه مصطفى صح؟

نزلت الجملة الأخيرة كوحدة تكييف كاريار خارجية سقطت فوق رأسه بغتة، نظر ناحيته بغضب وأفلت لجام لسانه مخالفاً التعليمات الصارمة:

- عرفت ازاي اسم ابني يابن الكلب؟!

قاطعه الأسود الذي نظر لقبضته التي لم تخرج منها النملة بعد، كأنه اكتشف شيئاً مضيئاً:

- ركز!

خرجت النملة من جانب قبضته أكبر حجماً عشرات المرات في حجم صرصور صغير للغاية، تمشت بصعوبة فوق قبضته ثم تجمدت، وبدأت في فرد أجنحتها البيضاء الشفافة ليضيف:

- كبرت.. بقت ملكة، لكن للأسف!

اقترب منها كأنه سيقبلها ثم قالها هامساً للنملة كأنها تسمعه:

- Fly Cinderella!

طارت فجأة كالسهم، تعرف طريقها جيداً، لتخترق فتحة أنف المخبر اليسرى مباشرة ناحية جيوب أنفثته لتصيبها بنجاح وتنفجر بداخلها بركة دماء صغيرة ليخرج خيط دموي من أنفه ويصاب بالدوار ويحيطه الرعب، جرى ناحية الباب مرتعداً، محاولاً إخراج النملة الإرهابية من داخل أنفه، لم يستطع لكنه ظل يتأوه ويخبط باب الغرفة بعنف حتى فتح له أقرانه، ساعدوه للخروج من غرفة الشيطان ليظهر من خلفهم صديقهم الذي لا يهابه، مؤمن.

دخل كهفه غير آبه لما حدث للمخبر المسكين، نظر له متفهمًا  
ابتسامته الباردة ثم نظر مرة أخرى للباب الذي خرج منه المخبر المذمور  
أغلق الباب ثم جلس أمامه مخترقًا عينيه الكحيلتين بنظرة تحد واستهزاء  
ثم قالها ببرود:

- أسلوبك استعراضي.

قالها مشعلًا سيجارة يعود كبريت رماه أمامه على المنضدة بجانب  
دوسيه أزرق وضعه للتو، أجابه الأسود بهدوء شديد:

- ده جزء من الخدعة.

- كان ممكن أسيب صحابه عليك!

- وأنا كان ممكن أقتله!

- واضح إنني لازم أعلم عليك عشان تتهد شوية.

قالها متفئًا دخان سيجارته في السقف باستهتار.

- خيلنا.. - خيلنا- مانجيش سيرة التعليم أحسن.. أنا وانت في بيها  
تاريخ لسه ما بردش.

وكرر محاولته لوضع شعره خلف أذنه اليمنى، ليرد مؤمن ناثراً:

- كلمة تانية.. وهفشحك.. فاهم!

- وأنا اللي كنت فاكرك Straight.

رد الأسود باستهتار شديد، اعتدل مؤمن وأخرج زفيرًا مختلماً  
بضحكة مكتومة مستطردًا:

فأكرتني بالكلام اللي قريته عنك، هنا في التقرير، بالصور.. تحب  
تسمع؟

اقرب الأسود برأسه من مؤمن وقالها بصوت أقرب للهمس:

لهني!.. يا منير.

اتسعت عينا مؤمن في صدمة وغضب شديدين، ما لبث أن تمالك  
أنفسه وحرك رأسه إيجاباً في تحد مضيقاً:

يعني.. سمعت انك اتمسكت مع العيال بتوع قصر البارون، حفلات  
جنس جماعي وطقوس سحر أسود وعبادة - أستغفر الله- شيطان  
ومخدرات.. و...

ثم صمت لثانية وأكمل رافعاً حاجبه الأيسر:

- وشذوذ.

- شكلي حلو في الصور؟!

- شكلك عجلة، إيه! مش ناوي تدافع عن نفسك؟

- الحياة بوفيه مفتوح.

قالها قائلاً كفيه تجاه السقف في استسلام ثم أكمل:

- مش كل واحد هيدوق السوشي هيبقى باباتي..

- وانت بقى دوقت السوشي يا روح أمك؟!

تساءل مؤمن بترقب ليرد الأسود بلهجته المستهترة:

- من باب العلم بال«كيك».

- كويس!.. يعني انت معترف إنك عجلة.

رد عليه الأسود بوجه حاد:

- أنا قولت إن حياتي الشخصية مش هتفرق معاك، بس عمومًا هقولك على معلومة حصري، أنا جربت حوار Satanism ده عشان أشوف آخره ايه، حضرت حفلات، بس مالتقيش نفسي معاهم...

- بعد ما روقوك صح؟

قالها مبتسمًا متابعًا قراءة الورق.

- آه.. اسمع! لو هتفضل تقلع بعض البطلونات مش هنكسب حاجة، أنا ممكن أقول عالمي عملته مع الحاج في المستشفى ويتسجل هنا مع التحقيق والداخلية كلها تعرف فبلاش....

أخرج مؤمن مسدسه ووجهه لمقدمة رأس حاتم الأسود الذي تجمد حتى أضاف مؤمن بلهجة بها كثير من التحدي:

- لو تقدر تجيب سيرته، قول!

- ده اللي أنا بتكلم فيه.

قالها الأسود مشيرًا للمسدس ثم أكمل:

- تستغفري عشان أقول، فأقول، والأدرينالين يجري في دمك جنب النيكوتين، ففتقلني وتخسر تفاصيل كثير تنفعك أكثر بكثير من حياتي الجنسية وعبد الجليل يزعل.. وتخسر شغلك.. وتسيجن.

قلب كفيه مجددًا وحرك رأسه بتعجب، تجمد مؤمن لبضع ثوان بوجه صارم ثم أعاد سلاحه مرة أخرى للوراء.

إنكلم!

لحكم ممتاز بنوبات الغضب، بص! المهم في موضوع تاريخي ده إني ماحييتش يبقى ليه زعيم، عارف! أنا من النوع اللي بيحب هو يبقى الزعيم..

والعيل اللي كنت عايز تقتله، كنت عايز تخلص عليه ليه؟

- يعني.. طلعت بكام عادة من حوار Satanism ده، إدمان بعيد عنك زي السجائر.

- يقتلوا العيال الصغيرة؟

- في مصر قليل، بس بره كثير، وبعدين أنا كنت هقتله عشان جعان.

- نعم؟!

- كان نفسي في كيدة طازة.. صغيرة في السن.. الدستور بيكفل لكل مواطن إنه ياكل الوجبة اللي عايزها.

قالها الأسود وبلغ ريقه بصعوبة.

- وده دستور إيه يا روح أمك؟

-.. دستور الغابة يا باشا.

- آه.. وانت بقى عايش في غابة؟

- كلنا.. ماشيين بمنطق الغابة، الأقوى يستمر ويفرض قوانينه، الأضعف يموت.. سهله! شوف! أمريكا مثلاً.. شوف الصين.. حد يقدر يحتلهم؟.. لكن أمريكا احتلت، والصين لو عايزة تحتل تحتل.. إحنا بنطبق قانون الغابة وإحنا لابسين فيونكات..

قالها ثم تغيرت نبرة صوته ليكمل:

- أنا عندي مشكلة مع الفيونكات!

- ده كلام الهبل، فيه قانون في الدنيا.. فيه مجلس أمن.. لو الحياة ساوية كده ماكانش كلب زيك إتمسك.

- وفيه دولة كاملة إتمسحت من على الخريطة واتحط مكانها دولة نالايه  
عشان أمريكا وبريطانيا قالوا اتحط، تعرف اسم الدولة دي يا باشا؟  
- أعرف اسم أمك..

- ها.. ها.. طيب بلاش نروح بعيد.. قولني! تقدر تسبب بيتك من  
غير ما تقفل الباب؟.. هيحصل إيه في مراتك وولادك وفلوسك؟  
جرب سبب عربيتك في الشارع دايرة وارجع شوفها مرة ثانية، مش  
هتلاقيها.. أنا بكلمك على عربية، مش على إن الشرق الأوسط أكبر  
مصدر لقطع الغيار البشرية في العالم، ولا على تجارة البشر والجنس  
في البلقان، ولا على المدايح والمجازر اللي حصلت وبتحصل كل  
يوم في أفريقيا.. مافيش حاجة واحدة في الدنيا ممكن تثبت إن الإنسان  
مش حيوان ذكي، بالعكس، يمكن الحيوان هو اللي إنسان غبي.  
- كنت هتقطع الولا وتاكله؟

- حاجة زي كده.

- وكنت هستفيد إيه.

انفجر الأسود ضاحكاً بعد نظرة حادة ثم تمالك بأسه بصعوبة قائلاً:

هستفيد إيه؟.. هههه! دي عملية بيولوجية عادية جداً، مانا قولتلك،  
الغوي بياكل الضعيف، عمرك شوفت بقرة تسأل تمساح وهو بياكلها:  
(هو حضرتك بتستفيد إيه؟)

قال الجملة الأخيرة بلهجة مستفزة ساخرة، ليرد مؤمن بتأفف:

من إمتى وانت بتاكل لحوم البشر؟

هو مش لحم البشر بالمعنى الحرفي، الكلمة دي قاسية أوي، أنا بس  
بحب الكيدة.. مابتحش الكيدة؟.. بتبصلي بقر ف ليه؟ مستغرب؟!  
كان فكرتك عن اللي بياكلوا بشر إزاي؟.. تخين وعنده سنان سودة  
وعنيه متنفخة؟ انسى كل اللي شوفته في أم بي سي أكشن Fright  
Night.. الحقيقة دايمًا مختلفة.

- كنت هتقتله عشان تاكل كبده؟

- هممم.. عمرك جربت كبدة فريش سخنة، صغيرة في السن؟.. هه؟..  
فاتك كثير!.. صدقني!

صمت مؤمن ثم أضاف:

- عمرك جربت سنان فريش كبيرة في السن؟

- سنان؟!

قالها لتقذفه قبضة مؤمن نصف متر للخلف بعنف، ليدهم قمه وتنفجر  
الدماء على صدره، استغرق الأمر ثانيتين حتى يستوعب الصدمة، بصق  
سنتين كسرهما مؤمن من صفه السفلي.

- فانتك كثير!

بلغ الأسود دماءه بطريقة مقززة للغاية كأنه يستلذ طعمها، ثم بدا لي الضحك هستيريًا ليضيف:

- دلوقتي ابتديت تفهم!

- ماتقلش.. كل لما نحن قول لي!

قالها مطلقًا قبضته ثم أضاف متفحصًا الملف الذي أمامه ببرود شديد دون أن ينظر للأسود مستطردًا:

- إنت اللي فجرت الشقة بتاعة ميدان لبنان؟

- عايز شاي.

- قتلت الناس ليه؟

- هاتلي شاي وأنا أقولك.

- الضحية الجاية كانت هتبقى مين؟

- كانت؟!

قالها الأسود رافعًا حاجبه بتعجب.

- ليك حد بره هيخلص؟

- هو.. هيخلص.

- واحد من رجالتك؟

رد مؤمن مقلبًا بضعة ورقات.

لا لالا.. رجالي..- رجالي - زي مانت شاي، غلاية يعني، ماينفesch يعملوا حاجة من غيري، أنا بتكلم عن.. «لوكي».

كان الأسود الذي يقترب من المنضدة شارحًا وموجهاً شعره لمكانه خلف أذنه، كانت الدماء قد وصلت لقميصه بالفعل.

- لوكي!

- بالظبط.

- انت بتخرف ياله؟!

- حد يقدر يخرف قدام المباحث؟

- ده واحد أجني يعني يبساعدك؟.. لقيته فين؟

- أنا مالقيتوش.. تقدر تقول هو لقاني.. كانت ليلة باردة مملة.. شوفته في

المقابر.. كنت هقتله.. بس شدتني فيه حاجة.. كان فيه حاجة غريبه..

حكالي وجهه نظره عن الخنازير.. كان عايز يقتلهم.

قالها ويصق بعض الدماء عن يمينه.

- وانت بقى اللي بتقتلهم له؟

- مؤمن! إسمعني كويس! اللي عملته ده عمل خيري، لأول مرة قررت

أنفذ حلم راجل ثاني غيري، هو يحلم.. أنا أنفذ..

قالها واقترب من مؤمن مضيقًا:

- هو القاضي.. أنا العشماوي!

قالها بهدوء وثقة شديدين رامقًا مؤمن بنظرة نارية.

- مين هو؟

- أتمنى لو أعرف.. صدقتي!

صمت ثانيتين ثم استطرد:

- بس هو بردو راجل عنده رؤية، ويمكن ده اللي جمعنا.. هو شايف إن

كل الخنازير لازم تموت، بس ماكاش قادر ينفذ ده لوحده، لأنه..

- لأنه إيه؟

- مش مهم.. المهم إن في النهاية لازم تعرف انه مجرد وحي.. بس

لو عايز تعرف عن الضحية الجاية هاتلي يارا هنا.. تعمل معايا لقاء

حصري.. وأنا هقول كل حاجة.. على الهوا.. فاضل 3 ضحايا.

- يارا مين؟

- إيه يا باشا.. نسيت صديقتك المشتركة مع يوسف؟.. لحقت؟

- ياله انت هتتمرجح كمان كام أسبوع زي الديبحة، كبيرك شهرين،

تقولي إنترفيو.. إيه؟ وزير يا روح أمك!

- لازم تيجي.. لازم أكملها.

- ولو ماجييتهاش..؟

- يبقى تاخذ كرسي وتقعّد جنبني تتفرج، وبعدين كل دقيقة بتعدي مش

من مصلحتك يا باشا، مش يمكن!.. تعرف تنقذهم!.. وبعدين تاخذ

نیشان الواجب.. و يتسمى شارع بإسمك.. مدرسة.. أي حاجة.

صمت مؤمن لدقيقة قام بتجميع أفكاره جميعًا فيها على قدر الإمكان،

بتفحص المجنون العاقل الماكن أمامه، الذي بدا كأنه يلهو برسم شيئًا

ما بأصبعه المختلط بالدماء على المنضدة المعدنية البيضاء، كان يلمخ

أصبعه بالدماء من فيه ثم يعود ليتابع الرسم، حتى جاء رد مؤمن بعد بضعة

ثوانٍ صامتة:

- وإيه اللي يضمنلي إنك هتفند كلامك؟

- ده جزء من اللعبة يا باشا.. لازم أدبك خيط حقيقي عشان عنصر

التشويق.. جربني ومش تهتسر.

- أنا مش هتسر، عارف ليه!.. عشان أنا قاعد دلوقتي قدام كرسي فاضي..

اللي فيه راجل ميت.

- مش خايف على يوسف؟.

- لو حصله حاجة... ها...!!!

- هتقتلني؟ هتقتل راجل ميت؟!

قالها مبتسمًا ثم أضاف واثقًا:

- يارا تيجي، ومعها كوباية شاي كبيرة، هتكلم معاها، وهتعرف كل

حاجة، الجميل في الموضوع ان لسه الضحية الجاية ما بقتش لحد

اللحظة دي ضحية، والأجمل، إنك لو مسكت لوكي قبل ما ينفذ،

القصة هتنتهي.



نظر له مؤمن حنقًا مقاومًا رغبة ملحة في لكمة مجددًا ليطعمه بها أسنانه، لكنه قرر بعد خمس ثوانٍ صامتة أن يقوم من مكانه حاملًا ملء الأذوق وغضبه، خبط مرتين على الباب ثم اختفى، وظل الأسود مجددًا في كهفه وحيدًا.

\*\*\*

#### (40)

تحققت أمنية حاتم الأسود تلك المرة، فأمامه جلست يارا قاسم بشحمها ودمها، تخفي ترددًا وخوفًا خلف صرامتها المعتادة، وكما أمر مؤمن البحيري، حارس مسلح يقف جاهزًا تلك المرة لأي خرق للقواعد ليغرس في جسده كثيرًا من طلقاته، والذي لم يكن سوى أحمد نوح، وكما أمر سيادته أيضًا، الكاميرا تعلق أمام المنضدة على حامل بدون «كاميرا مان» وبجانבה مايكروفون كبير الحجم، فالغرفة - من وجهة نظره - لا تتحمل أكثر من ثلاثة أشخاص.

- مش محتاج أفكرك هو خطر قد إيه.

كانت آخر كلمات مؤمن التي رنت في أذنها كثيرًا وهي تتفحص بضعة وريقات بين يديها الرقيقتين.

تابع يوسف مشاهدة الموقف دون أن تطرف عيناه، إنتهت فترة جس النبض حينما بدأت هي بالكلام:

- الكاميرا جاهزة، والشاي قدامك.. اتفضل اتكلم.

- قبل ما نتكلم لازم تشربي حاجة.

- احنا مش في كافيه، من فضلك اتكلم عشان ورايا شغل ثاني.

- انتي ضيفتنا، مايجش أشرب لوحدي.. أنا مصمم.

ومقته يارا بنظرة احتقار ممترجة بدھشة لتنادي على الحارس وتطلب منه أكبر كوب ممكن من القهوة غير المحلاة، مرت خمس دقائق سيطر الصمت قبل أن يستقر كوب قهوة زجاجي كبير أمامها يقابل كوباً وردياً من الشاي أمامه.

- نبدأ منين؟

- نبدأ من سنة فاتت.

- إيه اللي حصل بالظبط؟

- قابلت شخص أوحالي بفكرة، لو اتنفذت هتسبب علامة في عقول الناس.

- فكرة قتل؟

- أنا بسميها حاجة ثانية، بس ممكن نقول كده.

- يعني انت معترف إنك مسئول عن كل الجرائم اللي حصلت؟

قالتها يارا ليصمت بعدها الأسود ويقترب بوجهه منها بهدوء لتتراجع يارا قليلاً، أضاف الأسود بعدما أزاح خصال شعرة ليظهر الوشم الذي يخفي نصف وجهه:

- نص.. نص مسئول.

حاولت يارا إظهار عدم تأثرها ببقته ب نفسه عندما سألته:

- على أي أساس اخترت الضحايا؟

- أنا بقتل الخنازير.. اللي هم عساكر الشطرنج.

«خنازير إيه وعساكر شطرنج إيه؟!

هو اللي مسميهم كده.. أنا ماليش دعوة!

بردو لسه ما جاوبتش على سؤالتي..

هممم.. كل اللي بيغمض عينه خنزير، عسكري شطرنج اتخلق عشان

يموت.. وبما إن معظم الناس عساكر.. يبقى الكل ضحية محتملة.

قالها وعاد بظهره ثم شرب الكوب كله على مرتين مضيقاً:

- وأنا بموت في الأوين بوفيه.

- عايز تقول إنك هتقتل البلد كلها يعني؟

.. بالعكس أنا بفيدها، عساكر الشطرنج شخصيات خطر على البلد،

جيش سلمي لازم يتمسح من الوجود عشان يبقى عبرة، أنا لسه

ماقتلهمش كلهم.. أنا قتلت مجموعة عشوائية..

- وإيه علاقة ده بعسكري الأمن المركزي.. الضحية الأولى؟

- ده كان بداية، أسعد كان دموي.. كلب مطيع للأوامر غمض عينه ونفذ

كل اللي مطلوب منه.. ده بالنسبة لـ«الوكي» خنزير.

- لكن التحريات بتقول إن مافيش علاقة بينه وبين يوسف؟

- صح.. ماكانش لسه كتب المقالة.. هو أنا بس اللي حران ولا الجو

فعلاً حر؟

قالها محاولاً جذب ياقة قميصه بتأفف.

- والمحامي؟.. ورائد الجيش؟

- كلهم مجرد عساكر شطرنج وسخة.. مش لازم أشرح كل حاجة..  
حاولي تستنتجي!!

- بس انت مش إله عشان تحكم على الناس.

- وانتي مش إله عشان تحكمي على اللي بعمله.

- ماحسش بالندم بعد ما قتلتهم بالبشاعة دي؟

- مافيش ندم، جحيم راجل.. روتين راجل ثاني، القتل بالنسبالي دش بارد في عز الحر.

- روتين؟! اللي عملته ده فعل قبيح وجرم.. حتى الحيوانات مابتقتلش بعضها بالصورة دي.

قاطعها الأسود:

- Bla Bla Bla.. غلط! كلامك غلط! القتل جزء من أي مجتمع حيواني، الذكور بتقتل بعضها في موسم التزاوج، ييقتلوا الحيوانات الأضعف عشان ياكلوها حتى لو كانت من نفس الفصيل، القتل والموت جزء من الحياة.. من غيره.. الحياة تنتهي.

- مين لوكي؟.. هل ده اسم حركي؟

- يعني.. أنا اللي سميتوله بصراحة.. أصله مالوش إسم.

قالها مجففاً بقايا الدم السائلة على فمه بجزء من قميصه.

- اللي أعرفه إن لوكي هو اسم إله العذاب والعقاب عند الفايكنج، هو ده الإسم اللي تقصده.

!!!I loveee you -

رد ساخراً.

تابعت يارا بوجه قاتم:

- لوكي حد من رجالتك؟ مسجل خطر أو مجرم أوحى ليك بال...؟

- هو مش حد، مش بشري لدرجة إنك تقولي عليه حد.. مش شيء مادي.

- آمال هو إيه يا حاتم؟ ماهو لو مش بشر هيبقي ملاك أو جن..؟

-.. مش مهم هو مين، المهم انه سابقنا بـ100 خطوة.

- واضح إنك جايني عشان تضيع وقتي في كلام فارغ وفوازي.

- 18 شارع المنيل، الدور الخامس.

قالها بوجه صارم.

- إيه ده؟

- مكان الضحية الجاية.

انتفض مؤمن بجانب يوسف الذي مازال عاقداً ساعديه محللاً ردود أفعال حاتم الأسود، إرتدى الجاكيت الخاص به بسرعة شديدة وأمسك بجهازه اللاسلكي وقالها بسرعة:

- إبدأ إشارة.. ميم 5.. ميم 5.. برجاء توجه القوات الخاصة بدائرة

المنيل لـ18 المنيل، معلومات عن ضحية جديدة من سفاح المرح، يرجي اتخاذ الاحتياطات لخطورة الموقف من عدمه...

ثم نظر ليوسف مضيقاً:

- لو فيه جديد كلمني!

حرك يوسف رأسه إيجاباً بعدما فك ساعديه ليقول:

- خلي بالك!

بالعودة لغرفة التحقيق.

- بس انت قولت إنك هتقول أسامي الضحايا.. مش أماكنهم.

قالت يارا بصدمة.

- هتزعلي لو رجعت في كلامي؟

- لا انت كده فعلاً هتضيع وقتي في تهريج ولعب مالوش لازمة، الإنترنت انتهى! لملمت أوراقها، ليرد الأسود:

- مين جاب سيرة اللعب؟.. اللعب هناك.. في الحسين.. مش هنا.

- انت قولت إيه؟!

اعتدلت واقفة على قدميها بعصبية، ليرجع الأسود بكرسيه خطوا للوراء في صدمة.

- هدي أعصابك! دي حادثة ممكن تحصل لأي واحدة في مصر، التحرش مش نهاية العالم.. كده أو كده في حد هينول الشرف في يوم من الأيام.

- يا حيوان! يا...

قالت يارا بغضب بالغ ليرد عليها الأسود ساخراً مكشراً عن أنيابه صانعاً ذئباً غاضباً بوجهه.

- كلمة تانية وهضربك بالجزمة! فاهم!

حاول نوح تهدئتها بعدما اقتربت من الأسود أكثر من اللازم موجهة سبابتها في هجوم.

- أنا سمعت إن الرجالة انبسطت هناك.

لم تشعر بنفسها إلا وهي تفلت يد نوح لتقترب منه وتصفعه، لكنها لم تكن تتصور أن ينتهي الأمر بهذه السرعة الرهيبة..

لم يأت في خيالها أن سرعة رد فعله والتي قد تصل لجزء من الثانية، فيدها التي حطت على وجهه لم تصل إليه، بل أمسكها بيده اليسرى غارراً ظفره الطويل بها لتصرخ ثم قام من كرسيه وأمسك يمينه نصف السليمة كوب القهوة الساخن وقذف ما فيه في وجه نوح الذي اشتعل وجهه قبل أن يقرر بدوره الهجوم، هشم الكوب في زجاج المرأة على يساره لتتحول يد الكوب لمقبض سلاح غير محدد الشكل، وضع سن الجزء المكسور الحاد على رقبة يارا التي احتضنها الأسود من ظهرها بقسوة، حاولت المقاومة بشدة وفشلت، واستسلمت.

- ههشش!.. بلاش تخلييني أوريكي حاجة أسوأ من التحرش.

قالت يارا بصوت خافت التي بدت وكأنها وعيت أنه لا يمزح، خارت قواها مع أنها ممسكة بساعده الأيسر الذي التف حول رقبتها كالثعبان.

- سييها تمشي!

قالت يارا نوح راجياً.

- مش ملاحظ إن الأوضة ضيقة أوي للمشي؟!

قالت يارا للأسود بسخرية ثم أضاف محكمًا سيطرته على يارا:

- عايز أكلم يوسف.

- يوسف مش هنا، إيه اللي هيجيبه في مكان زي ده..

كان رد نوح.

- يوسف هنا.

- صدقني مش هنا..

قالها نوح مشيراً بيده بتوتر.

- أنا عارف انه هنا.

واستدار الأسود قليلاً ومعه يارا حتى أصبح وجههما مقابلًا لزجاج المرأة وظهروه للحائط، ينظر في منتصف الزجاج، تمامًا لعين يوسف التي لم تغلق منذ أكثر من خمس ثوانٍ، توقف الزمن لحظة، تأكد فيها يوسف أنه يراه، يراه جيدًا.

- سيبها ماتخلنيش أضربك بالنار.

قالها نوح موجهاً مسدسه محاولاً تجاهل الألم الذي يعتري عينيه الحمراءتين.

- هعد لـ3.

- مش محتاج تعد لـ3.

قالها يوسف الذي ظهر أمامهما بعدما فتح الباب، ثم أردف:

- انت كنت عايزني من الأول.

- يوسف!، بقالنا كتير ماتكلمناش.

- ليه 6 إنش؟ مستحيل تكون صدفة..

- همم!، استنتاج ذكي.. قربت جدًا.

- انت كنت بتدور علينا.. سيبها!، خيلنا نتهي المشكلة.

- أوعذك إنها هتنتهي.

- ليه أنا بالذات.

- ماتبصلهاش كده!.. -هشش!.. ماتبصلهاش كده يا يوسف! أنا مش

عنصري.. انت.. مجرد.. كلب ميت على الطريق.. العربيات بتدوس

عليه عشان مش شايفاه، الموضوع عمره ما كان شخصي، لو ما كنتش

كتبت المقالة دي، كان واحد غيرك هيكبتها، وكنت هنفذ الليسته من

قرايه.. ده اللي بيحصل في الروايات لو الشرير مهووس بالقراءة.

- انت جاتلك أكثر من فرصة.. بس انت ماقتلنيش في المترو.. ولا في

البيت.

- غريزة حيوانية.. القطط بتلعب بالفريسة بتاعتها قبل ما تاكلها..

- وأنا دلوقتي موجود قدامك.

- النهاية هتبقى جميلة أوي يا يوسف، أتمنى إنك تبقى موجود لحد ما

تشوفها.

حاولت يارا أن تفلت منه مرتبة لكنه أحكم سيطرته عليها لتبكي من

الذعر، همس لها:

- ماتخافيش من الموت! كلنا هتبقى على منبر الدود في يوم من الأيام.

قالها ثم نظر ليوسف مردفًا:

- انت في لغز يا يوسف، لغز لو حلته.. هيتغير شكل الدنيا قدامك، ومش شايف حد غيرك يقدر يحله، وعشان أديك فرصة.. هقولك دلوقتي جزء من الحل.

قالها ونظر مباشرة لعيني يوسف مضيقاً:

- حتى في الغابة الأسد بيدي فرصة للغزالة إنها تجري قبل ما يقتلها.

- الموضوع ده يخصني أنا وانت.. سيبهاا.

قالها قاصداً يارا.

- هسيبها، لأنها هي الجزء الجديد من اللغز، كنتي عايزة تعرفي اسم، إتحياي!. انتي آخر طلب للوكي.. هيتعامل معاكي بنفسه، انتي الجثة اللي بعد جثة المنيل، وصدقيني، ماقصدتش أي تلميح جنسي.. هتعيشي عشان تموتي في يوم ثاني!

دفعها الأسود تجاه يوسف ليلتقفها، تحسست رقبته مذعورة بعينين تقطران رعباً بيناً، غير مصدقة أنها نجت من الموت المحقق، في حين لوح الأسود بسلاحه قائلاً:

- ده قدر أي راجل تسيطر عليه فكرة مجنونة، الأفكار تقتلك، أو تموت جوه منك قبل ما تقتلك.

صوب نوح سلاحه متأهباً لإطلاق النار، بينما لوح الأسود بيده في حركة استعراضية كالتي يفعلها الساحر دائماً وقال كلمته الأخيرة:  
«هابرا كادبرا!!».

مستخدمًا الشفرة التي صنعها من الكوب.. انفجرت نافورة دم من رقبته التي قطعها بكل حرفية على شكل نصف دائرة، ارمى على كرسيه مجدداً، ينظر إلى يوسف الذي فقد القدرة على الكلام في حين صرخت يارا رعباً محاولة منع عينيها من رؤية المنظر، فغر نوح فاه في صدمة لما يراها في حياته كلها، ولا حتى في أساطيره التي يحكيها.

لكنها - أي يارا - سقطت، بعدما فقدت الوعي.

كان أصعب شيء هو تلك الابتسامة.

ظلت على شفثيه حتى بعد أن تحركت عيناه للسقف.

ظلت في ذهن يوسف.. لا تفارقه.. لا يعلم كيف فعلها..

\*\*\*

لم يظهر مبنى المباحث بهذا الشكل يوماً ما، كان أشبه بعش دبابير  
ركله أحدهم بقدمه بغتة، خرجت سيارات الشرطة بصافراتها المدوية  
مصحوبة بكل العتاد الممكن، كأن الحرب قد اندلعت، الكل يهرول  
خارجاً حاملاً العتاد والسلاح خارج المبنى، في غضون ثلاث دقائق  
أصبح المبنى شبه خاو إلا من الموظفين الأساسيين وبضعة ضباط،  
الغريبة أن ضابطين قد سبحا عكس اتجاه التيار صاعدين سلم المبنى  
تحكك أكتافهما بأقرانهما المهرولين في الاتجاه المعاكس، الكل يترك  
المبنى تجاه العنوان الجديد، بدا الاثنان وكأنهما لا يريدان أن يرى أحدهما  
وجهها حتى إبتلعهما المبنى.

في سيارة نوح التي تطوع لقيادتها يعنف بالغ تجاه المستشفى، لم  
يكن يشغل بال يوسف سقوط يارا مغشياً عليها، كان يعلم أنها ستنجو  
بعدما تفحص نبضها، ولم يشغل باله النهاية الدراماتيكية لحاتم الأسود،  
ولا حتى العنوان الذي لفظه، بل احتل كل جنبات رأسه ذلك الرسم  
الذي رسمه على المنضدة البيضاء بدمائه، ذلك الحصان المرسوم بدقة،  
حصاناً يشبه كثيراً حصان الشرطنج.

كانت يارا بين يديه فاقدة للوعي حينما رسمت أمام عينيه رسومات  
تخيلية لبلاطات ملونة في أماكن الجريمة.. طابق معظمها مع قطع  
شرطنج من ذاكرته، لتكتمل الصورة..

«فلسفة الحياة.. أرض.. جيشين..».

«تقصد عسكري الأمن المركزي؟..».

«القبيل.. يتحرك بالورب.. ما ينفعش يعيش في خط مستقيم..».

«إمتى هتمشي صح يا وليد؟.. إمتى هتبطل لف ودوران؟..».

«و المحامي؟.. ورائد الجيش؟..».

«رائد الجيش..».

«الطابية هي الدبابة البدائية، حركتها في خط مستقيم.. رمز مهم  
للجيش».

«معاذ مات».

«مجرد عساكر شرطنج وسخة!!..».

«الحصان هو القطعة الوحيدة اللي ممكن تعدي أي حصن»، مهما  
كان المانع».

«إفتح يابني! مباحث..».

رن هاتف مؤمن الشخصي باسم يوسف، رد بالرغم من انهماكه  
بالسواقة ليلقيها يوسف:

- يقتل بتسلسل الشرطنج.. «6 إنش» كانت رمز للـ6 ضحايا.

- 6 ضحايا؟!

- يوسف!

قالها مؤمن بصدمة ليتابع يوسف:

- العسكري هو مجند الأمن المركزي.. أسعد، الفيل اللي ما يقدرش يتحرك في خط مستقيم هو المحامي النصاب.. وليد، الطابية بتتحرك في خط مستقيم، رمز الجيش.. معاذ، ودلوقتي الحصان.. القطعة الوحيدة اللي بتقدر تخترق أي حصن من غير ما توقفها حدود.

- اللي هو؟!.

- ظابط البوليس.

قالها يوسف بوجه يملأه الخوف، ليلاحظ مؤمن خلفه سيارة حمراء هبط زجاجها الداكن وخرج منها يد بها مسدس وجه ناحيته، شعر أن جسده كله قد تجمد، ظل يوسف ينادي عليه بدون أن يتلقى رده، ذلك لأن لعبة الموت قد اختارته تلك المرة.

\* \* \*

(42)

دائمًا ما يضعك القدر أمام الاختيارات، غريبها وأغريبها، عندها يصبح سكوتك -نفسه- اختيار.. والآن عليه أن يختار.. مؤمن البحيري.

في تلك اللحظة كان ينطلق بسرعة مائة وعشرين كيلو متر في الساعة على الطريق الدائري، وخلفه سيارة هيونداي حمراء داكنة يخرج منها مسدس جاهز لإصابته، هو يعلم أنه لن يستطيع أن يخرج مسدسه بالسرية الكافية، ولو استطاع لن يمكنه أن يصيب هدفًا متحركًا في وضع معاكس، فهو ليس بساحر، كما يعلم جيدًا أن فرص إصابته كجسم متحرك على طريق سريع لن تتعدى العشرين بالمائة، لكنه لم يعط للاحتتمالات مساحة الاختيار، ولم يضعف ثانية أخرى في التفكير أو الصدمة، وضغط بكل قوة.. على المكابح..

دوى ضجيج عالٍ ممتزج بصفارة مزعجة.. أراد أن يصيب السيارة المنطلقة خلفه بشيء أكبر حجمًا من رصاصة، سيارته.

لم تتحقق أمنيته عندما ضغط المكابح بكل قوة، ودارت سيارته الميسوبيشي لفة كاملة حول نفسها، لكن لحسن الحظ، عطل رد فعله خطة قائد السيارة الحمراء من الضغط على الزناد لحاجته للسيطرة على سيارته ومنعها من الارتطام، لتدور الهونداي أيضًا بدورها حول مركزها، بينما أطلقت جيب قادمة من الخلف صوتًا غاضبًا بعد أن انحرفت عن



مسارها كي لا تصدم الهيونداي وتمحوها من الوجود، ومرت ثانية، أخرج فيها مؤمن مسدسه ووجهه للهيونداي في إعلان عن تعديل شروط المسابقة، فصاحب الزاوية الأفضل الآن هو مؤمن، والأهم، أن الركض الآن سيكون في اتجاه سيارات الطريق الدائري الغاضبة، عكس الاتجاه.

لم يكن يتصور سائق الهيونداي أن تتبدل الأمور بهذه السرعة المجنونة وبحركة واحدة، ولا مؤمن نفسه، لكنها الحياة، وقد قالت نعم لرد فعل مؤمن، الذي بدأ الرهان بطلقة من مسدسه كادت تصل لإطار الهيونداي الخلفي ولكنها حادت قليلاً، لبدأ السباق مجدداً، انطلقت الهيونداي بسرعة مجنونة تشق طريقها وسط سباب وأصواء تحذيرية من القادمين من الخلف، وأيضاً بضعة «كلاكسات» رافضة ومستنكرة، ويضعها قاسية تتكلم عن شيء يخص أم السائق، تفادت الهيونداي نصف نقل كادت تنقلب من الحركة المفاجئة، ثم بعدها وميكروباص صغير أزاح لها الطريق بعدما شعر بجنون سائقها، يتبعها مؤمن بلا هوادة، ..

عصف أتوبيس صغير بالجانب الأيمن من الهيونداي ليقتفها على يمين الطريق بعدما دارت حول نفسها مرتين، لتصطدم بسور الطريق وتستقر، ضغط مؤمن على مكابح سيارته مجدداً ومال بسيارته ناحية اليسار «يمين طريقه» وتوقف الأتوبيس ليصطدم بسيارة مسرعة خلفه وتطوعت سيارة أخرى وأكملت سلسلة الاصطدامات ليقف الطريق تماماً وتطلق السيارات أصواء الانتظار، هبط مؤمن من سيارته ممسكاً

بسلاحه موجهاً إياه «النصف» الهيونداي المشوه، ولم يتحدث أي من أطراف الحادث بعدما رأوا أن هناك شقاً لم ينته بعد من الأمر.

تباطؤ مؤمن قليلاً منتظراً أي رد فعل ممكن من صاحب السيارة، لكن لا شيء، لا رد، مجرد مزيد من الصمت، مد يده اليسرى بهدوء فاتحاً بابها الأمامي بينما لا تزال يمينه ممسكة بمسدس جاهز للحديث، فتح الباب وكانت الصدمة.

فتاة في العشرينيات من عمرها، شعرها الأحمر الطويل يتدلى فوق بشرتها البيضاء الناصعة، فتاة يعرفها جيداً وليد، أو كان يظن أنه يعرفها، يسيل خيط من الدم فوق جبهتها، تتحرك بصعوبة شديدة وتمسك ضلوعها بتألم، نظر إليها مؤمن مصدوماً، كأنه يرى آخر شيء يتوقع أن يراه، ظن أنه يحلم، لكن الأمر لم يكن كذلك، إنها هي من رآها في صور المستشفى اللعينة، أخرج جهازه اللاسلكي من جانب الجاكت الذي يرتديه، وتمتم بضغ كلمات كان من ضمنها إسعاف، جلس على الأرض ممسكاً بمسدسه بياس، ترجل بضع أشخاص يقتلهم الفضول، حاول بعضهم استيضاح ما يحدث، ظل مؤمن ساكناً للحظة إلى أن قال أحدهم: «أنا دكتور...».

في العنوان المجهول تجمعت أسراب الشرطة والأمن المركزي وخبراء المفرقات، يقسمون أنهم لن يأكلوا الطعام هذه المرة، أكثرت الكلاب بناحها أمام باب الشقة المنشودة، واستعد فريق المفرقات بملايسهم التي تشبه رواد الفضاء، ممسكاً أولهم بدرع طويل يشبه الذي يمسكه رجال الأمن المركزي، فتح الباب بعدها، انتظروا لثانيتين ولم

يحدث أي انفجار، لم تنتأثر الآهات والأشلاء، لم يحدث أي شيء»  
مرت نصف ساعة حضر بعدها مؤمن ولا يزال الصمت باسطاً سيطرته  
صدمته كلمة ضابط لا يعرفه عندما قال: «الأسود انتحروا»..  
توقف مؤمن قليلاً محاولاً إضافة عنصر جديد من المفاجآت لجدوله  
المزدحم.

- طاردتي سيارة تريد قتلي بداخلها فتاة إعلانات غاضبة.

- والآن مات الشاهد الرئيسي والوحيد مسلسل اليمين والقديمين في  
غرفة لا يوجد بها أي سلاح وسبيل للموت بعدما دلنا على مكان  
الضحية الجديدة.

تجاهل مؤمن الرد وسأل الضابط: «الجثة بتاعة مين؟»..  
أكمل الضابط مرتبكاً..

- مافيش جثة..

- مافيش جثة؟

أعادها مؤمن مبتسماً بسخرية على حاله.

- مافيش غير حاجة واحدة.

قالها الضابط.

- حاجة إيه؟

- الأحسن إنك تشوف بنفسك.

لم يكن يتوقع مؤمن أن يراها مكتوبة على الجدران..

(هاهاها!)

كتبت بخط عريض من الدم على حائط الشقة المهجورة. لا متفجرات  
لا جثث.. فقط تلك الضحكة الساخرة التي احتلت كل الحائط.. وعلبة  
سغيرة داكنة ملقاة على الأرض تشبه علب المجوهرات.

لم يجد أي مشكلة في إضافة تلك الملحوظة لجدول اليوم الديموي،  
انحنى وأمسك بالعلبة الداكنة، تخلله شعور بأن الجميع يحدق به لثوان،  
فتح العلبة ليجد شيئاً ما داكن اللون بداخلها، شيء يبدو كالجلد.. شيء  
بشري.. شيء يخص والده.

مرت بضعة لحظات ولم يرتد لمؤمن بصره، لمس ما بداخل العلبة  
ثم نظر أمامه بثبات، ضغط على أسنانه بعنف لكنه بدا متماسكاً بعض  
الشيء.

حدثه أحد الضباط بصوت خافت:

- لقيناها قدام الحيفة أول ماجينا، الناس عايزينك في المباحث.

لم يلتفت مؤمن إليه بل حرك رأسه للضابط متابِعاً اللوحة الفنية  
المرسومة على الحائط مردفاً:

- أنا عرفت اللي حصل للأسود..

- آآآ.. الموضوع مالوش علاقة بالأسود.

نظر له مؤمن غير مصدق أن هناك سطرًا جديدًا يجب أن يضيفه  
لجدوله المزدحم بالجنون قبل أن ينتهي اليوم، لم يسأله مؤمن، بل فضل  
الصمت.

\*\*\*

الكبيرة محاولة تجفيف عينيها بظهر يدها بعيداً عن الجوانتي الطبي، لم يستوقفها مؤمن الذي خضبت نصف وجهه دمعة بعدما عجزت عيناه عن تصديق ما ترى.

لم يتمالك نفسه هو الآخر، بل توجه خارج المكان بعينين مرغرعتين بالدموع، يرى جاكليين وهي تحرق سيجارة وتحاول التماسك ثم تفشل، ويوسف الذي كان واقفاً عند الباب غير مصدق، واضعاً يديه في جيب معطفه كعادته، ولكنه لم يعترض مؤمن الخارج بقوة، سمع سيلاً من التوبيخ والسباب من بعض الضباط الغاضبين له، لكنه ظل واقفاً يشاهد مصير عبد الجليل، الرجل الذي لم يرحم رجال الأسود سنه، رجلاً الأسود اللذان دخلا المبنى في غفلة من مالكه، دخلا عكس التيار، وصعدا السلم إلى الدور الثاني، استغلا الارتباك وخروج الجميع تجاه الهدف الوهمي، استغلا انتحار الأسود الدراماتيكي وركض كل من كان داخل المبنى لغرفة الاستجواب الدموية، ف ضرب أولهم حارس المكتب بطلقة من سلاح مكتوم، ولحقه الثاني قبل أن يسقط أرضاً ويتنثر الضجيج، ثم دلف الثاني بدوره على عبد الجليل مقاطعاً جملته «انت إزاي تسمح لنفسك...» برصاصة في الرأس.

ثم أنهى عمله في ثلاث دقائق، ليس بنفس جودة سيده، الذي صنع دائرة في عقه قبلها بدقائق، لكن بالقدر الذي يوصل الرسالة المطلوبة، والتي كتبها أحدهم على جدار الشقة.

استوقفت جاكليين مؤمن باكية:

- أنا ما كنتش أتخيل انها هتوصل لهنّا.

مسرح الجريمة، اعتاد مؤمن أن يكون باراً للخمور واللذات وتدافع الأدرينالين جنباً لجنب مع التوستيرون، أو في مدينة مظلمة من المقابر أو في منطقة زراعية مهجورة، أو حتى شقة ما في حي ما، لكن لم يتخيل أبداً أن يقف هكذا، مثل المتفرج في الدور الثاني من مبنى المباحث الجنائية، أمام باب اللواء عبد الجليل، أو المرحوم عبد الجليل، يرى فلاشات الكاميرا تضيء عينه وماضيه مع أخيه الأكبر، الذي تصارع معه دائماً، لم يكن يعلم أن الضابط المقصود ليس هو وأن المطاردة كانت مجرد تمويه، خدعة جديدة أطعمها الشيطان لهم جميعاً.. لم يكن يتخيل أن يرى عبد الجليل ملقى على الأرض وبرأسه طلقه من مسدس مكتوم، وفي صدره يستقر خنجر من نفس النوع الذي استخدم من قبل، بل وأن عينيه قد حاكهما شخص ليس بنفس البراعة السابقة لكنه أراد أن يقلد الطريقة المتبعة، شخص قد حفر رقمين آخرين على وجهه الخموي، ولون بلاط الأرضية بشكل يشبه حرف «L».

جلست جاكليين بجانب الجثة وبجانبا رامي، تكدس المكان بعشرات الضباط يشعر جميعهم بالغدر والغضب، يشعر مؤمن بأضعاف أضعافهما، يرى جاكليين وهي تمسح عن عينيها بضعة دموع عن غير عادة، لتترك مكانها لرامي وتهتم بالرحيل، وجدت مؤمن في انتظارها ولم يتمالك نفسها وسقطت الدموع منها واحدة تلو الأخرى، رفعت نظارتها

- إحنا خسرنّا.

قالها مؤمن ثم أضاف محدثًا ذاته بصوت خافت غير مصدق:

- كانت خدعة، العنوان وموت الأسود كان مجرد تشييت.

- ليه عبد الجليل، ليه مش أي ظابط ثاني؟

- لأنه يعرفني.

تمتم بها يوسف لحاله بالعاريقة بصعوبة بالغة لينفجر مؤمن بوجهه:

- بالمناسبة بقي!، أحب أقولك إن محاولة قتلي كانت مستحيلة، كانت

تمثيلية، أنا عايز أفهم!! انت إزاي عرفت كل ده؟! إزاي عرفت إن

اللي هيتقتل ظابط..? وليه مش أنا؟

- لأنك عمرك ما غمضت عينك.. دي النقطة اللي ماخدتش بالي منها.

- وليه بقي أختار العسكري الغلبان ده مع أنك ماعرفوش؟

- لأنني ما كنتش لسه كتبت المقالة.

- ومين بقي اللي أوحى للأسود بالفكرة الجميلة دي..? مين؟!؟

- ماعرفش، أنا أصلاً مابلعش شطرنج، عبد الرؤوف هو...-

- عبد الرؤوف! الدكتور عبد الرؤوف؟!

قالها مؤمن بإعجاب وغضب ممتزجين، كأنه توصل لشيء ما.

- ما له عبد الرؤوف؟!، أي حد في الدنيا عارف ان القطع يتحرك كده.

- كل الناس تعرف القطع، بس مش كل الناس بترتبه كده يا دكتور..

فوق بقي!

اللي بتفكر فيه ده مستحيل.. جنون!!

- لا.. أبعد من الجنون.. أبعد بكثير.. شوف اللي بيحصلنا وقولي فيه إيه

مستحيل أكثر من اللي إحنا فيه..? هه... بص حواليك واطرحلي انت!

بص حواليك!!

- الإسود قال أن فيه واحد أحواله بالجرايم.. اسمه لوكي.

- لا يا راجل!؟ وانت مصدق بقي الكلام ده؟ وده أدور عليه فين؟.. في

السينما؟.. ده اسم ألفه الأسود من دماغه، اللي يشتغلنا كلنا من الأول

هو سي زفت بتاعك، عبد الرؤوف.

- ماتتكلمش عنه كده!!

- أنا أتكلم عنه زي مانا عايز.. وهجيبه هنا زي الكلب.

- انت بتفكر غلط!

قالها صارخًا.

- اللي بيفكر غلط هو اللي كتب مقالة هيجت عليه وعلينا واحد مجنون،

اللي بيفكر غلط هو اللي خلانا نذبح ورا بعض زي الفراخ، هو ده اللي

بيفكر غلط، مش أنا.

قالها ورحل غاضبًا.

تجمد يوسف في مكانه عندما أصبحت الكلمات حادة مثل الشفرات،

أمسكت جاكين بساعده بعدما هم بالرحيل قائلة:

- عبد الجليل كان عزيز عليه.

حرك يوسف رأسه مقاومًا رغبة ملأت عينيه وهم بالذهاب.

وقف لعشر دقائق أخرى يشاهد جثة عبد الجليل للمرة الأخيرة، ثم ذهب للمستشفى ليطمئن على حالة الضحية القادمة، ياراء، تذكر أنه تركها وحيدة مع «سكانيا» الذي بالكاد يستطيع حماية نفسه، شعر أنه من المستحيل أن يطلب من مؤمن أي حماية شخصية ليأرا بحجة أنها الضحية الجديدة، فقرر أن يكون هو حمايتها، بلا سلاح، أو جسد يعينه على القتال، بلا أي شيء.

توجه لخارج المبنى متجاهلاً كم السيارات والتجمع الشرطي غير الطبيعي المسيطر على مدخله، أخرج هاتفه النقال وضغط على اسم «سكانيا»، ثوان ورد صوته، صفعته المفاجأة حينما سأله عن حالة ياراء، قال له إنها جيدة لكنه قد تركها، ذلك حينما خاطبه مؤمن أن يتوجه للمباحث في الحال، بل وما زاد الأمر تعقيداً أنه - أي نوح - قد طلب منه مؤمن منذ دقائق الحصول على عنوان الدكتور عبد الرؤوف في الإسكندرية، حيث إن مؤمن - في طريقه للقبض على عبد الرؤوف على الفور.

- وياراء، الهدف الجديد! الضحية الجديدة؟! سببتها لوحدها؟  
علق يوسف مصدوماً.

- والله أنا مش بودي جارد يا ريس، كتر خيرى أوي كده اتي وصلتها واطمنت عليها، وبعدين - بقولك إيه - انت شوفت بعنيك، ما الواد دبح نفسه قدامك.. خلاص الحدوتة خلصت.

- قبل ما تخش على المكتب بتاعك، هنعرف الحدوتة خلصت ولا لسه.

قالها واتجه للمستشفى.

أيقظها صوت جهاز قياس نبضات القلب، لتشهق في رعب كأنه انتزعها من أعماق عقلها المرتعب، كان يطلق صافرتين كل مرة، نظرت حولها مندهشة أيقنت أنها قد مرت لتوها بكابوس ماء، ثم تفحصت يدها المتصلة ببضعة أسلاك، وملا بسها التي تغيرت تماماً لتصبح رداء أبيض كالذي يرتديه المرضى، كانت بمفردها، يحيطها رائحة عقيمة، تعلمها جيداً وتكرها كثيراً، رائحة المستشفى.

قامت بسرعة ونزعت الأسلاك عن يدها ووضعت قدميها في خفين دافئين لابد أنهما ينتميان للمكان، شعرت بالبرد يتغلل داخل جسدها كالفيروس فغطت جسدها بمعطفها الطويل ثم وقفت أمام باب غرفتها المغلق، ترددت ثانيتين، وفتحته، لكن شيئاً في قلبها جعلها تشعر ببرودة أقسى من التي شعرت بها في كابوسها، فمظن نافورة الدم الخارجة من رقبة حاتم الأسود، وكلماته الأخيرة عن أنها الضحية القادمة، كل ذلك جال في خاطرها كنسور جائعة تدور فوق تائه في صحراء، شعرت بالخوف، خوف يمتزج بوحدة وإحساس بالخطر يتخلل روحها، لا تعلم مصدره، لكنها شعرت أن شيئاً يحدث، ويحدث الآن، أرادت أن تصرخ، لكنها شعرت أن أحداً لن يسمعها.

كان الممر أمام حجرتها مزدحماً بالمارة.

- مش معنى إن الكرياتين عالي يبقى لازم Renal Failure، فيه حاجات تانية بردو لازم نبص عليها.

قالها طبيب صغير السن حليق الرأس لأخر يمشي بجانبه ممسكاً بملف مفتوح من أمام ياراء، التي بدت مختفية لا يراها أحد.

جاءت من أقصى اليمين ممرضة تهوول بعدما سمعت صوت نداء في الإذاعة المركزية، ويضع أقارب أحد المرضى في الاتجاه المعاكس يمزحون عن شيء ما، ..

شخص قادم من اليمين، يمتلك جسداً نحيفاً متوسطاً في كل شيء، وشعرًا أشيب كله لا يتناسب مع سنة الذي لم يتعد الثلاثين، يحمل «بوكيه» ورد رأت تحته كل مخاوفها، جزء معدني أسود، يبدو وكأنه جزء من مسدس جاء من أجلها، جاء ليقتلها في غرفتها، ثم يفعل بها مثلما فعل بكل الضحايا..

تصاعدت نبضات قلبها لدرجة أنها لم تعد تسمع غيره، اتسعت عينها رعباً، تجمدت، عجزت عن الحركة والكلام، تمنّت أن تتبخّر وسط الزحام لكنها لم ولن تفعلها، رآها، ابتسم لها ابتسامة خبيثة، تسارعت ضربات قلبها أكثر، مرت اللحظة ببطء، كان يقترب منها بكل ثقة، ينتظر اللحظة المناسبة ليقدف ببوكيه الورد ويخرج مسدسه الذي أصبح واضحاً مثل الشمس لها، ويدفعها للداخل، ثم يقتلها، ستفقد دمه وسيرسم به لوحة فنية، سيحيك عينيها كاللعل القديم، سيغرز في صدرها خنجره الموشوم، سيفعل كل شيء، أصبحت المسافة بينهم ستة أمتار، توقفت عن التنفس حتى نسيت أنها لا تتنفس.. أنه الموت ولم يأت ليمرح..

- ماتخافيش!

قالها ولم تر وجهه، لكنها رأت يده التي مدها وراء ظهره، مرتدياً بالطلو طبيًا أبيض كأنه طبيب، كان هو من فعلها أول مرة.. في الحسين.. كان هو..

دست يدها بين يديه كالطفلة الصغيرة التي تشبث بكف أبيها، جرها وراءه، حاولت مجاراته في هروله، كان يتجه في عكس اتجاه الأشيب، يقابله، وجهًا لوجه.. ينظر له في عينيهِ الضيقتين، تزداد ابتسامه الأشيب بعدما تعرف على الطبيب المزيف ذي اللحية البنية الخفيفة، فقد ترك على صدره علامة صنعها هو من قبل، كانت نقطة الالتقاء عند باب أحد المرضى كبار السن، يجلس على مقعدة المتحرك بجانب غرفته ذات الباب المفتوح، في انتظار ممرضته التي بدت وكأنها تحضر شيئاً ما من داخل غرفته، عند نقطة الالتقاء، لم يعطه يوسف أي فرصة لإخراج مسدسه من بين زهوره الحمراء الداكنة، لكنه دفعه دفعة قوية، جعلت توازنه يختل ليجد المقعد المتحرك له بالمرصاد، ليسقط بداخل الغرفة وتساقط الورود مع مسدسه الأسود المزود بكاتم للصوت.

- سامحني.

قالها يوسف لنفسه قاصداً الرجل الكبير الذي أصابه الهلع، ركض بعدها يوسف كالمجنون ووراءه يارا التي عاد لها الأمل من جديد، صرخت الممرضة عندما رأت المسدس يسقط منه أرضاً، قام من عثرته سريعاً موجهاً المسدس إلى الممرضة التي رفعت يدها تلقائياً ليسقط منها ملف المريض وكوب بلاستيكي، لم تنفوه بكلمة بعدما أيقنت أنه يعرض عليها حياتها أو صرخة أخرى، خبا المسدس في ظهره سرواله

أمسكت يده وضمتها بقوة لوجهها، أفلت وجهها وأمسك يدها الباردة وقالها بحزم.

- دلوقتي يا يارا.. دلوقتي!.

أفلتت يده بصعوبة ودموعها تتساقط مع خطواتها المتسارعة، سمع الأشييب صوت خطوات تنزل من على السلم المعدني في اللحظة التي هم فيها بالرحيل، تجمد للحظة ثم ابتسم ابتسامته الباردة، فتح الباب بهدوء، نزل ببطء شديد مخربجاً سلاحه المفضل هذه المرة، شفرة الحلاقة الكبيرة، وكأنه يريد أن يستمتع، نزل السلم المظلم وويلاً محاولاً عدم إصدار أي صوت يذكر، واصل النزول حتى وصل لنهاية السلم المعدني، شعر كأنه سمع صوت إنذار في الطابق العلوي، يشبه صوت إنذار الحريق، توقف لثانية ليسترقق السمع حتى وضع الصوت تمامًا، وأصبحت الضججة واضحة، سمع صوتاً آخر أشبه بغاز يتسرب، نظر أمامه ليجده يخترق وجهه وأنفه، شلال أبيض من طفءة حريق اندلعت في وجهه النحيف، بلع منها واستنشق الكثير، أخذ يسعل، ويحرك الشفرة في جميع الاتجاهات ليصيب من يحملها، لكنه بدا أن شبحاً يحملها، لا شخص، احترقت عيناه من أثرها ليحاول جاهداً مسحها من المسحوق الأبيض الحارق، أصيب بالعمى المؤقت في مكان يحتاج كشافاً كهربائياً لترى فيه بوضوح، سمع صوتاً آتياً من خلف الشلال الأبيض الذي لم يتوقف:

الأسود ليغطي بالجاكيت الذي يرتديه، تجمع المارة ليروا ما حدث، تركهم يتفقدون الممرضة المذهولة والورود الحمراء المبعثرة أرضاً، وهم بالركض في نفس اتجاه ركض يارا ويوسف، انعطف يميناً ليجد الممر وقد خلا تقريباً من الناس، مشى بهدوء، وتوقف أمام اختيارين، إما أن يكمل طريقه للنهاية، أو يفتح باباً كتب عليه «سلم الطوارئ».

- لازم تمشي دلوقتي!

قالها يوسف ليارا في السلم المظلم الخاص بالطوارئ.

- أنا عمري ما خفت وانت معايا.. أنا مش همشي.

نظر إليها، عجز عن قول أي شيء، مسح بإبهامه دمعة سقطت من عينيه السوداء الساحرة، ثم أضاف:

- لازم تمشي، هنا إحنا صيد سهل.. مافيش وقت.

- أنا مش عازية أعيش من غيرك.

قالتها ممسكة بيده تعنصرها بعنف.

- اللي ربنا عازيه هيكون.

قالها شارداً ثم استطرد بعدما أيقن أنه لا يملك المزيد من الوقت:

- هتلاقي تحت مخرج من المستشفى، خدي أول تاكسي وروحي بيتك، استخبي هناك لحد ما أكلمك أنا أو مؤمن، أنا معطلة.

- أوعدني اني هشوفك تاني..

قالتها ليصمت يوسف لثانية، ثم قالها بعينين صادقتين:

- أوعدك اني هعمل أي حاجة عشان تعيشي.



وجهه بشال صنعة من الباطو الأبيض، ليرمي عليه الطفانة وتصطمم برأسه مباشرة، ويسقط شبه ميت ليضيف يوسف.

- الموت عمره ما كان معضلة.

قالها محرراً وجهه مما يغطي.

قبلها بثلاث دقائق، وقفت يارا أمام المستشفى التي دب الهلع فيها، وخرج منها الكثيرون، أشارت لتاكسي اقترب منها، دخلت بسرعة في الكرسي الخلفي، غير مصدقة أنها نجت، تعلق نظرها بمخرج الطوارئ، أطلقت سيارة خلف التاكسي نفيراً ليتحرك السائق مرغماً منتظراً كلمة من زبونه الصماء، والتي تداركت الموقف وقالتها بثقة بعدما مسحت بواقى دمعاتها:

- صلاح سالم لو سمحت.

قالتها وتعلق نظرها بمخرج الطوارئ مجدداً لعله يخرج في أي لحظة، أرادت أن تقفز من السيارة مجدداً وتدخل لتنقذه، غلبها شعور بالخوف، اتخذت قرارها:

- وقف العربية! وق...

نظرت لترى في عينيه شيئاً أخافها أكثر من كل كوابيسها المرعبة، شيئاً ظهر في المرأة، جبهة متعرقه وشعر غير مصفف على طريقة معمر القذافي، وضحكة بها كثير من المرض، يحاول أن يكتمها.

أرادت أن تفتح الباب وتهرب، لكن شيئاً استوقفها، ألم شديد أحسّت به في ركبته اليسرى، ألم ما لبث أن انتهى، لترى يده قد غرست

- أنت سميت كمية ثاني أكسيد الكربون تساوي 40 ضعف اللي ممكن يتحملة الشخص العادي، الأعراض: «صعوبة في التنفس نتيجة تجمع خملات الرئة، وده لأنه غاز بارد».

تعالى صوت سعاله كصوت شخص قتلته السجائر على فراش الموت، أكمل الأشيب محاولته لقمص أي ضربة للهدف غير الموجود ليكمل يوسف الأعراض موجهاً لشلاله الأبيض:

- ده غير الاختناق... بسبب منع الدم من أنه يتحد مع الأكسجين اللي رثك - أصلاً - مش قادرة تستخلصه من الهواء، النتيجة إن الأكسجين مش واصل للمخ أو باقي الأنسجة، نفس أعراض الغرق، لكن في حالتك، اسمها تأثير بوهر.

تجاهله الأشيب وتابع تسديد طعناته المتوترة بعشوائية منتظراً الهجوم من أي جانب، أحاطه الهواء الأبيض حتى سقط أرضاً راکعاً على ركبته اليمنى، يشعر بكثير من الاختناق ليضيف يوسف سؤاله:

- السؤال دلوقتي، إزاي أنا معاك وبتنفس؟!

ليجيب على نفسه بعربية فصحي:

- يستخدم غاز ثاني أكسيد الكربون في إطفاء الحرائق لأنه ثقيل نوعياً، لأنه يتجه دائماً للأسفل.

قالها لينظر الأشيب فوقه مسدلاً مسدسه، ليجد خيال يوسف، الذي تعلق بباطن السلم الواقع فوقه، ممسكاً بطفانة كبيرة الحجم ومحيطاً



كانت السماء مبهمه كأفكاره، درجة الحرارة قاربت العاشرة سلبزيوس، وتوقع الجميع هطول أمطار غزيرة، ولم لا.

تغيرت الخطة، تجاهل ما سيحدث لعبد الرؤوف ودخل كهفه على الشاطئ، ليجد حائط بطولاته، الصور والمقالات والأبحاث، جميعها تنظر إليه ساخرة، أخرج مفكرته وخط سطره الأخيرة:

«اليوم أيقنت الحقيقة كما هي.. لا جمال فيها ولا روح..»

اليوم تأكدت أن هذا هو منطق الحياة..

عندما تخشى الوحدة.. يطبق عليك الحظ قبرًا..

اليوم أيقنت أن بعض الأخطاء قد خلقت للخلود رأيت يقاتل بلا هوادة حتى آخر رجل في جيش افتراضي، قاتل ليحصل عليها، جازته قبل الأخيرة، حصدها بسببي.. أمقته وأمقت نفسي.

لن أحمل العار منتظرًا دوري في هذا العذاب، أعلم ما ينتظرني بعدما أنتهي، أعلم أن نهاية الجحيم جحيم أكبر منه، أعلم.. وألعن كل ما فعلت وما سوف أفعل، بعدك يحين دوري يا ملكتي، فلنجعل النهاية واحدة.. اليوم تنتهي معًا..

رعى مفكرته أرضًا، ثم اختفى ورجع بتلك السلسلة ذات الثلاثة أمتار طولًا، تأكد من صلابتها، ثم أحضر القفل الصغير والزجاجة الكبيرة التي وضعها بجانب صورته مع أخية فوق التلفاز، خرج اتجاه البحر ليجد نيوء الأرصاد الجوية تحققت، مشى ضد الهواء العاتي والمطر المنهمر، ضد الفشل والأخطاء القاتلة، عندما وصل لنهاية لسان الموت ركع على

قلمًا يشبه قلم قياس السكر بجانب ركبته، فقدت الاتصال مع نصفها السفلي، ثم أمسكت بيده التي لم تتزحزح، وأرادت قول شيء ما، شعرت بأن جفنيها ثقيلان.

استسلمت للنعاس.

بعدها بساعتين كان يوسف في الإسكندرية محاطًا بمناخ شتوي غير مستقر، الرؤية التي انتابته بأن مؤمن قد يكون في طريقه لإهانة مثله الأعلى كانت سببًا آخر يجعله يتمنى الموت، لم يتطرق تفكيره لأي مما حدث، بل لما سيحدث، أخرج هاتفه الذي أشارت بطاريته للنصف إلا قليلًا وهم يطلب رقم يارا، متمنيًا من كل قلبه أن تكون قد وضعت هاتفها في جيب معطفها قبل أن تترك غرفتها، رن الهاتف من دون رد، ما أن مرت ساعة وربع حتى وجد نفسه في أحضان عروس البحر الأبيض، حاول الاتصال بهاتف عبد الرؤوف المنزلي لعلمه بكرهه الشخصي للتكنولوجيا والهواتف المحمولة، لم يحصل على أي رد، تمنى أن مؤمن لم يسبقه له، أعلن هاتفه عن استلام رسالة من رقم مجهول، فتحها يوسف لتستغرق بعض الوقت في التحميل، كانت رسالة مصورة من هاتف يارا.

رسالة مؤلمة..

صورة تستحق كل نوبات الغضب ومحيطات البكاء..

صورة بها يارا وهي فاقدة الوعي ومقيدة في مكان ما غير واضح.

نزل على ركبتيه منهزًا..

ركبتيه، كانت بجانبه الصخرة التي ظلت على عهدنا، تنتظره ليحتضنها، ليغرقا معاً، كان الشفق قد أطلق خيوطه الحمراء فوق الشاطئ، ينير له طريق ليس له، لمسها كحبيب يداعب حبيبته، وضع الخطاف الحديدي في الحدود الحديدة الخارجة من الصخرة الوحيدة، ثم أمسك الطرف الآخر من السلسلة وربطها حول قدمه بعنف شديد متمماً عليها كيلا تخدله، أتم فعلته بوضعه القفل في طرف السلسلة ثم أغلقه، أخرج من القفل مفتاحاً وهم برميه، تذكر كلمة عبد الرؤوف:

- ذهاب وعودة.

هكذا قالها..

نظر إلى المفتاح ووضع في جيب معطفه، أشاح بوجهه للسماء التي بكت حزناً عليه وعلى مصيره، سقط المطر على وجهه وشعره الطويل الذي أغمى عينيه.

مرت أكثر من دقيقتين لم يغادر نظره تلك الزجاجاة والمركب الخشبي الباقي بداخلها منذ أمد، أمسك بعنق الزجاجاة وهشمها في الصخرة، أمسك بالمركب الخشبي الصغير وتفحصه بعين دامعة، ثم انحنى يقربه من الماء التي ساقته بعيداً رغم المطر.

- انت حر!

قالها للمركب بغم فغر ووجه مجهد، ثم ألقى بالشهادتين رغم علمه بأنهما لن يُقبلا، ودفع الصخرة، هبط معها ليرتطم بالماء بعنف، سقطت أسرع منه، جرت قدمه للأسفل بغير رحمة، شعر وكأنها قد تخلع قدمه

«نه، لكنه استسلم، هبطت سبعة أمتار حتى استقرت، واستقر هو معلقاً قبل المنتصف، فاردّاً ذراعيه بجانبه، تشاهد عيناه السطح وخيوط الشفق، ويسمع صوت المطر وبراة يسقط غير آبه، أغلق عينيه بعدما خرجت من فمه فقاعة هواء صغيرة.. واستسلم..

إنها النهاية..

«عقلك بيغدعك!»

«سنة 88 في حادثة حصلت في جمر ك بورسعيد».

«هحل اللغز ده».

«كاميرا بتسجل كل حاجة.. وتتفاعل معاها».

«نسيت اللي حصل لأخوك..؟!».

«في حاجات مابنتهيش بالوقت..».

«حادثة مات فيها مهر ب صغير».

«مريض تعدد الشخصية شخص عادي..».

«مابنامش كويس».

«مافيش حاجة اسمها لوكي..».

«مش شيء مادي..».

«سابقنا ب100 خطوه».

«حاجات مابنتهيش بالوقت..».

«كل شخصية جديدة ليها تفاصيلها».

«حتى في نبرة الصوت وضغط الدم».

«رمق علية سجائر على الكرسي المجاور له».

«انت كويس؟...».

«يقتل كل اللي يعرفني...».

«المرض النفسي هروب من واقع أصعب».

«مش قادر أنتفس هنا...».

«العالم كله.. بأسراره.. عايش جوايا...».

«خلي رؤيتك أعمق!».

«كان عندك فرصتين تقتلني».

«..المهم يموت في الترتيب الصح».

«أعرف واحد يمشي وهو نايم».

«أبعد من الجنون...».

«هتغير شكل الدنيا قدامك».

«شيئًا ما يألمه في كتفه».

«مسك جزع شجرة وخبطه».

«حاجات ما بنتهيش بالوقت».

«جمرك بورسعيد».

«مات بنزيف داخلي...».

«عقلك بيخدعك!».

«إمتى آخر مرة بصيت في مراية؟...».

...

«في النهاية لازم تعرف انه مجرد وحي».

«زي ما قولت..أنا العشماوي...».

«أنا العشماوي».

فتحت عيناه ورأى الرعب، وأصبح لديه شيء يهابه أكثر من الموت، أراد أن يصرخ لكنه لم يستطع، أراد أن يطلق صرخة من أعماقه.. تقضي على صمت البحر البارد الميت، حاول إفلات السلسلة لكنها أبت، تذكر أنه يحتفظ بمفتاح في جيبه، دس يده المرتعشة في جيبه باحثًا عنه، أمسك به، شعر بانتهاء الأكسيجين في جسده، قاوم للوصول للقفل اللعين، أعاقته الرؤية غير الجيدة، يحرق الماء المالح مقلتيه كالنيران، حاول وضع المفتاح في القفل، فشلت يده المرتعدة وسقط المفتاح، حاول تحريك أصابعه في الفراغ كي يمسك به، فشل، الخطاف الحديدي! لاحظ له الفكرة، قرر أن يغوص بضعة أمتار ويحرره - أي الخطاف - من الصخرة ومعه نفسه، لكن الأكسيجين قد نفذ بالفعل، فلن يكفيه الأكسيجين للصعود لسطح الماء فكيف يغوص أكثر؟! اتخذ القرار وقاوم رغبة رثتيه في استنشاق الماء، غاص ثلاثة أمتار إضافية حتى انتهت السلسلة، أمسك الخطاف بيد الخوف...

مرت دقيقتان ونصف من الصمت منذ نزوله، تساقط فيهم المطر بغزارة فوق سطح الماء الأملس الهادئ، انتهت فترة الانتظار بعدة

فقاغات تفلت سطح البحر حتى خروجه في النهاية، فتح فمه عن آخره  
باحثًا عن الهواء، يستنشقه بشغف وحب، بغضب وبكاء، يضرب يديه  
البحر ليقرب من الشاطئ، يضرب البحر الغاضب مجددًا حتى خرج من  
الماء، زحف على الشاطئ من دون أن يقف، لمس برأسه التراب المبلل  
كانه يسجد، يكي بهيستيريا...

قالها مرارًا وتكرارًا بكاءً.

- لا...

- لا!!!

واستسلم للرمال فاقدًا للوعي.

بور سعيد 27-12-1988:

- الأجرة غليت ربع جنيه يا جماعة.

قالها سائق البيجو «7 راكب» ليثور رجل قد كتب العمر قصائد البؤس  
على وجهه:

- ليه يا بني؟.. حرام! ربع جنيه مرة واحدة؟

السائق: يا ابنا الدولار زاد وهيعلى كمان كام يوم، يقولوا هيعدي الـ 80  
قرش.

- طاب مش لما يبقى يوصل يا بني!

- ما هو كل حاجة غلوها علينا يا حج زيت العربية، والبزين، وقطع  
الغيار، انت عارف الناس مابترحمش، وبعدين - لا مؤاخذه - اللي  
عنده اعتراض يفضل وحقه علينا.

- توكل على الله ياسطي ربنا يستر طريقك، هنعمل إيه يعني، قالها شاب  
للسائق الذي نظر خلفه، وأخرج بظفر أصبعه الصغير شيئًا عالقًا بين  
أسنانه ليجد كرسيًا واحدًا شاغرًا، نظر إلى خارج النافذة ناحية قهوة  
صغيرة مدمرة لا يجلس عليها إلا القليل، أحدهم رجل نحيف أسمر  
البشرة، يضع قدمه اليمنى فوق الكرسي الخشبي الذي اعتلاه، ويده  
اليمنى جوزة يقبل فوهتها فرنسيًا ويطلق نفيًا أيضًا كقطر يعمل  
بالفحم، ألقى السائق التحية عليه وأضاف:

- إيه يا عم بيسا! هنمشي ولا هنعمل إيه؟

أشار إليه التنين البشري بيده في حركة معناها «الصبر»، ثم أخرج  
صحابتين من منخاره، أدار رأسه لليمين قليلًا ناحية ممر ضيق للغاية  
ينتهي ببضعة أشخاص يعملون في صمت، ليجهر بصوت أجش:

- ألاباندا! خلص عشان سمرة كومبليت.

خرج بعدها بدقيقة واحدة شاب نحيف يمتلك شعراً مجعداً نسي  
- عن عمد - أن يحلقه، تتدلى سيجارة من فمه، حاملاً في كلتا يديه  
كيسان ثقلان، يهرول مسرعاً تجاه «شطه» السيارة، استقر خلفها  
وسمح لنفسه بفتحها ودس أشياء تشبه الأنابيب في أماكن غير ظاهرة  
في الشطه، كانت في الحقيقة الكثير والكثير من البنطلونات الجينز،  
ملفوفة بقسوة ومثبتة بشرط لاصق لتأخذ حجم الأنوب الغليظ وذلك  
لتقليل مساحة السطح، ظهر من خلفه طفل صغير يلهو في ساعة يد بدت  
جديدة، يسقط شعره البني الناعم فوق جبينه الأبيض، يرتدي ملابس  
مهندمة، يقف بين الأكياس الفارغة والكراتون الملقى أمام عتبة «المر»

أخرج الطفل يده اليمنى من الشباك عندما تحركت السيارة، صانعًا طائرًا بكفه الرقيقة، يطير ضد تيار الجو البارد.

- أقفل الشباك يا كابتن معلش الجو سقعة.

قالها أحد الركاب لطارق الذي قال للطفل الحالم بدوره

- يوسف! قولتلك بلاش الحركة دي، دخل إيدك!

و أدار مقبض الباب لينغلق الزجاج..

مضت خمس دقائق حتى وصلا لمنفذ التفتيش الجمركي، تغير وجه السائق كثيرًا عندما لاحظ الضابط الذي تجمع حوله المفتشين كالجراد.

- يا دين أمي على الحظ، أنا اصطبحت بوش مين النهارده! هي ناقصة أم

فريد الصغير على المسا.

قالها ليتحول وجه طارق من الأبيض للون الأحمر القاتم ليضيف:

- بلاش يا سمره، وقف العربية أكنها باظت، ده شراني ابن كلب.

- أوقف إيه يا عم؟ هتقضى بإذن الله ماتخافش، ياما دقت عالراس طبول.

تقدمت البيجو حتى وصلت لنقطة التفتيش، نزل السائق وناول أحد

المفتشين بضع ورقات حمراء مطوية بين أصابعه، فتح المفتش الشنطة

متظاهراً بتفتيشها ثم أغلقها، أشار الضابط لمفتش آخر للذهاب وتفتيش

السيارة، أخرج الأخير كشافاً «بطارية» من جيبه وواخبره في يده قبل أن

يسأل السائق بلهجة غير مريحة:

الضيق، حتى خرج شاب في بداية العشرينيات، يرتدي كثيرًا من الملابس بطريقة شبه كوميدية، بضعة معاطف فوق بعضها، وثلاث بنطالونات، وحذاء بدا جديدًا، والعديد من البلوفرات، لينظر إليه الطفل متعجبًا، ويبدله الشاب بنظرة مبتسمة أرادت أن تمحو حرجًا.

- شكلي يضحك أنا عارف، بس هطعللك فلوس المدرسة من المصلحة دي.

- بص! مكتوب التاريخ والوقت.

قالها الطفل متجاهلاً كلماته مشيرًا للساعة الرقمية الفضية في يده.

- مبروك يا عم، جيبتهالك اهو زي ما وعدتك.

- شكرًا.

قاطعهما السائق:

- يلا يا طارق، شهل بابا عشان نخلص.

جلس طارق كشوال من القطن على الكرسي الفارغ، وجلس الطفل على ساقه اليمنى المقابلة للنافذة، أدار السائق سيارته المحترقة، وأرغم الكاسيت القديم ذا اللون الأسود على بلع شريط شفاف، لتشدو الساحرة بترنيمتها:

- بحلم معاك.. بسفينة، والموجة ترسينا، ونبحر ثاني، الريح تعاني وألاقيك، في عنيك وإديك شطي وكياني، العالم كله.. بأسراره.. عايش جوايا عايش ويايا.

- رايح فين يا سمرة ؟ .. معاك إيه ؟

- القاهرة يا باشا، مافيهاش حاجة، أبو جاد غربل ميتين أبوها.

قالها السائق غاضبًا قاصدًا المفتش الأول.

أضاء المفتش بطاريته في أعين الركاب بعدما فتح الباب، لم يجرؤ أي منهم على الاعتراض، استقر الضوء على طارق الذي بدأ يتعرق بالفعل، أشار لمفتش آخر ليفتح الباب المقابل له، قائلًا :

- انزلوا يا أفنديه !

اشتعل السائق غضبًا:

- جرى إيه يا أبو جاد بقى، الله ! ما تقول للباشا حاجة يا أبو جاد، حد الله ما يرضي حد اللي بيحصل فينا ده.

تجاهل المفتش كلمات «أبو جاد» الذي أكد له أن العربية «مافيهاش حاجة»، ثم أشار المفتش الغاضب لعسكريين يرتديان ملابسهما السوداء القاتمة، وفي يد كل منهما عصا غليظة، نزل طارق مرتعشًا ومن قبلة «يوسف»، وبعده بقية الركاب، تحرك خطوتين قبل أن تأتيه الصفعة على وجهه من حيث لم يدر، كان هو، «فريد الصغير» غاضبًا كجمرة من النار، وتلا صفعته ركلة قوية، كانت بمثابة طلقة مسدس «Revolver» في ميدان سباق الخيل.

قبل أن ينفجر طارق معترضًا على الركلة انطلقت العصي الغليظة بغير رحمة على جسده، تؤلمه وتكسر عظامه، قام أحد العساكر بسحله، في حين أكمل الآخر ضربه بدون هوادة، مصحوبًا ببعض السباب الذي

يبدأ بـ «يلا» وينتهي بوصف عهر أمه في كل مرة بعبارة أدبية مختلفة، وسط صرخات طارق ومحاولته التملص مما يحدث له، وقسمه أنه لن يسكت عما يحدث، ونجاة الصغيرة لا تهتم:

- العالم كله، بأسراره .. عايش جوايا.

و يوسف يشاهد أخاه وسط الجموع، تاركًا يديه بجانبه، متجمدًا كلوح من الثلج لا يذوب، لكن قطرة واحدة ذابت من عينه، وسط بضع عبارات الحسرة و«الحسنة» من المشاهدين، و..

- باشا ! وشة مزرق جامد.

قالها أحد العساكر للضابط الواقف زهوًا كطاووس مصاب بالبواسير يخشى أن يجلس.

- يعني إيه «مزرق» ؟

- ماعرفش يا باشا، سيادتك فجأة لقيناها ما بيتكلمش ووشه مزرق.

- خدو منه اللبس ومشوه من هنا.. يلا مش عاوز أشوف وشه.

- تمام سيادتك.

أفاق بعد كوب ماء بارد صب على وجهه، ثم صرخ من الألم، ممسكًا بفخذه وذراعه، عاونه سائق آخر ليركب سيارة أخرى أمرها الضابط باصطحابه للقاهرة بأسرع وقت، جلس يوسف بجانبه هذه المرة ممسكًا يده اليسرى، يشعر برعشة شديدة وعرقًا ينهال من جبينه، طوال الطريق أخذ السائق يدعو على «فريد الصغير» بالعذاب والانتقام جراء فعلته.

وصلا للقاهرة وأمام أقرب مستشفى عام توقف السائق الشهم، عاون طارق على النزول بعدما تورم أسفل عينيه وأصبح عاجزاً عن الحركة تقريباً، استقر به الأمر في عنبر الطوارئ، بعدها بيوم وقف طبيب أمام يوسف، ذلك البائس المصدوم، وربت على كتفه قائلاً:

-أخوك ماقدرش يستحمل، الناس هنا أتاخروا عليه، كان عنده نزيف داخلي.. استلمناه متأخر.

ثم أكمل:

- أنا عارف ان سنك صغير، بس عايزك تبقى عارف انهم هيغيروا الكلام ده في الورق عشان الطاباط مايتأديش، لو وصلت للمحكمة، ماتغيرش رأيك، قول كل اللي حصل، عمو اللي هناك ده هيوصلك لأهلك، البقية في حياتك!

نظر إليه «يوسف» بنظرة بها شيء آخر غير الحزن، ورحل.

الإسكندرية الآن:

هرول مسرعاً في وسط الطريق، يسابق الوقت والمطر، تتساقط منه قطرات الماء المالح ليغسلها ماء المطر على الأسفلت، كان الشارع قد فرغ من المارة تقريباً بينما احتفى البعض من المطر الجنوبي في مداخل العمارات، انتهت به الأمر أمام زجاج سوبر ماركت كبير، دخل مسرعاً لينفتح الباب أوتوماتيكياً، يشق طريقه بوجه عنوانه الغضب، تاركاً سيلاً من الماء والطين خلفه، غير أنه يعمل يرتدي يونيفورم أنيقاً يجفف مدخل السوبر ماركت، نظر له العامل مصدوماً ثم تفحص المطر في

الخارج في اندهاش، ظل في طريقه بين الأرفف، دقيقة حتى استقر أمام فائزينة عرض سجائر، بحث بعينه عن نوعية معينة ثم أخذ واحدة منها وسط ذهول كل من في المتجر، توجه للفاتة التي جلست أمام حاسوب مزود بجهاز لمعرفة السعر، تجمدت العلكة في فمها حينما رأت كمية الماء المتساقط منه وشعره المبتل الذي أخفى عينيه، وضع العلبة أمامها، ليصنع كم معطفه بركة صغيرة من الماء على المتضدة، وأصلت دهشتها لثانية، ثم استدركت أن الرجل في حاجة شديدة لعلبة السجائر ولا يمزح، أخذت العلبة ومسحت بياناتها وطلبت منه إثني عشر جنيهاً، ليخرج من جيبه ورقة بعشرين جنيهاً تحتاج كثيراً من التجفيف قبل الاستعمال، وضعها أمامها على الطاولة وأخذ العلبة من دون سؤال وهم بالرحيل، نظرت الفتاة للشاب الذي جلس على الجهاز المجاور لها في صدمة ولم تنفوه بكلمة واحدة.

بعدها بعشرين متراً، استقر داخل صيدلية شهيرة للغاية، وتشتهر بوجود الأدوية المستوردة والمهربة بها، طلب حقنة سكر فارغة وسأل عن دواء قد سأل عنه بالفعل في الهاتف قبل أن يأتي، نظر له الطبيب ذو العقد الخامس من أسفل نظارته متفحصاً إياه ليرد:

- كنت يسأل عن pesticide اسمه جلوبال.

- انت اللي كلمتنا في التليفون؟.

قالها الصيدلي بلهجة رقيقة للغاية.

- أيوة أنا..



تفحصه الصيدي مجدداً ثم أردف:

- هحتاج شوية وقت عشان نشترهولك من بره..

رد يوسف بأسى:

- أنا محتاج المنتج ده دلوقتي.. عندي مزرعة وكل يوم بيعدي بخسر فلوس.. الفيران في كل حته.. أرجوك!

تفحصه الرجل مجدداً من خلف نظارته بنظرة ثابتة ثم ابتسم واختفى لثوان وعاد ويده كيس أسود به شيء ما قائلاً:

- 350 جنيه بس..

ناوله يوسف المال وهم بالرحيل ليستوقفه الرجل مازحاً:

- خلي بالك.. الصيدلية فيها كاميرات.

حرك يوسف رأسه إيجاباً.. ورحل.

كان وجهه يقطر غضباً وإصراراً وهو يمشي مهرولاً في طريقه، حينما سمع كلماته:

- يوسف! الحمد لله اني لقيتك، مؤمن بيدور عليا، في حاجة غريبة بتحصل.

توقف يوسف تحت المطر ونظر على يساره، ليجد دكتور عبد الرؤوف يقف وراءه بدون عكاز، يشير بيده تجاهه في ترقب.

- الناس اتقتلت بنفس ترتيب الشطرنج اللي قولتهولي...

قالها ثم تابع طريقه ناحية الكورنيش بالقرب من البحر.

هرول خلفه عبد الرؤوف بقدم تلتوي عجزاً محاولاً مجاراة سرعته واستطرد:

- بس أنا ماقتلش حد، انت عارف كده كويس.

- أنا عرفت كل حاجة.

قالها من دون أن يتوقف.

- إزاي ملاحظتش ان مؤمن هو الوحيد اللي عاش، همم؟! هو الوحيد اللي ماقتلش، الأسود قتل عبد الجليل بداله.

- مؤمن ماكانش ينفع يقتل عشان مش سلمي، مؤمن ضد النظام، الأسود بيقتل الخنازير.

- ومين اللي عرفك الكلام ده؟

- أنا عارف.

- أقف كلمني هنا يا يوسف، رجليه ماتستحملش الجري ده كله.

- بتمشي إزاي من غير عكاز؟

قالها يوسف بوجه حاد متابعاً هرولته.

- يوسف! مؤمن هو الوحيد اللي عاش، لازم تقتله.. مؤمن بيخدعنا كلنا.

- فين عكازك؟

- مؤمن هو لوكي.

- مؤمن مش لوكي.



- أنا بقولك لازم تقتله!

- مش هقتله!

- لازم تصدقني! اسمع كلامي يا يوسف. لازم تسمع كلامي يا إما كلنا هنموت.

قالها ليقف يوسف في منتصف موقف الأتوبيس ويدور بوجهه ناحية صارخًا بهتق شديد:

- مش هسمع كلامك!! مش هسمع كلامك!. لأن أنا لو كي... أنا السبب.

- انت بتكلم مين؟!

قالها شاب ينتظر تاكسي وقف على ناصية الرصيف على بعد مترين من يوسف.

- بتقول إيه؟

رد يوسف متعجبًا.

- بتكلم مع مين؟

- أنا.. كنت بكلم...

قالها وعاد بوجهه للدكتور عبد الرؤوف ليجده قد اختفى تمامًا من الوجود كالشبح، بلع ريقه بصعوبة واستطرد بصوت يخلو من الثقة.

- كان هنا.

- مين اللي هنا؟

هز يوسف رأسه إيجابًا بعينين مصعوقتين، ثم انصرف راکضًا، تتساقط دموعه، يقاوم رغبة ملحة في البكاء انتصرت عليه، يركض حتى لا يلحظ أحد انهياره.. حتى وصل لمكانه، شاليه مؤمن البحيري.. وأغلق الباب بسرعة.. ثم جلس أرضًا ملاصقًا الباب بظهره يتنفس بصعوبة، ويبيكي بحرارة.

اقتحم مؤمن البناية التي يقطنها الدكتور عبد الرؤوف بمصاحبة أحد أضخم مخبريه حجمًا، كان متأكدًا من العنوان الذي أخبره أحمد نوح بتفاصيله، صعد السلالم ركضًا وخلفه «هرقل» حتى استقر أمام بابيه البني، أخرج مسدسه وأشار له بإيماءة من رأسه ليرجع المخبر للوراء وينقض على الباب محدثًا ضجيجًا عاليًا، لكن الباب لم يفتح، عاد المخبر مرة أخرى للوراء وهم بالانقضاض على الباب ليساعده مؤمن تلك المرة لينكسر الباب ويسقط المخبر أرضًا ثم يقوم في حين تمالك مؤمن توازنه قبل أن يسقط، نظر للمكان بصدمة كبيرة ودهشة ملأت كل جنبات قلبه، فالشقة بدت مهجورة منذ فترة، كل الأثاث مغطى بملامات بيضاء لحفظه، أعطى مؤمن أمرًا للمخبر بتفقد الغرف من الداخل، رأى بضع سكان العمارة يقفون عند الباب يملأهم القلق.

قالها لاهنًا:

- مباحث.

ثم مشى متعجبًا يتفحص محتويات الشقة، من كراسي وتلفاز قديم ولوح شطرنج كبير مغطى أيضًا.

طمأنه المخبر بعدم وجود أي شخص ليضيف أحد سكان العمارة:  
- الدكتور رؤوف سافر لأخوه السعودية من شهر.

حرك مؤمن رأسه إيجاباً وأشار للمخبر الذي خرج بدوره من الشقة قائلاً للسكان:

- كله يشوف مصلحته!

ليصبح مؤمن وحيداً داخل الشقة، متردداً مثل الأسد الغاضب، يمشي مضطرباً ببطء بين الأثاث المغطى، لينتهي به المطاف أمام لوح الشطرنج.

أخرج هاتفه النقال وضغط على اسم «سكانيا» وانتظر قليلاً حتى رد عليه نوح ثم قاطعه مؤمن مضيقاً:

- لا العنوان صبح، لا.. سافر.. عايزك تعرفلي فعلاً طلع السعودية ولا لا.

رد عليه نوح بالإيجاب بينما رصدت عيناه ورقة سقطت أسفل مكتبه مسبقاً لينحني ويلتقطها، ثم قرأها عقداً حاجبيه:

- باشا! أنا عارف ان الموضوع مالوش علاقة بالدكتور رؤوف، بس أنا لقيت ورقة كانت ناقصة من ملف الحوادث اللي كنا بتتكلم فيه، الولد اللي مات قدام أخوه الصغير في حادثة بورسعيد، اسمه طارق، طارق عبد التواب أصلان.. مش الدكتور يوسف اسمه.. ألو!

صمت مؤمن لبضعة ثوان كأنه أصيب بشلل... وسقط الهاتف أرضاً من يده، أغمض عينيه وتحول وجهه للوحة فنية تتحدث عن الرعب..

وأخيراً.. نزل على ركبتيه أرضاً، ونظر إلى سقف الشقة محاولاً التحدث إلى الله... من دون أن ينطق بأي كلمة..

اليوم أصبح الحجيم حقيقة.

قبلها بخمس دقائق كان يوسف قد انتهى من فعل شيء ما في مطبخه.. شيء ما تطلب بعض استخدام كأس وحقنة سكر رفيعة، ثم شرب كمية كبيرة من الماء وأرسل رسالة نصية لمؤمن.

أراح رأسه على الأرض، وأغمض عينيه لكن صوتاً ما أفاقه.. قام بصعوبة من فوق الأرضية الباردة وقصد المطبخ ليجده..

كان هو لم يتغير، بيد أن بضعة كدمات قد اختفت من وجهه الهادئ.. حازم.

- إزاي وصلت هنا؟

قالها يوسف بدهشة مشيراً بسبابته.

- صاحبك قال لي على العنوان.

رد حازم متجهاً للصالة. ليسأله يوسف وهو يتبعه:

- وانت تعرف مؤمن منين؟

- في حد كان عايز يشوفك.

قالها مشاهدًا حائط يوسف الذي ملأته الجرائد.

- أنا سألتك سؤال محدد.. تعرف مؤمن من..

قاطعه صوت صدمه كالمطار من ورائه:

- مش هتقولني حمد الله على السلامة الأول؟

كان شاب في نهاية العشرينيات يشترك مع يوسف في بشرة فاتحة وعينين رماديتين، لكنه يمتلك شعرًا داكنًا وفكًا عريضًا، يرتدي معطفًا كبيرًا بدا متسخًا بعض الشيء.

- طارق!

صاح يوسف بشغف وصدمة، ليرد طارق بتأثر بالغ:

- كل اللي بيحصل مؤامرة يا يوسف... كان لازم تاخذ بالك من الأول.

- أنا خلاص فهمت اللي بيحصل... ماتقلقش... صدقتي... أنا هصلح كل حاجة.

- كان لازم تاخذ بالك من الأول... قبل ما يعملوا فيا ده... شايف!!

قالها طارق ليدبر وجهه ناحية اليسار ويكشف عن جرح عميق في رأسه.

- طارق.. لا!!!

صاح يوسف مشيرًا بيده توسل وانهار.

- شايف يا يوسف!.. شايف!.. شايف عملوا فيا إيه بسبيك... بسبب طلباتك ومصاريفك.

قالها وجرد جسده من المعطف لتظهر فائلته البيضاء مغطاة بدماء كثيفة أسفل إبطه وكتيفته.

- طارق!.. لا يا طارق!!.. لا...

قالها يوسف منهزًا ليسقط أرضًا تغطي عينيه الدموع ويخضب خده البلاط البارد الذي امتزج ترابه بدموعه الغزيرة وبكائه الهستيرى، ليتابع طارق:

- انت غمضت عينك عن اللي حصل لي... وقفت تنفج زيهم... مش هنسى أبدًا اللي عملته.

ألقي طارق معطفه بجانب رأس يوسف الذي بدأ في الارتعاش بشدة، ثم وقف حازم بجانب طارق.. واختفيا.

بدأت الرعدة والبكاء الهستيرى في التحول لكلمات غير مفهومة من يوسف، كلمات بدأت تخرج متلعثمة ومبهمة وغاضبة، يكررها مجددًا كأنه يحلم.. تتساقط معها خيوط رفيعة من لعابه وقطرات من دموعه على الأرض، يضم سباته وإبهامه معًا كأنه يقسم على شيء ما بكل غلظة ووعيد وتشنج عضلات وجهه ليكرر كلماته المبهمة.. وانتصر الصمت كعادته..، لكن شيئًا ما قد حدث ليوسف.

توقف قلب مؤمن بعد قراءته الرسالة، هاتف نوحًا مجددًا وطلب منه أن يحدد مكان هاتف يوسف النقال، مرت عشر دقائق هاتفه نوح بدوره قائلاً:

- في بيانكي، ثواني هقولك العنوان..

ليرد عليه مؤمن واثقًا:

- عارف العنوان، لو اتحرك قولي!

قالها ثم أدار محرك سيارته وانطلق بأقصى سرعة.

مرت نصف ساعة، استشاط مؤمن غضبًا ليلكم مقود السيارة، كان ذلك بسبب حادث مروري ناتج عن المياه الغزيرة، نظر في ساعته مجددًا متمنيًا ألا يغادر يوسف مكانه، قرأ رسالته الجديدة التي بدت أكثر غموضًا من الموت نفسه:

- راقبني عشان توصل ليارا.

مرت أربعون دقيقة كاملة.. وصل بعدها مؤمن للمكان المطلوب، أطفأ محرك سيارته وهم بالخروج ليجده أمام عينه، يمشي بثقة ناحية الشارع الرئيسي، كان هو، لكن مؤمن أقسم بداخله أن شيئًا ما فيه مختلفًا عن ذي قبل، عيناه لم تحمل تلك النظرة التي اعتادها، بل والأصعب، أنه كان يدخن بكل شراهة.. يوسف أصلاً يدخن مبتسمًا!.. ماذا بعد أيها العالم؟!

وقف أمام الشارع الرئيسي يتفقد المارة حتى استقرت سيارة تاكسي أمامه، يقودها شخص قد طارده من قبل بمسدس في مترو الأنفاق، شخص قد حصل على يارا قاسم منذ سويعات بسيطة، تذكره مؤمن جيدًا وتذكر كيف وضع بصمته على فخذه مسبقًا. وانطلقت السيارة، بعد أن قذف يوسف - أولوكي - سيجارته، وتبعهما مؤمن.

استقر التاكسي أمام مصنع مهجور يقع في أبو رواش خارج حدود الإسكندرية، نزل السائق الأعرج ويوسف «الذي هو ليس بيوسف»، رمى سيجارة أخرى وبدا عليه الامتعاض من طعمها، كان وجهه غريبًا،

يبدو عليه الاستهتار، لكن عينيه تحملان كثيرًا من الغضب، تفحص المكان حوله ثم هم بالدخول خلف خادمه الأعرج، في حين توقفت سيارة مؤمن على بعد كاف من المكان، طلب مؤمن دعمًا وتأكد من وجود ذخيرة كافية معه ثم ترجل.

في الداخل كان كل شيء مدمرًا تقريبًا، مصنع مهجور متروك منذ ستين، به بضع أجهزة معطية، وسلم معدني كبير يصل للدور الثاني الذي يفترض أن يكون به مكتب المدير، في الدور الثاني كان معمل القتل، بضعة خناجر حجرية من نفس النوعية المفضلة للمجرم الراحل، وقليل من إبر الخياطة الخاصة بالأطباء، ونفس نوع الخيط الداكن، بالإضافة لفرشة خاصة بالرسم، وزجاجة بها مانع تجلط.

بدون مقدمات فتح الخادم غرفة مغلقة خاوية لسيدة، ليجد فيها يارا وقد عثت يد الأعرج بعينها الجميلتين وحاكتهما، كانت فاقدة للوعي كطفل نائم بعد يوم حافل، اقترب منها وجلس القرقضاء بجانبها، تفحص عينها بتلذذ، ثم حرك رأسه إيجابًا وخرج ليغلق الأبواب ويعود الظلام مرة أخرى، لم يكن يبدو على «لوكي» الارتياح لسبب ما، اقترب لوكي من راديو كاسيت قديم موضوع فوق طاولة دموية تمتلئ بالأسهم والخناجر المزخرفة، حرك بكرة الراديو القديم لتخرج من موسيقى مشوشة تلاها حوار ثم نشرة...

لكنه قال واثقًا بصوت يشبه صوت رجل في الخمسينيات:

- لما يبجي دور يوسف...

قاطعه صوت ماسورة أسقطها مؤمن بكتفه رغمًا عنه، أشار لوكي برأسه للأعرج أن يتحرك وفي الحين، أخرج الأعرج مسدسه وقاوم ضحكة مكتومة، تعرقت جبهته، وهم بالنزول.

ضغط لوكي في تلك اللحظة على زر في الراديو كاسيت القديم ليبدأ شريط ما في الدوران، وتشدو نجاة بأنشودتها الهادئة المريحة للأعصاب.. بحلم معاك.

على الجانب الآخر تمنى مؤمن أن أحدًا لم يسمع صوت الاصطدام الذي أحدثه عفويًا، تقدم بسلاحه بهدوء ويسر في جو مظلم يملأه العفرة.. تمنى ألا يؤخره القدر ثانية أخرى عن الحقيقة، فهو يريد أن يعلم ما يحدث ليوسف ويارا.. ويريده الآن..

شدت نجاة الصغيرة بترنيمتها المميتة مرة أخرى.. وجه مؤمن فوهة مسدسه بسرعة ورعب تجاه الصوت.. اقترب ببطء باحثًا عن مصدر الصوت المنتشر بحذر، ثم تابع طريقه لتصدمه طلقة مسدس حكمت في كتفه الأيمن، ألقى بجسده خلف الطاولة واختفى، في حين تقدم الأعرج ومسح المكان بعينيه كائنًا ضحكاته، مالبث أن هبط إلا وسمع صوتًا جديدًا لشيء معدني قد سقط..

التفت لمصدر الصوت، خلف السلم المعدني ليهمس صوت في أذنه:

- رجليك عاملة إيه؟

هوت ماسورة معدنية على معصمه الأيمن ليسقط المسدس أرضًا بعدما تكسرت عظمة عضده تمامًا، أمسك الأعرج معصمه تلقائيًا بالأم،

ليهوي مؤمن بالماسورة مجددًا على فخذه المصابة، ليسقط الأعرج ألبًا، رمى مؤمن الماسورة وأخرج مسدسه من ظهر بنطاله وصوبه تجاهه قائلاً:

- نادي عليه.

قالها متفحصًا الجرح السطحي الذي سببه له ذلك المريض في كتفه.

نظر له الأعرج مجددًا مرتعشًا ومحاولًا مقاومة ضحكة جديدة ليثور مؤمن بصوت غير عال:

- نادي عليه بدل ما فرتك دماغك.

.. قالها وسقط مسدسه من يده؛ ذلك لأنه لم يعد يشعر بيده اليمنى، فالسهم الذي استقر في كتفه اليمنى جعل الشعور بأصابعه شبه مستحيل، نظر لأعلى السلم المعدني ليجده واقفًا، حاملاً قوسه المفضل، وبفمه سيجارة تحترق، وتحترق مقلتاها معها غضبًا.

- كنت بتدور عليها؟

قالها بصوته الغريب، وتجمد مؤمن في مكانه ونزل على ركبتيه متألمًا.. ثم تفحصه ساخرًا:

- واضح أنك اقتنعت بموضوع السجائر.

ثم نظر بتأفف لكشفه المنفجرة بالدماء.

\*\*\*

قبلها بدقيقتين جلست كطفلة تملكها اليأس بعد أن فقدتها الحافلة، تضم ساقها المتجمدين لصدرها في رعب، تحرك يديها المكبلتين باحثة عن شيء.. أي شيء.

كان شعورٌ بالغثيان يقذفها في دوائر لا تنتهي، حرب ضارية بينها وبين مخدر احتل قلاعاً شاهقة بين جنبات عقلها، وخوف يملأها كما ملأ الهواء المكتوم ذلك القبر المعتم.. لا شيء هنا سوى الصمت، والحائط، ولسعة برد ظالمة تطعن ظهرها وقدميها مراراً.

اتسعت حدقتا عينيها، كانت محاولة غريزية يائسة لرؤية أي شيء ممكن، محاولة أجهضها ظلام لون محيطها، تقاطعت شهبات الرعب مع نبضاتها المتسارعة عندما اكتملت الصدمة..

في تلك اللحظة راودها إحساس قوي بأن ما يمنعها عن الرؤية ليس الظلام فحسب، بل شيء أكثر سادية وقائمة، مررت أصابعها المرتعشة فوق جفنيها بترقب لتطلق صرخة دعر نصف مكتملة.. كانت تعلم.. ولذلك استندت برأسها إلى الحائط البارد، صديقها الوحيد الذي يشاظرها الصمت.. وقتها أيقنت أنها لن ترى مهما حاولت، وشقت دمعة يأس مختلطة بدماء متخثرة طريقتها فوق وجهها.. سقطت ككرة جليد باردة الإحساس.. مسحتها بكفها الصغيرة لترسم لوحة سريالية سوداء.. كونها الدم والكحل والألم، صرخت صرخة غضب، ولكمت الحائط

بهيستيريا ويد مرتعشة، هدأت ثورتها بعدما علمت أن مصيرها محتوم.. أنه دورها..

و صوت ما.. يضيف بُعداً جديداً من أبعاد الخوف، صوت أفاقها من ذلك الكابوس الحقيقي، أشبه بصوت راديو يتنقل صاحبة بين محطات المشوشة، موسيقى ثم حوار ثم نشرة، كلمات متلعثمة تشابكت كبيت عنكبوت مكتمل لتنتهي بأغنية عتيقة مبهمه، لحنها الناعم يحمل كثيراً من الرعب..

ثم ضجيج.. بدا كعراك، جذبها زحفاً للباب، ألصقت أذنها به لتنصت، تعالت صوت نبضاتها حينما سمعت صوته، فهي تعرفه جيداً.. صوته لها كصوت الخلاص.

#### بالعودة للمصنع..

استسلم مؤمن لرغبة ملحة له في السقوط على ركبتيه مصاباً، تفقد جرحه الغائر المنفجر بالدماء وبجانبه يرقد المختل المصاب، بعدها نظر ليوسف «الوكي» الذي دخن سيجارته بشراهة كم دون أن يزيلها من جانب فمه، ليقولها مؤمن ساخراً:

- يوسف!

قالها وتفحص السهم المستقر في كتفه بتأفف وضيق ليضيف:

- دائماً عندك الجديد يا يوسف.

حاول المختل الحركة تجاه المسدسين الملقين بينهما ليرد يوسف بصوته الغريب:

- لسة مصمم إني يوسف؟

- إيه اللي حصل لصوتك؟!

- نفس اللي حصل لكنتك.

أجاب شبح يوسف المبهم ساخراً وجذب سهمه بعدما أخذ نفساً عميقاً من سيجارته وأطلق سحابة كبيرة، ثم سأله بثقة رام يعلم أنه لن يخطئ.

- الراس.. ولا القلب؟

- مش الفروض تولعلي سيجارة الأول؟

- الوقت بيهرج منك.

قالها موجهاً السهم لرأسه.

- القلب.

رد مؤمن بعدما قام بحسبته، فالمسدس يسقط على بعد متر ونصف منه، وذراع اليمنى - القريبة من المسدس - معطلة تماماً، فرصته في مناورة للقفز والدوران والتصويب وإصابة الهدف شبه معدومة، أضف لذلك الأعرج الذي زحف رويداً رويداً حتى اقترب من مسدسه كثيراً، لقد كانت فرصته للنجاة مستحيلة، وقد تفهم عقله الأمر وتقبله.

- راجل شجاع! قليلين اللي يبقدروا يواجهوا الموت، مواجهة راجل لراجل.

أغمض مؤمن عينيه مستسلماً، شد لوكي سهمه عن آخره، متقناً رميته كعادته، وسيجارته لا تزال في فمه،

وأطلق السهم، يشق الهواء.. يحمل الموت بين طياته.. يعرف طريقه جيداً..

استقر السهم بجانب صدر مؤمن، شعر مؤمن بأن شيئاً لم يخترق صدره، نظر بجانبه ليجده قد استقر في جانب الطاولة الخشبية، ثم نظر للوكي - أو يوسف كما يراه - ليجد السيجارة قد سقطت من فمه واتسعت عيناه.. كأن هناك من طعنه من الخلف..

(شبح في سيجارة)

(هل فكرت مسبقاً في استخدام السجائر كسلاح؟)

ترنح بقوة ثم أمسك بجانب السلم المعدني مغلثاً قوسه، شق قميصه في ألم كأنه أراد أن يخرج قلبه من صدره، و... سقط..

سقط من فوق القمة على السلالم المعدنية حتى استقر أمام مؤمن، ألمه رؤية وجهه وقد غطاه الدم تماماً، لكنه تذكر الأعرج، والذي أصبح على بعد سنتيمترات قليلة من سلاحه، قام بقفزته مسكاً بسلاحه، مقاوماً ألم كتفه ودمايته التي سالت، و.. أطلق طلقتين.

كانتا كفيلتين بأن يريحا من ضحكاته المكتومة للأبد.

- مؤمن!

نطقها يوسف بصعوبة.

اقترب منه مؤمن رافعاً مسدسه في حذر.

- أنا فين يا مؤمن؟

- اهدى خالص ومتكلمش.

- يارا فين؟ إلحقها يا مؤمن!

قالها وشهق شهقة عالية مخيفة بوجه أحمر متورم وحدقتين متسعيتين، فمفعول السينائد الذي اشتراه من الصيدلية التي تتاجر في الأدوية المهربة مؤلم للغاية، خصوصاً أن الكمية التي دخلت رتتيه عن طريق السجائر تكفي لقتل نصف سرية عسكرية بنجاح.

أمسك مؤمن بيده اليسرى يد يوسف الملطخة بالدماء، ليقول آخر كلماته بعدما ناوله مفكرته الصغيرة، وضغط على يده بقوة:

- الملك ينقذ الملكة..

قالها مبتسماً بألم والدم يتساقط مع كلماته، كان يتنفس بصعوبة بالغة.

ثم أفلت يده.. ليفلت معها حبل الحياة بلا رجعة..

صمت مؤمن، دمت عيناه حزناً وأسفاً، أسدل جفونه بأنامله بذهول.. ثم ناداه بصوت هادئ ولم يجبه، انهار باكياً ودفعه مرتين وصاح باسمه مجدداً لكن لم يرد عليه يوسف.

أفاقه ذلك الصوت الذي صدر من الطابق الأعلى، هم بالركض، سمع صوت طرقاتها وصرخاتها المكتومتين، بحث عن المفتاح، لم يجده، أمسك بمقص كبير وحاول قص طرف السهم المعلق بكتفه، فلعها بعنف وألم.

ثم قالها بكل حزم:

- إبعدي عن الباب!

زحفت بسرعة مبتعدة عنه، أطلق النار مرتين على القفل، فتح الباب، كانت تنطوي في أبعد نقطة ممكنة في دعر، تبكي هستيرياً، ترتعد من مؤمن على الرغم من أنها شعرت بأنه جاء من أجلها، اقترب منها وجلس أمامها.. طمأنها وطلب منها أن تثق به، لمست يده برعب وترقب، أمسكت يده بكلتا يديها، تأكدت أنه هو بعدما لمست معالم وجهه، غير مصدقة أنها نجت، سيطرت عليها نوبة بكاء شديدة، في حين ظل هو متجمداً، غير مصدق لما رآه، وما حدث.

\*\*\*



بعدها بشهرين.

وقف مؤمن أمام قبره، بذراع معلقة في رباط طبي أزرق اللون، ينظر بعينه الجامدتين، غير مصدق أنه الآن ذكرى، يتذكر كيف كانت ابتسامته الساحرة تجذب الجميع حوله، يتذكر كيف ساعده وأنقذه من قبل، لقد أحبه كثيرًا في وقت قياسي، الصاحب الذي لم يتخل عنه.. حتى عندما اكتشف أنه ليس وحده في عالم تكسوه الوحدة بالظلام، ويكسوه المجهول بالخوف.

تقدمت أمامه.. ووضعت زهورها على قبره، كتب عليه

- يوسف عبد التواب أصلان عبد الله 1982-2010.

عادت لتقف بجانب مؤمن، أمسكت يده اليسرى، واعتصرتها، تكتسب منها الدفء والقوة، مسحت دموعها وسألت بصوت مضطرب:

- مين اللي مدفون هنا؟

سكت مؤمن للحظة ثم رد من دون أن ينظر لها:

- ضحية.

تقدم مؤمن بخطوتين وجلس أمام القبر ولمسه بأطراف أنامله، قال شيئًا لم تسمعه ياراً، ثم أخرج مفكرة يوسف الشخصية من جيبيه،

رغرغت عيناه بالدموع في صمت، وضع المفكرة بجانب الورود مطوية على الصفحة الأخيرة، صفحة كتبها يوسف آخر كلماته بعدما خرج من مياه البحر مباشرة.. كتب فيها:

العالم لن يختفي لو أغمضت عينيك..

ماذا لو اختفى ولم تغلقهما بعد؟..

تلك الحرب بداخلك..

هل تضحي من أجلها؟..

ملك بملك!

أشعر بالعدل في لحظة ما؟..

هل مررت بذلك النفق الضيق فارتعدت خوفاً مثلي؟..

هو الأمر إذن.. تضع القطعة الأخيرة في الأحجية.. فترى وجهك..

أرأيت ذلك الشبح في المرأة؟.. شبحك!

كان يجب أن أرى من البداية..

كان يجب أن أعلم أن كل شيء قد ينتهي إلى لا شيء.. في اللحظة التي تحولت فيها الظلمة بداخلي لموت مطلق.

لأن أي شيء مطلق هو مستحيل.. والظلمة ليست بجهة معادية، تقف وتشاهدها وأنت مطمئن أنك لست منها..

لأن معركة الباطل والحق لم تعد اختيارًا، والسكوت عن الحق ليس من الضروري أن يكون شيطانًا آخرس.. لكن الأكيد أنه أعمى.. في اللحظة التي أغمض فيها عينيه.

لأن الرؤية الواضحة هي شيء شبه مستحيل... وطريق لا سراب فيه ليس بطريق..

لأن الألوان قد تتشابه.. والخير والشر لن يفصل بينهم خطأ واضحاً..  
خط يمكنك أن تراه..

لكن من الممكن أن ترى كل المعاني وعكسها في تلك التجربة التي عايشتها وحاربت من أجلها بكل كيائك، أو تشاهد لون الخوف في مذكرات ملك شطرنج أبيض، نزل من فوق حصانه المنتشي ليشرب نخب الانتصار من نهر عذب بارد.

مشى وقد استساغ قلبه طعم الفوز.. وامتلكه هتاف الجماهير..  
علم قيمته بعد معركته مع الظلام.. وأيقن الحقيقة في انعكاس صورته على الماء..

رأى وعلم كل شيء..  
التاج لم يكن أبداً أبيض..  
و النهر لم يكن به ماء..  
تلك الحرب موقعها أعماقه..  
يوسف أصلان.

تمت



بعد سلسلة ناجحة من عموده الأسبوعي "خيوط و دلائل" يقرر يوسف أصلان - الصحفي المهووس بعلم الجريمة- أن ينشر مقالة عن أغرب جريمة عاينها خلال تاريخه.. جريمة قتل فريدة من نوعها وصفها بـ "الجريمة شبه الكاملة"، ليفاجأ بعدها بتغير درامي لأحداث حياته الهادئة بعدما قرأ القاتل تعليقه عنه وعن الجريمة.

"إنارة قاتل متسلسل.. كان آخر ما أحتاحه، لقد صنعت كابوسًا من العدم.. رميت حجرًا في بحر من الغضب.. أيقظت الشيطان ووقفت أمازحه.. أحيانًا يكون أعمق مخاوفك هو وقت لا تجد فيه شيئًا لتفعله.. النزهة الإجبارية التي يرغمك الوقت أن تحصل عليها مع عقلك، المشي بين الذكريات الشائكة والصور المؤلمة عار القدمين، تدمي قدمائك الخسائر كما تدميها أكسار الزجاج، ثم تحصل على وجبتك المجانية من الندم!"

أحمد حسين، كاتب من مواليد الإسعيلية لعام 1985، تخرج في كلية العلوم - قسم البيولوجي عام 2007، أصدر بعض القصص القصيرة في عام 2011، منها: "خريش واخسر" و "نزيف". درس كتابة السيناريو والحوار، ثم تفرغ لكتابة رواية "6 إنش"، والتي استغرقت أربع سنوات متواصلة لتكتمل.



الدار المصرية اللبنانية



للتزاد غير موقعنا  
store.almaznah.com



9 789774 279577